

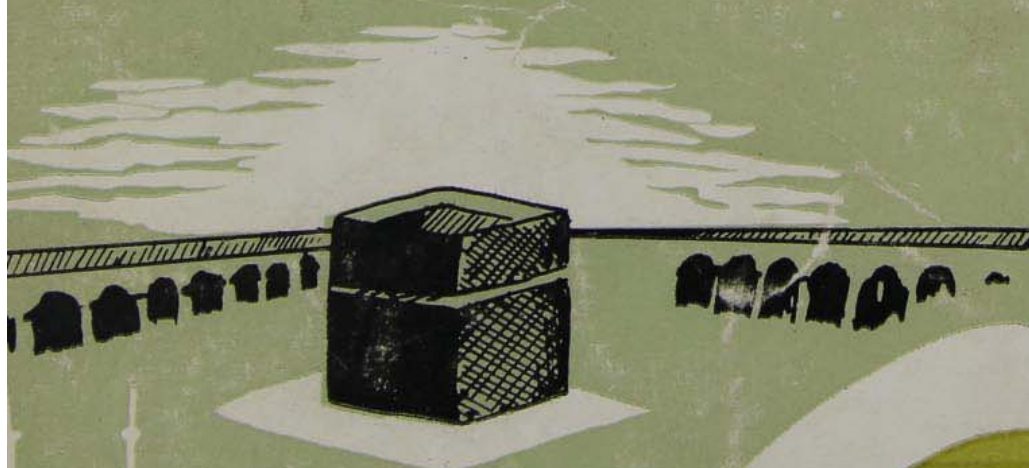
عبد النجيزي

أبوطالب

مؤمّر قریش

(دراسة تحليل)

وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ دِينُ مُحَمَّدٍ
مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
أبوطالب



دار المعارف للطبعات

بيروت - لبنان



www.haydarya.com

الإوطالب

مؤمن قریش



عبدالله الشيخ علي النخيزي

ابوطالب

مؤمن قرشي
(دراسة وتحليل)

الطبعة الرابعة

١٣٩٨ هـ

١٩٧٨ م

دار الثعارف للطبوعات

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

- الطبعة الأولى : منشورات دار مكتبة الحياة - ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
- الطبعة الثانية : منشورات دار مكتبة الحياة - ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .
- الطبعة الثالثة : منشورات المؤسسة الثقافية للنشر - ١٣٨٤ - ١٩٦٤ م .
- الطبعة الرابعة : منشورات دار التعارف للمطبوعات ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م



المؤلف

هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

مؤمن آل فرعون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، يَكْتُمُ إِيمَانَهُ :
« أَتَقْتُلُونَنِي رَجُلًا ، أَنْ يَقُولَ : « رَبِّيَ اللَّهُ » وَقَدْ جَاءَكُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ؟ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا ، فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ... وَإِنْ
يَكُ صَادِقًا ، يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ » إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
مَنْ هُوَ مُشْرِفٌ كَذَّابٌ » • (٢٨)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يَا قَوْمُ ! اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ
الرَّشَادِ • يَا قَوْمُ ! إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ
الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ • مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا
مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا - مِنْ ذَكَرٍ ، أَوْ أَنْثَى - وَهُوَ
مُؤْمِنٌ ، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ • وَيَا قَوْمُ ! مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ، وَتَدْعُونَنِي
إِلَى النَّارِ ؟! • تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ ، وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي

هذا الكتاب

سلختُ مِنْ عمري — في سبيل إيجاد هذا الكتاب — عاماً ، أو ما يقرب مِنْ العام ، منذ أول حرفٍ حَبَرْتُهُ مِنْهُ ، حتى آخر نقطةٍ مِنْهُ^(١) . وبين هذه الفسحة مِنْ الوقت ، كان شيءٌ كثيرٌ ، مِنْ نصيب البحث والتنقيب . كما كان شيءٌ ليس بالقليل — مِنْ الوقت — يمرُّ دونَ أنْ أخطئ فيه حرفاً ، أو أنْ أنقُصَ عن شيءٍ ...

وبالإضافة إلى هذا ... وذاك ... فقد كان الوقت اليومي^٢ ، المخصَّص في سبيل هذا الكتاب : ما لا يتجاوز الساعة كلَّ يوم .

ليس مهماً ما عرضتُ له ، ولم يكن مِنْ قصدي ...

إنما أودُّ أن أُشير إلى : أني في صيف عام ٧٥-٧٦ هـ [١٩٥٦ م] زرتُ لبنان الجميل ، فقدَّمتُ هذا الكتاب لصدّيقِي الأستاذ بولس سلامة ليقدِّمَ له مقدِّمةً ، مجردةً مِنْ كلِّ صلةٍ ، غير ناظرٍ لسوى الأثر — وهكذا اتفقنا في الرأي — فوضع هذه المقدِّمة ، التي بين يدي القارئ الكريم ، فأشار فيها إلى نقطة الضعف ، في هذا الكتاب ، وهي ممَّا يتَّصل باللغة .

والنقد التزيه ، لا يأتي بسوى الخير مِنْ الثمار .

(١) كان أول حرفٍ خُطِّ في مسوِّدة الكتاب في ٧٣/٨/٩ هـ —
١٤/٤/٥٤ م . وآخر حرفٍ مِنْ مسودته — ايضاً — في ١٣٧٤/٨/٢ هـ —
٢٧/٣/١٩٥٥ م .

لذلك - وقد رأيت المنسح من الوقت - أقيت عليه فطرة فاحصة ،
تداركت فيها شيئاً من الأخطاء ، التي وقفت لاكتشافها . وعدت على بعض
النقاط بالصقل والتشذيب . كما زدت شيئاً من المصادر التي وقفت عليها ،
خلال هذا المنسح من الوقت . وكذلك زدت في بعض المواضع ، ما وقفت
عليه - بعد ذلك - مما رأيت الفائدة والتمام يتطلبانه ، ولا سيما في [على
المتبة] .

وقبل هذا وذلك... فإني لا أدعي لنفسي : العصمة والكمال . وحسبي
منه : أن يكون غاية الجهد ، وأن الخلل - إن وجد فيه - فما هو عن
تقصير... والله من وراء القصد .

١٣٧٧/٥/٢٧ هـ

١٩٥٧/١٢/٢٠ م

المؤلف

المقدمة

بقلم الاستاذ الكبير بولس سلامة

بين القطيف وبينني صلة ، سببها ملحمة « عيد الغدير » ، التي أدرتها على الإمام أبي الحسن . وهذا كتاب موضوعه والد الإمام . وقد نوّهت في الملحمة - بفضل كفيل النبي ، وجيه قريش وشيخها ، فبقي أن أُصدر هذا المؤلف بكلمة خاطفة ، تنظر إلى الكتاب نفسه .

لقد استهل المؤلف كتابه بعرض جرائم بني أمية ، وتفنيد التهم التي ألصقوها بأهل بيت الرسول ، فما قصر ولا ارتبك قلمه . ولا غرو فإن من يأخذ جانب [أبي تراب] ، يستقوي . ولقد عرف ابن قلعة القطيف : أنه في حصن نشط عليه العوادي ، فكانت هي الواهية ، وكان هو القائم أبد الدهر .

ولا يخفى أن المؤلف يرصف التهم الباطلة رصفاً بارعاً ، ويكتفها ليزيد في شناعتها ، وفي تهجين كلام المفتريين على أهل البيت . ولم يفته الإسناد والأخذ بقول أساطين التاريخ ، وأعلام البيان والحديث ، على ما في اندفاعه من حماسة الشباب وتوثب القلم .

وأحسب أن المقدمة - (على العتبة) - هي خطّة النار ، والجهة الدفاعية - الهجومية معاً . فبحسب المؤلف أن يحشد فيها الفرى ، التي تتهاقت ، ويظهر الخصوم كعصبة من أقزام الزنج والأنباط ، لتظهر عظمة الإمام ، كما يزرغ الضياء بعد ارفضاض الغيوم .

أما الفصل الذي يلي المقدمة - وعنوانه (بيت) فقد أعاد فيه المؤلف قولاً معروفاً . وإنما يُعذر على الكلام المكرور ، لأنه تمهيدٌ لعرض شخصية أبي طالب . ولقد أبرزها على أنها مركز « الدائرة » في قریش - وإنها كذلك .

وحذا لو أسعفته اللغة بأفضل من الديباجة التي أسبغها على تلك الصور المتعددة من حياة الرجل ، فإن إنشاء صاحبنا لم يستقم ، بعد ، فيضطلع ، شأنه في ذلك شأن سواد الشباب الطالع . بيد أن هذا الفرع ، الذي نمته دوحة وفقت قسطها للضاد ، يعد الثمار الناضجة ، في المستقبل القريب - إن شاء الله .

ولقد أحسن المؤلف إذ أبرز شخصية سيد البطحاء - ابن شيبه الحمد - فجلاها ، ثم بسطها على فصول الكتاب جميعاً فبما فضل كفيل الرسول ومريه وحاميه ، بنو الرسول نفسه ، فكان أن اليتيم استظل في كنف عمه صبيّاً ويافعاً . فلما برغت شمس اليتيم مشى العم في نورها ، وفاء الى ظل ابن عبدالله مجاهداً ، يفديه بباله ونفسه وولده .

ومن الإنصاف للسيد الخيزي ، قولنا : إنه بارع في التحليل ، وليس أدلّ على ذلك من وقفته على الآيات ، التي تثبت إيمان أبي طالب وإن كان قد نال فيها من الشعراء ، الذين تسوقهم الضرورة الشعرية ، فتقولهم ما لا يريدون . وإنه ليحتج بقول واحد منهم « لأن يروا حسناً ما ليس بالحسن » .

بيد أن فضل الشعر يظهر في ما اختاره من شعر والد أبي تراب ، في فصل « الشعب والصحيفة » ، حيث يقول أبو طالب :

يرجشون مناً خطةً دون نيلها ضاربٌ وطعنٌ بالوشيج المقوم

— إلى آخر هذه الآيات ، التي يختلج فيها الإيمان المكين ، والقلب المضطرب ، والسيف المحتدم .

ولا يفوت صاحبنا التبويب العلمي . فتراه يفصل الأدلة على فضل أبي طالب : حياً ، فمحتضراً ، فميتاً . ثم يتطرق إلى ما بعد الموت . ويقيم البرهان بشهادة الرسول ، ثم الإمام ، ثم أهل البيت . وأحسب أنه لو امتحن المحامدة لما جاء في الرعي الأخير؟ فإن له من خصائص الاستدلال والقياس ، والخلوص من المقدمات إلى النتائج ، ما يكفل له النجاح .



وبعد فلست هنا في مقام دراسة وتحليل ، فذلك من شأن القراء والنقاد . بل في مقام التصدير بكلمة موجزة ، مؤداها : أن المؤلف أدرك الغاية فيما قصد إليه ، فتحرى واستقرأ ، وفند ودافع . وإن الحسنات الكثيرة ، لتشفع لبعض الهنات ، التي وقعت في الصياغة ، وما كان العرض لينال من الجوهر . وفي هذا الكتاب كثير من اللؤلؤ ، وقليل من الأصداق .

وأحسبني في رأيي هذا أقرب إلى القسوة العادلة مني إلى المجاملة .
فبيني وبين القطيف صداقة — ولكن الحق أولى أن يقال .
بيروت : ٢٥ صفر ١٣٧٦ هـ

بولس سلامة

على العتبه

أنا - الآن - أمام سيرة رجل ، لعبت فيها الأهواء دوراً كبيراً ، ومشيت بها الأقلام المأجورة ، ناكبة عن صراط الحق ، ملقية على الحقيقة ستاراً صفيقاً ... شأنها مع كل حقيقة صارخة ناصعة ، تصدها عن الهوى الجموح ، والعاطفة الرعناء ، فتعمل فيها مسخاً وتشويهاً لتجعل منها متداعي الستر ، ومنهار الكن .

رجلٌ خطَّ بسيرته - في التاريخ - سطوراً * على إشراق حرفٍ ، فكان من المجاهدين في الطليعة ، وكان من أنصار المبادئ القويمة ، ورسول الإنسانية وهداتها - في الرعي الأول .

رجلٌ قصر المبدأ القويم ، وكلُّ القلوب له جافيةٌ ، وكلُّ العيون تنظر إليه نظرةً شذراء ، يتطائر منها الحقد ، وترفُّ بالعداء المستفحل ، وتنذر بالمقاومة والعصيان ، والثورة لإطفاء هذه الشعلة المتقدة ... فتمتدُّ منها أيدي ، لتعصف بهذا « النبي الجديد » ذي القبس البهيم ، الذي عشى بشعاعه العيون الرمداء .

ولكن هذا الحصن المنيع ، يقف - أمامها - شامخاً ، مدلاً بقوة ، متحدياً لها في إرادتها الهوجاء ... فترتدُّ هذه الأيدي ، وقد ظننت : أنها ستنال ما تريد ، وهي أفرغ ما تكون فتفيض القلوب بالحقد ، على هذا النصير - أيضاً - وتغضب ... ! ولكن « غضب الخيل على اللجم » ٠٩

رجل سقى الإسلام بذرةً ، في حقلٍ مجذبٍ ... ورعاه أملوداً لنا ، في مهبط

الإعصار ... ووليداً نعيم الظفر ، فاشتدَّ وقوي ، وانتشر منه نورٌ ، دون
أن ينال منه عدوُّ ما أراد ، حتى جفَّ هذا النبع الدفاق ، والراعي المخلص
الأمين ...

رجلٌ كان له في الإسلام شأنٌ ، وأبقى أثراً جليلاً ، وفضلاً باقياً . ولكن
شاعت الأهواء أن تزوي عنه العيون ، وتنظر إليه نظرة ظالمة ، فراحت تنال
منه ، وتضع في حقه الأراجيف ، لتنال من جوهر الحق ، ورواء الفضيلة .



مرَّ عصر الخلافة الراشدة ، وهو يحفل بمآثر أبي طالب: رجل الإسلام
الغزى - ويسجل مآثره الغر - وأياديه البيض ، ليوفيه بعض حقِّه عليه .
وجاء عصر الملكية ، والسلطة الجائرة ، وهي لا تستقيم إلا بالنيل من
بطل الإسلام عليٍّ « عليه السلام » لأنها قد اغتصبته حقه ، مع بنيهِ الشرعيِّ -
فكانت سيرة أبيه إحدى الجوانب ، التي أعمت تلك السلطة فيها معاول
الهدم ، وهي تظن : أنها ستأتي على شخصية هذا الإمام ، التي هي اليوم في
سبيل صرف الأنظار عن اغتصابها حقه .

عندئذٍ راحت تستأجر ذوي الضمائر الزنخة ، والقلوب القلْب ، التي
تلبس لكلِّ ساعة لبوسها ... فلا تعرف للفضيلة معنىً ، ولا للرديلة حداً ...
فهي متاجرةٌ وصوليةٌ ، تبيع الذمم ، وتخفر العهود ، وتنقض الموائيق ، وتقلب
الحق باطلاً ، وتموه الباطل حقاً ، وتبيع دينها بالثمن البخس الزهيد : بدينارٍ
زائفٍ ، ودرهمٍ مسروقٍ ، ومالٍ مغصوبٍ ، لتحقيق غايتها الدون ، وترضي
ضميرها السافل ، وتحوز رضى السلطة القائمة .

ولن يكون لها مجال البقاء والحياة ، إلا تحت راية الظلام السوداء ...
فالخفاشة لا تجد لها في النهار مدَّةً جناحٍ ، ولا يمتدُّ لعينها منه بصيص نورٍ !
فهي توذُّ الليل أن تطول منه الرقعة ، ليبقى الفضاء مسرحاً لها - وحدها لا
يشاركها فيه ذو جناح ! .

قامت الأهواء بدورها ، فغيّرت مجرى التاريخ ، وأرادت أن تقلب الوضع القائم ، فسخرت الضمائر في ركابها ، فوضعت الأحاديث ، لتساير رغبتها ، حتى صار وضع الأحاديث واختلاقها : سلعة رائجة السوق ! فكثروا الوضّاعون الذين يريدون هدم الدين ، الذي لم يكن في قلوبهم على قرار ، ولم تخلص نفوسهم من عقابيل الجاهلية .

قامت هذه السوق السوداء ، على ثلاث أئاف : إخفاء فضائل عليّ - من ناحية - ووضع الأحاديث الكاذبة ضده ، وتحويل تفسير الآيات من غيره إليه ، ومنه لغيره - في الطرف الثاني - واختلاق الفضائل والمحاسن ، لغيره من الصحابة - من ناحيةٍ ثالثةٍ .

وقد شجّع التاجر معاوية هذه السوق ، وهي تعمل في صالحه ، فهي حجر الأساس في ملكه ، فافتنّ في ذلك بحسب ما شاء ، وقد رأى مقالته ناجحة ، بعدما ذلّ منها كلّ صعب ، فأسلست له المقود ، ولم تكن تلك الجموح . فالعقيدة علي رجراج ، والدين لعقّ على الألسنة ، لم تتمثله هذه الروح الجاهلية تمثلاً عميقاً ، والأهواء متحفزة في الصدور ، والأغراض تتوئّب للانطلاق ، والذهب البراق - الذي يرين على القلب ، في ما هو يخطف الأبصار - يعمل عمله السيء المشين .

اتخذ أصحاب الأغراض السود ، والأهواء الشائنة ، هذا الطريق ، وقد رأوه يرضي منهم مطعمهم الجشع .

ورأى منهم معاوية النهاز : تلك المطية الذلول ، فحمل على ظهرهم تلك

الأحمال الثقال ... فكانوا لما يريد مطيعين ، وإن لم يرد ، فهم إليه متقربون .



يكتب إلى عماله :

« أن برئت الذمة ، ممن روى شيئاً ، من فضل أبي ترابٍ وأهل بيته »^(١) .
— وإذا بالخطباء لذلك مستجيبيون ، ليقوموا بلعن علي «ع» ، في كلِّ
كووفةٍ ، وعلى كلِّ منبرٍ ، ويرأوا منه ، ويقعوا فيه وفي أهل بيته ، حتى أن
المنابر ، التي يلعن عليها عليٌ — عند أدنى مناسبةٍ — لتربو على السبعين ألف
منبرٍ .

والعامة للخطباء مستجيبيون ، ولهم مصدقون .

فماذا تقدّر — من العامة — تحت كلِّ منبرٍ ، من هذه السبعين ألفاً ؟!
وكم وراء هذا العاميِّ من نساءٍ وأطفالٍ ، يأخذون قوله ، مثلما يأخذ هو قول
الخطيب ، حتى ينشأ على ذلك لحهم ، ويجري به الدم في العروق ؟!

ثم يعود ليكتب إلى عماله جميعاً :

[ألا تجيزوا لأحدٍ ، من شيعة علي وأهل بيته ، شهادة]^(٢) .
— ليأخذ بخناق الشيعة ، وينال من كرامتهم ، ويدعهم عرضةً لمكاره
أعدائهم ، وهدفاً لسهامهم .
ثم يخصص — في قبال هذا — لمن يروي في فضائل عثمان وشيعته : عطاءً
وفيراً ، ومنزلةً عاليةً ... !

ولا يلبث أن يكتب لعماله — مرةً ، الله وحده أعلم بموقعها من الحساب :
(إن الحديث في عثمان قد كثر ، وفشا في كلِّ مصرٍ ، وفي كلِّ وجهٍ
وناحية . فإذا جاءكم كتابي — هذا — فادعوا الناس إلى الرواية في

(١) و (٢) شرح النهج ص ١٥ : ٣ .

فضائل الصحابة والخلفاء الأولين . ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب ، إلا وأتوني بمناقب له في الصحابة مفتعلة... فإن هذا أحب إليّ ، وأقرّ لعيني ، وأدحض لحجة أبي تراب ، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله (١) .

ولا يكاد الكتاب يصل الأسماع ، إلا والخيال يحلق ، فينشئ الأخبار ، ويكثر... ويأتي بالأحاديث ، ويسرف... بعضها مناقب مفتعلة للصحابة ، والبعض الآخر: في النيل من عليّ «عليه السلام» - وهو الغاية من هذا الوضع . ولسنا نرى حاجة للقول ، أو الإشارة إلى مقدار قيمة هذه الوفرة من الأحاديث في الفضائل ، أو التي تنال عليّاً وآله ، وما في تلك من الغلو المفرط ، والجهل المضحك ، وما في هذه من البغض القتل ، والعداء الخبيث الأسود... حيث لم يبقَ لهذه أو تلك قيمة أو وزن ، وليست تثبت تحت مطرقة النقد لحظة ، لأنها ولدت من زنى ، وبُنيت على أساس ملح ، ما لبث أن فالت به الرطوبة فذاب .

ولكن موقف السلطة الحاكمة - آنذاك - وما يصدره الحاكم بأمره ، التاجر معاوية ، كان السبب الفعال في تقوية رواج هذه السوق ، التي ليس لبضاعته من كساد ، ولا يُرجى منها سوى الربح الماديّ الوفير... فتلقى هذه الأحاديث المفتعلة ، من ذرى المنابر ، وتعطى لمعلمي الكتائب ، لتعطى الأطفال ، فيحفظونها كما يحفظون القرآن الكريم ، أو أتقن حفظاً .

وبهذا تكون هذه الأحاديث أوسع انتشاراً ، وأكثر تداولاً ، وأمضى أثراً - هذا من ناحية... ومن ناحية أخرى : يكون الربح والمصلحة أكثر شمولاً ، فينال منه صاحب المصنع ، والمصدر ، والمستورد - حسب اللغة التجارية ، وهي صبغة هذه الاحاديث - يشترك في الربح: خالق الحديث ،

(١) المصدر ١٦ : ٣ .

ومنتجته ، وملقيه ومعلمه ، ومن لف لفهم ...

ويعود التاجر الكبير معاوية ، ليكتب لعمّاله ، في جميع البلاد :
(انظروا إلى مَنْ قامت عليه البينة : إنه يحب علياً وأهل بيته ، فامحوه
من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه) (١) .

ولا يكتفي بهذه المطاردة العنيفة ، وهذا التحذّي الصارخ ، وهذه
الحرب الاقتصادية الخائفة ، حتى يشفع كتابه ذاك بآخر :

(مَنْ اهتمموا بموالاة هؤلاء القوم ، فنكلوا به واهدموا داره) (٢) .
فيضيق — بذلك — الحصار ، أشدّ منه مَنْ ذي قبل ، بكثيرٍ وكثيرٍ ، فيهدّد
كلّ مَنْ يحفل قلبه ، بذرةٍ مِنْ حبٍّ ، لهذا الرجل ، أو هؤلاء القوم . فمجرد
تهمة رجلٍ بحبهم ، مهدّدٌ بالحرب الحامية الأوار : فالذمة منه بريئة ، فهو
عرضه وهدفٌ لكلِّ سوءٍ وعدوٍّ ... وهو ممحوّ مِنْ الديوان ، ومسقطٌ
عطاؤه ورزقه ، فلا يقف وبقية المواطنين على قدم المساواة ، وهو مخنوق
الحرية ، لا يفكر بعقله ، بل عليه أن يكون دميةً تسير وتوجّه ، بدون إرادةٍ
أو تفكيرٍ ... وهو — إلى ذلك — مهدور الكرامة والعزة ، محاط بالخطر ،
يرتقبه بين اللحظة وأختها ، ينتظر التكيل به ، وأن تُسقط عليه داره .

وهو لا يكتفي بإصدار هذه الأوامر الجائرة الظالمة ، والتي تخنق
العدالة الإجتماعية ، وتلاشيها — لا يكتفي بهذا ، بل يختار مَنْ يقوم بتطبيق
هذا الجور ، فيولي على العراق صنيعته ، ولحيق نسيه — زياد بن أبيه ! —
لتشتدّ الوطأة على الشيعة منهم ، وهو بهم خيرٌ ، وبمكامنهم فطينٌ ، حيث كان

(١) و (٢) المصدر ذاته .

إليهم قريباً ، قبل أن يرين على قلبه العمى (١) .

(١) ما كنت أحسب أن أقف على قوله يفوه بها أديبٌ ، يعيش في القرن العشرين ، حيث يظن فيه أنه تخلص من رواسب ذلك العهد البغيض المظلم ، وما فيه من بيع الضمائر ، ومسح الحقائق ، لولا وجود أشخاص ، لا يزالون — كما يظهر — يعيشون برواسب ذلك التاريخ المظلم ، فيبشون سُمومه بين المجتمع .

والأفما كنت أظن أن يقول حسن السندوبي في شرحه للبيان والتبيين ، ص ٢٠٤ : ١ عند ترجمته لزياد — مثل هذه القولة النابية الخبيثة :

(ولست آخذ زياداً بتركه علياً ، والتحياته بمعاوية ، ولا أرى في ذلك ما يطعن في عقله وفضله وكفاياته — كذا ! — لأن معاوية اعترف له بأخوته ، من أبي سفيان ، وليس بعد اطمئنان الإنسان على نسبه شيء) .

ولو كان لدينا مجال التعليق على هذه القولة المائنة ، لكشفنا عما سُحنت به هذه الكلمات القليلة ، من : هدم وتضليل ، وتزوير واقتراء ، ومسح وتشويه لقداسة التعاليم الإسلامية والإنسانية ، ففيها ما فيها من : تحدي للرسول « ص » في حديث : « الولد للفراش » ، وتحليل لإلحاق ولد الزنى بالزاني ، وعدم عد الخروج على الإمام الشرعي أي ذنب أو جرم ... !

لا ! بل إن كل هذه الأعمال الشائنة ، مما يدعم عقل وفضل « ! » ، وكفايات زياد ! ويا للعار !!!

وشتان بين السندوبي هذا ، وبين الجاحظ ، حول هذه الخزية — استلحاق زياد بن أبيه !

فهذا يعدّها من عقل وفضل وكفايات زياد ... !

وذاك يستدل بها دعماً لتقريره ، يثبت به ناصع الأدلة ، بحيث يخرج معاوية من الفجار ، ليلحقه بالكفار ، في كلمة سنأتي بها ، بعد خطوات قليلة ، عند

« وقوفنا حول قرية » عام الجماعة » ! .

ولقد تضاعف عجبى واستغرابى ودهشتى ، مِنْ هذه القولة النابضة
— للسندوبي — بعد أن خطوت في قراءة شرحه هذا خطوات ، فوقفت مشدوها ،
أمام تعليقه ، سوّدت سبعة سطور — ص ١٨٣ و ١٨٤ : ٢ — هي لطخة سوداء في
شرحه ، حيث قام فيها بالدفاع ، عن « الأباضية » ، مراغبة للأحاديث الكثر
المتواترة ، والمخرجة في جميع الصحاح ، والمسلمة لدى جميع المسلمين من
الرسول « ص » في أن الخوارج « قوم يمرقون من الدين » ، كما يمرق السهم من
الرمية « — حسب التعبير النبوي الأقدس .

إلا أن هذا السندوبي اعتبرهم : (مِنْ أفاضل أهل القبلة ، ومَنْ ينفرون
مَنْ اليدع التي ليست مِنْ الدّين في شيء ، ومن هنا يتهمم بعض المسلمين
بالتشدد ، وبعدم مسايرتهم للتقدم ، بل يرمونهم بما هم منه براء) .

أرأيت كيف تجنّى على جلّ المسلمين ، الذين يخضعون لما جاء في الخوارج ،
على لسان الرسول الاعظم ؟!

ولا يقف عند هذا الحد ! . بل يضيف :

(وقد كنتُ خدعتُ بقول خصومهم فيهم ، فرددتُ مجمل ما يتهمونهم به
في بعض هوامش الجزء الأول . ثم تبين لي اليقين فيهم ، فعلمتُ أنهم مِنْ خيار
المسلمين ، ومَنْ يرجعون في كلّ أمورهم ، مِنْ عبادة ومعاملة ، إلى الكتاب والسنة .
ولا يرعك تنديد الجاحظ بهم ، فإنهم كانوا فيما سلف خصوماً للمعتزلة . رضي
الله تعالى عن المسلمين كافة) .

انه ليتراضى عمّن مرق مِنْ الإسلام ، وهو يعتبرهم مِنْ المتمسكين بالسنة .

ولا أدري ما رأيه فيما ورد في حقهم في السنة الثابتة ، المسلمة بين المسلمين
جميعهم ! .

وكيف يجمع بين ذلك ، وبين ترضيه عن المسلمين جميعهم ، إذا كانت
الخوارج منهم ، بعد مروقهم مِنْ الدّين ، مروق السهم مِنْ الرمية ، حيث بقيّة
المسلمين — عدا مَنْ ينتمى للخوارج في الرأي ، وعدا مَنْ يخالف السنة الثابتة
على يقين وتسليم بما جاء فيهم عن الرسول ، ولا ينظرون إليهم ، إلا بنظرة النبي
الكريم لهم ، فهم ليسوا سوى خارجين مِنْ الدّين ، وأن صلاتهم ليست سوى
مكاء وتصدية ، يقرأون القرآن ، لا يبلغ تراقيهم — وهي صفات أضفاه عليهم —

→ الرسول الأعظم - وما هم سوى صورة مكبرة للنفاق الديني الماكر ، الخادع

للأغرار : أمثال هذا الشارح الغيبر ! .

ولقد لحظتُ فيه ميلاً « خارجياً » ، قبل حاشيته التي عرضناها هنا : فانه عندما يترجم خارجياً ، نجده يحشو الترجمة بالثناء ، ويُضفي عليه حلل المدح ، وأهازيج الاطراء ...

وانه لعلى العكس ، عندما يترجم لمن يرى فيه ميلاً شيعياً ، فانه إن لم يهمله ، أو لم ينل منه ، يقتضب ويختصر ، مهما وجد لذلك سبيلاً ، ومهما كانت شخصية المترجم ، عدا النزر القليل ، ممن يفرض عليه القول فيه فرضاً ، فلا يستطيع تخطيه .

والسبب في موقفه هذا كله ، بالنسبة لزياد ، وللخوارج ، وللشيعة - السبب في ذلك كله واحد . فهو - في جميعه - لا يصدر إلا عن شيء في قلبه تجاه الإمام علي ...

وما هي سوى ثمرة من بذرة معاوية ، لمناهضة الإمام للانتزاء على المسلمين .

لقد تفتن معاوية في بيع هذه السلع وشرائها وهو ذلك التاجر النهاز ،
الذي لا يدع فرصة ، إلا اهتبلها في صالحه الفردي ، وأنانيته التافهة .

وما الرشوة ، وتقسيم الأموال ، والترشيح للرئاسة ، إلا أثمان زهيدة
لديه ... وإنها لكفيلة بشراء الوفرة العديد ، من الضمائر المعروضة ، في هذه
السوق السوداء !

لذلك ... فإنه لمن السهل جداً : أن يعقد - في كل يوم - صفقة ،
ليشتري ضميراً ويبيع ذمة ، ويقضي على معتقده .

ولما كانت الغاية من كل هذا ، هي محاربة عليّ ، في سبيل التغلب على
حقه ، والاتزاء على الأمة ، فإنه ليوّجه عنايته للنيل من علي ذاته ، ويرتكب
من أجل غايته ، حتى ما لا يعقل ... فهو لا يتورّع أن يذيع بين أهل الشام
- ممن لا يفرّق بين الناقة والجمال^(١) - بأن « عليّ لا يُصلي » . وأن عليّ هو
مهرق دم عثمان ، وأن عليهم أن يطلبوا ذاك الدم المطلول ، من هذا السفاك ...

وليس ثمة من دين ، أو خلقٍ قويم ، أو إنسانية رفيعة ، تقف في وجه
هذا الرجل - القاحل منها - لتحذره من طغيان شهوته ، أو تردّ شيئاً من
جماحها ، بل أطلق لشهوته العنان ، وأُسلس لها المقود ، فأخذت شوطها

(١) إشارة لحادثة تاريخية مشهورة .

البعيد... تتفنن في المنكر ، وليس مَنْ يزع ، وتوغل في الأراجيف ، وليس مَنْ ينكر ؛ وتبعد في الكذب ، وليس مَنْ ينهى ؛ وتفاخر بالباطل ، وليس مَنْ يغضب ! :

إذا رُزق الفتى وجهاً وقاحاً تقلّب في الأمور كما يشاء

✱ ✱

دعا إليه سمرة بن جندب — وسمرة أحد تجّار الحديث^(١) — فبذل معاوية

(١) لعلّ من الخير : أن نضع — هنا ، أمام القارئ الكريم — صورة مصغّرة ، تعرض جانباً من جرائم سمرة الشنيعة :

جاء في ص ٢٥ ج ١ من مسند الإمام أحمد ، مسنداً عن ابن عباس :
[ذكر لعمر رضي الله عنه أن سمرة — وقال مرة : بلغ عمر أن سمرة باع خمرًا ، قال : قاتل الله سمرة . إن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسلم ، قال : لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجمعوها فباعوها] .

ولسمرة جرائم وآثام ، تندى لها الصمّ الصلّاد : حياة وخجلا ، حيث قتل من البصرة — وقد استخلفه عليها زياد اللعين ؛ ونعمًا المخلف والمستخلف — قتل فيها ثمانية آلاف ! .

وإنه لرقمٌ يشبه الخيال ! ، ويصور الدمار الذي حلّ بالأمة من جرّاء حكام الجور ! . ثمانية آلاف بريء ، يقضي عليهم سمرة ، وما هو إلا أميرٌ مؤقت ... وليس يتحرّج أو يتأثم منها ! بل يقول جواباً لزياد الذي سأل ، ليصل إلى دخيلة نفسه :

[هل تخاف أن تكون قد قتلت احداً بريئاً ؟]

(٢) أضفنا في الصلاة على الرسول ، الصلاة على « آله » وجعلناها بين قوسين ، فلسنا ممن يصلّي على الرسول « الصلاة البتراء » التي نهى عنها « ص » . غير أن أمانة النقل ، دعتنا لاضافتها بين القوسين . وهذا ما سنسلكه فيما يأتي .

إليه مئة ألف درهم ، كما يروي أن هذه الآية نزلت في عليّ :

[وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ، وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ — وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ] ^(١) .

→ ولكنه يجيب بما هو بنتن زياد شبيه ، ليكون قريباً من سقوط نفسيته :

[لو قتلْتُ إليهم مثلهم ما خشيتُ !] .

فهو ليس يرى للأمة أية كرامة أو قيمة ... وإنما هي في ملك ، كهذا ، مهدورة القيم ، لا تساوي قتلة الرجل أن يمرّ موكب أمير - كسمرة - فيقضي على من يقضي ، بدون ذنب أو جرم ... !

وإذ يمر سمرة على من أو جر بحربة ، من طلائع خيله ، فيراه متشطحاً بدمه ، لا يندم ولا يأسف ، بل يقول هذه القولة ، التي تعبر عن اللامبالاة :

[إذا سمعتم بنا قد ركبنا ، فاتقوا أنفسنا] .

وهو - بجميع جرائمه وأحداثه - لا يعدو أن يكون واحداً ممن سبر غورهم ، ودرس نفسياتهم معاوية ، فرآهم ممن يرضون شهوات نفسه ، ويسرون في ركاب هواه . وإن مثل سمرة ليعترف بذلك ، فلنسمع له قوله :

[والله لو أطعتُ الله ، كما أطعت معاوية ، ما عذبني أبداً] .

ولكنه ، وقد أطاع معاوية في معصية الله ، فبإياه من عذاب يقاسي حره وويلاته !

وقد رأينا الاكتفاء بهذا العرض الموجز ، عن جرائم سمرة ، وهي أكثر من أن يحوط بها العرض الموجز . وليرجع لها القاريء في مصادرها من التاريخ - كتأريخ الطبري ص ١٧٦ : ٤ ، والكامل ٢٢٩ : ٣ - أحداث سنة ٥٠ هـ والفدير ٢٩ ، ٣٠ : ١١ .

(١) البقرة : ٢٠٤ و ٢٠٥ .

وَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ابْنِ مِلْجَمٍ ، وَهِيَ :

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ) (١) .

ولعل سمره ، رأى في هذا الثمن ما لا يفي بتفسيرٍ منحرفٍ لآيةٍ واحدةٍ ، فكيف بآيتين ؟! وراح معاوية يُساومه ، فزاده مئة ألفٍ أخرى ... وليست المئتا ألفٍ ، سوى ثمن تحريفٍ لتفسير آيةٍ واحدةٍ ... فراحا يتساومان ، حتى تَمَّتِ الصفقة بأربعمئة ألف درهمٍ ، فروى سمره ذلك ...! (٢)

وهكذا بمال الله ، يُحارب أولياء الله ! وبمال الاسلام يجهز عليه به ! وبمال المسلمين ، تشوه قداسة مبدئهم الرفيع !

* *

شاء معاوية : أن يستأجر قوماً ، لوضع الأحاديث المستقصية مِنْ عليٍّ ... فاختار بعضاً مِنَ الصحابة والتابعين ، الذين لهم في نفوس العامة ثقة ، وقداسة خلعت عليهم ، لتكون عماد ما يرفعون مِنْ واهي البناء (٣) .

(١) البقرة : ٢٠٧ .

(٢) ص ٣٦١ م ١ - الشرح الحديدي ، والغدير ١٠١ : ٢ و ٣٠ : ١١ .
(٣) لقد كانت الحيرة تتناوبني ، والعجب يأخذ مني ، أن أجد مَنْ يخلع على جميع الصحابة صفة القداسة والتنزيه ، وأن لا يوجه إليهم أيُّ لومٍ على ما يفتريه بعضهم ، أو يقتطفه ...! وكيف يجسمون بين هذا ، وبين دلالة القرآن والسنة التي تعارض رأيهم ، ما دام في القرآن والسنة عتة آياتٍ وأحاديث ، تدلُّ على النفاق المتفشّي بين المسلمين في عهد الرسول (ص) .

ولو لم يكن لدينا مِنْ ذلك ، سوى « آية الانقلاب » و « منافقي المدينة » ، و « الأعراب » ، وسورة المنافقين ، وما جاء في الصحاح مِنْ أحاديث الحوض وغيرها - ممَّا ذكرتها الصحاح ...

بل لو لم يكن هذا ... لما وجدنا السبيل إلى تطهيرهم وتقديسهم ، وأخذهم

وكان مِمَّنْ عقد معه تلك الصفقة — الرابحة مادياً والخاسرة في ما عدا ذلك — قومٌ ، عُددَ منهم : أبو هريرة • وعمرو بن العاص • والزاني المغيرة ابن شعبة • وعروة بن الزبير^(١) — فاختلقوا الأخبار القباح ، التي تحمل بين حروفها : الطعن على عليٍّ عليه السلام ، والبراءة منه ، في قبال جُعِلَ يتقاضونه مِنْ معاوية ، يرضي مطامعهم و « يُرغب في مثله » — على حدِّ تعبير الحديدي • فافتنَّ كلُّ منهم في الوضع والافتراء ، حتى أنَّ الزهري، حدثه عروة بن الزبير ، أنه قال :

حدثتني عائشة • قالت : كنت عند رسول الله ، إذ أقبل العباس وعلي ، فقال : يا عائشة ! إن هذين يموتان على غير ملتي — أو قال : ديني ! •

→ أعمالهم حجةٌ مسلمةٌ ، وسيرة بعضهم تنقض عرى الإسلام عروة عروة ، كمعاوية ومَنْ هو في سلسلته ... فكيف وهذه الآيات تفضحهم ، وهذه الأحاديث تحذر منهم وتكشفهم ؟! فكيف الجمع بين هذا وذاك ، وهما على طرفي تقيض ... ؟ وهذا لا يعني كلَّ الصحابة — طبعاً — لأن بينهم مَنْ هو مثال العدالة والحق ، ويحاط بالتقديس والإجلال •

ولكن فقد وضح أنَّ ذاك كان حجر الأساس ، في هذه الحرب الجائرة ، المشبوبة الأوار ، تشنَّ ضدَّ إمام المتقين ، الحدِّ الفاصل بين الإيمان والنفاق — كما جعله الرسول (ص) في المستفيض مِنْ أحاديثه •

ففي سبيل حربه ، وفي سبيل الطعن عليه ، مِنْ أجل أن تأتي النتيجة المرجوة ، مِنْ استئجار هذه الفئة مِنْ بعض الصحابة — كانت هذه الفرية الكاذبة ، وصيِّرَ منها المدماك الأول في هذا البناء الظلوم •

(١) ص ٣٥٨ م ١ — النهج • ولسنا نريد العرض — بالتفصيل — لواقعة زنى المغيرة • ولها في التأريخ سطورٌ سود • فَمَنْ شاءها — وهي أشهر ما تكون — فليرجع لها في مصادرها •

وحديثٌ ثانٍ عنه : أن النبي قال لعائشة : إن سرك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار ، فانظري إلى هذين قد طلعا . فنظرت فإذا العباس وعلي^(١) .

وروى عمر بن العاص — وهو خدن معاوية وشريكه في أعماله — روى في ما روى : أنه سمع النبي (ص) يقول :

(إن آل أبي طالب، ليسوا لي بأولياء، إنما وليُّي الله وصالح المؤمنين)^(٢) . وقال أبو جعفر الإسكافي — في روايته عن الأعمش :

لما قدم أبو هريرة العراق ، مع معاوية — عام الجماعة^(٣) — جاء إلى مسجد

(١) تجد الحديثين « ! » في الشرح الحديدي ص ٣٥٨ م ١٠ .

(٢) المصدر ذاته ص ٣١٨ م ١ ، وص ١١ م ٣ ، وصحيح مسلم ١٣٦ : ١ ، وفيه : (آل أبي — يعني فلاناً) ١٠٠ .

(٣) هكذا حلا لبعض المؤرخين المأجورين أن يسموا هذا العام ، وهو أسمٌ لا يعبر عن واقع ذلك العام ، الذي انتزى فيه معاوية على الحكم الإسلامي ، إلا تعبيراً عكسياً ! فهو عام التفرقة والتباعد والتنافر ، وليس فيه أثرٌ للجماعة والاجتماع ! ١٤ .

وقد قدّر لي — بعد مدقّق من كتابة هذه السطور — أن أقف على كتاب « معاوية بن أبي سفيان في الميزان » وقرأت فيه ما علق على تسمية هذا العام بهذا الاسم ، فوجدت فيه تحرياً للوزن بالقسط ، وإن كان الكتاب — في بعض نقاطه — قد بخش فيه الميزان ، فيحاف ومال ، مراتٍ ومراتٍ ، حيفاً وميلاً بارزاً ، تلمسه اليد ، وتحسّه العين ، إلا أن هذا لا يعيننا في موضوعنا هذا . جاء في ص ٦٦ قوله :

(ولو حاسبه التاريخ حاسبه الصحيح ، لما وصفه بغير مفرّق الجماعات ،

الكوفة ، فهاله ما رأى مِنْ كثرة مستقبله فجثا على ركبتيه ، ثم ضرب « صلحته » ، مراراً - ولعله يستوحىها ! - وقال :

→ ولكن العبرة لقاريء التاريخ في زفة الأعمال والرجال : أن تجد مِنْ المؤرخين مَنْ يسمِّي عامه - حين انفرد بالدولة - عام الجماعة ، لأنه فرَّق الأمة شيعاً شيعاً ، فلا تعرف كيف تتفق إذا حاولت الاتفاق ، وما لبث أن تركها بعده تختلف في عهد كل خليفة شيعاً شيعاً بين ولاية اليهود !) .

وضرب كثيراً مِنْ الأمثلة عن خطط هذه التفرقة ، حتى عاد - في ص ١٨٨ - ليقول :

[فليس أضل ضللاً ولا أجهل جهلاً مِنْ المؤرخين الذين سمَّوا سنة « إحدى وأربعين هجرية » بعام الجماعة ، لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة ، فلم يشاركه أحدٌ فيها ، لأن صدر الاسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة مِنْ فئاتها كما وقع فيها] .

وراح - بعد ذلك - يعرض نماذج أُخرى مِنْ أعماله المفرقة ، التي فتت الوحدة الإسلامية المتعاسكة ، وهدت دعائمها المكيمة ، ولا يزال المسلمون يجنون مِنْ شجي ثمارها ، ويشربون مِنْ مائها العكر ، فيضطاد فيه مَنْ لا يعيش إلا في الوسط الموبوء ، حاملاً معول الهدم والتفرقة ، سائراً في ملتوي الطريق المنقاد ، الذي سلكه معاوية .

وللجاحظ كلمة قيمة ، تتصل بهذه النقطة ، التي مشت فيها الأقلام المأجورة ، ونرى - لزماً - عرضها هنا ، حيث أنها تعرض هذه الناحية عرضاً مدعماً بالدليل ، فقال في رسالته في بني أمية - ص ٢٩٣ و ٢٩٤ مِنْ رسائله - بعد عرض موجز ، عن بعض الأحداث التي أفسحت المجال لانتزاع معاوية ، على الأمة الإسلامية « العظمى » :

[فعندها استوى معاوية على الملك ، واستبدَّ على بقية الشورى وعلى جماعة]

[يا أهل العراق ! أتزعمون أنني أكذب على الله وعلى رسوله ، وأُحرق

→ المسلمين من الأنصار والمهاجرين ، في العام الذي سَمَّوه «عام الجماعة» ؛ وما كان عام جماعة بل كان عام فرقة وقهر ، وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً والخلافة منصباً قيصرياً ، ولم يعد ذلك « أجمع » الضلال والنسق (١) ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا وعلى منازل ما رتبنا حتى ردَّ قضية رسول الله صلى الله عليه « وآله » وسلم ردّاً مكشوفاً ، وجحد حكمه جحداً ظاهراً في ولد الفراش وما يجب للعاهر ، مع اجتماع الأمة على أن سمية لم تكن لأبي سفيان فراشاً ، وأنه إنما كان بها عاهراً . فخرج بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار .

وليس قتل حنجر بن عدي ، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر وبيعة يزيد الخليع ، والاستئثار بالقيء ، واختيار الولاية على الهوى ، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقراية ، من جنس جحد الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة والسنن المنصوبة . وسواء في باب ما يستحق من الكفار : جحد الكتاب ، ورد السنَّة ، إذا كانت السنَّة في شهرة الكتاب وظهوره ، إلا أن أحدهما أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشد .

فهذه أول كفرية كانت من الأمة ، ثم لم تكن إلا في من عي إمامتها والخلافة عليها . على أن كثيراً من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره . وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقالت : لا تسبِّهوه فإن له صحبةً ، وسبُّ معاوية بدعة ، ومن يبغضه فقد خالف السنَّة . فزعمت أن من السنَّة : ترك البراءة ممن جحد السنَّة !] .

ونكتفي بعرض هذه القولة — أمام القاريء — وهي تصوّر أحد جوانب معاوية المنهارة — من ناحية . وتصور إلى ذلك : انحطاط القيم ، حيث مُسخت الحقائق ، وشوّه رواء الحق ، وقُلبت المفاهيم والمقاييس . وتزداد أهمية هذه القولة ، وتتضاعف قيمتها : أن يكون قائلها الجاحظ .

(١) كذا في النسخة ولعل الصحة : (أن جمع الضلال) الخ .

نفسى بالنار؟! (١) •

والله لقد سمعت رسول الله « صَلَّى الله عليه وآله » يقول :
إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَرَمًا ، وَإِنْ حَرَمِي بِالْمَدِينَةِ ، مَا بَيْنَ عِيرٍ إِلَى ثَوْرٍ (٢) فَمَنْ
أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَاشْهَدَ بِاللَّهِ أَنْ
عَلَيًّا أَحْدَثَ فِيهَا •

وما بلغ معاوية قوله ، حتى أجازاه وأكرمه ، وولاه المدينة •
وتحضر حريز بن عثمان الوفاة ، ويذكر عليًّا — حينذاك — فيقول ليختم
به عمله :

[ذَاكَ الَّذِي حَلَّ حَرَمَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) ، حَتَّى
كَادَ يَقَعُ] (٣) •

وليس هذا بغريبٍ منه ، بعد قوله :

[إِنْ النَّبِيَّ — وَقَدْ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ — أَوْصَى بِأَنْ تَقْطَعَ يَدُ عَلِيٍّ] (٤) •

(١) إِنْ هَذَا مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ — اعْتِرَافٌ ، فَرَضَهُ عَلَيْهِ تَدَاعِي الْخَوَاطِرِ ،
وَالْحَدِيثُ الْبَاطِنُ •

(٢) غَلَطَ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ — فِي شَرْحِهِ ص ٣٦٠ م ١ — بَعْدَ ذِكْرِهِ هَذَا
الْإِفْتِرَاءَ : رَوَايَةٌ « مَا بَيْنَ عِيرٍ إِلَى ثَوْرٍ » ، وَصَوَّبَهُ بِأَنَّهُ « مَا بَيْنَ عِيرٍ إِلَى أَحَدٍ » •

ثُمَّ قَالَ : وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ : إِنْ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْدَثَ فِي الْمَدِينَةِ ،
فَحَاشَى اللَّهِ ! كَانَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَقَى اللَّهَ مِنْ ذَلِكَ • وَاللَّهُ لَقَدْ نَصَرَ عَثْمَانَ
نَصْرًا ، لَوْ كَانَ الْمَحْصُورُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، لَمْ يَبْذُلْ لَهُ إِلَّا مِثْلَهُ •
وَأَرْدَفَ ذَلِكَ بِأَقْوَالٍ ، لَا تَرْضَاهُ أَبَا هُرَيْرَةَ ، وَسَيَكُونُ لَنَا عِنْدَهَا وَقْفَةٌ ،
فِي مَا سَيَمُرُّ بِنَا مِنْ فُصُولِ الْكِتَابِ •

(٣) وَ (٤) ص ٣٦٠ م ١ شَرْحُ النَّهْجِ •

ولا نعلم ! فلعل علياً - عند حريز - كان من لصوص الليل ، كما شهد عليه بذلك الملك الخليفة « الوليد بن عبد الملك » ، وقد ذكر علياً فقال :
[لعنة الله - بالجر - كان لص بن لص] - بالرفع طبعاً ! .

فعجب الناس من لحنه القاضح ، ومن نسبته علياً - عليه السلام - للصوصية ، وقالوا : [ماندري أيهما أعجب ؟] (١) .

→ وفي الغدير- ٢٥١ : شيء من أعمال حريز القباح ، وتحريفه الوقح ، تجاه الإمام الأعظم عليه السلام .

ونحن لا نستغرب كل ما يخلقه حريز ، بعد أن نعرف عنه أنه كان ممن يلعن علياً - عليه السلام - ولا يكتفي بذلك ، حتى تبلغ لعناته - وترد عليه مضاعفة - سبعين لعنة [الغدير ٢٥٠ : ٥ ، و ٨٧ : ١١] . ولا نحتاج ، بعد ذلك ، لنعرف أن الحاكم أشار إلى شهرة حريز بالنصب [المصدر ٨٧ : ١١] . ولكن - مع كل هذا - نجده أحد رجال صحيح البخاري - ويا للأسف ! .

(١) الشرح الحديدي ص ٣٥٦ م ١ .

وذكرها الجاحظ في البيان والتبيين - ص ٢٠٩ : ٣ - وفيه :

[علي بن أبي طالب لص بن لص ، صب عليه شؤبوب عذاب] ، بحيث اعتبر جهله في ضم اللام - في لص - وأنه جهل ما لم يجهله أحد - على حد تعبيره - إلا أن هذا لا يستقيم مع نص أرباب اللغة على تثليث لام اللص ، فينتفي الجهل ، حينئذ ، باللغة ، ولكن الجهل المفضوح في رواية الحديدي . ومجرى حديث الجاحظ ، أنه يعني بقائل هذا اللغو : الوليد ، إلا أن السندوبي الشارح ، انتهى صرف هذا عن الوليد ، إلى أحد ولاته ، حيث علق على الضمير العائد للوليد : « ومع هذا أنه » ، فقال : [هو يزيد بن أبي مسلم] .

ومما يدعم أن الجاحظ يعني الوليد : أن الحديث - قبل هذه القصة -

وهكذا ينحدر هؤلاء بالقمم الشامخة ، إلى أخط منحدر ! .
وإتنا لنسأل حريزاً - لو كان له سمعٌ ولسانٌ - عماذا يرى في أبي بكر -
وهو أول خليفة تولى المسلمين ، بعد الرسول - إذ لم ينفذ وصية الرسول ،
فلم يقطع يد عليّ . . . !

→ يدور حوله ؛ وبعدها - أيضاً - قصصٌ من لحن الوليد - خليفة المسلمين وجهله باللغة العربية ، كجر المنسوب - تارةً - ورفعهُ أخرى - حتى بلغ تحريفه المخزي إلى بعض الآيات الكريمة ، في قصصٍ مضحكةٍ مبكيةٍ . . . !
وحتى أن أباه عبد الملك قال : [أضرَّ بالوليد جبنًا له ، فلم نوجهه للبادية] -
ومن الحب ما يقتل ! .

وقد علّق السندوبي - على ذلك - موضحاً - النقاط الملحونة ، في هذر الوليد ، حتى أنه أوضح بأن الولد هو « أحد الأخوين اللحنين ، وهما : الوليد ومحمد » . كما أشار لذلك الجاحظ ، أيضاً .

وبعد هذا ، ليس بخفيّ عليك ما أرادهُ من صرفه لجنه في سباب عليّ ،
لأحد ولاته ، صرفاً صدر عن قصدٍ مفضوحٍ ، وغايةٍ معروفةٍ . . .

وليس هذا ، سوى دعمٍ لما سبق إيضاحه ، عما لمسناه في نفسية السندوبي ،
وميله الجارف ، وهواه الجموح ، نحو كلٍّ منحرفٍ عن الإمام علي عليه السلام ! .

كانت هذه الحرب الدنيئة ، يسر أوارها معاوية ، ويمدّ وقودها بمال الإسلام والمسلمين... يفتصبه وينتزعه من أهله ، ليغدقه على آخرين ، في قبالة حديثٍ ينتحلونه ، أو منقبةٍ يفتعلونها ، وأخرى يسدلون عليها ستاراً ، أو آيةٍ يحرفونها عما أنزلها الله ، فيحرفون الكلم عن مواضعه ...

وكانت — إلى جانب هذه — حربٌ أخرى، هي: المطاردة لكل من يحفل قلبه بحب علي عليه السلام ، ويختلج لسانه بحمده وذكره الطيب . ومن عثر عليه من هؤلاء ، فبين اثنتين : البراءة ، أو السيف الذي لا يرحم ! .

وقد ضرب حُجر بن عدي وأصحابه ، المثل للتضحية في سبيل المبدأ الرسيخ ، والإيمان الصليب ، الذي لا يميله إعصارٌ ، ولا يخيفه سيفٌ بطّش ! . ولم يكن معاوية ، وقد اشترى ملك المسلمين ، وحول الخلافة للملك العضوض ، بالذي يحدث من غلوائه في سبّ علي شيء ، فقد شاءها أن تكون بدعةً باقيةً ، يُسجلها الدهر — في كل يومٍ — سطرأ فاحم الحرف ، في تأريخ هذا الجائر الغدور .

رووا : إن قوماً أمويين ، نصحوا لمعاوية ، فقالوا :

إنك قد بلغت ما أمّلت ، فلو كففت عن لعن هذا الرجل ! .

فقال :

لا والله ! حتى يربو عليها الصغير ، ويهرم الكبير ، ولا يذكر له ذاكره
فضلاً^(١)...

ولم يقف معاوية ، في النيل من عليّ ، عند هذا الحد ، فحسب ! بل
تخطاه ، حتى نال من قداسة الرسول ، ومقام النبوة •

وحسبنا من ذلك ما قصه مطرف بن المغيرة بن شعبة ، فقد قال :

وفدت - مع أبي المغيرة - إلى معاوية ، فكان أبي يأتيه ، فيتحدث معه ،
ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية ، ويذكر عقله ، ويعجب مما يرى منه • إذ جاء
ذات ليلة ، فأمسك عن العشاء ، فرأيتته مغتماً ، فانتظرت ساعة ، وظننت أنه
لشيء حدث فينا ، أو في عملنا ، فقلت له :

ما لي أراك مغتماً ، منذ الليلة ؟ !

فقال : يا بني ! إني جئت من أخبت الناس وأكهرهم !
قلت له : وما ذاك ؟

قال : قلت له ، وقد خلوت به :

إنك قد بلغت منك - يا أمير المؤمنين - فلو أظهرت عدلاً ، وبسطت
خيراً ؟ فإنك قد كبرت ! • ولو نظرت إلى إخوانك من بني هاشم ، فوصلت
أرحامهم ، فوالله ما عندهم - اليوم شيء تخافه !
فقال لي :

هيهات ! هيهات ! ملك أخو تميم فعذل ، وفعل ما فعل ، فوالله ما عدا
أن هلك ، فهلك ذكره ، إلا أن يقول قائل : « أبو بكر » • ثم ملك أخو

(١) ص ٢٥٦ : الشرح الحديدي ، والغدير ١٠٢ : ٢ - عن الجاحظ •

وفي الغدير ٢٥٧-٢٧١ : ١٠ عرض مبسط لبدعة معاوية في سب عليّ
ولعنه عليه السلام ، ودراسة تعقيبية ممتعة •

عديّ، فاجتهد ، وشمرَ عشر سنين ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ،
إلا أن يقول قائل : « عمر » • ثم ملك أخونا عثمان ، فملك رجل لم يكن
أحد في مثل نسبه ، فعمل ما عمل وعمل به ، فوالله ما عدا أن هلك ، فهلك
ذكره ، وذكر ما فعل به •

وإن أخا هاشم يُصرخ به — في كل يوم ، خمس مرات — « أشهد أن
محمدًا رسول الله » ! • فأبى عمل يبقى بعد هذا — لا أم لك ! — إلا دفنًا
دفنًا (١) !؟

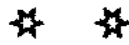
وهل لنا أن نقول شيئًا ، بعد هذه القولة من معاوية ، الذي يؤلمه أشد
الآلم ، ويقض مضجعه — كالسهم النافذ — ذكر الرسول الأعظم « ص » ، على
المآذن !؟ في حين أنه يتحكم في المسلمين ، ويبتزهم حقوقهم ، متسترًا باسم الخلافة
الإسلامية ، التي حوّلها للملك العضوض الغاشم !!

وما عسانا أن نعجب من رجلٍ ، أو من قولٍ ، نال من المغيرة الزاني
الغدور (٢) ، ما ظهرت شاراته على وجهه ، ولمس ذلك منه ابنه ، كما لو
حدث عليهم — أو في عملهم — شيء ذو بالٍ ! • وليس يؤثر على مثل المغيرة
شيء ، كما يؤثر عليه خلعه من عملٍ ، أو خسرانه في مالٍ ! • ولكنه — وهو

(١) صلح الحسن ص ٢٢٥ — عن مروج الذهب للمسعودي [ص ٣٤٢ : ٢]
والنهج [٢ : ٣٥٧] — وبرجوعنا لها للنهج — ٤٦٢ : ١ — وجدنا بينها وبين
هذه الصورة بعض اختلافٍ ، مثل : « وإن ابن أبي كبشة » — بدل : « وإن
أخا هاشم » • وتجدها في الحسن بن علي ص ٢١٢ والغدير ٢٨٣ ، ٢٨٤ : ١٠ •
كما أن سدنا الوالد ، أشار لها — مرتين — في كتابه « الدعوة » ص ٢٧٣
و ٣١٢ : ١

(٢) في النهج ص ١٧٧ : إن المغيرة كان يقول : والله ما نصحتُه — يعني
عليًا — قبلها ، ولا أنصحه بعدها ، ما بقيت •
فحبذا الصحابي العدل ! « والدّين النصيحة ! » •

الشرير - لم يطق صبراً على كفر معاوية ، ونيله من الرسول « ص » - فما حال من -
كفره النمرود كما يقولون ١٩ .



وليس لنا أن يمتد بنا السير في تقصي أقوال معاوية وأفعاله ، التي يناهض
فيها الرسول ، ويخالقه بقصده ، وإصرار ، مما يخرج به عن حظيرة الإسلام -
والإسلام : قول ، وعقيدة ، وعمل - ومعاوية يناهضه في جميع ذلك ، غير
مكتفٍ بناحية دون أخرى .

ونحن لو أطعنا اليراع ، وشئنا هذا التقصي ، لخرجنا بموضوع الكتاب ،
إلى جادة غير هذه .

ولكننا نرى أن نرجع القاريء الكريم ، إلى الموسوعة الضخمة : الغدير ،
ولا سيما جزئه العاشر ، ففيه : عرض شامل ، ورائع حقاً ، وتقصي لنواح
عدّة ، من هذه المخالفات ، التي أشرنا إليها ، والتي يأتي بها معاوية قولاً وعملاً ،
وعن عنادٍ مقصودٍ ، وإصرارٍ مفضوح ، وتحديٍّ لاذع ، وتهكمٍ ساخر ، يدفع
كل ذلك : حقدٌ دفين ، وشركٌ رسيخٌ موروث ، وسياسةٌ مكيافيليةٌ وصوليةٌ ،
وعداءٌ سافرٌ ، ورثه من البيت الأموي والبيئة الجاهلية الموبوءة ، لهذا البيت
الهاشمي الكريم ، في أشخاص زعمائه وقادته الهداة البررة .

مضى هذا العصر المظلم ، ليعقبه عصرٌ أشدُّ ظلمةً ، وأحلك رقعةً . وعلى المدلج في العتمة : أن تشتدَّ عليه وطأة الظلام الثقيل ، قبل أن يزيح نور الفجر ، عن عينيه ، تلك الغشاوة الفاحمة .

جاء عصرٌ ، أخذوا فيه لعن عليّ « سنة » ! ، وقد أخذت في القلوب مكاناً ، عمقه الأهواء ، وأفسحت إليه ، ليكون على قرارٍ .
فإن سها على الخطيب أو إمام الجماعة لعن عليّ عليه السلام — مرةً واحدةً — أخذته الجلبة الصاعدة إليه من كلِّ مكانٍ ، تطالبه ، هاتفة : السنة ! السنة ! .
فيعرف — حينذاك — أيَّ خطيئ ارتكب ، وأية سنة ترك ! .
فمعاوية قد خفر في كلِّ قلبٍ أمويٍّ — نسباً ، أو نزعةً — هذه الكلمة ، التي تتصدَّع لهولها الجبال ، وتنفطر السماوات — فكانوا بها يختمون خطبة الجمعة :

[اللهمَّ إنَّ أبا ترابٍ قد ألحد في دينك ، وصدَّ عن سبيلك ، فالعنه لعناً وبليلاً ، وعذبه عذاباً أليماً] (١) .

ولم تكد تُمحى من القلوب ، وتُنسى من الأفواه ، إلَّا في عصر عمر بن

(١) ص ٣٥٦ م ١ من النهج ، والغدير ١٠٢ : ٢ عنه وعن الجاحظ ٢٩٠ :

١٠ والدعوة ١٥٥ : ١ .

عبد العزيز — الخليفة الزاهد .

غير أن بين العصرين ، مساوية ، تندي لها الجباه ، وتاريخاً مسودَّ
الجبين ، قاتم الحرف ، فعلت فعلها السيء ، فغيّرت مجرى التاريخ ، ودنّست
نضارة الحق .

وليس عصر الحجاج الطاغية الغدور — في إمارته — وهو التلميذ الننيغ
لمعاوية ... (١)

ليس هذا العصر ، بالذي يُنسى ، وهو الحفيل بكلّ سوءٍ . فقد دعم من
بناء معاوية ، وأضاف إلى ذلك الصرح الظلوم لبناتٍ ، رفعت من عالي
بنائه الطاغية .

ففي عصر هذا الطاغية ، أعمل السيف في رقاب الشيعة ، وقتل صبراً ،
وعلى الظنّة والتهمة ، ما هو بالأساطير أشبه .

وما هو سوى دعوةٍ ، من دعوات الإمام عليّ عليه السلام (٢) على أهل
العراق ، الذين ودّ لو يصارفهم بغيرهم ، مصارفة الدرهم بالدينار .
وكان الحجاج ذا نعمةٍ ، فأرضى سفالة ضميره ، وفأثر حقدّه ، ومستفحل
بغضائه . فكان يلعن عليّاً — كما كان سلفه معاوية — ويأمر بلعنه !
استعرضه — يوماً — رجلٌ ، وكان راكباً ، فقال له :
أيها الأمير ! إن أهلي عقوني ، فسوّني عليّاً ، وإني فقيرٌ بائسٌ ، وأنا إلى

(١) نريد بهذه التلمذة : انتهاج سيرة معاوية .

(٢) إشارة إلى دعوات الإمام عليه السلام الكثيرة على أهل العراق ، كقوله :
« اللهم سلّط عليهم غلام ثقيف ، يسقيهم كأساً مصبّرةً » ، وغيرها .
وما دعوات السبط الحسين — يوم الطف — بعبدةٍ ، ولا سيما قوله : « ولا
تُرضِ الولاةَ عنهم أبداً » الخ .

صلة الأمير محتاجاً .

فبلغ لطف هذا التوسل — لدى الحجاج — ما أثار كوامن حقه ،
ورواسب نفسه اللئيمة ، فبدل أسفه وولاه عملاً ، وأشخصه إليه (١) .

✱ ✱

وأراد الحجاج أن يكافيء عبدالله بن هانيء ، حيث قد شهد معه مشاهد
فشاء أن يزوجه من ابنة سيد فزارة : أسماء بن خارجة ، وابنة رئيس اليمانية :
سعيد بن قيس الهمداني .

وإذ لم يقبل عبدالله زوجاً ، دعا للأول بالسياط وللآخر بالسيف ،
فأطاعا ! وزوجاه ابنتيهما «!؟» — ونعم هذا الزواج الشرعي ، يقوم به
أمير المسلمين !؟ .

حينذاك أخذ الحجاج يمنُّ على عبدالله — هذا — بما أنعم عليه . وإذا
بهذا يقف في وجهه ليردَّ عليه هذه المنة بقوله :

— لا تقل — أصلح الله الأمير ! — ذاك ! فإنَّ لنا مناقب ، ليست لأحدٍ
من العرب .

— وما هي ؟ .

— ما سبَّ أمير المؤمنين عبد الملك ، في نادٍ لنا قط .

— منقبةُ والله ! .

— وشهد مناصفين — مع أمير المؤمنين معاوية ! — سبعون رجلاً .
ما شهد منا مع أبي ترابٍ ، إلَّا رجلٌ واحدٌ ؛ وكان ، والله ، ما علمته ، إمرأ سوء .
— منقبةُ والله ! .

— وما منا رجلٌ ، عرض عليه شتم أبي ترابٍ ، ولعنه ، إلَّا فعل ،

(١) ص ٣٥٦ م ١٦ و ٣١٦ م شرح ابن أبي الحديد .

وزاد ابنه : حسناً وحسيناً ، وأمهما فاطمة ! •

— منقبة والله ! •

— وما أخذ من العرب ، له من الصباحة والملاحة ما لنا •

غير أن هذه لم يعدّها الحجاج من المناقب ، ووجه قائلها الذميم ، الشديد الأدمة ، المجذور ، العجز الرأس^(١) ، المائل الشدق ، الشديد الحول ، القبيح الوجه^(٢) •

إن هذا الوجه شاهد عكسي ، على هذه المنقبة ، التي ضنّ بها عليه الحجاج ، فضحك في وجهه :
— أما هذه — يا أبا هانيء إيدعها !^(٣) •



لقد بلغ معاوية ما أمل ، إذ أبقي شتم عليّ ولعنه بدعة ، ربي عليهما الصغير ، وهرم الكبير • ولكن دون أن ينال من جوهر الحق ما أراد —
فالله متمّ نوره ، ولو كره الكافرون •

جاء الخلف الآثم ، لذلك السلف الشرير ، فافتنّ في تلك البدع ، حسب ما شاعت له سفالة ضميره •

يصعد المنبر — في العراق — خالد بن عبدالله القسري — وكان أميراً في ملك هشام — ويلعن عليّاً عليه السلام ، فيقول :
اللهم العن عليّ بن أبي طالب ، ابن عبدالمطلب ، بن هاشم ، صهر رسول الله « صلى الله عليه وآله » على ابنته ، وأبا الحسن والحسين •

(١) العجز : مصدر ، وهو — هنا — بمعنى « التواء » •

(٢) كذا سجل وصفه التاريخ • فلعله من فصيلة القروذ والخنازير ! •

(٣) ص ٣٥٧ م ١ من النهج الحديدي ، والدعوة ص ٢١٠ : ١

وَيُقْبَلُ عَلَى النَّاسِ ، وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ الْجَذْلَ مُحَلًّا عَمِيقًا ، فَقَدْ أَتَى بِبِدْعَةٍ
جَدِيدَةٍ ، إِذْ لَعَنَ عَلِيًّا « عَلَيْهِ السَّلَام » ، لَعْنًا ، لَا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ وَالصَّرْفَ ،
فَلَا كُنْيَةَ فِيهِ وَلَا غَمُوضَ ، وَيُسَائِلُهُمْ حِينَئِذٍ :
هَلْ كُنَيْتُ ؟ (١) .

وَمَرَّةً أُخْرَى يَعِيدُ تِلْكَ الْمَصُورَةَ الْبَشْعَةَ مِنْ مَعَاوِيَةَ ، فِي نَيْلِهِ مِنَ الرَّسُولِ
الْأَعْظَمِ « ص » ، وَهُوَ عَلَى بَدْعِهِ يَسِيرُ ، وَبِضِلَالِهِ يَنْتَهَجُ ،
وَفِي تِلْكَ التَّرْبَةِ الْخَيْثَةِ ، الَّتِي طَلَعَتْ فِيهَا تِلْكَ الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ - أُمِّيَةُ السُّوءِ -
نَشَأَ وَاسْتَعْبَدَ .

رَأَاهُ لِيَقُولَ - مَرَّةً أُخْرَى - بَعْدَ أَنْ إِتْمَهَى مِنْ شَتْمِهِ لِعَلِيٍّ ، حَيْثُ خَاطَبَ
النَّاسَ ، فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ ، فَلَمْ يَكْتَفِ بِالْقُرْبَى مِنَ اللَّهِ - فِي هَذَا الْيَوْمِ الْفَاضِلِ -
بِشْتَمِ عَلِيٍّ ، دُونَ النَّيْلِ مِنَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ « ص » ، فَقَالَ :
(وَاللَّهِ إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ لِيَسْتَعْمِلَهُ - يَعْنِي عَلِيًّا - وَإِنِّه لَيَعْلَمُ مَا هُوَ ،
وَلَكِنَّهُ كَانَ خَتَنَهُ) .

أَرَأَيْتَ كَيْفَ بَلَغَ مَسَاسَهُ لِلرَّسُولِ ، وَقَدْسِيَةِ الرِّسَالَةِ ، وَطَهَارَةِ النُّبُوَّةِ ،
حَيْثُ جَعَلَ مِنَ الرَّسُولِ رَجُلًا عَاطِفِيًّا ، يَدُورُ مَعَ الْهَوَى وَالْعَاطِفَةِ ، مُجَانِبًا
لِلْحَقِّ وَالصَّدَقِ ، بِحَيْثُ يَخْرُجُ قَائِلُهَا - كَمَا كَانَ قَبْلَهُ مَعَاوِيَةُ - مِنْ حَظِيرَةِ
الْإِسْلَامِ ، بَعْدَ النَّيْلِ الشَّائِنِ مِنْ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ .

وَقَدْ كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ ، الْمَشْهُورُ بِانْحِرَافِهِ عَنْ عَلِيٍّ حَاضِرًا ، وَقَدْ نَعَسَ
لِحِظَةٍ أُلْقِيَ فِيهَا خَالِدٌ قَوْلُهُ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ مَذْعُورًا ، وَسَأَلَ :

(١) النَهْجُ ٣٥٦ : ١ ، وَالْكَامِلُ لِلْمَبْرَدِ ٦٧٧ و ٦٧٨ : ٢ ، بِزِيَادَةِ تَوْضِيحٍ ، وَهِيَ :

بَنَ عَبْدِ مَنَافٍ ، ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ « وَآلِهِ » وَسَلَّمَ ، وَزَوْجَ ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ .
وَقَدْ اسْتَكْبَرَ الْمُؤَلَّفَ ذَكَرَ اللَّعْنِ ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : « فَعَلَ اللَّهُ عَلَى عَلِيٍّ الْخَ .

ويحكم ! ما قال هذا الخبيث ! رأيتُ القبر انصدع ، ورسول الله يقول :
كذبت يا عدو الله ! (١)

(١) أعيان الشيعة ٧٨ : ٣٥ و ص ١٥ من رسائل الجاحظ في نقض
العثمانية لأبي جعفر الإسكافي .

بهذه الأعمال القباح ، وبهذا الأسلوب البذيء ، المقصى فيه العنصر الأخلاقي ، والمحل من الإنسانية — بكل هذا قاوموا الحق ، وقد رأوه لا يرضي منهم المطمع الجشع ، ويحرّم عليهم مقاعد ، تبوئهم مقاعد من جهنم . والتأريخ بمثل هذه الأعمال ، مسودة من الصحائف ، والكاتب ينال منه العجز ، لو شاء الحصر .

ولكن ما يُثير الألم : أن نجد مثل هذه الأعمال السود ، يقوم بها الناس هم رعاة الأمة ، ونُسَمِّيهم : أمراء المؤمنين — تارة — وخلفاء الرسول — مرة ثانية — فلا نرى فيهم غير : طليق ، ومنافق ، وسارق ، وزانٍ وجائر ، وسكير ، ووزغ ، وفاجر . . . إلى آخر هذه الحلقة المفرغة ، من التشنج الخناق ، المنبعث من صفات هؤلاء الولاة الدُّون .

فمعاوية الطليق المنافق : أمير المؤمنين . ويزيد السكير العرييد : خليفة الرسول . ومروان الوزغ بن الوزغ ، خليفة المسلمين . و . . . و . . . إلى أن تطوف بمثل الطاغية عبد الملك ، أو الناقص يزيد ، أو الحمار مروان . ثم نعود . . . فنرى هذه الأقوال المفتعلة ، والأحاديث المختلقة ، والكلم المحرّف ، والتفاسير المغرضة ، تتبع من شفاه ، تقول : « سمعنا رسول الله يقول . . . »

ونبحث عن أصحاب هذا الزور المفتعل ، والبهتان الآثم ، فنجدهم

— ويا للألم الكاسف ! — أولئك الذين تُخلع عليهم صفة أصحاب الرسول ...
ثم يتخذ من صفة « الصحبة » : سياجاً منيعاً ، يحوط هذا الزور ، ويرعى
ذلك البهتان ، وسترأ واقياً على هذه المساويء ، وتلك المناكير .

ومن حاول تخطي هذا السياج ، أو إزاحة هذا الستر ، فإنه للرجل
المتخطي — في رأي أصحاب هذا الفن من التجارة — للحق ، والقائل في
أصحاب الرسول ما لا يجوز ، والحدود الشائء لهم ، إذ يغطهم حق هذه
الصحبة المقدسة ، ولا يرفعهم عن بشرتهم التي هووا بها — هم أنفسهم —
إلى درجة الحيوانية البهيمية الحمقاء ، وهذوا — بأيديهم — أسس ذلك البناء
الشموخ ... وحطموا — بمعاولهم — ذلك السياج الذي شيّد لهم ، ومزقوا
بأناملهم — تلك الستر البالية ، بما أجرموا وخافوا ، وراءها ، بعيداً عن العيون ،
ظانين أن عيون الرقباء عنهم غافية ساهية ...

وهم يعملون ما يعملون ، ويتقاضون عليه — من مال الله ، ومال الامة —
ما يشعل قبورهم ناراً ، وتكوى به جباههم وجنوبهم ، وتبدل جلودهم غير
تلك الجلود .

إنهم لينالون هذا المال ، الذي تُبعثره أيدي أولئك ، الذين يسيرون دفقة
الملك ، ولا يهمهم سوى بقاء العرش تحتهم ، فيبدلون — في سبيل حماية
العرش — كل وسيلة ، وكل غالٍ ومرتخص ، ولا تهتمهم سوى النتيجة ، بدون
مبالاة أو اختيار للوسيلة ، ما دامت « الغاية تبرر الاواسطة » . ولكنهم — مع
هذا — يُعتبرون : أئمة المسلمين ، وخلفاء الرسول ! .

وهكذا ساروا بالامة الى مهاوي الضلال ، مجهزين على الضمير الحي ،
ساخرين من العدالة ، مجانبين للحق ، قائلين للزور ، أكالين للسحت ، سمّاعين
للكذب ، لا تهتمهم سوى أنافيتهم الحمقاء ، ونهمهم البشع .
هذا يكذب ويخلق ، ويفتري ويزور ، ليأخذ أجر اتعابه ، ذهباً مسروقاً ،
وفضة منهوبة ، في رشوات مخزية مخجلة ... !

وذاك يدفع هذا بسخاءٍ مدرارٍ ، وما هو لديه ، سوى الطعم الحقيق ،
في سبيل السيطرة على الدست ، وسوم الأمة ألوان العذاب ، وأنماط الهوان
والتنكيل •

وبين هذا وذاك دماءٌ مطلولة ، وحقوق مهدورة ، وكراماتٌ مستباحة ،
وظلمٌ فاشٍ ، ومناكيرٌ معلنة ، وفقرٌ أسودٌ كفور •

وليس هذا سوى النتيجة الطبيعية المحتومة ، لهذا العصر المظلم الجائر •

يمضي هؤلاء ، وقد دسوا في الدين ، وعانوا حسب ما شاءت الأهواء
الدُّون ، وأفسدوا حسب ما شتهت الأغراض السود والمطامع البهيمية ...
يمضي هؤلاء ، ليجيء - بعدهم - أناس ، يتقبلون ما جاء ، ويأخذونه
على أنه حق !

ولو أمعنوا قليلاً ، وأعملوا شيئاً من فكرهم ، وقاموا بمهمة الباحث ،
لتكشف لهم هؤلاء عن مساوئ وعورات ، ليس لها سوى الرغام ، تُدش
فيه ، فلا تعكر من صفاء الجو ، ولا ينبعث منها ما يسود صفحة الدين
البيضاء .

يمضي أولئك ، وقد دنسوا الصفحات . وسودوا التاريخ ، ليخلف من
بعدهم خلف ، يزيد في الطين بلةً ، ويضيف إلى المناكير ، ما يزيد في بنائها .
وإن من هذا الخلف الآثم ، من لا يقف عند حدٍّ من الإسفاف والزور ،
بل يمضي سادراً في الغي والإفتراء ، فلا رقيب من دين ولا محاسب من ضمير ،
ولا رادع من حق ، ولا خوف من عقاب .

وقد كنت أظن أن أقف على الكثير من الكذب والزور في نيل علي عليه
السلام من عصر معاوية ، ومن خلف بعده من ملوك الشجرة الملعونة في القرآن ،
ومن هم منهم في الهوى والنزعة ، من الماجورين الآثمين .

ولكن لم أتصور ، أو أظن : أن أقف على مثل هذه الفرية ، يأتي بها
السيوطي : سبباً في نزول هذه الآية الكريمة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى
حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » (١) .

فيأتي بهذه الفرية ، ويُضاعفها أن ينسبها لعلِّي نفسه ، إذ ينسب إليه أنه
قال - وهو ، يقيناً ، لم يقل :

(صنع لنا عبدالرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت
الخمر مناً ، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما
تعبدون ، ونحن نعبد ما تعبدون » . فأنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا ») (٢) .

وفحن لا نريد أن تُناقش السيوطي في السند ، وما في الافتراء ذاته من
تناقض في الروايات ، وتحريف اسم المصلي - هنا - وإقحام اسم عليٍّ ، هذا
الإقحام الشائن ، رغم أن بعضها يُهل الاسم ، ولا يذكر علياً بشيء ، وبعضها
يعين غيره من الصحابة ...

نحن لا نريد العرض بشيءٍ مآ ، لهذه المناقشة ... بل فكتفي بالإشارة
إلى تهافت محتوى هذا الافتئات . في تناقضه المكشوف ، مع صريح القرآن ،
والأحاديث الثابتة ، في حق عليٍّ « عليه السلام » .

فشرب الخمر تقيض ، لآية التطهير ، التي لا يتطرق الريب ولا الشك ،
في أن علياً ضمن نطاقها ، بل هو أول المنطبقة عليهم ، وتقيض لكونه نفس
الرسول ، في آية المباهلة ، اللهم إلا أن لا يابى المفتت : أن ينال الرسول بمثل
ما نال به نفسه ! ، وهو عليٌّ « عليه السلام » .

(١) النساء : ٤٣

(٢) اسباب النزول ٦٣

وهي - من نظرةٍ أخرى لجوانب هذا الافتئات - نقيض للثابت من سيرة عليٍّ، التي لم يختلف فيها اثنان ، من أن علياً لم يشرك بالله ، طرفة عين ، منذ وُجد ، فكيف يُمكن الجمع بين هذا ، وبين قراءته المحرّفة - وأستغفر الله ! - للآية : « ونحن نعبد ما تعبدون » - وهي خطاب للكفار ١٩ .

وليس لنا أن تُناقش مثل هذا الافتئات المفصوح ، بأكثر من الإشارة للشاطيء من بعيدٍ . إذ لو شئنا البسط والتقصي . والإحاطة الشاملة ، لمّا اتّسع لنا مجال الوصول للهدف من هذا الكتاب .

ولكن يجب أن نُشير الى : أن هناك مَنْ ذكر حادثةً ، كهذه ، سبباً لنزول هذه الآية ، وذكر شخصاً ، غير عليٍّ هو الذي صلّى بالسكاري ... فجاء مَنْ جاء ، وأسدل الستار على ذلك الضعابي الكبير ، ليقيم مقامه علياً ، دون أن يخشى عاقبة الكذب ، وما يتج عنه من نيل للرسول « ص » في ما ينال به علياً ، نفس الرسول ١ .

على أن من المفسرين مَنْ ذهب إلى أن هذا السكر ، الذي جاء في الآية ، ليس سكر الخمرة وإنما سكر النوم خاصّة (١) .

* *

وتتبع شيئاً ، ممّا أتى به هذا الخلف ، الذي باعد بين الشقّة ، ووسع في هوة التفرقة والنفار ، بما أتى به من الطامات ، التي لا ترتكز على شيءٍ ، من صدقٍ أو حقٍّ ، أو على حسن قصدٍ ، فقط .

تتبع شيئاً من ذلك ، ونطالع بعض ما سطره من أمثال ما عرضنا نماذجهُ ، فنعجب لما يجيب به « الغزالي » سائلاً ، سأله عن لعن يزيد :

- هل مَنْ صرّح بلعن يزيد ، يكون فاسقاً ؟ ويجوز الترحم عليه ؟

(١) مجمع البيان : ١١٢ : ٥ والكشاف : ٣٩٧ : ١ .

فكان هذا جوابه :

إن مَنْ لعنه يكون فاسقاً عاصياً — كذا !؟ — لأنه لا يجوز لعن المسلم ، ولا يجوز لعن البهائم ، فقد ورد النهي عن ذلك ، وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة ، بنص النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ويزيد صح إسلامه ، وما صح أمره بقتل الحسين ، ولا رضاه بقتله ، وما لم يصح منه ذلك فلا يجوز أن يظن به ذلك . فإن إساءة الظن بالمسلم حرام . وإذا لم يعرف حقيقة الأمر ، وجب إحسان الظن به . ومع هذا فالقتل ليس بكفر ، بل هو معصية . وأما الترحم عليه ، فهو جائز ! . بل هو مستحب ، لأنه داخل في المؤمنين ، في قولنا في كل صلاة : اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات (١) .

أرأيت هذا التناقض ، وما وراءه من تدليس ؟! إساءة الظن بالمسلم حرام . وقتل الحسين ليس بكفر . وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة — بنص الرسول — فيجزم لعن يزيد ؛ ولكن لا حرمة للحسين ، ولا كرامة لدمه ، ولا قيمة لما جاء به الرسول في حقه ، فليس في قتله ما ينال من كرامة يزيد : خليفة الرسول ، وأمير المؤمنين ؛ بل ولا ما يخذش في إيمانه ؛ بل هو مندرج تحت عموم قول المصلي : « اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات » .

وليس القول بإيمان مَنْ قتل أباه ، ونكح أمه ، وشرب الخمر في رأس أبيه ، من حيث شذوذ هذا القول ، وتجنّيه على الحق والصدق ، إلا دون القول — بله الاعتقاد والدفاع بحرارة — بإيمان يزيد الخمر والفجور ، السكر والعريضة ، الاستهتار والتهتك .

ولكن قتل يزيد للحسين « عليه السلام » ، كان هو الدافع الأول لهذا الموقف المخزي من الغزالي ، في جانب يزيد مدافعاً دفاع المستميت . ويظهر أن الغزالي ، حول هذا الموضوع — الدفاع عن إمامه يزيد بن

(١) السيرة الحلبية : ١٩٥ : ١

معاوية — عِدَّة مواقف ، تتكرَّر حسب الحاجة ، أو بدونها...! فهو يقول ،
مرة أُخرى :

[فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد ، لأنه قاتل الحسين ، أو أمر به ؟ قلنا :
هذا لم يثبت أصلاً ، فلا يجوز أن يقال إنه قَتَلَهُ أو أمر به ، ما لم يثبت
« كذا ؟ ! » فضلاً عن اللعنة ، لأنه لا يجوز نسبة مسلم إلى كَثِيرَةٍ مِنْ غير
تحقيق] (٢) .

ويعود ، ليصرِّح عن مكنون ضميره ، إذ لا يكتفي بهذا الدفاع عن
يزيد ، بإنكاره الوقائع المسلَّمة ، التي لا يشك فيها إلاَّ غنودٌ مكابِرٌ ، أو جهولٌ
معتوِّة ... فتبرئته يزيد مِنْ قتل الحسين ، ليس بكافيٍّ لديه ، لأنه عارفٌ
بمقدار ما احتمله مِنْ التضليل ، وإنكار « أن الواحد نصف الإثنين » .

يعود ، فيحاول الدفاع مِنْ بابٍ آخر... الدفاع عن قتلة الحسين جميعهم ،
حتى ولو سلَّم أن يزيد منهم ، في رأيه الفائل ... فهو لم يستمت في دفاعه
عن يزيد ، لو لم يكن قاتلاً للحسين ، أمراً به ، راضياً شامتاً ... يقول :

[فإن قيل : هل يجوز أن يقال : قاتل الحسين لعنه الله ، أو : الأمر بقتله
لعنه الله ؟ قلنا : الصواب أن يقال : قاتل الحسين ، إن مات قبل التوبة لعنه
الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة] (٢) .

وراح يستدلُّ بفرية توبة وحشي ، قاتل حمزة ، وعدم جواز لعنه ،
مع أن وحشياً لم يمرَّ به يومٌ ، تخلَّى فيه عن وحشيته ، وقد اختتم حياته

(١) إحياء العلوم ١٢١ نحو ٣ وإن للغزالي رأياً آخر ينقض هذا الرأي ،
حيث عاد إلى رشده ، وذلك في ص ١٠ مِنْ (سر العالمين) ... وهذه الآراء
تصدر عن : الدافع لوضع هذا الكتاب ، أو ذاك ...

(٢) إحياء العلوم ١٢٢ نحو ٣ .

بمعاقرة الخمرة ، مدمناً لها ، حتى غلبت عليه فلا يكاد يصحو منها (١) .
ولكن الغزالي ، وموقفه هذا ، في محاولته أن لا تنال كافرأ ، أوفاسقأ
— كيزيد ، ووحشي ، ومَن إليهما — لعنة لاعن ...

... إن هذا الذي وقف مدافعاً عن يزيد ووحشي، بل حتى عن زعيمهما
إبليس ، لعنه الله ، إذ يقول :

[ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس، فضلاً عن غيره] (٢) .

... إن هذا — بكل هذه المواقف الشائنة ، التي لا يريد أن تنال اللعنة،
حتى إبليس وحفدته . لا يتأثم ولا يتحرج أن يقول ، مثل هذه الطامة :
[الثانية : اللعن بأوصافٍ أخص منه ، كقولك : لعنة الله على اليهود
والنصارى والمجوس ، وعلى القدرية والخوارج والروافض ، أو على الزناة
والظلمة وآكلي الربا ، وكل ذلك جائز] (٣) .

وقد يُظن أن بين الموقفين كثيراً من تناقض... فهو يجيز — هنا — لعن
هؤلاء الطوائف ! بينما هو — هناك يدافع عن مثل يزيد وطفغته، من قتلة
الحسين ، بعد أن لم يرَ أيَّ بأسٍ في السكوت عن لعن سيدهم إبليس !

ولكن نظرة فيها شيءٌ من رويةٍ وعمقٍ ، تجعلنا لا نجد شيئاً من هذا
التناقض ، بل تربط بينهما الربط الموثق . لأن إجازته لعن الروافض —
هذا النبز للطائفة الشيعية الحققة — يتحد والدفاع عن يزيد ، في المرمى
والهدف والغاية . فالجميع نتيجةٌ حتميةٌ ، وثمرَةٌ مريرةٌ ، من بذرة الكره
للعتر الطاهرة ، آل رسول الله «ص» .

(١) الاستيعاب : ٦١ : ٣ .

(٢) إحياء العلوم : ١٢١ : ٣ .

(٣) الإحياء : ١٢٠ : ٣ .

ولسنا نستغرب — بعد كل هذا — أن يصف الشيعة — أتباع آل البيت « عليهم السلام » — مع الخوارج والقدرية ، في صف واحد ، وجواز لعن الجميع لديه ، لأن الكل — لديه — مارق من الدين ، لا يرجى لهم خير ، ولا تقبل منهم توبة .

بل لو صرّح عن رواسب مكنونه ، لفضّل جميع الفرق والطوائف والمِلل الباطلة ، على الفرقة الشيعية ، لأن ذنبها الوحيد : أنها شيعة لعليّ وبنيه — هذه الجريمة التي لا تُغتفر ، والدرن الذي لا يُغسل ! .

وفرق كبير جداً ، بين موقف الغزالي في دفاعه عن يزيد الرذيلة ، وقتلة السبط الحسين ، وبين موقف الجاحظ ، من هذه النقطة بالذات .

ولعل من الخير أن نأتي بمقطع مما قاله الجاحظ ، حول ذلك ، وهذا المقطع حلقة متصلة بما سبق أن استشهدنا به من قول الجاحظ ، حول فرية « عام الجماعة » :

[ثم الذي كان من يزيد ابنه ومن عماله وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ورمي الكعبة واستباحة المدينة ، وقتل الحسين رضي الله عنه في أكثر أهل بيته : مصاييح الظلام ، وأوتاد الاسلام ، بعد الذي أعطي من نفسه ومن تفريق أتباعه والرجوع إلى داره وحرمة أو الذهاب في الأرض حتى لا يُحسّ به ، أو المقام حيث أمر به ، فأبوا إلا قتله والنزول على حكمهم]^(١) .

ثم راح يستدل بأعمال قام بها يزيد ، مما ثبت كفره ، حتى قال :

[واحسبوا ما رووا عليه من الأشعار التي قولها شرك ، والتمثل بها كفر ، شيئاً مصنوعاً ، كيف صنع بنقر القضيبي بين ثنيتي الحسين رضي الله عنه ! وحتل بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حواسر على الأقتاب العارية ، والابل الصعاب ، والكشف عن عورة علي بن الحسين عند الشك في بلوغه ؟

(١) رسائل الجاحظ ٢٩٤ .

على أنهم إن وجدوه وقد أثبت قتلوه ، وإن لم يكن أثبت حملوه ، كما يصنع أمير جيش المسلمين بذراري المشركين ؟! وكيف تقولون في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته : دعوني أقتله ، فإنه بقية هذا النسل ، فأحسم به هذا القرن ، وأميت به هذا الداء ، وأقطع به هذه المادة...؟!

خبرونا : على مَ تدلُّ هذه القسوة وهذه الغلظة بعد أن شفوا أنفسهم بقتلهم ونالوا ما أحبوا فيهم ؟ ، أتدلُّ على نصبٍ وسوء رأيٍ وحقدٍ وبغضاء ونفاقٍ ، وعلى يقينٍ مدخولٍ وإيمانٍ مخروجٍ ؟! أم تدلُّ على الإخلاص وعلى حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحفظ له ، وعلى براءة الساحة ، وصحة السريرة ؟! فإن كان على ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال ، وذلك أدنى منازلهم . فالفاسق ملعونٌ ومن نهى عن شتم الملعون ملعونٌ [(١)] .

ولا نرى حاجةً في تعليقٍ على هذه القولة من الجاحظ ، فإن فيها ، وفي ما تلاها من هذه الرسالة ، للردِّ المفحم — سواءً كان بقصدٍ أو بغير قصدٍ — على الموقف المشين ، الذي وقفه الغزالي ، في دفاعه عن عصبة الجور والآثام ، مجموعة الرذائل ، الشجرة الملعونة في القرآن .



وبعد أن نقف على تلك القولات المائنة ، يفوه بها الغزالي — وهو المعطى لقب « حجة الإسلام » ! — غير متأثمٍ ولا متحرِّجٍ... فإننا لا نرى أية غرابةٍ ، إذا قرأنا له قوله :

[يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكايته ، وما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم ، فإنه يهيج بغض الصحابة والظعن فيهم ، وهم أعلام الدين ، وما وقع بينهم من المنازعات ، فيحمل على محامل صحيحة ، ولعل

ذلك لخطئ في الاجتهاد، لا لطلب الرياسة والدنيا كما لا يخفى [(١)] .
وغير خفي ما يعنيه دفاعه هذا ، وما شحن من تضليل وتزوير ، من
تحريم ذكر فاجعة لم تمر بالإنسانية مثلها ، ومأساة لم ولن يشاهد بنو الإنسان
نظيرها ، وقد عدّ - من أجل ذلك - يزيد وطفته من أعلام الدين ، الذين
لا يستقيم إلا بهم ، فلا يجرحهم إلا مرتاب أو مبطل .

وهو - هنا - شمل بالدفاع كل مبطل غشوم ، حيث تناول بالدفاع ،
حتى عن معاوية في موقفه من حرب الإمام عليّ « عليه السلام » ، لاجتهاده في
ذلك ، وأنه ليس لطلب الرياسة والدنيا ، وإن كذبه أبو يزيد ، وابن أبي
سفيان ، وحفيد أمية ذاته ، في خطابه لأهل الكوفة :

[يا أهل الكوفة ! أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ؟ وقد
علمت أنكم تصلّون وتزكّون وتحجّون . ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى
رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أو دم أصيب في
هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطه فتحت قدمي هاتين] (٢) .

وليس لنا أن نطيل الوقوف ، عند كل فرية أتى بها الغزالي ، وكتابه
« إحياء العلوم » - هذا الكتاب الذي سُمّي بضدّه ! ، وكثيره هي الأسماء
المضادّة للمسمّيات ! - وكتابه هذا مشحون بالتفاهة والمين ، والغش
والتضليل . وما عرضنا هذا ، سوى نماذج تُعطي الصورة الواضحة ، لما
ابتلت به الأمة الإسلامية ، من رجال سوء ، هم تجار الدنيا باسم الدين .
إذ لولا ذلك ، لما جاء من يقول : « إن الحسين قُتل بشرع جده » (٣)

(١) الغدير ٣١١ : ١٠ عن تفسير روح البيان ١٤٢ : ٤ لاسماعيل

البروسوي .

(٢) الحديدي : ٦ : ٤ والغدير ٣٣٦ : ١٠ مسنداً .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٧ عن « العواصم والقواصم » لابن العربي .

— وهو أبو بكر بن العربي — ذلك أن يزيد « إمام زمانه » ، والحسين خارج عليه ! ، وقتله هو الجزاء الشرعي ، الذي يستحقه في دين جده .

وابن العربي يمتاز على الغزالي ، في صراحته ، فهما متفقان في الرأي والغاية ؛ ولكن الثاني ، قدّم السم ممزوجاً بما ظنّه عسلاً .. أما الآخر فقدّمه صرفاً ، يبين ظاهره عما في باطنه من خبث ، وما يحمل من سوء ...

* *

وليس يرضى المؤرخ ابن خلدون : أن ينال واحداً من أهل البيت المطهر، دون آخر ، فأرسل هذه القولة الراجعة :

[وشذّب أهل البيت بمذاهب ابتدعوها ، وفقه انحدروا به — إلى أن قال : وهي كلها أصولٌ واهيةٌ . وشذّب بمثل ذلك الخوارج . ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم . بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح ، فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم ، ولا نروي كتبهم ، ولا أثر لشيءٍ منها ، إلا في مواطنهم . فكُتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والشرق واليمن ، والخوارج كذلك . ولكلٍّ منهم كتبٌ وتآليف وآراء في الفقه غريبة] (١) .

وإنها لمنفرة لابن خلدون : أن يدع فقه أهل البيت ؛ ولكن الأئمة من أهل البيت « عليهم السلام » ، لم يتدعوا شيئاً . وإن تكن أقوالهم مذاهب مبتدعة — كما يقول ابن خلدون — فإنها راجعة للقرآن العظيم « الذي جاء بتطهيرهم » .. فليكن القرآن ينبوع يدع أهل البيت وأصلها ! .

ومنفرة أخرى له : أن يضعهم في قبال الخوارج ، ويقس شذوذ هؤلاء بأولئك ! فتكون النتيجة المريرة ، هي : مروق أهل البيت من الإسلام ، كمروق الخوارج من الإسلام ، في نصوص الرسول « ص » .

ومنفرة ثالثة : أن يوسع مذهب أهل البيت وهو صميم الإسلام جانب

(١) المقدمة ص ٤٤٦ .

الإنكار والقدح والازدراء ! .

ولقد أسرف البعض في ذلك، حتى اضطر لمخالفة السنة - الثابتة لديه -
لأن شيعة أهل البيت تعمل بها ، فرغبة في البعد المنفصح عن التشبث بالشيعة ،
عدل عن الثابت من السنة ، إلى ما يخالفها [.

ولابد - هنا - من الإشارة إلى نماذج هذه المخالفة ، التي ارتكبت
عمداً ، لمجرد أخذ الشيعة بها ، كسنة نبوية :

إن السنة في القبر هو التسطیح - كما هو الراجح من مذهب الشافعي -
إلا أن هناك من نص على [أن التسنيم أولى ، لأن التسطیح صار شعاراً
للشيعة]^(١)

وقال الغزالي والماوردي ، حول ذلك :

[إن تسطیح القبور هو المشروع ، لكن لما جعلته الرافضة شعاراً لهم
عدلنا عنه إلى التسنيم]^(٢) .

وكذلك التختيم حيث أن السنة تنص عليه في اليمين ، ولكننا نجد من
يقول :

[إن المشروع التختيم في اليمين ، ولكن لما اتخذته الرافضة جعلناه في
اليسار]^(٣) .

وفي هذا الخلاف ، قصد به خلاف الشيعة المتبعة للسنة ، بالإضافة
إلى اتباع معاوية ، مبتدع هذا الخلاف للسنة ، لأنه أول متخذ للتختيم في
اليسار ! .

وكثيراً ما تجد مثل هذه الجملة الواقعة :

(١) و (٢) ص ٢٠٩ و ٢١٠ : ١٠ من الغدير .

(٣) الغدير ص ٢٠٩ - ٢١١ : ١٠ .

[إلا أنه صار شعاراً للإمامية فينبغي تجنبه] (١) .

[ولأنه يؤدي إلى الإتهام بالرفض] (٢) .

[ولا ينبغي للمؤمن أن يتشبه بيزيد الملعون في بعض الأفعال ،
وبالشيعية والروافض والخوارج أيضاً] (٣) .

وكثيراً ما نجد تعليل ترك السنة ، « لكونه شعاراً للرافضة » ؛ [فإن
ترك السنة سنة إذا كان شعاراً لأهل البدعة ، كالتختم باليمين ، فإنه في
الأصل سنة ، لكنه لما كان شعار أهل البدعة والظلمة صارت السنة : أن
يجعل الخاتم في خنصر اليد اليسرى ، في زماننا] (٤) .

وهكذا صار الخلاف للشيعية أصلاً معمولاً به ، وبدعة تخالف بها السنة
الثابتة ، وليس من نكر حول ذلك ، حتى أن هناك من قال عند « بيان
التشبه بالروافض » :

[ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات إذا
صارت شعاراً لهم ، فإنه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك ، لكن في إظهار
ذلك مشابهة لهم ، فلا يميز السني من الرافضي ، ومصلحة التميز عنهم لأجل
هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة هذا المستحب] (٥) .

وتزدحم الأسئلة ، وتكثر علامات الإستفهام ، حول هذه الآراء المخالفة
للسنة ، والمناهضة للشرع ، والجانية على حق طائفة حق ، لا ذنب لها ، إلا
أنها أخذت تعاليم الدين الحنيف ، وأوامر القرآن الكريم ، وسنة الرسول
الأعظم ، من ينايعها الصافية العذبة ، وخضعت لما جاء به هؤلاء ، في حق
العترة الطاهرة .

هل من السنة : هذه المخالفة ؟ وهل يجب في نظر هؤلاء المخالفة في

(١) و (٢) و (٣) و (٤) و (٥) الغدير ص ٢٠٩-٢١١ : ١٠ .

كل عمل يأتي به كل من لم يسايرهم في رأيهم ، وأقوالهم هذه ؟! أم يختص هذا الخلاف بالشيعة فقط - أو بعبارة أصح : بمخالفة أهل البيت ، وحدهم ، أحد الثقلين اللذين خلفهما الرسول الأعظم ، ليهتدي من تمسك بهما ، وينجو من تعلق بهلما ، ويهلك ويفرق من خالفهما ، إن تقدم عليهما ، أو تأخر ؟! وهل أن سنة محمد بن عبدالله ، قابلة للتحريف والتغيير ؟! أليس حلاله حلالاً ، وحرامه حراماً ، إلى يوم القيامة ؟ وما جزاء من يجزؤ على القول : بأن هذا العمل من سنة الرسول ، وأنا محرّمه - أو : وأنا مخالفه ، من أجل أن أتميز عن شيعة أهل البيت ؟!

إن الشيعة تقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتؤدي ليس الواجبات الشرعية فحسب ، بل الكثير من المندوب ، ابتغاء مرضاة الله - فهل يجب على من يريد مخالفتهم : أن يدع ما تقيم وتؤدي وتؤديه الشيعة ؟! أم عليه - على الأقل - أن يأتي بشيء يخالف به السنة الثابتة ، في سبيل أن لا يأتي بهذا العمل المماثل لما تأتي به الشيعة ؟!

وبعد أن تقف على هذا الاعتراف السافر ، في تجويز مخالفة السنة الثابتة ، لا تلبث أن نجد من يرمي الشيعة بمثل هذا ، فيصدق المثل العربي الصائب : « رمتي بدائها وانسلت » .

ودائماً نجد مصداق ذلك ، في موقف أعداء أهل البيت من شيعتهم !

وهكذا بُليت الأمة الإسلامية ، بأناس لم يستخدموا المعرفة ، في سبيل الحق ، وإسعاد البشرية ، بل استخدموها : معولاً للمهدم ، وبذاراً تُؤتي ثمار التفرقة المرّة... ولم يوجهوا عقولهم من أجل توضيح الحقائق ، والبحث عنها ، بل في سبيل إضاعتها وتشويهها ، كل ذلك طمعاً في منصب ، أو رتبة ، أو جاه ، أو مال !

فنحن ، إن كنا نعجب لأولئك ، الذين اختلجوا الأحاديث ، وافتعلوا

١ الأكاذيب ، وأتوا بالمنكر من القول ، والزور من الحديث...!

... أوامر معاوية - ومن إليه من يشتري الضمائر ، وخان العهود ، ونقض الميثاق ، وخضم مال الله « خضمة الإبل نبتة الريح » ، وخفرالدم واستعلى على الأمة ، وانتزى على حقوقها...!

أقول : إن كنا نعجب لأولئك ، لأفاعيلهم المنكرة ، وأقاويلهم المفتعلة... فإن عجبنا لهؤلاء ، الذين زادوا الطين بلة ، وفي الزمار نغماتٍ ، وأخذوا تلك المناكير على أنها أعمالٌ ، لا يُوجه إليها ذرةٌ من نقدٍ ، وتقلوا ذلك الزور المفتعل ، على أنه أحاديث موثوقة السند ، وقد نذت بها شفتا رسول الله « ص » - واستغفر الله !.

إن عجبنا من هؤلاء ، لا ينتهي لحدٍّ ، فهو جارفٌ مشتدٌ . ذلك أن أولئك ، اختلقوا ما اختلقوا ، بعدما باعوا آخرتهم بديارهم ، وضميرهم وإنسانيتهم ، وقبضوا الثمن البخس : ذهباً وهجاءً ، وفضة ناصعة البياض - وإن كانت قيمة ضمائر مسودة الدخلة ...

وأما المشتري ، فهو : رجلٌ متاجرٌ ، لا يعرف فضيلةً ، ولا يُقيم لها وزناً لا يعرف سوى الغاية الدون ، التي ينشدها ، ويعدو خلفها ، فيتخذ كل وسيلةٍ جسراً لها - مهما كلف الثمن ، ومهما كان خسرانه في ميزان القيم ...!

إن الغاية - لديه - تبرر الوسطة ، حتى ولو كانت الوسطة : تقويض أركان الدين ، وطعنه في الصميم ، والإجهاز على آخر رفقٍ من الضمير الإنساني ، والخنق لصوت العدالة الحققة ، وتلاشي أصدائها المرثية ...!

إن السياسة الميكافيلية - التي يتبعونها - كفيلةٌ بأن تقتلع كل القيم والمفاهيم - مهما كانت - التي تحاول تأخير سيرها إلى هدفها الدون ... وإن قولة الملك العباسي ، عند قبر الرسول « ص » : إن الملك عقيمٌ ، واول نازعني صاحب هذا القبر ، لضربت خيشومه بالسيف !.

— في الوقت الذي يملك فيه أزمة الأمور ، ويتتري على حقوق الأمة ،
ويهدد كرامتها ، باسم الخلافة الإسلامية ، هذه التي يبرأ منها الدين الإسلامي
الحنيف ، ويدعو لجهادها ، والقضاء عليها ، وإعادتها لمن تتوفر فيه كل
المميزات لهذا المنصب الخطير .

إن هذه القولة ، تعبر أصدق تعبير عن أسلافه ، وعن خلفائه — وإن لم
ينطق بها لسان غيره... غير أن القلوب تخفق بها ، والأعمال تتجهج ما
جاءت به ...

إن ما ينظر له القلب الماء : أن نفوس في بطون الكتب ، وقد وضعت لتؤرخ حبة من حقب التأريخ ، أو لتجمع بين الشتيت من الأحاديث ، التي رواها الرواة عن الرسول « ص » لتجمع تراثاً باقياً ...

... أن نرجع إليها لنبحث عن موضوع ، نريد أن نزيل ما علق به من أوضارٍ وما ناله من وضع الوضائع ، فنعرف زيفه من صححه ، وجوهره من مردوله - فنجد أنفسنا : كفريقه ، أخذ الموح من جميع نواحيه ، وغشاه الظلام ، فسد عليه النور ، فلا يلح حتى إشاعة ، تراه بريق أملٍ في الحياة...!

فهذه الكتب حافلة بالأراجيف الموضوعة ، والخرافات المضحكة ، والأحاديث المختلفة... وإن واضعها ليعرف حقيقتها ويعلم بواقعها المشين... غير أنه ألف كتابه - مثلاً - لذلك الوزير ، أو لهذا الملك ، أو ليقدمه لذلك الوجه الكبير - لينال ما يرضي شهوته الحنقاء ، ويشبع نهمه المادي المسعور !

فهو يحاول شحنه ، بكل ما يرضي به رغبات هذا الذي ألفه من أجله ، ويرضي قزواته وشهواته لينال أجره غير منقوص ، فإنه إن لم يرض هذا - وإن أسخط في سبيله الحق والله - لم يرض مطامعه ، ولم يحقق آماله .

وهذا هو السبب المباشر ، لما نتج من اضطراب وتخطي ، حينما نرجع

لموضوع ، فنجد في كتاب ، نقيضه في آخر ، حتى يكاد يعنى على الباحث ، طريقه الألب ١٠

ومن هنا... نجد بعض المؤلفين ، يأتي بالفكرة - أو الرأي - في هذا الكتاب ، في حين أنه يخالفها ، أشد المخالفة ، وينقضها ، أبشع النقض ، في كتابه الآخر ، ذلك أن كل كتاب سار فيه حسب الهوى الجارف ، الذي ينشده من وضع له الكتاب الأول^(١) ، وإذا وضع الكتاب الثاني ، لمن تخالف رغبته وهواه ، تلك الرغبة وذاك الهوى... فإن الموضوع يختلف هنا ، عنه هناك ، والحق الواضح هناك ، باطل لا ريب فيه ، هنا...!

ولو شئنا أن نضرب الأمثال ، لطال بنا السير ، ولغرضنا عن دائرة موضوعنا ، الذي نحاول اجتياز هذه « العتبة » إليه .



ولكن فخذ هذا المثل ، على الاضطراب والتخبط ، في سبيل إرضاء الشهوات والأغراض ، ولو بمسح الحقائق ، ونكران الواقع ، والتجني على الحق .

فليس من ينكر : أن النبي « ص » ، قد لعن الحكم بن أبي العاص ومن ينتج من سلالة - وهل تنتج الحيفة غير النتن الخناق - وأنه « ص » وقد أتى الحكم بابنه مروان - في ولادته - قد قال « ص » :

« إنه الوزغ بن الوزغ الملعون بن الملعون »^(٢) .

(١) لنا أن نستشهد - هنا بموقف الغزالي، من يزيد وقتله للحسين « عليه السلام » وتناقضه في ذلك ، بين كتابيه : « إحياء العلوم » و « سر العالمين » حيث سبق أن أشرنا إليه ...

(٢) ينابيع المودة ص ٢٥٦ والنزاع والتخاصم ص ٥ وشرح النهج ١: ٥٥ ←

وأنه «ص» لعنه ، ومروان في صلبه ، فمروان فضض^١ من لعنة رسول الله - كما عبرت بذلك السيدة عائشة .

وأنه «ص» قد طرد الحكم ، من المدينة ، حتى لحق الرسول بربه ، فولي أبو بكر وعمر ، وجاء إليهما من تشفع فيه ، فأبيا عليه ، وثارا في وجهه ، مغلظين له ، قائلين :

« أنجير طريد رسول الله ، أو نحل عقدة عقدها »^(١) .

وكان مما أجاب به عمر ، حين طلب عثمان له الشفعة ، قال :

« يُخرجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتأمروني أن أدخله ! »
والله ! لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل : غير عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
والله لئن أشق^٢ بئس^٣ - كما تشق الأبلمة^(٢) - أحب إلي من أن أخالف لرسول الله أمرا ! وإياك - يا ابن عفا ! - أن تعاودني فيه ، بعد اليوم^(٣) .

وليس يظن واحداً بعد هذا أن يجيء الشهاب الخفاجي ، فيقول بتوبة

→ وكشف الأستار ٨٥ وأبو هريرة: ١٢٦، والدعوة ١٨٩: ١، والغدير ١٣٠: ٢٥٠ و٢٥٢ و٢٦٦: ٨ مسنداً لعدة مصادر ، وذكر - في الجزء الخامس - أن الحاكم جمع هذه الأحاديث ، المتصلة بالموضوع ، وصححها في مستدركه ص ٤٧٩-٤٨٢ : ٤ .

(١) شرح النهج ١: ٦٦، والغدير ٢٥٠ و٢٦٠: ٨ ، وأشير لذلك في ص ٨٠ من رسائل الجاحظ .

(٢) يقال : المال بيننا شق الأبلمة - بضم الهمزة - أي : نصفين .

(٣) شرح النهج ٢٣٢: ١ .

الحكم ، وخلوص طويته (١) ! .

* *

ثم مَنْ ذا - لولا مال معاوية ! - يقول بإسلام - بله ، إيمان - أبي
سفيان ، وهو العدوُّ الألدُّ للمسلمين ، ورسول الإسلام ، والذي لم يُسلم إلا
بكرهاً ! .

جاء به العباس - وقد أمّنه - للرسول ، فقال له :

ويحك - يا أبا سفيان ! - أما آن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ !
أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ! ما أوصلك ، وأحلمك ، وأكرمك ! .
والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله آله غيره ، لقد أغنى
عني شيئاً ! .

الرسول : ويحك يا أبا سفيان ! - أما يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ !
أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ! ما أوصلك ، وأحلمك ، وأكرمك ! .
أما هذه ، ففي النفس منها شيء ! .

العباس : ويلك : اشهد شهادة الحق ، قبل أن تضرب عنقك (٢) !
هذه هي صورة إسلام أبي سفيان - كما يرويها التاريخ ! - وما هذا ،
سوى استسلام ، قبل أن تضرب عنقه ...

وإنه لا يلبث - بين حين وآخر - أن يظهر ما في خفايا نفسه ، وطوايا
ضميره ، من رواسب الشرك الراسخ ، والحق الدفين .

(١) السيرة النبوية : ٢٢٩ : ١ .

(٢) ارجع للاستيعاب ٨٦ : ٤ والشرح الحديدي ٢٠٨ : ٤ والغدير ص ٢٢٣ : ٣ .
وأشار إلى ذلك الجاحظ ، في كتابه [فضل هاشم على عبد شمس] ←

رأى الناس يطأون عقب رسول الله « ص » ، فحسده ، هامساً لنفسه :

« لو عاودتُ الجمع ، لهذا الرجل !؟ » .

وإذا بالرسول يضربه في صدره : « إذن يخزيك الله ! » .

فاستمع لجوابه ، الذي يُصور لك كوامن نفسه ، ورواسبها :

« ما أيقنت أنك رسول الله ، حتى الساعة » (١) .

ولكنه حتى بعد هذه الساعة ، لم يتيقن ، ولم يعرِ اليقين إلى قلبه باباً فيلججه ، فكان أشد ما يؤذيه : أن يعبر بما يشتمُّ منه رائحة الإعراف بنبوة محمد « ص » . فاسمعه كيف يعبر عن ذلك ، مخاطباً العباس بن عبد المطلب — وقد رأى الرسول ، في جيشه الخضم ، وكتائب الأنصار تحف به — فيقول :

[والله — يا أبا الفضل ! — لقد أصبح « ملك » ابن أخيك ، اليوم ، عظيماً] (٢) .

وينظر أبو سفيان للنبي — وهو بالمسجد — نظرةً تتمثل فيها كل ما تحمله نفسه من : ضعةٍ وحقدٍ ، وضغينةٍ وكيدٍ ، وأسفٍ قتالٍ ، أن لم ينل من الرسول ما يلاشى دعوته ، وأن لم يتغلب الباطل ، الذي كافح عنه ونافح ، — حتى استخذي وفشل — على ذلك الحق الأبلج المتلألاً ، في دعوة محمد بن عبد الله يحاطب نفسه ، عاتباً لائماً أسيفاً :

→ رسائل الجاحظ ص ٧٨ — وقد أشار لكلمات الكفر والنفاق من أبي سفيان ، بعد إظهاره للإسلام ، ولكنها إشارة من الشاطيء البعيد ، يعرفها المتتبع .

(١) الاصابة ١٧٢ : ٢ ، والغدير ٢٨٥ : ٨ ، و ٨٣ : ١٠

(٢) الامام علي صوت العدالة ٢٠٧ و ٢٠٨ (٤ : ٧٧١) .

« ليت شعري ! بأي شيء غلبني ! » .

فلم يهله الرسول في موازته التجارية المادية هذه ، حين يقيس الغلبة بالكثرة ، والهزيمة بالقلّة ، بل أقبل عليه ضارباً بيده بين كتفيه ، مجيئاً له بما يضحيه ، وبما يتحداه ، فيهزم منه القوى ، ويقلب عليه موازين النصر والغلبة ، في عرفه المادّي :

« بالله غلبتك — يا أبا سفيان ! » (١) .

* *

ولا يصل لسمعه نبأ بيعة عثمان ، حتى يدخل عليه ، فيسأل :

« أفيكم أحدٌ من غيركم ؟ » .

فما استيقن صفاء الجو ، حتى راح يقول :

(قد صارت إليك بعد تيمٍ وعدية ، فأدرها كالكرة . واجعل أوتادها بني أمية . فوالذي يحلف به أبو سفيان (٢) ما زلت أرجوها لكم ... ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثه ، وإنما هو الملك ، ولا أدري ما جنة ولا نار (٣) . ثم يتجه نحو قبر الحمزة ، ليطفيء لهبةً من الحقد ، لا تزال تستعر في داخلها . وما هي ذي — اليوم — قد أخذت لهبتها تنطفيء ، فركل القبر برجله ، وفجّ صوته البغيض الحقود :

(١) المصدر ص ٢٠٨ (٧٧١ : ٤) .

(٢) ليس يجهل القارئ ما يحلف به أبو سفيان ، وفي أذنه أصداء ،

لكلمته — في إحدى حروبه للرسول : « اعل هبل ! » — أي : أظهر دينك . وختام قوله هذه ، تحمل ألف دليلٍ ودليلٍ : « ولا أدري » — الخ .

(٣) الاستيعاب ٨٧ و ٨٨ ج ٤ ، وشرح النهج ١٣٠ : ١ ، والإمام علي ٣١٩ : ١ والنزاع والتخاصم ٥ و ٢٧ ، ومعجم القبور ١٩٣ : وأصل الشيعة ٥٥ و ٥٦ ، والغدير ٢٨٥ و ٣٣٩ قارب (٢٧٨ و ٣٣٢) : ٨ ، و ٨٣ : ١٠ ، والإمام علي صوت العدالة ٢٤٩ باختلاف يسير ، وفيه أيضاً ص ٩١٥ : ٤ .

« يا أبا عماره ! إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف ، أمسى في يد
غلماننا يتلعبون به » (١) .

ورضيت نفسه — اليوم — بما فعل ، أكثر منها في يوم « وحشي » ، وما
قامت به « آكلة الاكباد » من عملٍ شنيعٍ ١٠٠٠

* *

ولكن ... فإنك وأنت تبحث في كتب الحديث — ستجد فصلاً
معقوداً ، لفضائل أبي سفيان ١٠٠٠

ثم لم يرض هؤلاء الوضّاعون ، بفضائل أبي سفيان المختلقة — بعد
ادعائه الإسلام ، أو نسبته إليه — حتى رأوا له الفضل على الإسلام ! ولعل
ذلك في ابتغائه الفوائد للإسلام ، ومناهضته للرسول في حروبه الدامية
الحقود . لم يرض هؤلاء ، حتى جاءوا بهذه الكذبة الصلعاء — ولا كصلعة
أبي هريرة :

[ومن مثل أبي سفيان ؟ ألم يزل الدين به مؤيداً قبل أن يسلم وبعدما
أسلم . ومن مثل أبي سفيان ؟ إذا أقبلت من عند ذي العرش ، أريد الحساب ،
فإذا أنا بأبي سفيان معه كأس من ياقوتة حمراء يقول : اشرب يا خليلي ! .
أغار بأبي سفيان ، وله الرضا بعد الرضا ، رحمه الله] (٢) .

(١) النزاع والتخاصم ٢٧ ، وشرح النهج ٥١ ، ومروج الذهب ٣٥١ ،
٣٥٢ ، والإمام علي ٣٢٢ ، والغدير ٨٣ ، والإمام علي صوت العدالة
ص ٢٠٩ (٧٧٢) كلمة تشبه هذه ، ولعلها أشدّ مرارةً وحقدًا في التعبير عن
دخيلة نفسه السوداء :

« انهض ! فقد صار إلينا الملك الذي حاربنا عليه ! » .

(٢) الغدير ٧٩ و ٨٠ ، مسنداً .

ونحن إذ ندع التعليق على هذه الفرية الفاضحة ، فلأن في حياة أبي
سفيان — الحافلة بكل ما يؤكد هذه الفرية — ما يصدنا عن التعليق ... وفي
صفحات التاريخ — على ما سارت به الأغراض ، وما أملت الشهوات —
ما يحول بيننا وبين القول ، وفيه ما يكفي مؤونة الحكم ...!



وكما تجد مثل هذا الفصل ، بين طيات كتب الحديث — مثلاً — فإنك
تجد الكتب مزدحمة بالثناء على الزاني المغيرة بن شعبة ، والوزع الملعون
مروان بن الحكم ، وإمامي الضلال — كما يقول ابن أبي الحديد^(١) — عمرو
بن العاص ، وابن آكلة الأكباد معاوية — ومن إليهم ، من الطلقاء ، وأبناء
الزنى ، وأصحاب الأعلام من البغايا ...

(١) شرح النهج ١٥ : ٣ ، حيث استنتج ابن أبي الحديد ، ذلك في
شرحه لخطبة الإمام عليّ « عليه السلام » ، جاء فيها ذكر أئمة الضلال ،
فراه يعني هذين ، ومن شايعهما على الضلال .

ليس يرضى ابن حجر ، بما ختم به « صواعقه المحرقة » ، التي حاول فيها ، أن يحقّ خلافة معاوية — كما يقول ! — حتى ألف كتاباً ، شاء أن يضع له هذا الإسم الضخم :

[كتاب تطهير الجنان واللسان ، عن الخطور والتفوه بثلب « سيدنا » — كذا ؟! — معاوية بن أبي سفيان]^(١) .

أرأيت هذا العنوان المرعب ١٤ .

فيجب عليك : أن تطهّر جنانك ولسانك ، عن خطر التفوه ، بذكر ما يشين الطاهر ، سليل الأطهار ، معاوية ، سيد ابن حجر ، ومُنْ إليه من التجار باسم المعرفة ! .

أما حربه لعليّ ، وبغية عليه ، وإراقة دماء المسلمين ، وشتمه علياً ، وابتداعه سبّه ، وقتله عماراً وحجراً وأصحابه ، وسمّه الحسن والأشتر — ومُنْ إليهما — واستدعاؤه زياداً — وما إلى ذلك من أعماله القباح — فهو مجتهدٌ ، مأجورٌ عليها ، وهو الأمين السابع ، أو الثالث^(٢) .

(١) تجد كتابه « العظيم !؟ » — هذا على هامش صواعقه المحرقة .

(٢) من بين الأحاديث الموضوعة :

« الأمان سبعة : اللوح ، والقلم ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وجبريل ، »

وانك ، وانت تقرأ سطوراً من هذا الكتاب ، لتتمزق منك نياط القلب : ألماً وغيرة ، على الحقائق ان تسخ ، وعلى الحق ان يعادي ويمتهن !
فإنك واجد في هذا المسمى بكتاب : احاديث ، قالها الرسول في ذم معاوية ، فشاء أن يؤولها — على تعدد وجوه ! — الى فضائل ومحامد في حقه ١٠٠

وهو — الى ذلك — مشحون بوفرة هائلة ، من الاحاديث المختلفة ، والاراجيف الموضوعة ، على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم « وآله » ، ولسان علي « عليه السلام » ، لتبرر موقف معاوية من علي ، وحربه وشتمه اياه ١٠٠٠٠

أما أنا فأعذر ابن حجر — في كتابه هذا — ما دام تأليفه له ، كان نتيجة « الطلب الحثيث من السلطان همايون اكبر سلاطين الهند » ١٠٠
وهذه هي ثلاثة الأثافي ، التي منينا بها ، وفشا — بسببها — موضوع الحديث ، وزور المقال ١٠٠

→ ومحمد ، ومعاوية » .

وفي بعضها يقل العدد الى ثلاثة .

« إن الله ائتمن علي وحيه جبريل ، وأنا ، ومعاوية . . . وكاد أن يبعث معاوية نبياً ، من كثرة علمه ، وائتمانه علي كلام ربّي ، يغفر الله لمعاوية ذنوبه ، ووقاه حسابه ، وعلمه كتابه ، وجعله هادياً مهدياً ، وهدى به » ! — راجع الغدير ٢٦٢ : ٥٥ .

وفي هذا الجزء — من ص ٢٥٣ الى ٢٨٤ ، تحت عنوان [سلسلة الموضوعات] — صور رائعة ، أبدعها الخيال الخلاق ، في مناقب أشخاص ، كان لمعاوية منها نصيب أوفى ! .

وقد بلغ مجموع هذه السلسلة — من الصور الزاهية — مئة صورة .
وفي ص ٦٩ : ١٠ نماذج من هذه الصور .

ولنحسب ، إن وجدنا شائبةً من عذرٍ واحدٍ ، يُنتحل لمثل هؤلاء التجار :
باعة الضمير ، ومدلسي وجه الحقيقة والواقع ، في سبيل مجارة الحكم
الزائف - حينئذٍ - والحكام المنحرفين الجائرين ، بأجورٍ ورشٍ ، تستلب من
الأمة وضعاف لأفاسين .

ونحن إن وجدنا من يعذر بعض هؤلاء ، في أن منهم من قد يقول ما
يقول ، ويخلق ما يخلق ، خوفاً من سياسة البطش والتنكيل ، بكل من
لا يُجاري الوضع المشوه - آنذاك...!

وهي - ولا شك - أعداء زائفة ، لا تهض بالدفاع عنهم ، ولا تبرر
شائن موقفهم وقد كشفنا عن ذلك - ما وسعنا المجال... فعليهم وحدهم -
تقع مسؤولية هذا الانحراف والتزوير ، لأنهم وضعوا الأسس ، وبنوا القواعد
لهذا الصرح الظلوم ، فاحتله الغاصب والجائر ، وتوارثه العليم والجهول...
فولستعاه ما وسعها ذلك ، تحت ستر العصور المظلمة...!

ولكن أي عذر لمن يسير في هذا الطريق الشائك المتلوي ، بعد أن
كشف البحث والتدقيق - تحت النور الوضاح - عما هنالك من حقائق
مسوخة ، وحق متهمين ، وكشف عما وراء الأكمة...؟!

أي عذر لهذا الذي يعيش في هذا العصر - المستنير بعصر النور ،
وعصر الحرية - وهو يجتر من ماضيه المظلم المشويخ ، دون أن يكلف نفسه
مهمة البحث والتنقيب المدقق...؟!

وإذا كانت السياسة الشوهاء - آنذاك - تتطلب هذا الموقف الهدام ،
وتقدّر وتكافئ من يحمل معول الهدم والفرقة ، ويحمل القلم المأجور ،
ويستخدم العقل والعلم والمعرفة ، في سبيل إرساء دعائم ما يشاؤون من بناءٍ
متداعٍ منهار...!

... وإذا كانت ملوك المسلمين - حينذاك - المتسحشون بالخلفاء - وما
هم بهم - قد سبقوا لسياسة : « فرّق تسد » - فإن العصر ، اليوم ، غيره

أُمس ... والوضع ، الآن بخلافه قبلئذٍ ... والرؤساء العرب ، غيرهم أُمس ...
فنحن - الآن في أُمس الحاجة للوئام والوحدة ، وتماسك الصفوف ،
والعمل الموحد لمجابهة العدو المشترك ، وتناسي الأحقاد الموروثة ، وتصفية
الجزء - الذي شاء مَنْ شاء تليده بداكن الغمام - لكي تشرق الشمس فتثير
الوجود ، وحينئذٍ يفتضح الحائل مِنْ الصبغة ... وتصفو المياه فيخسر مَنْ لا
يصيد ، إلا في العكر منها ...

وإن الواجب على مَنْ شاء أن يصل إلى الواقع الصميم ، ويغربل التراث
الذي خُلط بالدخيل ... عليه : أن يتجرد مِنْ عاطفته الرعناء ، وتقاليده
الموروثة ، ويعمل بإخلاص النزيه ، وبجدِّ الباحث ، وبصبر المتتبع ، لا يرجو
سوى وجه الله ، وحده ، ولا ينشد غير الحقيقة الناصعة ، ولا يهدف لسوى
الحق الأبلج .

وَمَنْ لم تتوافر فيه هذه الكفاءات والمؤهلات ، فعليه أن يتناسى
الماضي ، وهو منه على الجهل الصفيق ، فلا يخط في الديجور ، ولا يعرف
بما لا يعرف ، ويتهم بالهوى والجموح ، والعاطفة المشبوبة الرعناء ، دون
ارتكاز لعقل ومعرفة ، أو إدراك وإطلاع ، فيفتُّ الوحدة المتماسكة ، ويصدع
الشمل والصف الموحد ، وهو لا يخدم سوى العدو المتربص ، سواء علم
بذلك أو جهل ، قَصْدُ أو لم يقصد ، في حين أنه يغضب ربه والحق ، ودينه
الذي يزعم : أنه له ذلك المخلص ، المتمسك به .

ولكن - ونقولها والألم يقطر مما يخطه اليراع ، حيث ينبعث مِنْ
الأعماق ... ولكن - يا للأسف المرير ! ، ويا للخيبة الكاسفة ! ... ولكن -
ولعن الله « لكن » ، هذه الخبيثة ...

ولكن هذا العصر - عصر المدنية والنور ، عصر الفرقة والعلم ، عصر
البحث والتنقيب في المجهول ، وعن المجهول - مُني بأُناسٍ ، يعيشون فيه

بأجسامهم في ما هم يعيشون في ظلمات الماضي بقولهم الحجرية ، التي هي من
مخلفات عصور الانحطاط ، فعاثوا في صفوف الأمة فساداً وغرروا بالبسطاء
من العامة ، وشوّهوا العلم والمعرفة ، وهم به متفيهقون ، وبها متشدقون ١٠٠٠
ولسنا نحاول - هنا - مناقشتهم ، بله الرد عليهم ، وهو ما لا يتسع له
القول - هنا - إلا أنه لا يسعنا إلا أن نتساءل :

ماذا دعا الرافعي « مثلاً » في مثل كتابه « تحت راية القرآن » ، وهو
يرد فيه على كاتب غير شيعي - أن ينال من الشيعة ، بالبهت والكذب ،
لولا شيء في نفسه ١٩٠٠!

ولماذا يصر مثل الدكتور أحمد أمين ، ويلج على النيل من الشيعة - أيضاً -
في مجموعة من كتبه ، التي زعم : أنه يضعها لتأريخ الإسلام ، وهو يشوّه منه
ناصر الصفحات ، بهذا النيل المكذوب ، بالرغم من اعتذاره لسماحة الإمام
كاشف الغطاء ، بأنه لم يرجع في هذا النيل ، لمصدره ، ولم يأخذه عن مرجع^(١)
وهو عذر أقبح من فعل - وأنه سيكفر عن ذلك في الجديد مما يكتب ، فكلان
تكفيره : مضاعفة الكيل من الشتائم والسباب ١٩٠٠!

ولصالح من يفرغ مثل عبدالله القصيمي^(٢) ، ومحمد رشيد

(١) أصل الشيعة ص ٥٥ .

(٢) في كتابه « الصراع بين الإسلام والوثنية » ، ويعني بالإسلام مجسداً
في أهل السنة ، وبالوثنية متشكلة في الشيعة . وقد قام سيدنا الوالد
- رحمه الله - بالرد عليه رداً علمياً ، هادفاً لوحدة الصف ، وتنقية الجو ،
مع فضحه لكل كذبه وافتراءاته ، مع تحليه بنزاهة الأسلوب ، وحسن النية
والقصد ، حيث لم يكن من قصد ، سوى : إحقاق الحق ، والعودة بالمسلمين
إلى نبع الإسلام . الروي العذب - وهو دين السماحة والمحبة -

رضا^(١) ومحب الدين الخطيب^(٢) ، وأمثالهم من المستعمرين - « على وزن

→ والودّ - قبل أن يحاول المفرضون المفرقون تلويثه ، بكلّ ما استطاعوا إلى ذلك من قوّة ، ومهما وجدوا إليه السيل ، بتفريق الصفوف وتمزيق الشمل . وإن كنا نأسف لشيء ، فلأن القضاء لم يُهمل سيدنا لإتمام كتابه ، والوقوف به حيث أراد ، إلا أن ما وصل إليه يكفي ردّاً على القصيمي ؛ فكتابته - ببجلديه الضخمين - ليس سوى شتم وسبابٍ مكروٍ . وقد مثل للقراء هذا الردّ العظيم .

(١) في كتابه « السنة والشيعة ، أو الوهاية والرافضة » وغيره . ويكفي أن يكون له هذا الكتاب الهدّام المضللّ الكذوب ، الذي شحنه بالادس والكذب ، وملاه بالسباب والشتم ؛

(٢) في كثيرٍ ممّا كتب وعلّق . . . كتعليقاته المسمومة ، والبذينة الوقحة ، في سبابٍ مخجلٍ ، يُنزه عنه يراع من ينتسب لدينٍ ، أو عروبةٍ - وهما : شتمٌ وسماحةٌ ، وخلقٌ رفيعٌ ، وكرمٌ - ويُخجل الأمة التي ترضى به ، وذلك على كتاب « مختصر منهاج السنة » . . . حيث جرّح في تعليقاته كثيراً من رجالات الشيعة وعلمائها ، قدماء ومعاصرين ، في أسلوبٍ لا يعرف الحياء ولا التهذيب ، حيث يمليه الحقّد الدفين ، والعاطفة المسمومة .

ولنا في ما يكتبه في مجلة الأزهر ، خير دليلٍ ، على ما تحمله نفسيته الملتأثة . وإنه ليؤسفنا جداً : أن تصدر مثل هذه المجلة عن الأزهر ، وتحمل اسمه ، وهو المؤسسة الدينية الكبرى ، التي يُرجى منها - وهو ما يحتمه عليها الدين ، الذي تعمل على نشره وإعزازه - أن تعمل على محو الطائفية ، وتجند رجالاتها على توحيد الصفّ الإسلامي ، وتطهيره من أعدائه ، الذين يندسّون بين الصفوف ، لتفريقها وفتّ وحدتها .

ويتحتم على شيخ الأزهر الأستاذ الكبير « شلتوت » - اليوم - بعد

المفعول» - فكراً، والمأجورين ...

لصالح مَنْ يفرغ مثل هؤلاء : كلَّ سَمِّهم الزعاف ، وحقدهم المتأصل ، وضغائنهم المتأججة ، بكلِّ ما تحمله نفوسهم مِنْ أمراضٍ نفسيةٍ ، وأوباءٍ تربويةٍ ووراثيةٍ - يئسةٌ أو يئسةٌ - فيعكس كلَّ ذلك فيهم ردّة فعلٍ ، فيروحون يتنفسون - وهم في ذلك الجوّ المحموم ، والوسط الموبوء - ويحرّقون الأروم على الشيعة ، في كتبٍ ملأى بالكذب والإفتراء والدسّ ، فيضاعفون الخلاف والفرقة ، في الوقت الذي يدعو ويوجب على كلِّ مخلصٍ أن يقضي على أسباب هذه الفرقة والخلاف...؟!!

ألم يكن خيراً لهم في دينهم ودنياهم : لو عملوا ما يجب عليهم ، واستغلّوا مواهبهم ومعرفتهم ، فيما يعود بالنفع الشامل ، والخير العميم ، في سبيل إرضاء الله والضمير ، والحقِّ والدين ، وعادوا لنبع الدّين الصافي ، وارتووا مِنْ نيره العذب ، الذي يفيض بالمحبة والخير، وينشر السلام ، ويدعو للإلفة والتماسك، كالبنيان المرصوص ، يشتدُّ ببعضه البعض .!؟

ولكنهم - ويا للأسف ! - ساروا وراء غرضٍ مشبوهٍ ، وسلكوا في طريقٍ معوجٍ ، فتفرّقت بهم السُّبل ، حتى ضلّوا الصُّوى ، وتاهوا عن معالم الحق في مهاوي الضلال ، ومتاهات الفرقة... فكان مِنْ كلِّ ذلك هذه

→ إقدامه على الخطوة الجبّارة ، وهي تدريس الفقه الشيعي فيها : أن يعقبها بخطوةٍ ، لها أهميتها الكبرى ، وهي : أن يسكت هذا الصوت المبحوح الزاعق ، صوت الخطيب ، إذ لا يُجدي البناء ، ولا يستقيم الصرح ، ما دام هناك هدمٌ مخربٌ ، ينحت في الأساس بمعوله البغيض .

أما لو كانت الأسماء تُطابق « المسميات » دائماً ، لكان أسم هذا الهدام ، غير « محبِّ الدّين »... ولكنها الأسماء الخداعة الكاذبة المضلّة ، والسراب البهرج ١٠٠٠

الثمار ، التي هي : شجى في حلق الطاعم ، وقذى في عين الناظر ...

ولعلهم - مع كل هذا - يظنون في أنفسهم: أنهم قاموا بخير ما يجب عليهم ، وأدّوا واجبهم كأفضل ما يكون الأداء . ولو عادوا لقليل من فكرٍ ، وشيء من رويّة ، لصدمهم الواقع المرّ البغيض ، ولرأوا أنفسهم بعيدين عن صافي نبع الدّين العذب ، وما هم من صفائه إلا كنسبة دم يوسف للذئب .

ولسنا بهذا تُنكر وجود فئة ، استوعبت تعاليم الدّين ، ونذرت نفسها لدفع الزيف عنه ، وجلاء الريب ، التي حاول المفرضون تشويهه بها ، فعملوا خير ما يجب عليهم ، دون غرضٍ أو غايةٍ ، سوى وجه الله والحق ، ورفعوا صوتهم عالياً ، صافي النبرة ، واضح القصد ، ودعموا صرح الوحدة ، وفضحوا - ما استطاعوا - ما عمله أولئك، من أعمالٍ ، في سبيل بثّ الفرقة ، وشقّ الصفوف ، وتشويه الحق ، وقلب الوقائع ، وتغيير الأحداث .

وليس من موضوعنا التنبّط في هذا الجانب البنيء ، حتى نأتي ببعض هؤلاء الخيرين ، وما قاموا به من عملٍ صالحٍ مفيدٍ ...

هذا موضوع ، كان لابد من عرضه ، ونحن في سبيل الحديث عن أبي طالب . إذ علينا : أن نلم ، أو نشير إلى وضع الأحاديث واختلاقتها - ما دام أبو طالب أحد ضحاياها

فبعد أن عرفنا ما قام به معاوية ، تجاه علي ، ومناوآته له بالسيف واللسان ، فإن ذلك السيل الجارف ، لابد وأن ينال أبا طالب منه شيء . ولو لم يكن أبو طالب أبا علي ، لما ناله ما ناله . . . ولم يأت به البلاء ، إلا لأنه أبو علي - كما يقول سيدنا الوالد .

فليس من الغرابة في شيء - بعدما عرفنا الدواعي والظروف ، التي حجب الحقائق ، وشاءت أن توارى في العدم ، لولا فيض من عناية الله ، بنوره الوضيء أن يطفأ . . .

. . . ليس من الغرابة في شيء : أن يقف التأريخ ، ذلك الموقف المناهض ، حين ما يعرض لحياة هذا البطل المغوار ، ويقف منه ذلك الموقف المريب الواهن ، عند مجلس الاحتضار ، حين ما يسلم الشيخ روحه الطاهر ، وقد قررت منه العين ، وارتاح الضمير ، بنصره رسالة السماء .

ولم يكن ليالي بما لقيه من ظلم التأريخ الشنيع ، الذي لم يحفل بذكره إلا لئلا - والأغراض مليئة بتلك الإمامة ، من الذكر المتور . . . فتتأسى

أعماله الجسام ، ودفاعه الحميد ، ومواقفه الصلاب : منافحاً عن العقيدة ،
مستكناً لها من الأفتدة ، رافعاً لها في البناء ، مشيداً بها في الذكر ، يتغنّى
برسالة الإله ، ويفتخر بمآثر رسول الإنسانية !.

والتأريخ ، وإن ذكر له بعض شيء من هذا ، إلا أنه — في كثير من
الأحايين — لم يلبث أن يناقض نفسه ، فينقض ما أبرم ، حين ما يذكر : أن
بينه وبين هذا البطل ، شيئاً في النفس — فهو أبو عليّ !... فيعوجُّ منه
السير ، وتلتوي الطرق ، ويحيد عن الصراط المستقيم ، لحاجة في نفسه ،
يريد أن يقضيها — إن لم يكن قد قضاها !...

ولكن السحاب ، مهما تراكم ، واربدة منه الوجه ، فإنه وإن حجب من
الشمس وجهها النير ، فلن تعدم الشمس فرجة ، تطلُّ منها بالشعاع المؤنس
الماتع ، وليس لظلام أن تنتشر منه الرقعة ، وهي في السماء تسير !...
لذا... فأنك واجدٌ — على الرغم من موقف التأريخ الشائن — من تأريخ
هذا الرجل المظلوم : ما يجلو حياته ، على : نقاء صفحة ، ولمعان سطر ،
وإشراق حرف .

* *

لقد ظننت — بادئ الأمر — أن المهمة ثقيلة المحمل ، بهيظة العبء ، لما
رأيت قلة المصادر — أو بالأصح : لما رأيت الموقف المخزي الشائن !

ولكنني لم أكد أسير في طريقي خطوات — وإذا بي ، أمام وفرقة من
تأريخ هذا الرجل ، جمعتها من أشتات الكتب ، التي يعول عليها الكاتب
الثبت ، الناشد الحق ، لوجه الحق وحده !.

حين ذاك قلت : لن يعدم الحق ناصراً... ولن تبقى قولة الزور ! فما
لها سوى العمر ، القصير الأمد — وإن الله متمُّ نوره ، ولو كره الكافرون .
وإن السحابة ، وإن طال بها البقاء ، فإن عاصفة لا بد وأن تمزق منها

وإن السماء ، وإن اكتست بالسحب الثقال ، وتلبّدت بالغمام الأدكن ،
فلا بدّ وأن يعرف الصحو إليها السبيل •

* *

وما توفيتني إلا بالله ؛ عليه توكلتُ ، وإليه أنيب ! .

الجزء الأول

في مدارج الحياة

بيت

في وسط مظلم ، وبيئة جاهلية ، قد تردت في حاة الخمول والجهل ،
من حيث النظرة الدينية ، فتعددت فيها الأصنام والأوثان ... فلكل قبيلة
أرباب ، ولكل بيت آلهة ! بل ولكل شخص رب ، ليس يُشاركه فيه ثان ...
في ذلك الوسط ، وتلك البيئة ، حيث الشعور الهامد والإحساس
المفقود ، والعيون المغضضة عن كل ما حولها ، من آيات ، تدل على إله واحد
وعلامات تنبئ عن ربٍّ فردٍ ، ليس في ملكه من شريك ...

في ذلك الوسط ، الذي اجتاحت هذه العاصفة المربعة ، فأبدلت الذين
الساويين ، ومكة إبراهيم الخفيف ، إلى عبادة أحجار وأخشاب ، لا تسمع
ولا تمي ، لا تنفع ولا تضر ، ينحتها الإنسان بيده ، ويُخرفها بألوانه ،
لتكون إلهه المعبود ، أو شفيعه الذي يقربه من الله زلفى !

في ذلك الوسط والليل جائمٌ عليه بسحابته السوداء ، الزاحمة الظلمة ...
ومن بين تلك الأكداس البشرية ، المغضضة العين ، المقفلة القلب ، الخامسة
الإحساس ، المتردية في عميق الظلمة ، وهوة العماية .

من بين هذا وذاك ... قد يشذُّ من بينهم رجلٌ — وهو نسبة الواحد إلى
الآلاف — أو بيت ، وهو نسبة الواحد إلى الملايين !

من بين هذا وذاك ... ومن بين تلك الأكداس البشرية المزدهمة ، قد
يشذ واحد ، فيرى بعين حديدية ، وقلب متفتح : ذبالة نور ... فيفر إليها
ليقتبس منها إشعاعاً ، فيستنير بها في الطريق المظلم . ويقرأ في الكتب

الساوية ، فيقرئ منه القلب بعد طول وجيب ، ويدغدغه الحلم والرجاء ،
فيرتاح منه الضمير ، وقد اطمأن ، بعد طول تشكيك ، حيث طاف بمرحلة
حرجة ، هي أشد مراحل الانتقال والتطور ، وما يرافقهما من أتعاب
ومخاوف...!

يقرأ في تلك الكتب ، فيراها تبشّر برسولٍ ؛ ويرى الطبيعة تبشّر
برسولٍ ؛ ويرى كل شيءٍ حوله ، يدعو بضرورة وجود ذلك الرسول ؛ وإن
كل شيءٍ حوله ينذر بقرب عصره المأمول .

ويرى في الكتب ما يحدّد أرض ذلك النبي المنتظر - وهل من غير مكة
ينشق ذلك النور البهيم ؟ - فيرقص القلب جذلاً ، وتنثني النفس سكرًا ،
وهو يأمل أن يكون أحد من يقتبس من ذلك الشعاع النير ، ويحامي عن
ذلك الضوء الهادي ...

ومن بين هذا وذاك... ومن بين تلك البيوت المتراسة ، والتي لم يكد
يخلو منها بيتٌ واحدٌ ، إلا وقد حلّ في الركن منه قطعة من حجرٍ أو
خشبٍ ، إليها يسجد كل من في البيت ، ويتجهون لها بكل قلوبهم صاغرين
متضرعين... وهي آخر «من» و «ما» يودّعون ، وأول «من» و «ما»
يستقبلون ، إن دعا لسفر أحدهم أمرٌ ذو شأنٍ . ومن هذا الربّ الجاثم ،
الذي تستوعبه العين ، وتحوطه اليد ، يرجون المعونة ويستمدّون التوفيق .
فتبسط الأيدي راجيةً ، الأيدي التي خلقت هذا الإله الأصم ، امتدّت
تدعوه وترجوه ، ثم هي تخافه وتخشاه...! وهذا هو غاية الانحطاط
الفكري ، والإسفاف بالمستوى الإنساني ، والكفر بالعقل البشري الخلاق !.

من بين تلك البيوت : بيتٌ واحدٌ ، لم يمتدّ له من هذا الظلام الفاحم ،
حتى خيط ، والمصباح الذي أشعله الخليل ، لا يزال على وقيد ، لم تعصف
به العواصف ، ولم يجتعه إعصارٌ مهما اشتدّ وصلب ! فهو عميق الإيمان ،
لم يفارق الحنيفة البيضاء ، ولم يخالجه الشك في ما جاءت به ملّة إبراهيم ،

ولم تزعزعه الريية في صدق دعوته ، التي وُحِّدَ فيها الرب الأعظم .
وما هذا البيت ، الذي يشده بالخليل سبيان : سبب النسل والأبوة ،
وسبب الدين والوحدانية لإلهٍ واحدٍ ... ليس هذا البيت ، سوى امتداد
لدعوة من الخليل ، أجابه بها الرب العظيم .

في هذا البيت ، الضارب الجذر بالإيمان ، والرسوخ القدم في العقيدة
الحقة ، الذي لم تدنسه الجاهلية بأوضارها ، ولم ينله الشرك بخزيه .
في هذا البيت الكريم ، فتح أبو طالب عينيه ، ودرج في الحياة ،
فرأى في هذا البيت حياةً ، غير الحياة التي يراها بين الناس ، وعاش عيشةً ،
غير التي يعيشها الناس .

ورأى في عميد البيت - أبيه عبد المطلب - رجلاً ، ليس كالرجال ،
الذين يرى فيهم تلك الكثرة ، فلا يرى منهم سوى هيكلي من الجلد والعظم ،
أو دمية لا تحصل ذرةً من عقلٍ ، وإن أغرقت العين بيريقها الفارغ ... فيفتح
عينيه ، كما قدّر لدعل ، من بعده ، أن يفتحها ، وصاح صيحته :
إني لأفتح عيني ، حين أفتحها على « كثير » ولكن لا أرى « أحداً » !

رأى في أبيه عبد المطلب : ذلك الزعيم المطاع ، والرجل المهاب ، يقول ،
فينفذ القول ، ويحكم فلا يردُّ الحكم ، وهو الجواد المعطاء ، والسخي القذ ،
يطعم فينال من الطعام راكب البعير ، وهو على ظهر بعيره ، ويرفع من
مائدته على قمم الجبال ، لتنال من طعامه طيور الفضاء ، ووحوش الصحارى ...
حتى لقب بالفيئاض ، ومطعم طير السماء .

وإنه ليراه مجاب الدعوة ، يدعو الله ، فتلبى دعوته ... فهو مرضيُّ عنه
في السماء ، ومحمودٌ في الأرض ، فدُعي « شيبة الحمد » .

وإنه ليرى فيه صفاتٍ ، لم تكن في غيره ، من هذه الأكداس البشرية .
وهو الذي يسنُّ سنناً ، لست سوى الدليل ، على رفعة النفس ، وثقاء السريرة ،

وعشق الإيمان ، بحيث تنهض بالبرهان على بقاء الحنيفية ، التي جاء بها أبوه إبراهيم (ع) فإنه ليحرم الخمر على نفسه ؛ ويحرم نكاح المحارم ؛ ويحدد الطواف بالبيت سبع مرات ، بعد أن كان غير محدود ؛ وينهى أن يطوف عار بالبيت ؛ ويقطع يد السارق ؛ ويحرم الزنا ؛ وينهى عن المؤودة ؛ وأن يستقسم بالألزام ؛ وأن يؤكل ما ذبح على النصب ؛ ويسنّ الوفاء بالنذر^(١) .
ويجيء الإسلام ، فيقرئ كل هذه السنن ، التي سنّها عبدالمطلب .

فادم حرب بن أمية بن عبد شمس - والد أبي سفيان - وكان أحد اليهود في جوار عبدالمطلب ، فأغلظ هذا اليهودي لحرب في المقال ، في أحد أسواق تهامة ، واثارت حفيفة ابن أمية - والغدر له ورائة من الجد عبد شمس ، وهي ميزة لهذا الفخذ ، وإحدى طباعه المتأصلة الجذر - فلم يلبث أن أغرى على اليهودي من قتله !

ولا يعرف عبدالمطلب غدره حرب ، حتى يهجره ، فلن ترضى نفسه بنديم غدار . ولم يدع حرباً يذهب كأن لم يكن شيئاً ، فأجبره على إعطاء مئة ناقة ، لابن عم اليهودي - دية الدم المطلول^(٢) .

(١) السيرة الحلبية ٥ : ١ والنبوية ٢١ : ١ والبحار ٣٨ : ٦ ، والعباس ١٧

وينابيع المودة ٩٠ : ٢ .

(٢) السيرة الحلبية ص ٤ ج ١ . ويذكر ابن الأثير في تاريخه ص ٩ . ٢ - لهذه الحادثة ، صورة غير هذه . ويروى قتل اليهودي ، إلى أنه تاجر ذو مال وفير ، مما أغاظ حرباً ، وأثار كوامن حسده ، ورواسب نفسه ، فدفع إليه من قتله ، وأخذ ماله . ثم يزيد عليها : إنها تنافرا إلى النجاشي ملك الحبشة ، فأبى أن يدخل بينهما ، فحكم بينهما قتل بن عبد العزى العدوي - جد عمر بن الخطاب - فقال ، لحرب :

[يا أبا عمرو ! أتنافر رجلاً هو أطول منك قاماً ، وأوسم وسامةً ،]

وهو - إلى كل هذا - يرفض أن يخفض الهام ، ليسجد لصنم ، فيعبد
حجرة صباء ، أو خشبة بالية - وهو ذو العقل الرجيح ، والذكاء الوقاد^(١) .
وهو أول من تحنث بفار حراء ، فكان إذا أهل شهر رمضان ، صعد
الجبل ، فتعبد فيه ليالي - ذوات عدد - يُمعن الفكر في جلال الله وعظمته .



وإن أبا طالب ، ليرى أباه ، يوم جاء أبرهة للكعبة ، فصودرت
لعبد المطلب أنعام ، فراح يطلبها منه . وكاد يصغر في عينيه ، حيث لم يعرض
لأقدس المقدسات لديه - الكعبة - وقد جاء ليهدمها . . . فما كان إلا أن
أجابه ، بجواب المؤمنين ، الوطيد الرجاء بالله ، للعميق الثبات والإيمان :
« أنا ربُّ الابل . ولبيت ربِّي يحميه ا » .

وعاد فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وناجى الإله ، مناجاة موحِّدٍ مؤمنٍ :
يا ربِّ ! لا أرجو لهم سواك يا ربِّ ! فامنَّع منهم حماكاً

→ وأعظم منك هامةً ، وأقلُّ منك ملامةً ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل
منك صفداً - « أي : أكثر منك عطاء » - وأطول منك لئداً] - الخ .
وأشير إليها في حليف مخزوم ص ٢٧ - في حادثة تختلف خطوطها
الأولى عن هذه - كما أثير للمنافرة في البيان والتبيين ٢٩٣ : ١ .
(١) يقول ابن أبي الحديد - في شرحه ٣٩ : ١ - عند عرضه للأمة التي
بعث الله فيها محمداً « ص » :

« فأما الذين ليسوا بمعطلةٍ من العرب ، فالقليل منهم ، وهم المثألهون
أصحاب الورع والتحرُّج عن القبائح ، كعبد الله ، وعبد المطلب ، وابنه
أبي طالب » - الخ .

إِنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عَادَاكَ أَمْنَعُهُمْ أَنْ يَخْرُبُوا فَنَّاكَ (١)
ثم قال - مرةً أُخرى - بلهجة المطمئن ، العارف بالنتيجة :

... لا هُمَّ إِنَّ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ ، فَا مَنَعَ حِلَاكَ
لا يَغْلِبَنَّ صُلَيْبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ - عَدُوا - مِحَالُكَ
وَلَنْ فَعَلْتَ فَنَاءَهُ أَمْرٌ تَمُّ بِهِ فَعَالُكَ
أَنْتَ الَّذِي إِنْ جَاءَ بَاغٌ نَرْتَجِيكَ لَهُ فُذْلِكَ
وَلَوْ وَلَمْ يَحْوُوا سَوَى خَزِيٍّ وَتَهْلِكُهُمْ هَنَالُكَ
لَمْ أَسْتَمَعْ يَوْمًا بِأَرْجَسُ مِنْهُمْ يَغْوُوا قَتَالُكَ
جَرَّوْا جَمُوعَ بِلَادِهِمْ وَالْقِيلَ كَيْ يَسْبُوَ أَعْيَالُكَ
عَمَدُوا حِمَاكَ بِكَيْدِهِمْ جَهْلًا ، وَمَارَقَبُوا أَجْلَالَكَ
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَكَبَسْنَا فَأَمْرٌ مَّا بُدَاكَ

ثم عَقَّبَ بقوله :

يا معشر قريش ! لا يصل (٢) إلى هدم هذا البيت ، فإن له ربًّا يحميه
ويحفظه !

ثم يدعو الله ، وإذا بالطير « الأبايل » ، تحلّق في السماء ، طائراتٍ
صامتةً ، لتقذفهم بحجارةٍ ، هي أسرع فتكاً مِنَ القنابل الذرية ، وهي
لا تتعدّى المجرم في إصابتها ، ولا تنال البريء بسوءٍ ، كما تُقني القنابل الأمم

(١) الكامل لابن الأثير ٢٦١ : ١ والبحار ٢٣ : ٦ ومروج الذهب ٢٦١٢٨ ،
وفيه : « قراكا » بدلاً مِنْ « فناكا » .

(١) الكامل ص ٢٦١ و ٢٦٢ : ١ والبحار ٢٣ : ٦

(٢) كذلك وجدناها . ولعلَّ فاعل « يصل » ضميرٌ ، يعود لأبرهة .

البريئة ، وتقضي على الحياة العامرة ... فهذه صنع الإنسان بهوتلك صنع خالقه !

* *

وإن أبا طالب ، لسمع أباه في نجواه ، وقد ضربت القداح عليه ،
وعلى إخوته التسعة ، ليبر عبدالمطلب بنذره ، وفيه به ، وقد أجاب الله
دعوته ، فرزقه عشرة من الولد .

يا رب ! أنت الملك المعبود
وأنت - ربّي ! - الملك المعبود
من عندك الطارف والتليد^(١)

وإنه ليأخذ مكانه - من بين إخوته - وعبدالمطلب يلقي عليهم دروسه
القيمة ، ويأمرهم بالأوامر الإلهية ... فينهاهم عن دنيئات الأمور ، ويأمرهم
بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ... ويحذّرهم يوماً ، يلقي
فيه كل جزاءه ، حيث لا يقدم إلا على ما عمل ... فكثيراً ما كان يسمع
منه مثل قوله :

« لن يخرج من الدنيا ظلوم ، حتى ينتقم منه ، وتصيبه عقوبة ! » .
وما إن هلك رجل ظلوم - من أهل الشام دون أن يمسه في هذه
الدار ، أيّ سوء ، حتى جاءه من يتحدثاه ، فإذا به يجيب :
[والله إن وراء هذه الدار داراً ، يُجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويُعاقب
المسيء بإساءته]^(٢) .

* *

(١) السيرة النبوية ص ٦٦ ج ١ .

(٢) النبوية ٢١ : ٢ ، والحلبية ٤ : ١ ، والعباس ١٧ ، والغدير ٣٥٢ : ٧ .

وهذا أبوه عبدالمطلب ، يستقبل مولوداً لابنه عبدالله — ذلك المولود الذي ينتظره الكون ، وينادي به ، ليستقبل إشراقة نوره الوضّاح — فلم يكدر الوليد يستقبل الكون ، حتى يشتر بذلك الجدُّ ، فيدخل على أمه ، لتحدّثه بما رأت ، حين ألقت ما في بطنها ، وكلُّه سمعٌ مرهفٌ لهذا الحديث العذب . . . ثم يأخذ الطفل ، ويمضي به للكعبة ليدعو الله ، ويشكره على هذا الفضل الشامل :

الحمدُ لله الذي أعطاني هذا الغلام ، الطيّبُ الأرداني
قد سادني المهد على الغلمانِ أعيذهُ بالله ذي الأركانِ
حتى أراه بالبحرِ البينانِ أعيذهُ من شرِّ ذي شأنِ
من حاسدٍ مضطربٍ العنانِ^(١)

وإن عبد المطلب ليولي هذا اليتيم عنايةً ، ويسذل في رعايته أقصى جهده ، وينظر إليه نظرةً عميقةً ، تخترق المستقبل ، وترى مكان هذا اليتيم منه ، وقد دانت له الأرض — من غربها إلى شرقها — وخضعت لعظمته الهام ، وخفقت بحبه القلوب ، ودانت لعظمة دعوته ، ولهجت بذكره الألسن ، وردّدت عاطر الثناء ، وآيات الإكبار .

ف عبدالمطلب — وهو الزعيم المهيّب ، والمعظّم في قريش ، وللمطاع بين العرب — يُفرش له حول الكعبة ، فتحفٌ حوله رؤساء قريش ، دون أن يستطيع واحدٌ منهم : أن يطأ من فراش عبدالمطلب طرفه — بله الجلوس وإيَّاه عليه .

ولكن هذا الطفل اليتيم ، يجيء — بروحه الطموح ، ونفسه البوئوب —

(١) أعيان الشيعة ٦ : ٦٧ ، ٢ : وذكر البيت الأولان ، بإبدال « بالبيت » عن « بالله » في مروج الذهب ٢٨١ : ٢ . وذكر البيت الأول وصدر الثاني في البحار ٧٩ : ٦ ، وكاملةً ، مع اختلافٍ في بعض الكلمات ، في البحار — أيضاً — ٦/٩١ .

فيتخطى الناس ، ليجلس بجانب جدّه ؛ ولربما سبقه ، فيجلس محله ،
فاذا جاء جده وأرادوا أن يعمدوه عن محلّه ، فعبد المطلب ذلك : الزجاء لمن
شاء أن يتجراً ، فيثحي هذا الطفل العظيم . ويقول مرة :

— دعوه ! إن له شأنًا .

ويجلسه إلى جانبه ، وهو يرت على ظهره ، وقد بدت على وجهه بشائر
الفرح ، وعلامات الرضا والسرور ، فلن يخيب فيه الرجاء الخيل ، والأمل
الخنفل .

ومرّة أخرى ، يقول لمن شاء ، أن يمنع محمداً عن فراش جده :
— دعوا ابني يجلس ، فإنه يحس من نفسه بشيء ؛ وأرجو أن يبلغ من
الشرف ، ما لم يبلغه عربي ، قبله ، ولا بعده .
ومرّة ثالثة يقول :

— ردّوا ابني إلى مجلسي ؛ فإنه تحدّثه نفسه بملكٍ عظيم ، وسيكون
له « شأن ! » (١) .

وإنه ليخصّ — تارةً — أبا طالبٍ بالتوصية به :
— يا أبا طالب ! إن لهذا الغلام لشأنًا عظيمًا ؛ فاحفظه واستمسك به ،
فانه فردٌ وحيدٌ ! ، وكن له كالأم ، لا يصل إليه شيءٌ يكرهه ! (٢) .

وما كان عبد المطلب ، بالذي يتكلّم جزافًا ؛ فما هو ممن يُرسل الكلام
على عواهنه ، ويهرف بما لا يعرف ! .

إنه ليعرف بأن لحفيده « لشأنًا » — وأيُّ شأنٍ ! .

(١) السيرة الحلبية ١٢٩ : ١ ، والنبوية ٢٣ : ١ ، والهشامية ١٧٨ : ١ ،
والبحار ٤٢ : ٦ ، والعباس ١٨ ، وعلى هامش السيرة ١٨٥ : ١ .

(٢) المجالس السنية ٣٦ : ٤ .

وإن الأدلة عليه ، لعلی وفر... فإن دليلاً واحداً — من بين ألف دليلٍ ودليلٍ — ليؤكد ما يراه يصيرته النافذة ، وقد كثرت الأدلة ، وتوفرت العلامات ، حتى أصبح لديه سيلٌ من هذه وتلك ... ولا يعترضه فيها شك ، ولا ريبٌ !...

وما حياته هو ، وسيرته البيضاء ، سوى واحدٍ من تلك الأدلة ، على هذا « الشأن » ، الذي يراه لحفيده ، فهو مقدمة تشير وتبشر بالنتيجة ...

وإنه لعلی يقينٌ ، مما ذهب إليه ، من حقّ جليٍّ ، ومن واقعٍ رهينٍ ... فإن كلَّ ما حوله ليصدق ، وكلَّ ظاهرةٍ تعمق منه الإيمان — وإن لم يكن منها ، إلا ذلك المطمئن العميق .

هؤلاء قومٌ من بني مدلج ، وهم القافة^(١) ، العارفون بالآثار والعلامات — يقولون له :

«احتفظ بمحمدٍ ، فإننا لم نَرَ قدماً أشبه بالقدم التي في المقام ، منه»^(٢) .

وهذا سيف بن ذي يزن الحميمي ، وقد ولي الحبشة ، بعدما وُلد الرسول بعامين ، فراحَت العرب تفد عليه ، تهنئه باسترجاعه ملك آبائه ، إذ استنقذ ملك اليمن من « الحبشة » ... وكان في الطليعة : وفد قريش . وفي طليعة الطليعة : زعيمها « عبدالمطلب » .

وإذ وقف عبدالمطلب — أمام سيف — وألقى كلمةً ، هي آية في

(١) القافة : العارفون بالآثار . والقيافة : تتبع الآثار .

(٢) يريدون بالقدم قدم إبراهيم الخليل (عليه السلام) .

ارجع للحادثة إلى: السيرة الحلبية ١٢٩ : ١ . وذكرت في كلٍّ من : البحار ٤٨ : ٦ ، وتذكرة الخواص ٨ ، وأعيان ١٠ : ٢ بزيادة :

«إن عبدالمطلب ، قال لأبي طالب : اسمع ما يقولون » .

البلاغة والفصاحة ، مما أرغمت هذا « السيف » على الانحناء ، أمام هذه العظيمة الفذة ، والشخصية الكبيرة ، والزعيم المجلل ... فرحب بهم ، وحلوا منه محل الضيوف الكرام ...

و شاء أن يطول منهم أمد البقاء لديه ، حتى مضى شهرٌ ، وهم في ضيافته ... وإذ ذاك أدنى إليه عبدالمطلب ، ليلقي إليه بسرّاً خطيراً - ظناً منه بأن عبدالمطلب ، لم يكن به ذلك الخير - ويلقي إليه نبأ مشرق الحواشي ، يحمل - بين أطرافه - « شرف الحياة، وفضيلة الوفاة » للوجود بأجمعه ... وإن لعبدالمطلب منه ، للحصة الفضلى ، والنصيب الأوفر :

« إذا ولد بتهامة ، غلامٌ بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة ، إلى يوم القيامة » .

ثم يعقب بعد قوله لعبد المطلب :

« اسمه محمد . يموت أبوه وأمه ، يكفله جدّه وعمّه » (١) .

ولا يلبث أن يكشف الستر ، ويلقي ببقايا السرّ الكمين :

« والبيت ذي الحجب ، والعلامات على النقب » (٢) . إنك لجدّه -

يا عبد المطلب ! - غير كذب » (٣) .

وإذ ذاك يخرّ عبد المطلب ، ساجداً لربه ، يناجيه بكلمات الشكر ، على هذه النعمة الفضلى ، ويرفع رأسه مثلج الصدر ، باسم الثغر ، ويقصّ على الملك طرفاً من حياة هذا النبي العظيم ، حتى يقول :

(١) ذكرت هذه الجملة ، في الاستيعاب - ص ١٤ ج ١ - وقد أشار لهذه

القصة ، إشارةً من بعيدٍ .

(٢) النقب - بضم نونه - الطريق في الجبل .

(٣) أُشير لهما - من الشاطيء البعيد - في أعيان الشيعة ٩ : ٢ .

« مات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه » (١) .

تلك دلالات يراها ، إلى جانب دلالاتٍ أُخرى ، تزخر بها حياة حفيده ، ويراها متكررةً وفيرةً . وإن واحدةً منها — حتى لو لم تكن لها ثانيةٌ — لكفيلةٌ بقيام البرهان نصيباً ، والحجة دامغةً ، على أن حفيده محمداً ، هو ذلك النبي المنتظر ، الذي قرأه في الكتب المنزلة من الحق ، على لسان رسله . فكيف بها دلائلٌ كتار ، تضاعف لديه ، وتضاعف ، وتزدحم وتكثر — وفي كل يومٍ دليلٌ نابضٌ ملحٌ ؟

تمرُّ سنون « جَداب » (٢) ، وقد انقطع فيها الغيث ، وضحل الماء ، فبيس من الحشيش ما كان على اخضرار ، وجفد من الزرع ما كان ذلك الدور . فكانت الحياة — لديهم — تلك الخشنة الملمس ، الجافية الحواشي ، الجهمة الطلعة ، فاسودت منهم النظرة ، وكساهم الوجد والأسى ، والرعب والخوف . غلالةٌ صفراء على اسودادٍ ، تعلو الوجوه ، وتكسو الأجسام . . .

وليس — ثمة — من شفيعٍ ، إليه يضرعون ، سوى عبد المطلب . فبروحته يدعونه ، ليتقدم إلى ربه ، فتجود عليهم السماء بالقطر ، وتعود لهم الحياة كما كانت من قبل . . . وإنه للمشفع عند ربه ، فليرحم هذه النفوس ، وقد أشرقت على الموت ، بعد ضياع الأموال ، وموات الأنعام .

وقد دلّتهم على هذا الوجيه عند الله ، والوسيط الذي لا تُردُّ له وساطةٌ . . .

(١) شئنا الاقتضاب في تسجيل هذه الحادثة . ومن شاءها في شيءٍ من تفصيلٍ ، فليرجع للسيرة الحلبية ١٣٥-١٣٧/ والنبوية ٦٦-٦٨ و ٧٩ : ٨١ والبحار ٢٨ : ٦ .

(٢) لم نجد — في اللغة — صورةً لهذا الجمع .

دلّتهم عليه رؤياً في المنام ، بصفاتٍ كريمةٍ ، وأوصافٍ رفاق^(١) .
يا لجلال الموقف ! ويا لروحيته ! .

ها هو ذا عبدالمطلب ، تحفّ به هالةٌ من الأشبال ، وجمعٌ من بطون مكة ،
يفوح من بينهم عبّق الطيب ، وذكيّ العرف ، فيستلمون الركن — في طريقهم
لقمة أبي قبيس — وقد أخذ حفيده محمداً — فندّت شفّته بدعواتٍ ، انبعثت
من قلبٍ يسيل رقةً ، وينطفح إيماناً :

[لا همّ هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك ، وإماؤك وبنو إماءك ، وقد نزل
بنا ما ترى ، وتتابع علينا هذه السنون ، فذهبت بالظلف والخفّ والحافر ،
فأشفت على الأقرص... فأذهب عنا الجذب ، وائتنا بالحياء والخصب]^(٢) .
يا للدعوة المؤمنة ، تصعد للسماء ، فلا يحجبها شيء... ويا للدعوة
المؤمنة ، يسمعها الرب الرحيم ، فيجيب النداء ! .

فلم يبرحوا الجيل ، إلا والسماء متراكمة السحب ، تحمل « الخصب » ،
وتغدق « الحياء » وتطرد « الجذب » المقفل ، وتنهمر السماء مدراراً ،
وتجود السحب بالفيض ، وتسيل الأودية: « خصباً » و « حياءً »... وتفرّج
ملء الشفاه بسماتٍ ، وترتاح قلوبٌ ، وتشعّ عيون فرحى... وتقطّب وجوهٌ ،
وتتلوّى شفاهٌ ، وتشمّر قلوبٌ ، ويتطائر — من عيونٍ — شررٌ حقود...
غير أن هذه السبيل عليها مقطوعٌ ! أما تلك فالمجال — لها — فسيحٌ ،
على اتساع مدى... !

ولا يكاد الركب يشارف مكة ، وإذا بصوتٍ رقيقٍ ينبعث من أحد
بيوت مكة ، ويبعث لحناً عذباً ، صافي النبرة ، رائع الوقع... فهذه

(١) ارجع لمعرفة الرؤيا ، للسيرة الحلبية : ١٣١ — ١٣٣ ج ١، ولشرح

النهج : ٢٥٥/٢ .

(٢) الحياء — هنا — بمعنى المطر . وتأتي بمعنى الخصب والنبات .

« رقيقة » بنت أبي صيفي بن هاشم ، ينطلق لسانها بشعرٍ ، يعبر عن مدى
الفرحة ، وتخرج بلسانٍ حلو :

بشيرة الحمد أسقى الله بلدتنا	وقد عدنا الحياة ، واجلّوذ المطر ^(١)
فجاد بالماء جؤني له سبيل	دان ، فعاشت به الأنعام والشجر ^(٢)
منّا من الله بالميمون طائرُه	وخير من بشرت — يوماً — به مضر
مبارك الاسم ، يستسقى الغمام به	ما في الأنام له عدلٌ ، ولا خطر ^(٣)

وإذ انهل المطر ، وسالت به الأودية ، فأنبتت المراعي الخصب ، لم
يكن لبلاد قيس ومضر — من ذلك — نصيب ، فلم تمرّ بهم السحب المغدقة ،
التي تحمل « الحيا » فيسيل خصباً ونماء ...

وإذ ذاك اجتمع عظماءهم ، يتبادلون الآراء ، فوحدوا الرأي — ولم
يجدوا غيره — أن يفزعوا لعبد المطلب ، هذا الذي سقى الله على يديه مكة ، من

-
- (١) اجلوذ المطر : طال تأخر هطوله .
(٢) الجون : ضد ، يُطلق على : الأبيض والأسود ، وألوانٍ آخر مضادة .
والجؤني — بواوٍ مضمومٍ ما قبلها — ضربٌ من القطا ، سودالبطون والأجنحة .
وعلى أيّ معنى ، فالكلمة — هنا — على سبيل الكناية ، يُراد منها : وفرة
المطر ، وكثرة انهماره .
ويوضح هذا كلمتا : « له سبيل » ، — بفتح السين والباء — أي :
انهمارٌ ، وهطولٌ منصبت .

- (٣) السيرة الحلبية ١٣٣ : ١ ، والنبوية ٦٤ / ١ ، والبحار ١٢٧ ، ١٢٨ ج ٤
وشرح النهج ٢٥٥ : ٢ ، وفيه البيتان الأولان فقط ، واختلافٌ في دعاء
عبدالمطلب عن هذه الصورة .

الأرض والسماء ، فلم تبخل عليه تلك ، ولا هذه (١) . وليس الله برادة دعوة ،
تنبعث من قلب هذا الشيخ الكبير ، وله عند ربه المكان العلي . فقالوا :

— لقد أصبحنا في جهدٍ وجذبٍ . وقد سقى الله الناس بعبدالمطلب
فاقصده ، لعله يسأل الله تعالى فيكم .

واذ وصلوا مكة ، فدخلوا إليها عليه ، رحّب بهم ، وقام خطيبهم ، لينهي
لعبد المطلب حاجتهم ، وما في الوقت متسعٌ لتأجيلٍ ، وكلُّ يومٍ يحمل بين
ساعاته ، لهيب اللفحة ، ورائحة الموت :

[قد أصابتنا سنون مجذباتٌ ، وقد بان لنا أثرُك ، وصحَّ عندنا خبرُك ،
فاشفع لنا عند مَنْ شفعك ، وأجرى الغمام لك] .

وفي اليوم التالي ، كان عبدالمطلب عند وعده لهم وها هو ذا في
« عرفات » والناس وولده حوله — وبينهم الحفيد الحبيب ، محمدُ اليتيم — وقد
ألقوا هالةً ، يشعُّ منها سننٌ ، ويعلوها جلالٌ . فأخذ مكانه من كرسیه ، وفي
حجره حفيده الكريم ، فيرفع يديه نحو السماء ، وينبر بصوتٍ خاشعٍ ، ويرمق

(١) إشارة إلى ما أُمِر به من حفر زمزم . . . وإلى الماء النابع من تحت
خف فرسه ، وهو في طريقه إلى محاكمة قريش — بعد حفره زمزم — وقد
أشرف هو وأصحابه على الهلاك ، وصافحوا عزرائيل . . . وأبى أولئك « الكرام »
أن يجودوا عليهم برشفةٍ من مائهم الكثير . فسقاه الله ربه ، وسقاهم من فيضه ،
فرجعوا مدعنين له . قبل أن يصلوا للحكم ، وها هو ذا ربه قد حكم له . !
وكان التأريخ يعيد نفسه ! فمنع الماء من جانب أولئك اللثام ! والجود به
من جانب هؤلاء الكرام ! — عادةً مكرورةً ، أو طبيعةً لأولئك وهؤلاء ،
لا يستطيعون لها فراقاً . . . !

فعليٍّ ومعاوية ! ثم مع الحسين يزيد !

السما بطرفي يشع إيماناً ، ويناجي ربه بقلبٍ ، يطفح بالعقيدة :
[اللهم رب البرق الخاطف ، والرعد القاصف ، رب الأرباب ، وملين الصلاب]

هذه قيسٌ ومضر ، من خير البشر ، قد شعشت رؤوسها ، وحسبت ظهورها ، تشكو إليك شدة الهزال . وذهاب النفوس والأموال .
اللهم فأتح لهم سحابة خواراة ، وسماء خواراة ، لتضحك أرضهم ،
ويزول ضرهم] .

وما كاد يبلغ من دعواته إلى هذا الحد ، وإذا بسحابة دكناء ، قد انعقدت ،
وكان لها دويٌّ ، فقصدت نحوه ، وهي جواب دعوته ، لتأخذ طريقها نحو
بلاد هؤلاء المجديين ، ويحول الجذب إلى خصبٍ ، والمحل إلى نماءٍ زكيٍّ ،
ويصرفهم عبد المطلب .

(يا معشر قيس ومضر ! انصرفوا ، فقد سقيتم)^(١) .
وتنطلق حنجرة أبي طالب ، مزغردة :

أبو نأ شفيع الناس حين سُقُوا به من الغيث رجئاس العشير بكور^(٢)
ونحن سنين المحل قام شفيعنا بمكة يدعو ، والمياه تغور ...
فلم تبرح الأقدام ، حتى رأوا بها سحابات مزني ، صوبهن درور
وقيس أتت بعد أزم وشدة وقد عضها دهر أكب عور
فما برحوا حتى سقى الله أرضهم بشية غيثاً ، فالنبات نضير^(٣)

-
- (١) السيرة الحلبية ص ١٣٣ / ١ ، والنبوة ٦٥ : ١ .
(٢) سحاب رجئاس : شديد الهدير ، أو الصوت .
(٣) إثبات الوصية ص ٨٧ .

وتمضي حياة عبد المطلب : خضلة الحواشي ، مشرقة السنى ، وهتاجة النور ، مليئة بإرهاصات النبي المنتظر ، الذي قرأه في الكتب السماوية - وهو بعد نور في جبينه ... ثم رآه - وإنه لئن صلبه - فكان له ذلك الحذب الشفيق ، والمربي الحنون ...

وإنه ليس ينسى هذا الذي استأثر بقلبه ، وآثره على بضعة من ولده ... إنه ليس ينسأه ، حتى في آخر لحظة ، تختم به حياته المديدة ، التي بلغت المئة والعشرين - على قول - ونيفت على الخمسة والثمانين - في قول آخر . إنه وهو يعالج سكرات الموت ، ليدير عينيه في ولده ، وقد خفقوا به ، ليختار من بينهم من يلقي عليه مهمة ، شغلت منه فكره ... وليست هذه بالمهمة اللينة ؟ فعليه : أن يحسن الاختيار ، ليغمض عينين قريرتين .

ويمتدش بصره ، ليلتقي بأبي طالب . فليس خيراً من هذا ، تلقى على كاهله هذه المهمة الشاقة ، وهو الذي شاركه في القيام بها ، منذ بزغ نور هذا السراج الساطع :

أوصيك - يا عبد مناف ! - بعدي
بموحد - بعد أييه - فرد^(١)

ويردف بقوله :
وصيت من كنيت بطالب عبد مناف ، وهو ذو تجارب^(٢)

(١) ص ٧ قسم ١ ج ٣ أعيان الشيعة ، وص ١٢٥ ج ٣٩ منه ، في خمسة أبيات ، وعمدة الطالب ص ٦ ، بإبدال « موحد » بواحد ، وللمناقب ١/٢١ والبحار ٤٧/٦ في ٥ أبيات . ومعجم القبور ١/١٨٣ .

(٢) في أعيان الشيعة - ص ١٢٥ : ٣٩ - جاء فيه : [كفيت] ، بدل كنيت . وعلق عليها ساحة المؤلف المقدس ، فقرّبها بـ [كفلته] ، وهو لم يلتفت لذلك ، لأن الخطاب موجّه لأبي طالب ، وهو الذي كتّاه ←

بابن الحبيب أكرم الأقارب بابن الذي قد غاب ، غير آتب^(١)
وتقع هذه الوصية ، من نفس أبي طالب ، مكانها العميق ، فيرضى بها :
لا توصني بلازم وواجب إني سمعت أعجب العجائب
من كل جبر عالم وكاتب بان - بحمد الله قول الراهب^(٢)
ويعود عبد المطلب للقول :

[انظر- يا أبا طالب ! - أن تكون حافظاً لهذا الوحيد ، الذي لم يشم رائحة آبيه ، ولم يذق شفقة أمه . انظر أن يكون - من جسدك - بمنزلة كبذك . فإني قد تركت بني كلهم وخصصتك به ، لأنك من أم آبيه^(٣) واعلم^(٢) ، فإن استطعت أن تتبعه فافعل ، وانصره بلسانك ، ويدك ، ومالك . فإنه والله سيسودكم ، ويملك ما لا يملك أحد من آبائي^(٤) . هل قبلت ؟] .

→ بهذه الكنية ولم يوص به من اسمه « طالب » ، على أنه يجب - حينئذٍ ، على رأي سماحته - أن ينصب « طالباً » ، بعد حذف الباء منه ، فيكون « وصيت من كفلته طالباً » لأن وصي المشددة ، من الأفعال المتعدية لمفعول واحد بنفسها . ثم نختار ، بعد ذلك ، باسم عبد مناف ، لأنه يكون عندنا حينئذٍ ، اسمان : طالب ، وعبد مناف ، في حين أنهما اسم وكنية .

(١) الأعيان - في جزئيه - والعباس ص ١٩ .
وذكر صدر البيت الأول في مروج الذهب ص ١٣٢ ج ٢ وعجز الثاني بإبدال « ليس بآتب » .

وذكر البيت الأول في عمدة الطالب ص ٦ ومعجم القبور ١/١٨٤ .
(٢) المناقب ص ٢١ ج ١ والعباس ص ١٩ والأعيان ١٢٥ ج ٣٩ .
(٣) في المجالس السنية ٤/٣٧ والبحار ٦/٤٣ زيادة ، بعد هذا :
يا أبا طالب ! إن أدركت أيامه ، تعلم : أني كنت أبصر الناس به ، وأعلم الناس به ، فإن استطعت - الخ
(٤) وفيهما بعد هذا - أيضا :

فأجابه : « قد قبلت • والله على ذلك شاهد ! » •

ومدَّ يده إليه ، فضرب بها على يد ابنه — أبي طالب — وأرسل كلمته
المنبثقة من عميق قلبه ، وقد استراح من عناء هذه المهمة الثقيلة ، واستقبل
الموت بطمأنينة ضمير :

« الآن خفف عليَّ الموت ! » •

وراح يغمره بفيض من قبلات الحنان ، تحمل شفقة الوالد الحذب ،
ويقول :

« أشهد أنني لم أرَ أحداً — في ولدي — أطيب ريحاً منك ، ولا أحسن
وجهاً » (١) •

→ يا أبا طالب ! ما أعلم أحداً من آبائك ، مات عنه أبوه ، على حال أبيه ،
ولا أمه على حال أمه ، فأحفظه لوحده — الخ •

(١) البحار ص ٤٣ ج ٦ • وذكرت — في إثبات الوصية ص ١٠٧ —
وصية عبد المطلب لأبي طالب ، في صورة غير هذه • وذكرت لها صورة
أخرى في كتاب « الحجة » ص ٧٧ •

شخصية

في ذلك البيت ، الرفيع العمد ، والعميق الجذر ، والشامخ البناء ...
وتحت رعاية ذلك الولد الحذب ، ومن تعاليمه الرفيعة وعلى مدرسته الفذّة ...
تخرج أبو طالب ، بعد أن درج في هذه الحياة - وله من ماضيه « العظامي » :
ما يغرس في قلبه : انتهاج المثل العليا ، والسير في الطريق الألب .

وإن تكن للوراثه أثرٌ فعَالٌ في كخلق شخصية الإنسان ، وتغذية عقله ،
وتوجيهه - كما يرى ذلك علماء النفس - فإن أبا طالب قد استفاد من هذه
الوراثه ، فائدةً غير محدودة ... وما هو سوى دليل نابض ، للعلماء
النفسيين ، فإن يستشهدوا به ، فليس علينا إلا الإذعان ! وليس - ثمة - من
مجالٍ لقولٍ أو ردة ...

فأبو طالب صورةٌ واضحة الخطوط ، بارزة المعالم ، لماضٍ مشرق
الحواشي ، وضّاح السنن ، لامع النور . ففيه من صفات أبيه عبد المطلب ،
وجده هاشم ، وأجداده الأفاذا : ما جعلت منه تلك الصورة ، الواضحة ،
الرائعة .

وليس من نكيرٍ أن يكون أبو طالب ، كما كان ، وقد أراد الله منه :
أن يكون كافل نبي الإسلام - وهو الصورة الكاملة للإنسان ، والنسخة
المثالية للإنسانية ...

ليس من فكير : أن يكون أبو طالب ، كما كان ، وتحت رعايته نشأ
الرسول الأعظم ، وقضى تحت جناحه - شباب الزاهر ، وهو أعظم
مراحل عمر الإنسان حراجه ، وأشدّها : فعالية ، وإحساساً ، وتأثراً ...
إذن ... فقد اجتمعت لأبي طالب : عظاميّة شامخة ، وعصاميّة ناصعة ،
ازدوجتا ، فكان منهما : أبو طالب كافل محمدٍ اليتيم - أولاً - وأبو طالب
نصير الرسول وحاميه ، والمؤمن برسالة - ثانياً - فهو : شيخ البطحاء ،
وبيضة البلد .

ازدوجت تلك العظاميّة والعصاميّة ، حتى لو أنك أردت أن تبحث عن
خطوط إحداهما ، دون الأخرى ، لاستعصى عليك ، وما أنت بقادر أن تتميز
من بينهما خطأً ، تقول عنه : هذا عظامي ، أو : ذاك عصامي ! .

وكان شيئاً محتوماً - كما قلت - أن يكون أبو طالب كما كان ، ما دامت
السماء قدر اختارته لهذه المهمة ... فكان نصير رسالة السماء ، قام بواجبه
تجاهها ، كأحسن ما يُراد منه ! .

وليس من فكير - أيضاً : أن يشارك أبو طالب أباه : الزعامة ، في
حياته ، فيكون الشخصية الأولى ، بعد أبيه ... وأن يشاركه حتى في رعاية
الرسول ، والحدب عليه^(١) ، لينفرد - أخيراً - بكلتي المهمتين : الزعامة ،
والرعاية . فيكون : الزعيم الأول ، والراعي الأوحد ، والكفيل الذي ليس
له ثانٍ ، أو شريك ! .

ماضٍ حفيظٌ رائعٌ ، وحاضرٌ ضخمٌ ساطعٌ ، يُكوّنان حياةً فضلى ، تنتج
الخير والشر النضير ، وتُبقي عطرًا عبق الشذى ، فوّاح العَرَف ، يعطر
الوجود ، والعدو والصديق ، على حدّ سواء - كما تُشرق الشمس على الوهاد ،
وقم الجبال .

(١) السيرة الحلبية ص ١٣٧ ج ١ .

ولكن الأتق المزكوم ، لا يستشق العَرَفَ الفَوَّاح . وانعين الرمداء
لا تبصر الشعاع النيّر ...

وظاهرة واحدة ، يكاد يكون أبو طالبٍ صاحبها الأوحداً وتكاد تكون
— أيضاً — هي أول خطأ ، وآخر خطأ يميّز عصاميّته من عظاميّته ...
لم تكن الزعامة والسيادة ، بالتي تنال بكفٍّ من المال على قلة ، بله على
فراغ ، بل لا بدّ لها من مالٍ وفير ، يكون اندعامة الأولى ، في بناء الزعامة ،
والركيزة التي عليها تعتمد ... وبدونه لا أظنّ السبيل ، إلا مقطوعاً على مَنْ
يحفل قلبه بحبّها .

ولكن أبا طالبٍ ، كان ذلك الزعيم المهيّب ، والسيد الأوّل ، والرئيس
المطاع ، وهو الخالي الوفاض من المال — الإله المعبود — فلم يكن ذلك
الثريّ ، ولا ذلك الوارم الكيس^(١) .

ولكنه ، وإن كان ذلك الخالي الوفاض ، الفارغ الكيس — فإنه ذلك
الثريّ الكبير ، من حيث الخصائص النفسية . فهو من صفات الزعامة ، لعلّ
وفرٍ وغنى ، بحيث تفرضه زعيماً ، لا ينازعه في ذلك أحدٌ ، حتى ولو كان
ذا مالٍ ، ولا يُعدّل عنه لغيره . فمثله مَنْ لا يُعتاض عنه بغيره . وغيره لن
يقوم مقامه ، ولا يغني غناه .

ورث من أبيه : ملامحه وخصائصه ، فكان الرجل المسمّح بغير طلب
والمعطاء بغير منّة ، فصارع الديسة المهاطلة ، في انهماكها ، على فراغ يده ،
ومسييس حاجته للمال ... وإنه ليتحمّل — في سبيل ما تفرضه عليه طبيعته —

(١) النهج شرح الحديدي ص ٩ ١٢١ و ٤٦١ م ٣ ، والسيرة النبوية ص ٩٩
ج ١ ، والحلبية ١٥٣ ج ١ ، وفضل هاشم على عبد شمس — رسائل الجاحظ —
ص ١٠٩ ، ومعجم القبور ص ١٩٨ ج ١ ، وأعيان الشيعة ص ١٢٤ ج ٣٩ ، والإمام
علي صوت العدالة ص ٥٥ ج ١ .

أن يثقل كاهله بالدين ، لئلا يدع معروفاً ، أو خصيصاً عريقةً ، قام بها أبوه ، وكانت له من بعده .

قام — بعد أبيه — بسقاية الحاج ، وانتهج منهجه فيها ، بعد أن حفر زمزم ، فكان يقذف في الماء التمرَ والزبيبَ ، ليعذب منه المذاق ، في أفواه هؤلاء ، الضارين في كبد الصحراء ، ولهواتهم على لهبةٍ ووقيدٍ فينقموا تلك الغلظة ، والظماً اللاهب ...

وكان عامُ أسود ، أُمليق فيه أبو طالبٍ ، ورأى نفسه ، من عادته ، على غير اقتدارٍ ! ، ورأى نفسه تفرض عليه : أن لا يتخلّى عن مكرمةٍ ، تذكره بالأب الرحيم . فراح يستدين — من أخيه العباس — عشرة آلاف درهم ، إلى موسمٍ آخر ، لعله أن يستطيع سدّها فيه ، فلا يسقي الحاج — وهم ضيوف الله — ذلك الماء المرير ...

وجاء عامٌ آخر ، لم يستطع أن يدفع فيه لأخيه دينه . بل رأى يده لا تطول إلى القيام بواجبه ، نحو الحاج ! ، ورأى نفسه أمام أمرٍ واقعٍ ! ، فليذهب — مرةً أخرى — لأخيه العباس ، ويستدين منه أربعة عشر ألفاً ، ليدفع له جميع ما له ، في عامٍ مقبلٍ .

ولكن العباس ، لم يُعطه هذا المبلغ من المال — هذه المرة — إلا بعد شرطٍ ، أخذه لنفسه ، هو : أنه إذا عجز أبو طالبٍ ، عن سدّ دينه — في عامه المقبل — فعليه أن يترك السقاية إليه ... فكان ذلك (١) ...

غير أن السقاية — وقد أُفليت من يده الزمام — لم تكن بالتّي تؤثر على مقامه ، أو تخدش من زعامته ، وهو نعمة الخير في مكة ، ومجانب

(١) شرح النهج الحديدي ص ٤٦١ م ٣، والسيرة الحلبية ص ١٧ ج ١، والنبوية في الصفحة ذاتها ، وكامل ابن الأثير ص ١٤ : ٢، ومجالس ثعلب ص ٣٧ ق ١ .

الدعوة في السماء ، وهمزة الوصل بين الأرض والسماء ...
وإن له لخصائص وملامح ، لو شئنا أن نعرض لها ، وتناولها بالحديث ،
لطل بنا المقام ...

إن له من تلك الخصائص والملامح : ما تفرضه زعيمًا تَجَلَّله الهيبة
والوقار ، وكهفًا من المنعة ، حيث ليس لأحد أن ينال منه سوءًا ، وما هو ،
بالذي تهزه عاصفة نكباء ، وليس بالذي تلين منه قناة .

وإن من بين تلك الصفات والظواهر : ما تدعنا تؤمن ، بل ما تفرض
علينا أن تؤمن — إذ لا مجال لشك — بأنه على ملة الخليل إبراهيم : الحنيفية
البيضاء^(١) . فما كانت الجاهلية — بما فيها من : أوضارٍ ، وأرجاسٍ ،
ومنايغٍ للشر والآثام — بالتي تطبعه بطابعها ! بل وليست بالتي تحرف منه
المسلك ، أو تحيد به — ولو مصادفةً — عن لاجب الطريق ، وواضح المنهج ...
وليست البيئة التي عاشها ، ولا بس منها الحياة العامة — وهي أكبر
مؤثرٍ على الإنسان ، وأعظم مدرسةٍ ، يتلقى منها الإنسان الدروس العملية ،
التي تتعلق بالخصائص النفسية ...

وليست البيئة بالتي تكيّفه ، ولم يكن هو بالذي يصطبغ بهاء أو يتأثر
بها ، وله من عقله الراجح ، ونظره البعيد ، وفكره النافذ ، ونفسه الفضلى ،
وخصائصه الموروثة ، وملامحه البارزة ...

له من كلّ هذا ، قوة تسيطر عليه ، أن لا ينساق في بيئة متردية ، أو
مستوى منحطٍ ، أو جاهلية رعناء ... بل له من كلّ هذا : قوة ، لأن

(١) لابن أبي الحديد كلمة — في شرحه للنهج ص ٣٧ م ١٢ — تؤيد
ما نذهب إليه . نقلناها في الفصل ، الذي قبل هذا ، والذي عقدناه عن
عبدالمطلب .

يَكَيِّفَ هذه البيئة ، ويعطي هذا المجتمع المنحط دروساً علياً • فلا بدَّ من وجود مثله ، في فترةٍ ، تكون بين بعث رسولين ، أو بعد انقطاع الوحي من السماء ، لئلا تكون الحجة على الله والناس ^(١) •

إن وجود أبي طالب — بعد عبدالمطلب — حاجةٌ ضروريةٌ ، لا بدَّ منها...! وسيرةً كهذه ، لا بدَّ وأن تكون إرهاباتٍ لرسالةٍ ، تشرق على الوجود ، وتبدد سحابة الظلام المحلولة ، لئلا يكون مثل هذا النور المرتقب إشعاعه ، فجأةً لعيونٍ رمداء ، قد ألفت الظلام ، فلا يفتح لها جفنٌ أمام مصباحٍ •

ولا بدَّ من مصباحٍ ، يُرسل إشعاعه ، هي كبشيرةٌ لشروق نورٍ بهيٍّ • ولا بدَّ من نجمٍ يهتدي به الساري ، تحت سحابة الليل الفاحمة ، لئلا يهوي في هوةٍ من التيه عميقة ، فاعرة الفهم • فلا بدَّ من وجود مثل أبي طالب ، كحجةٍ لله على الناس •

ولا بدَّ وأن يكون أبو طالبٍ ، كما كان — كما قلنا — ولا بدَّ أن تكون سيرته على مثل هذا الإشراق والإشعاع ... ما دام هو مربّي الرسول ، ذلك النور المشع • ما دام هو أحد تلك الإرهابات ، التي تبشر بشروق هذا النور البهي ...

فليس من فكيرٍ : أن تحفل شخصيته بكلِّ مقومات الزعيم ، وأن تزخر

(١) أشير لذلك في العباس ص ٨ — ١٩ ، عن المجلسي في البحار ص ٣٠٢ و ٤٧٥ ج ٦ • وذكر عن الطبرسي : إجماع أهل البيت على ذلك • وذكر : أن الصدوق — في إكمال الدين ص ١٠٢ — قال : إنه — كأيّيه — من أعرف العلماء وأعلمهم بشأن النبي ، وكانا — هو وأبوه — يكتمان ذلك عن الجهال والكفرة • وأشير لذلك في معجم القبور ص ١٩٠ و ٢٠٠/١ ، وفي الغدير ص ٣٩٠ و ٣٥٠ • با يؤيد ذلك • ج ٧ :

بالصفات الفضلى ، والميزات الرفيعة ، لتسيّره عن كلّ مَنْ وما حوله ، ونحوه .
بِهَالَةٍ مِنَ التقدير والإكبار ، مِنْ كلّ مَنْ حوله .

فهو : نعمة الخير ، والكهف الحصين ، الذي بقي مِنْ الحوادث والطوارئ . فإليه يلجأ الضعيف المضام . وَمِنْ كَفِّه النديانة ينتهل المعدّم ، فتعود له الحياة المخضرة . وبه يتوسّلون ، حين ما ينقطع مِنَ السماء قطرها المدرار . وهو : الوصول للرحم ، الكشّاف للكروب ، البرّ الرحيم ، الجواد بما يملك ، مِنْ غير منّة ، والسّمح بما يستطيع ، بلا طلب ، قويّ الإرادة ، منطيق فصيح ، يتدفّق بلاغة ، حديديّ القلب ، ثبت الجنان ، جميل الطلعة ، مهيب الجانب ، موفر الاحترام والتعظيم (١) .

وإن له بالتشريع لدراية ، فهو ذو معرفة شاملة ، وعلم عميق . فيحرّم على نفسه شرب الخمر ، ومقارفة الموبقات (٢) ، وكلّ ما حوله مِنْ أضرار الجاهلية ، وأرجاس الشرك ، وآثام الوسط المنحط . ويرتفع — بروحيته — إلى أفقٍ واسع ، رفيع المستوى ، مديد الرقعة ، نقيّ الجواء ، على صفاء وطهارة .

وكان أول مَنْ سنَّ « القسامة » — في دم عمرو بن علقمة — فأقرتها — بعد — السنّة النبوية (٣) .



(١) بمثل هذا جاء وصفه في التأريخ ، فراجع — منه — ص ١٠٧ ، ١٠٨ مِنْ إثبات الوصية .

(٢) السيرة النبوية ١/٧٩ ، والحلية ١٣٤ : ١ ، وأبو طالب ٢٣ ، وهاشم وأمية ص ١٥٧ ، ومعجم القبور ص ١٩٨ ج ١ .

(٣) شرح النهج الحديدي ص ٤٦١ ج ٣ . وقد ذكرتِ الحادثة في صحيح البخاري ١٩٦ : ٢ .

والقسامة — بفتح القاف — اسمٌ مِنْ « أقسم » ، وُضع موضع المصدر ←

وهناك ظاهرةٌ روحيةٌ — مِنْ ظاهرات أبي طالب — لمسها معاصروه .
ففي حرب الفِجَار — بين: هوازن، وكنانة — كان يحضر أبو طالب ، ومعه
الرسول . فمضى حضر ، كان النصر حليف هوازن . ومتى غاب دارن عليها
الدائرة .

فطلبت هوازن مِنْ أبي طالب : أن لا يغيب عنها : ليؤاتيها النصر . فكان
عند طابها (١) .

وما هو إلا نبعة السماء، وثمان الارض ، وباقية الخليل إبراهيم ، وسلااة
الذبيح إسماعيل . يدعو الله ، فتنهمر السماء بقطرها ، وتفرش الأرض بالسماء
والخصب ، وتغدودق بالحياء الهطال (٢) .



أخرج ابن عساكر ، عن جلهمة بن عرفة — وما لنا وللتعليق ؟ فلندع
لسان صاحبي السيرة ، هو الذي يحدثنا ، عن لسان جلهمة . قال (٣) :

— وهي الأيمان تقسم على أولياء الدم، فيقال : « حكم القاضي بالقسامة »،
أو « قتل فلان بالقسامة » . وذلك أن يجتمع أولياء القتل ، فيدعون على
رجل أنه قاتل صاحبهم . وتكون معهم أمانة غير البيعة ، فيحلفون خمسين
يميناً بأن هذا هو القاتل . وهؤلاء الذين يخلفون يُسَوِّون « قسامة »
— أيضاً — وسير الحلف ، هنا ، على خلافة ، في سائر الدعاوى ، لنصوص
خصّصته .

وله في كتب الفقه موضوعٌ مختصٌّ ، فمن شاء الشمول ، رجع له
في مظانّه .

(١) النهج الحديدي ٤٦٢ : ٣، والسيرة النبوية ٩٨ : ١، والحلية ١٥٢ : ١.

(٢) الحياء — هنا — بمعنى المطر . ويجيء بمعنى الخصب والنبات .

(٣) النبوية ٨٠ : ١، والحلية ١٣٨ : ٢ — وبين الروايتين تصحيحاً ،

في بضع كلمات ، كـ « اعمدوا » ، فانها « اعتمدوا » ، في الحلية .

قدمت مكة ، وهم في قحطٍ وشدةٍ ، من احتباس المطر عنهم .. فقائلٌ يقول : اعمدوا اللات والعزى . وقائلٌ منهم يقول : اعمدوا مناة الثالثة الأخرى . فقال شيخٌ وسيمٌ ، حسن الوجه ، جيّد الرأي :

أتى تؤفكون ! وفيكم باقية إبراهيم ، وسلالة إسماعيل ! (١) .

[ولم يغب عنهم : ما يعنيه هذا الشيخ الوسيم ، المجوّد الرأي ، والحسن الوجه . وما كان هذا العلم بالجديد عليهم ، وهم منه على عمق معرفةٍ ، وشمول درايةٍ] .

قالوا : كأنك عنيت أبا طالب ! .

فقال : إيها .. !

فقاموا بأجمعهم ، وقمت معهم ، فدققنا الباب عليه ، فخرج إلينا رجلٌ حسن الوجه ، عليه إزارٌ قد اتشح به « (٢) » فثاروا إليه ، فقالوا :

يا أبا طالب ! أقحط الوادي ، وأجذب العيال ، فهلّم فاستسق إلينا ! .

« ص »

فخرج أبو طالب ، ومعه غلامٌ — وهو النبي « ص » كأنه شمس دجن — تجلّت عنها سحابةٌ قتماء ، وحوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهر الغلام بالكعبة ، ولاذ الغلام — أي : أشار بأصبعه إلى السماء ، كالمتضرع الملتجئ — وما في السماء قزعةٌ (٣) ، فأقبل السحاب من ههنا وههنا ، واغدودق الوادي ، وكثر قطره ،

(١) هذه الجملة إحدى البراهين القائمة ، على ما ذهبنا إليه ، قبل قليل ، من هذا الفصل .

(٢) ما بين هذين القوسين تعبيرٌ ، ممّا اختصّت به السيرة الحلبية .

(٣) القزعة — محرّكٌ — قطعٌ من السحاب صغارٌ متفرّقٌ ، والقزعة — محرّكةٌ أيضاً — القطعة منه .

وأخصب النادي والبادي (١) .

ولعل أبا طالب — كما يقول صاحب السيرة — إني هذه الحادثة ، أشار في ما بعد . بقوله من قصيدته اللامية :

وأبيض يُستقي الغمام بوجهه — الخ .

* *

بهذه الصفات المثلى ، والميزات الفضلى والخصائص والملامح البارزة، نال أبو طالب مكانه ، فدانت له القلوب بالحب ، وأحاطته بالإكبار ، وتحت له عن محل الرئاسة . وما غيره بجدير لها ، وهو على رقعة الأرض ، يخفق له قلب ، وتمشي به قدم ...

فكان — كما كان أبوه — توضع له وسادة ، يجلس عليها وحده ، فيجيء الرسول ، ويجلس عليها ، فيقول :

إن ابن أخي ليحش بنعيم — أي : بشرفٍ عظيم (٢) .

(١) ذكرت هذه الحادثة في الغدير ص ٣٤٦ ج ٧ ، وأسندت فيه — عدا السيرتين — إلى : شرح البخاري للقسطلاني ص ٢٢٧ : ٢ ، والمواهب اللدنية ٤٨ : ١ ، والخصائص الكبرى ٨٦ و ١٢٤ : ١ ، وطلبه الطالب ٤٢ .
وأُخرجت في الحجة ٩١ — باختلافٍ في مقدّمة القصة — والبحار ٣٨٨ : ٦ ، وقالوا : إن الذي دلّهم على أبي طالب ، هو : ورقة بن نوفل — عم خديجة .
وذكرت في أبو طالب ص ٤٩ . وذكرت بإيجازٍ في الإمام علي صوت العدالة ص ٣٤ ، وفيه ص ٥٥ ج ١ ، وفي أعيان الشيعة ص ١٢٦ : ٣٩ .
(٢) السيرة النبوية ٨٠ : ١ ، والحبلية ١٣٨ : ١ ، والبحار ١٢٩ : ٦ ، وأعيان الشيعة ١١ : ٢ .

دلائل

إن في شعر أبي طالب هذا دليلاً على أنه كان
يعرف نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ،
قبل أن يبعث ، لما أخبره به بحيرا الراهب
وغیره ، من شأنه ، مع ما شاهدته من أحواله .
ومعرفة أبي طالب بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم
وسلم ، جاءت في كثير من الأخبار ، زيادة على
أخذها من شعره .

الامام عبدالواحد السفاقي
- النبوة ٨٨ : ١ -

» ولقد كان أبي يقرأ الكتب جميعاً .
ولقد قال : إن من صلي نبياً ، لوددتُ أني أدركتُ
ذلك فأمنتُ به ، فمن أدركه من ولدي فليؤمن به « (١) .



ما كان ذو القولة — هذه — بحاجةٍ لدليلٍ مجدّدٍ ، وهو ذو العقيدة
الريسخة ، والإيمان الوطيد ...

إن لديه — من الدلائل — لوفراً ، يفوق العدء ، ويأبى الحصر . وإن
واحداً — من بينها — لكفيلٌ بإثبات ما يذهب إليه . وما يجلو عن النفس
الشك والريب . لو كان هذان مما يعرفان طريقهما إلى نفس بيضة البلد .
إن هذه الأدلة المنتصبة ، وهذه البراهين الواضحة ، لمّا يزيد إيمان
أبي طالب عسقا ، وشولاً ، وامتداداً ، وما كان — في يومٍ مّا — ذاك المزعزع
العقيدة ، ولا الرجراج الإيمان .

إن دليلاً واحداً — من بين ألف دليلٍ ودليلٍ — لتفرض على كلٍّ من له
ذرةٌ من عقلٍ : أن يؤمن بمثل ما آمن به أبو طالب ، وأن يكون ذلك المتين
المعتقد ، والريسخ العقيدة ، والثابت على المبدل القويم .

إنه ليعلم — علماً لا يخالجه ريبٌ — بأن ابن أخيه ، هو ذلك الرسول
المنتظر ، الذي قرأه أبوه في الكتب السماوية جميعاً ، وبشّرت به الرسالات

(١) شيخ الأبطح ٢٢ ، والغدير : ٣٤٨ : ٧ ، والعباس ١٨ و ٢١ .

السماوية ، منذ يومها الأول ، وفي فجرها البكر .
وهو — إلى ذلك العلم الثابت — يلمس دلائل صارخة ، وبراهين سافرة ،
الوجه ، ليس لمكابري إلا أن يدعن لها — فكيف بمؤمن عميق ، لا تزیده البراهين
والدلائل ، إلا : عمق إيمان ، وشمول معرفة ، ومتانة معتقد ، وثبوت مبدأ ،
ورسوخ يقين !... .

لقد شاهد وفراً من هذه الدلائل ، وعبدالمطلب — بعد — على رقعة
الوجود ، وقد يشاهد بعضاً منها أبوه عبدالمطلب ، فيدله عليها ، ويخبره عنها .
غير أنه — اليوم — وقد كان هو الكافل الأوحـد لابن أخيه ، فإنه يشاهد
من هذه الدلائل وفراً أكثر ، تكاد تزدحم لديه . ولا تكاد رقعة يوم تزول ،
أو سحابة ليل تطوى ، إلا ويلمس — بين تضاعفها — دليلاً نابضاً وبرهاناً
صارخاً

إنه يشاهد — عن كـتب — من ابن أخيه : أشياء ، وملامح ، ومميزات ،
لا تكون لرجل عاديٍّ ، يعيش كما يعيش الناس ، وتطوى حياته ، يوم يُسلم
الروح ، فيتلاشى من الوجود ظلكه ، ومن الجواء صدهاء ، كأن لم يُخلق ، ولم
يعبر بهذا الكون ، ولم تطأ له فيه قدمٌ

لا... ! بل إنه يشاهد — من بين تلك الملامح والمميزات — ما يرهـن على
أن ابن أخيه هو أكمل صورةٍ لخلق الله ، منذ خلق آدم ، حتى تقوم الساعة ،
وهو النسخة المثالية ، لارتفاع الإنسان ، بالقيم المثلى ، إلى قمةٍ شامخةٍ ، لا يرقى
إليها الطير ، وينحدر عنها السيل — على حدِّ تعبير ابنه الإمام ، بعد — وهو
« صورةٌ طبق الأصل » لهذه الصورة الكاملة .

ومن بين تلك الدلائل الكـثـار ، والبراهين الوفـر ، التي لا تقع تحت
الحصر ... من بينها دلائلٌ — غير الدلائل الروحية والخلقية ، « بضم الخاء » —
دلائلٌ ملموسةٌ صارخةٌ ، يحسُّها ويلمسها ، ويشاهدها ، حتى من لم يكن من
العقل ذلك المكتمل ، ومن الإيمان ذلك العميق ... يحسُّها حتى هؤلاء الماديون ،

الذين لا يعرفون غير ما يلمسون ، ولا يحسّثون سوى ما يقع عليه منهم
النظر ...

فكيف بكميل العقل ، ورجيح الإيمان ، ونافذ النظرة ، وبعيد الغور ،
ومكتمل المعرفة ، ومتين المعتقد ؟؟؟

ولسنا نحاول أن نحشد في هذا الفصل من الدلائل والبراهين ، ما يضيق
عنه هذا الكتاب ، وهي مبعثرة بين الصفحات - من المراجع - وتحتاج إلى
طويل وقت ، لتجمع من بين الزوايا .

ولكن فلنأخذ بعضاً منها ، لنعرضه على القراء - بالإضافة إلى ما مرّ
بنا - وليس هذا البعض ، إلا كدليل على الكل :

١ - نبع الماء

ذكروا من بين الإرهاصات ، التي سبقت بعثة الرسول صلى الله عليه وآله
وسلم . أنه كان مع عمه أبي طالب - بذي المجاز^(١) - إذ عطش أبو طالب ،
وليس - ثمة ماء ، يطفأ لهبه عطشه ، فذكر لابن أخيه ما ألمّ به من العطش .
فما كان منه ، إلا أن أهوى بعقبه إلى الأرض - وفي رواية أخرى : أنه
ركض صخرة برجله^(٢) - وقال « شيئا » ، فإذا بالماء يتدفّق ، لم ير مثله
أبو طالب - كما حدث - فشرب ، حتى أطفأ لهبه الظم ، وعاد فركضها

(١) ذو المجاز : موضع على فرسخ من عرفة ، كان سوقاً للجاهلية .
وذكر في معجم البلدان - ص ٥٥ ج ٥ - أنه [موضع سوق بعرفة ، على ناحية
ككب ، عن يمين الإمام ، على فرسخ من عرفة ، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية
أيام] - الخ .

(٢) ركض الصخرة برجله : ضربها .

— مرة أخرى — لتعود سيرتها الأولى (١) .

✱ ✱

ب - مع العائف

إن رجلاً من « لَهَب » كان عاقفاً (٢) . فإذا ما قدم مكة ، أتته رجال قريش بعلماهم ، لينظر لهم ، ويعتاف لهم فيهم . . . وكان أبو طالب ، من بين الحشد ، الذي أتاه ، ومعه الرسول ، فنظر العائف للرسول ، ثم كان لديه ما شغله عنه . . . وما انتهى شاغله ، حتى قال :

الغلام ! عليّ به !

وما إن رأى أبو طالب ، حرص هذا العائف عليه ، حتى أوجس منه خيفةً ، وأحسّ شيئاً ، يفرض عليه أن يغيبه ، فلا تقع عليه هاتان العينان ، النافذتا البصر ، البعيدتا النظر . . . ولم يأبه لصياح العائف :

ويلكم !! ردّوا عليّ الغلام ، الذي رأيت آتفاً . فوالله ليكون له « شأن » (٣) . . .

ولم تكن هذه الكلمة — « شأن » — بالجديدة الجرس ، ولا الغريبة النبرة ، على مسمع أبي طالب ، فإنه لعليم بأن له « شأن » . وإنه للعليم أيضاً بماهية هذا « الشأن » . . .

✱ ✱

(١) السيرة النبوية ٨٩ : ١ ، والحليّة ١٣٩ : ١ ، وتذكرة الخواص ٩ ،

والعباس ٢٠ ، والبحار ١٢٩ : ٦ .

(٢) عاف الطير : زجرها ، فتشاءم ، أو تفاعل ، بطيرانها . والعائف

— اسم فاعل — المتكهن بالطير ، أو بغيرها .

(٣) السيرة الهشامية ١٩٠ ج ، والنبوية ١٩٠ : ١ ، والحليّة ١٣٩ : ١

وأبو طالب ٣٢ .

ج - إنك لمبارك

شاهد أبو طالب ظاهرة بارزة ، تتضح بالدليل الصارخ ، منذ انحاز الرسول إلى عائلته - بعد وفاة عبد المطلب - فأبو طالب وهو المقل من المال - كان كثير العائلة .

ولقد كان هذا الإقلال - من جانب - وهذه الكثرة - في الطرف الآخر - سبباً فعالاً ، لثلاث شعب عائلته ، إذا جلست على المائدة ، إن فرادى ، وإن جميعاً . . . ومتى ضمت المائدة الرسول ، فإنهم ينفضون عنها ، وهم من الشيع على اكتناز ، وفي الطعام فضلة . . . فكان أبو طالب يقول لهم ، إذا حضر وقت الطعام ، ولم يجد بينهم ابن أخيه :
- كما أتم ، حتى يأتي ابني .

وإن الواحد - من بين هؤلاء - ليشرب « القعب »^(١) من اللبن . . . ولكن أبا طالب يأخذ القعب ، لبدأ بالرسول ، فيشرب ، وتشرب العيال جميعاً ، من هذا القعب ذاته ، فيقول أبو طالب :
- إنك لمبارك^(٢) .



(١) القعب : القدح الضخم الغليظ .

(٢) السيرة النبوية ٨٠ : ١٨ والحلبة ١٣٧ ، ١٣٨ : ١٨ والبحار ١٢٤

و ١٢٩ : ٦ .

وقد أشار لذلك عمر أبو النصر ، في كتابه [فاطمة بنت محمد صلى الله عليه « وآله » وسلم] ص ١٨ . وتجد صورة حرفية ، لما قاله - هنا - في كتابه [محمد النبي العربي] ص ٤٧ . وكثيراً ما يحدث لأبي النصر - في كتبه مثل هذا التكرير .

وذكرت في العباس ص ٢٠ . وأشير لها في « على هامش السيرة »

ص ١٩٠ ، ١٩١ : ١٨ و ١٥١ ، ١٥٢ : ٢ .

بلغت عناية أبي طالب بالرسول ، حدًّا يتجاوز الوصف ، فقد اتَّحدت الروحان حتى كان من الصعب - أو العسير - أن تستطيعا فراقاً؛ فما كان محمدٌ بالذي يقرُّ له قرارٌ ، وقد شاهد عمُّه مزماً على سفرةٍ ، قد يطول منها الأمد . وليست نفسه بالتي ترضى بهذا الفراق ، ولم تعد تستطيع تصوُّره ، حيث لم يبقَ - لديه - حصنٌ ، يقيه الزعازع ، غير هذا الشيخ الحذب . فإن هو سافر بدونه ، فإلى مَنْ يلجأ ؟ ومن ذا يقيه هجير الظهيرة ، ويخفف عنه آلام اليتيم ، وينتهل منه نبع الحنان والشفقة ؟!

فلم يكدر الرسول يشهد عمُّه ، يخطو نحو راحلته ، وإذا بدموعٍ تنحدر من عينيه ، وعبراتٍ غزارٍ قد أخذت طريقها على وجنتيه .
فيالدموع اليتيم ، يشهدا الشيخ الحذب ، فيخفق لها قلبه الرحيم ، فيرقُّ لهذا الصب . ولم يستطع أن يسمع من ابن أخيه هذه الكلمات :
- يا عمَّ ! إلى مَنْ تكلمي ؟ لا أب لي ، ولا أمَّ ! .
فكان جواب أبي طالب - وليس له إلا أن يجيب بما أجاب :
- والله لأخرجنَّ به معي . ولا يفارقني ، ولا أفارقه ، أبداً .

→ وقد شاهد أبو طالب هذا الدليل المكرور - بعدئذٍ - يوم « الإذار » ، حين مادعا الرسول زعماء قريش ، فأولَّم لهم بفخذٍ من اللحم ، وعشٍّ من اللبن . - العشُّ بضم عينه : القدح ، أو الإناء الكبير - وإن الواحد منهم ، ليأتي على المسنة ، وعلى العش . وهم - حينذاك - أربعون رجلاً ، ينقصون واحداً ، أو يزيدونه - كما حدَّث بذلك الإمام عليُّ « عليه السلام » .
وكلُّ مَنْ عرض سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ذكر هذه الحادثة ، فلم نرَ حاجةً لأن نرجعها لمصدرٍ ، وهو متعدّدٌ ، ولا أن نخصّها ببحثٍ ، وهي مستفيضةٌ .

فأخذه معه ، قريباً منه ؛ فليس لهما ، أن يكونا ، إلا على راحلةٍ واحدةٍ .
وراح الركب يطبع في الصحراء خطوطاً ، لا يلبث أن يلاشي النسيم منها
الأثر ، حتى إذا بلغ الركب « بصرى » — من أرض الشام — أراد أن يسترد
بالراحة ، تعب السير المغد^(١) .
وكان — هنا — راهبٌ ، يُقال له « بحيرى » ، في صومعةٍ له ، قد انتهى

(١) زادت السيرة النبوية ٩٠ : ١ والحلبية ١٤٠ : ١ عند عرض هذه
الحادثة ، ما يلي :

إن الركب — قبل أن يصل إلى « بصرى » — نزل على صاحب ديرٍ ،
فقال صاحب الدير لأبي طالب :
— ما هذا الغلام منك ؟

— ابني !

— ما هو بابنك ! وما ينبغي أن يكون له أبٌ حيٌّ ، لأن من كانت هذه
الصفة صفته ، فهو نبيٌّ . ومن علامة ذلك النبيّ — في الكتب القديمة — أن
يموت أبوه ، وأمه حاملٌ به ، وأن تموت أمّه وهو صغيرٌ .
— وما النبيُّ ؟

— الذي يأتيه الخبر من السماء ، فينبئ أهل الأرض .

— الله أجلُّ ممّا تقول .

فيحذّر الراهب أبا طالب ، أن يتقي عليه اليهود .
ومرّ الركب براهبٍ — صاحب ديرٍ آخر — فكان بينه وبين أبي طالب
مثل هذا الحوار . وقال — بعد ذلك — أبو طالب ، لابن أخيه :

— يا ابن أخي ! ألا تسمع ما يقولون !؟

— أي عمّ ! لا تُنكر الله قدرةً !

إليه علم « النصرانية » .

ولكن الراكب ، يشهد — لأول مرة — من هذا الراكب ، ما لم يشهده من قبل . فكثيراً ما طاف الراكب بهذه الرقعة من الأرض ، دون أن يعرض لهم هذا الراكب ، أو يبادلهم المقال .

لقد أطلَّ الراكب — من صومعته — فشهد الراكب ، ولفت نظره — من بين الراكب — هذه الغمامة ، التي تظلل واحداً من بين هؤلاء جميعاً ، أثرته بظللها ، فوقته لهب الشمس ، ووقيد الصحراء اللاهبة ... وإذا استقر بالراكب المكان ، لفت نظره — مرة أخرى — من بين هؤلاء أيضاً ، هذه الشجرة ، التي تهصرت منها الأغصان ، فتظلل ذلك المستظل بالغمامة — قبلئذ — وتختصه ، من بين هؤلاء جميعاً ، بفيئها وظلالها ...

لقد أخذ منه العجب ، غير أنه لم يطل له أجل ... فسرعان ما تلاشى ، حين ما ثاب إليه فكره ، وعادت إليه ذاكرته ، إلى ما بين السطور ، من كتابه المقدس .

وإذا نزل من صومعته ، وأمر بطعام أن يصنع ، بعث إلى الراكب ، فقال له :

إني صنعت لكم طعاماً — يا معشر قريش ! — فأنا أحب أن تحضروا كلكم : صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحرکم .

فانبرى إليه — من بينهم — من أخذ منه العجب أقصى مكان :

والله — يا بحيرى ! — إن لك لشأناً اليوم . ما كنت تصنع هذا بنا ! . وقد كنا نمر بك كثيراً !! فما شأنك اليوم ... ؟!

وبعد جواب منه ، نزلوا عند رغبته ، فاجتمعوا لديه . ولم يتخلف من بينهم غير الرسول — وهو السبب المباشر لما شاهدوه من هذا الراكب : العميق النظرة — فقد كان عند الرحال ، تحت الشجرة .

وطافت من الراهب نظرة في القوم — فاحصة ، فلم تقع على ما يشبع
نهمها الصيَّاح ، وينقع غلتها اللهي... فكان بينه وبينهم حوار :

— يا بحيرى ! ما تخلف عنك أحد ، ينبغي له أن يأتيك ، إلا غلاماً ،
وهو أحدث القوم سنّاً ، فتخلف في رحالهم .

ولم يكن ليقف هذا الحوار ، عند ساحل ، لولا أن قام من بينهم من
« احتضن » الغلام ، وجاء به . فعادت — من بحيرى — تلك النظرة
الفاحصة ... ثم ينظر إلى أشياء من جسده ، نظرة بعيدة ، ليجد فيه صفات ،
قرأها في الكتاب المقدس ، تخص هذا الغلام العظيم .

وإذ تفرّق القوم عن الطعام ، راح بحيرى يسأل الرسول ، عن أشياء ،
يهدف من وراءها: أن يطبق علمه ، ويعمق منه الإيمان ...

وعاد الراهب لأبي طالب ، يسأله سؤال اللفهان :

— ما هذا الغلام منك ...

— ابني ! .

— ما هو بابنك ! وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً .

— فإنه ابن أخي ! .

— فما فعل أبوه ؟ .

— مات ، وأمه حبلى به .

— صدقت ! فارجع بابن أخيك إلى بلده . واحذر عليه يهود ! فوالله

لئن رأوه ، وعرفوا منه ما « عرفت » ليعنّته شرّاً ، فإنه كائن لابن أخيك
هذا « شأن » عظيم . فاسرع به إلى بلاده (١) .

(١) السيرة الهشامية ١٩١ — ١٩٤ : ١ والنبوية ٩٠ — ٩٢ : ١ ، والحليّة

١٣٩ — ١٤٢ : ١ وتاريخ الطبري ٢٢ — ٢٤ : ٢ ، والكامل لابن الاثير ٢

وعاد الرسول — مع عمه — وقد تفتّحت عيناه على جوانب من الحياة ،
وطاف بعالم جديد ، غير عالم مكة ، الذي فيه ربا ودرج .

أما أبو طالب ، فعاد به ، وهو أشد ما يكون عليه حذراً ، يحوطه
بعنايته ، ويغمره بفيض حبه ، ويحرسه بكل حيلة واحتراس ، فيخاف عليه
من تلك الشرذمة الفتاكة ، المغلولة اليد ، يهود الخبيثة ، التي تريد — لو
تستطيع — أن تطيح بهذا الغصن الفارع ، قبل أن يتفتح عن : زهر باسم ،
وثمر نضير .

وما كانت هذه الصورة ، بالتي تُزِيل مخيلة شيخ البطحاء ، وقد
اختزن منها صوراً ، لا تزول .

ولكنه — وقد شاء : أن يسجل هذه الصورة ، لتبقى محفورة على جبين
الزمن ، تقرأها الأجيال التالية — راح يودعها بعض شعره ، لتسلمها
الأجيال : وثيقة رائعة :

→ ٢٣ ، ٢٤ : ٢ ، وقصص العرب ٩٩ ، ١٠٠ : ١ . وذكرت — بإيجاز — في
البحار ٥٩ — ٦١ و ٦١ ، ٦٢ و ١٢٩ ، ١٣٠ : ٦ ، وأبو طالب ٣١ ، وعلى هامش
السيرة ٧١ — ٨٣ : ٢ ، وبين الروايات تباين في التعبير . وفي بعضها زيادة على
البعض الآخر .

وأما روايات البحار الثلاث ، ففيها ذاتها اختلاف . فالرواية الأولى
تختلف عن غيرها ، وفيها شيء من التناقض .

ففي أول الحادثة نراه يقول : إن بحيرى سأل أبا طالب : أي شيء
منه ؟ فيجيبه : أنا عمه ، وإذا به في نهاية الحادثة يقول : إن بحيرى سأله مثل
هذا السؤال ، فيجيب : هو ابني . . . الخ .

ولكن الحادثة الثانية ، هي الصحيحة الرواية ، ومثلها الثالثة . ويُعذر في ذلك :
أنه يجمع أحاديث ، وعلى الآخذ منها التمييز .

إِنَّ ابْنَ آمَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا
 لَمَّا تَعَلَّقَ بِالزَّمَامِ ، رَحِمَتْهُ
 فَارْفُضٌ مِنْ عَيْنِي دَمْعٌ ذَارِفٌ
 رَاعَيْتُ فِيهِ قَرَابَةَ مَوْصُولَةٍ
 وَأَمَرْتُهُ بِالسَّيْرِ بَيْنَ عُمُومَةٍ
 سَارُوا لِأَبْعَدِ طِيَّةٍ مَعْلُومَةٍ
 حَتَّى إِذَا مَا الْقَوْمُ بَصْرِي عَايَنُوا
 حَبْرًا - فَأَخْبَرَهُمْ حَدِيثًا صَادِقًا
 قَوْمٌ يَهُودٌ قَدْ رَأَوْا ، لَمَّا رَأَى :
 ثَارُوا لِقَتْلِ مُحَمَّدٍ ، فَنَهَاهُمْ
 فَشَنَى زَيْرًا ، مِنْ بَحِيرٍ فَانْشَى
 عِنْدِي يَفُوقُ مَنَازِلَ الْأَوْلَادِ...
 وَالْعَيْسَى قَدْ قَلَّصَنَ بِالْأَزْوَادِ (١)
 مِثْلُ الْجَمَانِ ، مَفَرَّقُ الْأَفْرَادِ
 وَحَفِظْتُ فِيهِ وَصِيَّةَ الْأَجْدَادِ
 بِيضُ الْوُجُوهِ ، مَصَالَتِ الْأَنْجَادِ (٢)
 فَلَقَدْ تَبَاعَدُ طِيَّةُ الْمُرْتَادِ (٣)
 لَاقُوا عَلَى شَرْكِ مِنْ الْمُرْصَادِ :
 عَنْهُ ، وَرَدَّ مَعَاشِرُ الْحَسَّادِ
 ظِلَّ الْغَمَامِ ، وَعَنْ ذِي الْأَكْبَادِ (٤)
 عَنْهُ ، وَجَاهَدُ أَحْسَنُ التَّجَاهِدِ
 فِي الْقَوْمِ بَعْدَ تَجَاوُلِ وَبَعَادِ (٥)

- (١) قلص القوم : اجتمعوا فساروا . قلصت الناقة براكبها : أسرعت .
 استمرت في مضيئها . الأزواد - جمع زادٍ ، وهو : ما يُتخذ من الطعام للسفر .
 (٢) المصالت من الرجال : الشجاع الماضي في الحوائج . الجبين الصلت :
 الواضح المستوى البارز . أنجاد جمع نجد : الضابط للأمر ، يذل المصاعب .
 الشجاع الماضي في ما يعجز غيره . السريع الإجابة إلى ما دُعي إليه .
 (٣) في رواية طبة - بالواحدة بدل المثناة - وهي مؤنث طب ، ومعناها :
 الناحية والجهة .
 (٤) كذا وجدناها في مصادرها ؛ وفي رواية : " ناغري الأكباد " وهي
 أقرب للصحة ، لأنها واضحة المعنى .
 (٥) زير ودريس وتمام : أحبار من اليهود ، عرضوا للركب ، ييغون
 الرسول ، فردتهم بحيرى عنه . ونحن لم نشأ أن تأتي عليها ، عند عرضنا
 للقصة ، بغية الاختصار .

ونهى دريساً ، فاتتهى عن قوله (١)

وعاد يودعها هذه الأبيات :

ألم ترني من بعد همهم هممتهم ..
بأحمد ، لما أن شددت مطيتي
بكي حزناً ، والعيس قد فصلت بنا
ذكرت أباهم .. ثم رقرقت عبرة
بفرقة حرّ الوالدين حرام (٢)
برحلي ، وقد ودعته بسلام
وأخذت بالكفين فضل زمام
تجود من العينين ذات سجام

ويروح يسجل هذه الحادثة ، ويودع مشاهدتها هذه الأبيات ، حتى
يصل إلى موقف بحيري وردّه أخبار اليهود الثلاثة ، فيقول :

فجاءوا وقد هموا بقتل محمد
بتأويل التوراة ، حتى تيقنوا
أبغون قتلاً للنبي محمد !
وإن الذي نخساره منه مانع
فذلك من أعلامه وبيان
فردهم عنه بحسن خصام (٣)
وقال لهم : رمتهم أشد مرام
خصصتم على شؤم بطول أثام
سيكفيه منكم كيد كل طعام
وليس نهار واضح كظلام (٣)

ولسنا نرى حاجة ، لأن نترسل ، فنورد كل ما سجله ، بعد هذه

الحادثة .

☆ ☆

(١) الغدير ٣٤٤ : ٧ ، والحجة ٧٦ — وبينهما بعض الاختلاف — والأعيان

١٤٧ ، ١٤٨ : ٣٩ — بدون الأربعة الأبيات الأخيرة . وأشار إليها في معجم

القبور ١٨٥ : ١ .

(٢) الهم — هنا — ما هم به الرجل ، أو أجال فكره لفعله وإيقاعه .

(٣) الغدير ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ج ٧ مسندة ، والحجة ٧٧ ، ٧٨ في اختلاف

في اللفظ والعدد . وجاءت طائفة منها في الأعيان ١٤٨ : ٣٩ وبعض أبياتها في

معجم القبور ١٨٥ : ١ .

لسنا - بعد هذا - بمن يشك في أن أبا طالب، كان ينظر إلى هذه الإرهاصات - وقد شئنا أن نقف منها ، عند هذا الحد - نظرة فاحصة ، تلقى الكثير من عنايته ، والقصي من اهتمامه ، فيعمل فيها فكره ، فاحصاً منقياً . فليس ما يشهد ، من ابن أخيه ، بالشيء العادي ، الذي لا يلفت النظر ، أو ينبه الفكر .

فما هذه الملامح والدلالات - التي يراها من ابن أخيه - والتي يجدها عند غيره ، من هذا الحشد ، من الناس !

فلِمَ طلب منه ذاك العائف : أن يعود به إليه ، وقد مرَّ به كثير غيره ، فاعتاف لهم ، دون أن يلقوا شيئاً من اهتمامه ، ودون أن يسترجع واحداً ، من بين هؤلاء الكثيرين ؟!

ولمَّا لم يجد لطلبه من يلبّيه ، أرسلها قوله مرثيةً ، بعيدة الصدى ، عالية النبرة ، توغل في المستقبل المجهول ، لتقرَّب إحدى نقاطه ، فتجلوها ناصعة البياض : « فوالله ليكوننَّ له شأن » !

ثم هذه العناية ، التي شاهدها الركب ، من بحيرى ، وقد كان الركب يطوف بهذه الصومعة ، ولم يسبق له أن رأى - قبلئذٍ - ما رأى اليوم ؟

ثم ذاك الحديث ، الذي جرى بينه وبينه . فإنه ليحفل ببراكين ، كلُّ منها يقوم بالبيئة الثابتة ، التي لا تدحض ؟

يقول له : « إنه ابني » . فيجيب جواب الحازم ، الذي لا يخالجه ذرَّةٌ من شكٍّ أو ريبٍ : « ما هو بابنك » . ويزيد : « وليس ينبغي أن يكون أبوه حيّاً » .

ثم يحذره من « يهود » ، فإنه كائنٌ له « شأنٌ عظيمٌ » .

إنها لدلائل صارخة ، ليس له أن يخالجه فيها شك ، أو يعترضه ريب !

* *

كلُّ هذا إلى جانب ما كان يسمعه من أبيه عبدالمطلب ، وما يشاهده هو ، من « بركة » هذا الغلام ...

إن البركة ، لتفيض من أنامله . فيشبع الكثير من قليل الطعام ، إذا امتدَّت يده إلى صحاف الطعام ، أو قُبِع اللبن ...

وإن الماء ، ليتدفَّق عذبا رويّا حين ما ركض الصخرة برجله ، في قاحل الصحراء ... !

وإن الغمامة ، لتقيه — من بين الركب — وهج الشمس ، وحرّ الهاجرة ، حتى إذا استقرَّ بهم المقام ، رأى الشجرة : قد تهصَّرت منها الأغصان ، لتظلُّ هذا الغلام ، المبارك الطلعة .

* *

وكلُّ هذا وذاك ، إلى جانب صفاتٍ ومزايا ، تحفل بها شخصية ابن أخيه ، من : صدق في المقال ، ورفع في الأفعال ، ومثاليّة في الأخلاق ، وجمال في الملامح ، وعذوبة في المنطق ، وفصاحة في اللسان ، و ... و ... إلى نهاية الحلقة المفرغة ، من خلال الطيبة ، والخصال الحميدة ...

وكلُّ هذا جميعا ، يشهده من غلام ، لم يكد يخطو ، من عقده الثاني ، سوى عتبه ، أو لم يكد ...

وكلُّ هذا جميعا ، يشهده من غلام ، لم يكن ليشهد بعضا ، من ملامحه ، في حشد من الخلق ، الذين تجمعهم وإياه بلدٌ واحد ، وتربطهم جميعا عادات ،

في هذه البيئة المنحطة ، والمستوى الواطيء ، فلم يعلق به شيءٌ من عاداتهم
الدون ؟ ولم يشاركوه في شيءٍ من خصاله الرفيعة... فما وجد فيه شيئاً ،
ينكره عليه .

وما كان هو - وحده - بالذي لمس هذه الظاهرات ، من ابن أخيه .
بل إن مكة كلها ، لتعرفه « الصادق الأمين » ، وترضى به حكماً - يقول
فتطيع... ويحدث ، فتصدق... ويأمر ، فتذعن...!

زواج

تلك الرحلة الموفقة ، دفعت أبا طالب — وهو المقلد من المال والمكثّر من العيال ...

... دفعته لأن يطارح ابن أخيه الحديث ، ليدفعه إلى عمل ، يستدر منه الربح ، ويخفف عنه ثقل الحاجة للحوح ... فإن لابن أخيه لمستقبلاً ، لا يرضى له أن يكون : عالة ، أو خمولاً ...

لقد رأى أن خير عمل يليق به ، هو : أن يخرج في تجارة ، لواحد من هؤلاء الأثرياء . وإن مكانة ابن أخيه ، التي يتمتع بها ، والصفات التي تحفل بها نفسه ، لتفرضه على هؤلاء ، فلا يطلبون عنه بديلاً ... بل تدفعهم للسباق ، فلن يناله ، إلا من كان على جانب من الحظ موفور .

وتسمع خديجة بالحوار ، بين الرسول وعمته ، فتبعث إليه ، وهي أشد ما تكون غبطة : أن يخرج في تجارتها ، هذا « الصادق الأمين » ...

ويعود الرسول : موفور الربح ، مضاعفه ... فيوسع له هذا — في قلب خديجة الطيب — موضعاً عميقاً ، حتى شغفت به حباً ، وتمنته شريكاً لحياتها ، وليست تجد من يضاهيه ، أو يدانيه جمال ملامح ، ومكارم خلق ، وصدق مقال ، وأمانة وعلو فعال ...

وخديجة ، منذ أصغت إلى غلامها « مسرة » — هذا الذي صحب محمداً ،

في رحلته هذه - وهو يقصُّ ، عليها ما شاهد من دلالاتٍ ، حدث لمحمد
في طريقه إلى الشام .

منذ ذلك الحين ... شغلت بمحمد عمّا دونها ورأت فيه الرجل الكامل ،
الذي يجب عليها أن لا تعدل عنه زوجاً كريماً .

ولكن كيف وأنى تتحقّق لها هذه الرغبة المتوثبة ، وهناك عادات
وتقاليد ، تقف أمامها عنيدهً ، تُعيقها دون البغية المرجوة ، والأمل الخميل ... ؟
إن العادة تفرض على المرأة : أن يتقدّم إلى خطبتها الرجل ... أمّا هي ،
فلا تسمح لها أن تتقدم ، طالبة يد من تهوى ! ... !

فهل لها أن تقف أمام هذه العادة ، مكتوفة اليد ، ليتبعثر منها الرجاء
الحلو ، والأمل المنعش ... ؟ !

أم تتخطّى هذا السدّ ، قبل أن يتحطّم عليه قلبها وأملها ، وتضيع
حياتها ، عندما يكون محمد نصيب غيرها ؟ !

واهتدت إلى حلٍّ ، تحطم به هذه العادة ، دون أن يشعر أحد بأنها قد
تخطت سور هذه التقاليد الموروثة . فدست للرسول : « نفيسة بنت منية »
لتطارحه الحديث ، وتلقي في سمعه رغبة خديجة إليه . فلعلّها تعود إليها
بما يطمئن منها الضمير ، ويزيل هذا الكابوس .

لم يكدر الحديث من الحوار ، الذي دار بين الرسول « ص » ونفيسة ، يشارف
النهاية ، حتّى خطت نفيسة لخديجة ، تلقي إليها بالرسالة الناجحة ... وحتّى اندفع
الرسول ، لعمّه أبى طالب ، يثلج منه الضمير ، بهذا النبأ الضحوك ...

ويعقد حفل الزواج ، فيقوم إمام قريش ، وسيّد العرب - يوم ذاك -
أبو طالب ، ويقول :

[الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وضئىء معد^(١) ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسوءاس حرمة ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا هكّام الناس .

ثم إن ابن أخي هذا - محمد بن عبدالله - لا يوزن برجلٍ ، إلا رجح به : شرفاً ، ونبلًا ، وفضلاً ، وعقلاً . فإن كان في المال قلٌّ فإن المال ظلٌّ زائلٌ ، وأمرٌ حائلٌ وغاريةٌ مسترجعةٌ .

ومحمدٌ من قد عرفتم قرابته . وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وبذل لها ما آجله وعاجله « كذا » .

وهو ، والله ! - بعد هذا - له نبأٌ عظيمٌ ، وخطرٌ جليلٌ جسيمٌ [^(٢)] .

✱ ✱

هذه الخطبة - من أبي طالب تدلُّنا على شيئين ، ونلمس منها ظاهرتين ، يقرُّهما أبو طالب .

لقد افتتح مقاله ، بحمد الله ، الذي جعلهم ، من ذرية إبراهيم ، وزرع

(١) الضؤضؤ والضئىء : الأصل والمعدين .

(٢) السيرة النبوية ص ١٠٦ ج ١ ، والحلية ١٦٥ ج ١ ، وفاطمة بنت محمد ص ٤٤ ، وشرح النهج للحديدي ٣١٢ ج ٣ ، وأبو طالب ص ٤ ، والحجبة ٣٦ ، والبحار ١٣٥ ج ٦ ، وتذكرة الخواص ٣١٢ ، والغدير ٢٧٤ ج ٧ مسندة . وذكرت فصولٌ منها في إعجاز القرآن - للباقلاني - ص ٢٣٤ ، وأعيان الشيعة ص ١٣٧ ج ٣٩ ، والكامل للمبرد ص ١١٧٤ ، ١١٧٥ ج ٣ .
وقد شئنا : أن نختصر خطوط هذه الحادثة ، وأن نقف - منها - عند هذا الحدِّ ، حيث مساسه بموضوع الكتاب .
ويرجع لها ، في مصادرها ، من شاءها مفصلاً .

إسماعيل . فلم تزل منهم الوثنية المنحطة ، ولم تدنسهم بأوضارها ... فكانوا
عنصراً ممتداً ، وإشعاعاً باقيةً ، تتصل بالنور الأول ، وتبقى رمزاً أبدياً ،
ودعوةً ممتدةً ، للحنيفية البيضاء ...

وإن هذه الظاهرة ، التي امتازوا بها ، جعلت منهم حضنة البيت الحرام ،
الذي شاده — بأمرٍ من الله — أبوهم الخليل . فهم — وحدهم — سواس
الحرم ... وبذلك كانوا حكام الناس ...

غير أن هذا كله ... ليس غير مقدمة ، لما بعده ...
فراح يشيد بقيمة ابن أخيه المعنوية . فهو : الكميل من بين هؤلاء كلهم ،
والراجح الكفة ، في ميزان القيم والمعنويات . فليس من يدانيه — بله — يرجحه —
في صفاته ومزاياه ...

وهو — بعد هذا — سيبلغ ما لم يبلغه اليوم . فله بعد هذا — ويقسم
عندئذٍ بالله . وللقسم — هنا — معناه وقيمته ، في ما يذهب إليه ...
... فله شأنٌ عظيمٌ ، وخطرٌ جسيمٌ ...

وليس ، غير اختياره لعبء الرسالة ، وهداية البشر ، ليختم صفحة
النبوة ، بسطرٍ على إشعاع سنيٍّ ، وإشراق حرفٍ .

ليس غير هذا ... ذلك « الشأن العظيم » أو « الخطر الجليل الجسيم » .
فهو : ينظر من حياته ، إلى أبعد من واقعه — اليوم — ليعلن لهذا الحفل
البهيج ، بهذه البشرية . وليقرب منهم هذا « الشأن » ، لئلا يفجأهم ،
أو ليكونوا منه على ارتقابٍ ...

في فجر الدعوة

الفجر الأول

إن اليتيم ، الذي قضى هذا الأمد ، في كف بيضة البلد ، فسهر هذا على راحته ، وتحوطه بعنايته ... أصبح - اليوم - مفتول الساعد ، عبل الذراع . فهو ربُّ بيتٍ ، وأبُّ لأطفالٍ ، تكوّن أسرةً ، تريد أن تحيا حياةً صالحةً ، فتتوفر فيها مقومات الحياة الفضلى - يوم ذاك - وأسباب الاستقرار . وإنها لفي فيضٍ ، من السعادة والإطمئنان ... حتى وإن كان ربها - من المال - لعلى قلةٍ .

فهل انتهت - بذلك - المهمة ، التي تحملها شيخ الأبطح ، منذ لدونة غصن ابن أخيه ، ونعومة أظفاره ، إلى اليوم ، فأدّى بذلك وصية أبيه ، في هذا الحفيد اليتيم ، وقضى واجبه تجاهه ، ليفرغ - اليوم - للعناية بأولاده ، ولم يحصلوا إلا على النزر منها - طيلة هذه المدة - حيث آثر بها ابن أخيه ، وأوقف عليه دونهم : قلبه ، وراحته ، وعاطفته ؟!

إن الجواب محتومٌ أن يكون : « لا ... ! »

قد يكون الجواب : « نعم ! » ، أو قد يكون مفروضاً أن يكون « نعم » ، لو كان اليتيم ، غير يتيم عبدالله بن عبدالمطلب ...

لو كان أيُّ واحدٍ مِنَ الناس ، غير هذا ، الذي سيفيِّر مجرى التاريخ ،
وسيفيِّض بالسنى والنور ، على هذا الكون المدلهم * .

أمَّا واليتيم — الذي ظلَّ في رعاية بيضة البلد — هو ابن عبدالله ، فإن
المهمَّة لم تنتهِ ، عندما كان هذا اليتيم زوج خديجة ، وأباً لزهراتٍ باسماتٍ...
بل إنَّ المهمَّة ، لم تبدأ ، سوى اليوم ، الذي طوى فيه الرسول أربعين
عاماً ، مِنْ سنيه ...

وإنَّه لليوم المنتظر ، الذي ودَّ عبدالمطلب — مِنْ عميق أعماقه — أن
يدركه فيشهد إشراق سناه ، وباهر نوره ، ويؤمن بما فيه مِنْ حقٍّ...
وإذ رأى منه جبل الحياة ، على انقطاعٍ ، أوصى به ابنه الأثير ، ليرعاه
ويكلِّله وحده ، وأشرك معه أبناءه جميعاً ، ليؤمنَ به منهم ، مَنْ يدرك
هذا اليوم العظيم .

وأبو طالب... منذ ذلك اليوم... وهو يرقب فجر يومه هذا ،
ويتنظره بنفاد صبرٍ ، وعدم تصبُّرٍ . فلا يريد أن يبعد بزوغ فجر هذا اليوم ،
ولا يدري إلى متى ، ستمتد رقعة عمره ؟ ومتى ستطوى صفحة حياته ؟
فيخشى أن يدهمه الموت — مثله مثل أبيه ، مِنْ قبل — فلا يشهد فجر هذا
اليوم ، ويفوته شرف الإيمان بما فيه مِنْ جلالٍ ، وحقٍّ ، وعظمةٍ...

●
أجل إنَّ ذلك اليوم ، قد أطلَّ بوجهه البسَّام ، ومحيَّاه الضحك .
وها هو ذا أبو طالب ، وقد أشرق منه الوجه ، وتفتَّحت منه الأسارير ،
وبدت عليه بشائر الخير ، وشارات الرضى والاطمئنان ، إذ لمح — بعينه —
فجر ذلك اليوم المنتظر...

فهذا ابن أخيه قد ذهب لعمِّه العباس — أخيه — ليقول له :
« إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَنِي بِإِظْهَارِ أُمْرِي » .

ويطلب منه النصرة ، ليشدَّ أزره ، ويقوي ساعده . غير أن العباس ،
لا يجد من نفسه القدرة والكفاءة ، ليقوم بعبء هذه المهمة البهيمية ، ويقول
له ، بعد عذر مبسَّط :
ولكن قرَّب إلى عمك أبي طالب ، فإنه أكبر أعمامك... إن لا ينصرَكَ ،
لا يخذلك ، ولا يسلمك] .

ولا تكاد باصرة أبي طالب ، تلتقط شبحيهما ، حتى يهتف :
« إن لكما لظنَّةٌ وخبراً . ما جاء بكما في هذا الوقت ؟ »
ويصغي لأخيه العباس ، وهو يسطر له ما جاء به ابن أخيه ، وما دار
بينهما من حديث ، وإذا به قد ركز نظره في ابن أخيه ، وقد أشرق من
عينيه بريق جذَّاب ، سلَّطه على ابن أخيه ، كالمجهر الذي يشفِّ عما بين الطوايا .
ثم يقول له هذه القولة ، التي تُشيع في قلب محمد غبطةً ، وتشجع منه
الجنان ، وتعطيه طاقةً وقوةً على المضي في أمر ربه ، بثبات ، وشجاعة ،
واطمئنان ، وقوة إيمان... فليديه سند يقيه الزعازع ، وحصن يلجأ إليه ،
عند نذر الإعصار المارد :

[اخرج - ابن أبي ! - فإنك الرفيع كعباً ، والمنيع حزباً ، والأعلى
أباً ! . والله لا يسلكك لسان ، إلا سلقته ألسن حداد ، واجتذبتة سيوف حداد...
والله لتذلنَّ لك العرب ، ذلَّ البهم لحاضنها ! .

ولقد كان أبي ، يقرأ الكتاب جميعاً... ولقد قال : إن من صلي لنيي ،
لوددتُ أني أدركت ذلك الزمان ، فأمنتُ به . فمَنْ أدركه من ولدي ،
فليؤمن به [(١) .

* *

(١) ذكرت في الغدير - ص ٣٤٨ : ٧ - وجاء فيه : أخرجها فقيه
الحنابلة ابراهيم بن علي الدينوري ، في كتابه « نهاية الطلب وغاية السؤل »

شاء أبو طالب أن يوفي محمداً حقّه ، فيذكر صفاته وسؤدده • ثم راح
يطمئنه ويشجعه ، ليمضي قدماً ، إذ وعده النصر والتضحية في سبيل
رسالته ...

ثم بُعد منه النظر ، إلى المستقبل الباسم ، الذي سيصل إليه ابن أخيه ،
فتذلل له العرب ، وتؤمن بدعوته ، وتسلم إليه أمرها ...

وعادت به الذاكرة ، إلى شخص أليه ، حيث ألقى إليه ، وإلى والده ،
وصيته ... وها هي ذي قد تحققت ... وها هو ذا النبي قد بُعث ... فعليه
أن يؤمن به ، وينصره ، لترضى روح عبد المطلب ، وتهناً ، ويقرب عيناً ...



وهي — إلى هذا — مفتاحٌ لمستودع إيمان أبي طالب • فهي — على أقل
تقدير ، إذا لم تنلف إلى تلك الدلائل والشارات — فهي أول البراهين على
إيمانه العميق ، واعتناقه للدعوة المحمدية ، واطمئنانه لصدقها ...

ولولا ذلك ... لكان أول المنكرين عليه ، والثائرين في وجهه • وإنه
لهي مقدوره ذلك ، ومحمدٌ ربيبه ، ودعوته — بعد — لم تنشط ، ولم يكد
يتقبلها أحدٌ ... فهي : بذرة لم تقم لها ساق ، ولم يصلب لها عودٌ ... فمن
اليسير : أن يسحقها ، دون أدنى صعوبة ...

أو — على أقل تقدير — يدع ابن أخيه وشأنه ، دون أن يعده النصر ،

— في مناقب آل الرسول — • وأرجع القاريء — أيضاً إلى « الطرائف »
للسيد ابن طاووس — ص ٨ — و « ضياء العالمين » للشيخ أبي الحسن الشریف •
وذكرت في « شيخ الأبطح » — ص ٢٢ — وفيه : إن إبراهيم هذا ،
أخرجها بعدة أسانيد •

وذكر القسم الأخير — من قول أبي طالب هدم في العباس ص ١٨ و ٢١ •

ودون أن يثَّ فيه روحاً دافقةً ، وعزيمةً صلبةً .

بينما نرى أبا طالبٍ : على عكس ذلك . فهو — في قبوله هذه الدعوة — كمن يرتقب حدثاً ، سيكون بين لحظةٍ وأخرى ... وإذ رأى الشارات الأولى ، لم تكن عليه مفاجأةً ، ولا حدثاً غريباً .

لذلك ... لم يكدر العباسُ بُني قومه ، ويُدير في ابن أخيه نظرته البعيدة ، حتى بدأ قوله آمراً ابن أخيه يثَّ لدعوة : « اخرج — ابن أبي ا » . فلو لم يكن بدعوته مقتنعاً ، ولصدقها مطمئناً ، لما كان يقول ما قال ، ولكنا نشهد منه موقفاً واحداً ، غير هذا الموقف المشجع ...

ولكن الإيمان بالدعوة ، والإطمئنان إليها ، يفرضان عليه هذا الموقف العظيم ، ليمدَّ ابن أخيه بقوةٍ وثباتٍ وشجاعةٍ . فالمهمة التي أُلقيت على كاهله بهيئة المحمل . فعليه : أن يؤازرها ، ويدافع عنها ، وينصرها نصراً مبيناً ، وهو العليم بأنها رسالة السماء ، والتي بشرت بها الكتب المقدسة ، مما قرأ عبدالمطلب .

يوم الانذار

وتلا ذلك اليوم يومٌ آخر ، لا يقلُّ روعةً وجلالاً ، عن ذلك اليوم ... فحين تلقى الرسول من الملاك آية الإنذار ، أمر علياً — وهو المؤمن الأول بالدعوة — أن يدعو إليه « عشيرته الأقربين » ، من رؤساء قريش ، فألقى إليهم ما يريد من هذا الاجتماع ، والغاية منه .

وتفرَّق الجمع ، دون جدوى . وعاد فجمعه — مرةً أخرى — فهو « رائدٌ لا يكذب أهله » ، وهو رسول الله إليهم — خاصةً — وللعرب ، عامةً .

وإذ راثنى الرسول من دعوته ، بادره عمه أبو طالب ، بالقول :

[ما أحب إلينا معاوتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشدّ تصديقنا
لحديثك . وهؤلاء بنو أهلك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أنني أسرعهم إلى
ما تحب . فامض لما أمرت به . فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير
أن نفسي ، لا تطاوعني على فراق دين عبدالمطلب] (١) .

فعارض أبو لهب أبا طالب ، في المقال :

« هذه - والله ! - السوأة ! . خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم »

وإذا بأبي طالب ، يجيبه :

« والله لنضعنه ما يقينا » (٢) .

ثم يلتفت لابن أخيه ، ليقول له :

[قم - يا سيدي ! - وتكلم بما تحب ، وبلغ رسالة ربك ، فأنت الصادق

الصديق] (٣) .

* *

يا لروعة الإيمان ، تملك على ابن عبدالمطلب نفسه ، فيندفع : مصدقاً ،
مؤمناً ، مشجعاً ، من بين قوم يربو عددهم على الأربعين ، قد نسج الجهل على
عيونهم غشاوة ، فلم تستطع عين منهم أن تكتحل بهذا النور المشرق .

إنه ليحب معاوته ، ويقبل نصيخته ، ويصدق حديثه ...

فهل هذا غير الإيمان العميق ، والالتقياد الصادق ، والطاعة ممن يعرف

ويختار ، لا ممن يجهل ويشير ... ؟

إنه لأسرع بني أبيه لما يحب ... فعليه أن يمضي لما أمر به ... فوالله

(١) الكامل لابن الأثير ص ٤١ ج ٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير ص ٤١ ج ٢ والسيرة الحلبية ٣٣١ : ١ .

(٣) شيخ الأبطح ص ٢٢ والغدير ٣٥٥ : ٧ - مسنداً لمراجع .

ليحوطته ويحميه ، ويدفع عنه العوادي ...
أليس هو الإيمان الناطق ؟ فهو يبذل المعونة ، ويأمره بإنفاذ أمر ربه ،
والصدوع برسالته ...

فهو لو لم يكن ذلك المؤمن بالدعوة، والمطمئن لصدقها ، لكان له حديثٌ،
غير هذا الحديث ، وموقفٌ يفاير موقفه هذا ... وكذلك رأينا أبا لهبٍ ،
كيف وقف ، وكيف أشار... حتى كان بينهما حديثٌ ، اضطرَّ - خلاله -
أبو طالب : أن يشور في وجهه ، وأن يضعه مكانه :

« اسكت - يا أعور ! - ما أنت وهذا... ؟ » (١) .

ألم يكن أبو طالبٍ ، وأبو لهبٍ ، عتي الرسول ؟

فلم يقف كلُّ منهما موقفاً ، يخالف الآخر ، أتمَّ الخلاف... ؟
فهذا يضجِّي في سبيله ، بما يستطيع ، ويثبت ، ويشجِّعه ، ويقف في
جانبه ، ينافح عنه ويكافح ، ويسلق عتاة قريشٍ ، بلسانٍ أحدهُ ، غير آبهٍ ،
ولا خوفٍ... ؟

وذاك يقف ذلك الموقف الواهن ، ينال من الرسول ، ويفرق عنه القوم ،
ويقطع عليه حديثه ، ويسخر مما جاء به... ؟

ألم يكن الإيمان - وحده - هو الذي يفرض على أبي طالبٍ أن يقف
موقفه هذا ، ولا يحيد عنه... ؟

كما أن الشرك - وحده - هو الذي يفرض على أبي لهبٍ : أن يقف
موقفه ذلك ولا يحيد عنه... ؟

* *

وأبو طالبٍ ، بعد ما أخذ ، من حديثه ما أخذ ، وأظهر لعتاة قريشٍ : أنه

(١) البعار ص ٤٥٠ ج ١ ، والغدير ص ٣٥٥ ج ٧ ، وشيخ الأبطح ص ٢٢ .

قد انصاع لدعوة محمد، وأنها قد احتلت من قلبه السويداء - رأى عيوناً
شزراء، تلتهمه بنظرها الحاقداً... فرأى : أن يعتمى على هؤلاء موقفه ،
وذلك لصالح الدعوة المحمدية ، فينفسح لديه طريق الجهاد والدفاع ،
والمناصرة الفعالة :

« غير أن نفسي ، لا تطاوعني على فراق دين عبدالمطلب ... »
وما دين عبدالمطلب هذا ؟...

إنه الخيفية البيضاء : دين إبراهيم الخليل . وما هذا الدين ، إلا امتداد
لشعلة ذلك الدين ، وامتداد لتلك الدعوة العميقة ، وإكمالاً للأديان الإلهية .
وإن هذا خير طريق ، رأى أبو طالب أن يسلكه ، فيعتمى على هؤلاء ،
الذين أقلت قلوبهم ، وعميت منهم العيون .

لذلك ... لم يكدرى من أبي لهب : موقفه المشين ، حتى وقف محتدماً ،
ثائراً في وجهه ، ليرده إلى حيث يجب أن يكون ...

ثم وجه القول لابن أخيه : « قم يا سيدي ! » .

وهذه الكلمة - « سيدي » - برهاناً ناطقاً على إيمان أبي طالب .

« سيدي » : كلمة يوجهها أبو طالب ، لیتيم أخيه وربيّه .. وهو - لولا
النبوّة - له عليه حقوق ... وكان أولى أن يقولها إليه ! فهو عبده
ومربيّه ، وكافله ، ويكبره سنّاً ...^(١) - وكلها حقوق له على ابن أخيه ،

(١) لسنا ممن يرى للسن - وحدها - قيمة ذاتية ، تضع المسنّ ، في منزلة
وقيمة فوق مستوى من يدنو عنه في السن ، إذا لم تكن للمسّن مميزات أخرى ...
فالشخص الذي يرى لنفسه الأفضلية بالسن - وحدها - إنما هو شخص
فاقد لكلّ الخلال المميّزة ، والراجعة في ميزان القيم . فهو يتشبّث بهذه الخلّة
التافهة ، ليخفي النقص ، ويستر الفقر المدقع ، المتردي فيه ، ويتشبّث ...

تضعه موضع احترام ابن أخيه ، وتفرض على محمد أن يوجه إليه كلمات التعظيم والإجلال ...

ولكن الله أعطى محمداً - حين اختاره لرسالته - حقوقاً ، هي فوق كل هذا... فهو المصباح الذي تهدي به الإنسانية ، في حلولك طريقها الملتوي . فهو - بذلك - فوق العمومة ، والتربية ، والكفالة ، والسن ، وغيرها ...

كل هذا ... لمحبه أبو طالب ، حين انبعث من حجريته : « قم - يا سيدي ! » . فهو سيده ، ما دام رسول ربه ، وقد فرضت عليه طاعته ، وتصديق رسالته ، والانصياع لأوامره ونواهيه .

ولذلك أردف على قوله : « يا سيدي ! » بقوله :
« وتكلم بما تحب ، وبلغ رسالة ربك ، فإنك الصادق الصديق - أو المصدق » .

فما دام هو الصادق ، الذي لا يقول الكذب ، والذي لو أخبر بأن

→ بالطعوب ، الذي لا ينجو به الغريق . ولكن التشبث بهذه المزعمة ، قديم في تاريخنا الإسلامي ، حيث فرضته ظروف سياسية زمنية ، ومادية بحتة . وخير ما نزن به الإنسان ، هو قوله الإمام علي عليه السلام : [قيمة كل امرئ ما يحسن] ، و :

[المرء بأصغريه : قلبه ولسانه] .

ونعود فنقول : بأننا لسنا بمن يرى للسن - وحده - أية قيمة ذاتية ، ما لم تكن للمس من ميزات أخرى ، فيكون السن - حينئذ - مما يشد بقيمة تلك الميزات . أو إن تلك الميزات الأخرى ، تُضفي على السن شيئاً من قيمها ، فتتماسك ، وتلتحم ، لينتج منها الجلال والوقار ، الذي يبدو وراء السنين الطوال ، التي مرَّ بها المسن ... فاكسب منها التجارب النافعة ، وحسناته الأيام ، بدروسها المفيدة ...

خيلاً ، تخرج من شق جبلٍ ، لما استطاع واحدٌ من أهل مكة : أن يفوه بكلمة تشكيكٍ ! — فكيف له أن ينكر رسالته ، والزمن لها مرتقبٌ ، والنذر تترى ، والبشائر تتواصل ، والطبيعة تحتم طلوعه ٢٠٠٠

ثم وجد عيوناً تتغامز ، وألسنة تتهامس ، حتى وصلت لسمعه كلمة ، فيها تهكمٌ وسخرية :

« قد أملك أن تسمع لابنك » ^(١) — يعنون عليّاً ، حين نصّ عليه الرسول

بالوصاية .

ولكنه لا يأبه لما يقولون ! ولا يزعزعه هذا القول من هؤلاء ! فيجيبهم بكلمة ، يقطع عليهم بها مجال القول ، ويعطي ابنه طاقة تشجيع :
« دعوه فلن يألو ابن عمّه خيراً ... » ^(٢) .

وما كانت هذه القولة — من أبي طالب — بالأولى ، التي يسمعها الإمام عليّ ، من أبيه ، وتحمل مدى رضاه وارتياحه ، لنصرة ابن عمه ، سيّد البشر ...
لقد رآه — في يوم الرسالة البكر — وهو يصلي خلف الرسول ، وقد اختفيا ، حذراً من المشركين ، وإذا أجاب عليّ أباه على سؤاله :
« يا أبت ! آمنتُ بالله وبرسول الله ، وصدّقته بما جاء به ، وصليتُ

(١) الكامل لابن الأثير ٤١ ج ٢، والطبري ٦٣ : ٢، وغاية المرام ٧٠ و ٧٨ و ١٥٣ و ١٦٤ و ١٨٥ و ٣٢٠ و ٣٢٢ و ٦١٣، والغدير ٤٧٩ — ٢٨٣ : ٢، و ٢٠٩ : ٣، وأعيان الشيعة ٩٨ — ١٠٢ ج ٢ و ١٦٤ : ٣٩، ونقض كتاب العثمانية — وهي في رسائل الجاحظ — ص ٣١، والدعوة لسيدنا الوالد الص ١٢٤ و ٢٤١ : ١.

(٢) الغدير ٣٥٥ : ٧ .

معه لله واتبعته » .

— أجابه أبو طالب :

« أما إنه لا يدعوكم إلا إلى خير ، فالزمه » ^(١) .

✱ ✱

إنها كلمة ، تنمُّ عن إيمانٍ واطمئنانٍ عميقين ، في قلب قائلها ... فليس يدعو الرسول لسوى الخير ... ومَنْ هو داعٍ للخير ، فعلى كلِّ عاقلٍ أن يلزمه ، لعله ينال نصيباً من خيره ...

إنها لدليلٌ — من بين تلك الدلائل ، الوفيرة العدد — على إيمان بيضة البلد ... وإلا لو لم يكن ذلك المؤمن بالدعوة ، فما له ، وللدعاية لها ، وتشبث ابنه على اعتناقها والتزامها ؟ ...

بل لو لم يكن كما كان ، لرأيناه : ينهى ابنه علماً ، عن الانصياع لها ، وأن يرفض ما جاء بها . فهذا ابنه ، وهو أوَّل مَنْ يبذل له النصيحة ، ويأخذ بيده إلى الحبِّ الطرق — ولو حسب رأيه ! .

فلو لم يعرف : أن في لزوم عليٍّ لابن أخيه ، واعتناقه ما جاء به من السماء ... لو لم يره خيراً — وليس يدعو محمداً لسوى الخير — لما قال له قولته هذه ... ولزجره ، ونهاه ، وأنبه وردعه .

✱ ✱

(١) الطبري ٥٨ : ٢ ، والإصابة ٢١٦ : ٤ ، والسيرة الهشامية ٢٦٤ : ١ ، والنبوية ١٧٦ : ١ ، والحلية ٣٠٦ : ١ ، وشرح النهج ٣٠٥ : ٣ ، وينايع المودة ١٦٨ [٢ : ٢٨] ، والرياض النضرة ١٥٩ : ٢ ، وغاية المرام ٥٠٠ : ١ ، وأبو طالب ٥٠٠ : ٢٣ ، والغدير ٣٥٦ : ٧ ، مستندة إلى بعض المصادر ، ممَّا ذكرنا ، وإلى تفسير الثعلبي ، وعيون الأثر ٩٤ : ١ ، وأسنى المطالب ١٠ .
وذكرها الإسكافي ، في نقض العثمانية — رسائل الجاحظ ص ٥١ .
وذكرت في الإمام علي صوت العدالة ص ٣٥ ، وفيه ص ٥٧ ، ٥٨ : ١ .

وليس هذا ، هو السطر الأوحده ، في هذه النصفية المشرقة ، من تاريخ
أبي طالب النسيج . بل إن له سطوراً أخرى هي على إشراقٍ وسطوعٍ ،
كهذا ...

فقد روي عن الإمام عليٍّ « عليه السلام » قوله :
قال لي أبي : يا بني ! الزم ابن عمك ، فإنك تسلم به من كلِّ بأسٍ آجلٍ
وعاجلٍ . ثم قال لي :

إن الوثيقة في لزوم محمدٍ فاشدد بصحبته - عليٌّ ! - يدكاً^(١)
فهو - هنا - قد دنا ابنه علي : أن لزوم ابن عمه ، فيه السلامة من كلِّ
بأسٍ في دنياه هذه ، وفي أخراه ...

إنه للإيمان باليوم الآخر ، يوم تُوفى فيه كلُّ نفسٍ أجرها ، وتقدم على
فعلها ...

والله ليرى الرسول - مرةً أخرى - وهو يصلي ، وعليٌّ عن يمينه ،
فيقع منه النظر على ابنه جعفر ، ويهتف به :
« صلِّ جناح ابن عمك ، فصلِّ عن يساره »^(٢) .

-
- (١) الشرح الحديدي ٣١٤ : ٣ والحجة على الذهاب ٦٣ وأعيان الشيعة
ص ٩ ج ٣ ق ١ و ١٤٤ ج ٣٩ و هاشم وأمية ١٦٣ .
(٢) السيرة النبوية ١٧٧ : ١ والحلية ٣٠٤ : ١ والإصابة ١١٦ : ٤ ،
والحديدي ٢٧٢ : ٣ والحجة ٦٥ والبحار ٤٠٣ و ٤٤٤ و ٤٤٥ : ٦ وأعيان
الشيعة ٩ : ٣ ق ١ و ١٠ ، ١١ ج ١٦ و ١٣٩ ج ٣٩ وتفسير علي بن إبراهيم
ص ٣٥٣ وأبو طالب ٥٠ و هاشم وأمية ١٦٣ والغدير ٣٥٧ : ج ٧ مسندة
- بالاضافة لبعض المصادر ، مما ذكرنا - إلى : أسد الغابة ٢٨٧ : ١ وأسنن
المطالب ٦ والأوایل للعسكري .
وذكرها الإسكافي ، في حادثة : في رسالته : نقض العثمانية - راجع
رسائل الجاحظ ص ٤٩ و ٥١ .

وإذ ذاك تنطلق حنجرة أبي طالب ، بهذه الأبيات ، التي يذكر فيها
ابنيه : علياً وجعفرأ ، وهما ثقناه ، عندما يلتم به الزمن ، وتوبه النوب ،
فيختارهما لمهمة فضلى ، هي : نصر ابن عمهما :

إِنَّ عَلِيًّا وَجَعْفَرًا ثَقِيَّ عِنْدَ مَنْ الزَّمَانِ وَالنُّوبِ
لَا تَخْذَلَا ، وَانْصِرَا ابْنِ عَمَكُمَا أَخِي لَأُمِّي - مِنْ بَيْنِهِمْ - وَأَبِي
وَاللَّهِ لَا أَخْذَلُ النَّبِيَّ ، وَلَا يَخْذَلُهُ - مِنْ بَنِيَّ - ذُو حَسْبٍ ^(١)
أَرَأَيْتَ هَذَا الْإِعْتِرَافَ السَّافِرَ : « وَاللَّهِ لَا أَخْذَلُ النَّبِيَّ » ...؟

إنه لقسمٌ عظيمٌ ، قد وفَّاه أبو طالب ، وقام به ، فلم يخذله طوال حياته ،
ولم يخذله من بنيه أحدٌ ، قد ورث منه هذا الحب ، والشرف الضخم ...

* *

ومرّة أخرى : يهتف بأخيه الحمزة - أبي يعلى - ويدعوه لإظهار دين
الله ، وأن يصبر على المكروه ، الذي سيلقاه ، نتيجة هذا الإظهار ، فعليه أن
يحوط من أتى بالحق من ربه ، بنصر صادق ، وعزيمة ماضية ...
ولندع أبيات أبي طالب ، تصل إلى سمعنا بصافي نبرتها :

... فصبراً - أبا يعلى ! على دين أحمد
وكن مظهرًا للدين - ووقفت - صابراً

وَحُطُّ مَنْ أَتَى بِالْحَقِّ ، مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بِصَدَقٍ وَعِزْمٍ ، لَا تُكُنْ حِمَزًا - كَافِرًا
فَقَدْ سَرَّنِي ، إِذْ قُلَيْتَ : أَنْتَ أَنْتَ مُؤْمِنٌ فَكُنْ لِرَسُولِ اللَّهِ - فِي اللَّهِ نَاصِرًا

(١) النهج الحديدي ٢٧٢ و ٣١٤ : ٣ والحجة ٦٥ وديوان أبي طالب : ١٨ ،
وشيخ الأبطح ٣٨ وإيمان أبي طالب ١٩ وأعيان الشيعة ٩ : ٣٣ ق ١ و ١١ : ١٦ ،
و ١٤٤ : ٣٩ ومعجم القبور ١٩٦ و ٢٠١ : ١ والغدير ٣٥٦ : ٧ - مسندة لديوان
أبي طالب ، والأوايل للعسكري - ونقض العشمانية ، رسائل الجاحظ ص ٤٩ .

ونادِ قريشاً بالذي قد آتيتُهُ جهاراً ، وقلْ : ما كان أحمدُ ساحراً^(١)
إنه لداعيةٌ إسلاميةٌ ، يهتبل الفرصة ، ليعبّر عما يكنه في صدره ، ويعرض
ما يحفل به جناناه ...

فإنه لمن دواعي سروره: أن يقول حمزة : إني مؤمنٌ ... وإذ قالها ،
فعليه: أن ينصر الرسول ، نصرةً رَآهيةً ... نصرة الحق للحق ، من دون
نظرةٍ أخرى ، كواشجة قرابةٍ أو دمٍ . فالدين قبل كل شيءٍ ، والعقيدة فوق
كل شيءٍ ...

* *

ولعل من الخير : أن نختم هذا الفصل ، بكلمةٍ للبرزنجي ، تتناسب وما
عرضناه هنا ... فقد قال :

(تواترت الأخبار : أن أبا طالبٍ ، كان يحبّ النبي ، صلى الله عليه وآله
وسلم ، ويحوطه وينصره ، ويعينه على تبليغ دينه ، ويصدّقه في ما يقوله ،
ويأمر أولاده - كجعفرٍ ، وعليٍّ - باتباعه ونصرته) .
وقال :

(هذه الأخبار كلّها ، صريحةٌ في قلبه ، طافحٌ وممتلئٌ بالإيمان بالنبي
صلى الله عليه وآله ، وسلم) (٢) .

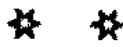
(١) الشرح الحديدي ٣١٥ : ٣ ، والحجة على الذهاب ٧١ ، والمناقب ٣٦ ، والبحار
٤٥٤ : ٦ ، والعباس ٢٢ ، وإيمان أبي طالب ١٦ - وقد أسندها المحقق ، لكلٍّ
من : مناقب ابن شهر آشوب ، وإصابة ابن حجر ، والشرح الحديدي ،
ولم يذكر رقم الصفحات . لذلك لم نعرّ عليها في الإصابة - وذكرت في الأعيان
ص ١٤٤ ، ١٤٥ : ٣٩ . وذكر الأول والثالث في مجمع البيان ٣٧ : ٧ .
(٢) ص ٣٥٨ : ٧ من الفدير ، مسندةً إلى ص ٦ و ١٠ من « أسنى
المطالب » .

جهاد

نشطت دعوة الرسول ، وامتدَّت لها شعاعٌ ، وسطع منها نورٌ ... فإن نديه
لحصناً منيعاً ، يقيه الهزاهز ، ويمنع عنه الإعصار ...

فأبو طالب قد عاهد الله على نصره دينه ، الذي جاء به ابن أخيه « ص » فهو
يحوطه وينصره ، ويبذل في سبيل ذلك أغلى شيء في الوجود ، حتى ولو روحه ،
التي تخفق في كيانه ، أو قلدة كبده ، التي تدبّ على الأرض ، ويعبر عنها بـ « الولد » ...

وراح الرسول - وقد اشتدَّ ساعده ، بهذه النصرة والحيطة - يثدُّ دعوته
بنشاطٍ دائمٍ ، لا ينثني ولا يخاف ، وله بناءٌ شامخٌ ، يستند إليه ، وظلٌّ
وارفٌ ، يقلل إليه في الهاجرة ...



وهنا تفتتح صفحةً ، مشرقة السطور ، من تأريخ أبي طالب النصيع ،
فنفارق صفحةً ناصعةً ، لأخرى ، لا تقلُّ عنها : نصوعاً ، ونقاءً ، وإشراقاً ...
فتلك : صفحة الإيمان العميق . وهذه صفحة الجهاد الصُّلب ، والحماية
الفدّة ، والبذل والتضحية ، في سبيل المبدأ القويم ، والمعتقد الراسخ . فيمنع
الرسول من عتاة قريش ، ويفسح المجال - أمامه - وسيعاً ، لنشر رسالته ،
وبثِّ دعوته ، فيحوط ويمنع من آمن بالدعوة ، من حيف قريش ، وتعذيبها

له ، لتردّه لظلمة الشرك ، بعدما اهتدى بنور الإيمان .

إنها لصفحة مليئة بالتضحية الفذة ، والجهاد الصادق ، والدفاع الصلب .
وما الحياة غير العقيدة والجهاد - كما يقول شوقي - عقيدة رسيخة ، وإيمان
وطيد ، وجهاد صامد ، ناطق بلسان حديد ، إن كان اللسان - وحده -
يقوم بالمهمة ، وإلا فيسوف صقال ، وسواعد مفتولة ، وعزائم تفل الحديد ،
وتفت الصخر الصليد .

لذلك ... نشط الرسول في دعوته ، وقوي صوته ، فخافت قريش هذه
الدعوة التي تريد أن تجمع البشر ، ليوحدوا والآله الخالق الرزاق ، وينبذوا
هذه الأصنام والأوثان ، من حجارة صماء ، وأخشاب بالية ، لا تسمع ولا
تعي ، لا تضر ولا تنفع ... يقف الإنسان أمامها - مقيداً ، مكتوف اليدين ،
كالعبد الذليل ، أو الأسير المغلوب على أمره ، فيفقد القدرة والحرية ، أمام
هذا الجاد الميت ، فيعطي برهاناً على تحجر العقلية ، ورجعية هذه التقاليد ،
وتبلد الحس ، وانعدام العقل ، من هؤلاء ، الذين يشبهون الإنسان - في
هيكله اللحمي - والجمادات ، في فقدانها للعقل ، والفكر ، والشعور .

ثم نشطت هذه الدعوة ، وكثر المؤمنون بها ، فجهر الرسول بالدعوة ،
وسخر بهذه الآلهة المجسّعة ، قدر انقاد لكل منها جع غفير ، من قطعان
الأناسين ... وراح يلسهم واقعهم المرير ... ويدعوهم لنبذ ما هم فيه ، من
ضلال وعياقة ، ويأخذ بيدهم ، للطريق الأبلج الألب ، بنوره الوضي ...
ولكن الأعسى ، لا يدري ما النور ...؟ وليست الخفاشة ، بالتي يمتد
لها جناح ، والشمس تحب في رقعة الكون ...!

☆ ☆

لقد ساء قريشاً أن يعيب محمدٌ أصنامهم ، التي يعبدون ، ولم يروا غير
أبي طالب ، ينصفهم من هذا الذي جاءهم بالدين الموحد ...!

حينذاك ... مشى نفرٌ من أشرف قريشٍ ، لأبي طالبٍ ، يشكون إليه :
ما لاقوه من ابن أخيه ، من عيب آلهتهم ، فقالوا :
[يا أبا طالب ! إن ابن أخيك ، قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه
أحلامنا ، وضلَّ آباءنا . فإما أن تكفَّه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه -
فإنك على مثل ما نحن عليه ، من خلافه - فنكفيكه] (١) .

فألان لهم أبو طالب في القول ، وتلطَّف لهم في الردَّ الجميل ، حتى
انصرفوا عنه ، والرسول ماضٍ في دعوته ، وإظهار دين الله ...
ولمَّا لم يجدوا لشكواهم صدىً محبباً ، ولم تؤتِ الشر المرجو ، والغاية
المتوخاة ، أجمعوا أمرهم - مرَّةً أخرى - ومشوا إليه قائلين :

[يا أبا طالب ! إن لك سنناً وشرفاً ومنزلةً - فينا - وإنا قدر استهيناك
من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنا - والله ! - لا نصبر على هذا ، من
شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفَّه عنا ، أو ننازله
وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين] .

فوقف أبو طالب ، بين تيارين عنيفين ، كلُّ له أهيته وقوته واندفاعه ،
فهو يخشى أن يعلنها حرباً عواناً مع قومه ، فتأتي على الشيخ والأمرد ...
وهو لا يستطيع خذلان رسالة السماء ، ولها في عنقه عهد النصر ، ولا أن
يدع ابن أخيه - وهو رسول السماء - وله عليه حق النصر - أيضاً -
حسب وصية والده الشيخ ، في رmqه الأخير .

جمع أمره ، وصمَّ عزمه ، فدعا إليه ابن أخيه ، فأنهى إليه مقالة هذا
الوفد . وشاء أن يعرف - من خلال هذا الحديث - عزيمة ابن أخيه ،

(١) هنا ... يظهر سرُّ كتمان أبي طالب إيمانه ... وإلا فلولا أنهم يظنونونه
على دينهم ، لمَّا سعوا إليه ، ولبادووه العدا ، وناجزوه الحرب ... ولو
فعلوا ذلك ، لكانت النتيجة وخيمة على الدعوة ، وبعدُ لما يصلب عودها .

ونشاطه في أداء الدعوة ، فعقَّب حديثه قائلاً :

« فأبقر عليّ ، وعلى نفسك ، ولا تحمّلي من الأمر ما لا أطيق ! » .
ولكنه لم يلمح من ابن أخيه ، سوى الصرامة ، والقوة ، والعزم ،

والمضاء :

[يا عمّاه ! لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن
أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته] .

وحانت منه نظرة لابن أخيه ، وقد قام ليخرج من دار عمه ، وللألم
في نفسه محلٌ عميقٌ ، حيث قد ظنّ — كما يعلّل بعض المؤرخين — بأنه قد بدا
لعمه أن سيدهه ويسلمه ، دون أن يحوطه وينصره ، فانهبرت من عيني الرسول
دمعات ... (١)

حانت هذه النظرة من أبي طالب ، فارتاع ... وعاد إليه العزم الصلب ،
وقد تغلّب هذا التيار البطّاش ، فكان له النصر ... فهو يؤثر نصرة الدين ،
وحياطة الرسول ، حتى لو أثرت هذه النصرة والحياطة عداً قريش كلها ،
بل ولو العرب أجمع ...

فعليه أن يجاهد ، ولا يستكين ، ما دامت المشيئة السماوية ، قد حبت
بفيض من عنايتها ، فاختارته حصناً وكهفاً ، ومرياً وراعياً ، منذ يوم الرسول
الأوّل ، وفي فجر الرسالة البكر ...
« اقبل — يا ابن أخي ! » .

بهذه الكلمة — والرقّة تسيل من حروفها — نادي أبو طالب ابن أخيه ،

(١) نحن لا نعتقد بأن يظن الرسول في عمه ، مثل هذا الظن ، في الحين
الذي يعرف فيه الرسول موقف عمه تجاهه . وليست هذه الدمعات إلا
منبثقة ، من الشفقة على عمه ، حيث أنه سيقف لأجله ، هذا الموقف الحرج
الدقيق ! .

فقطع بها حبل الصمت الأخرس ، والتفكير العميق... ثم أردف ، وقد أقبل عليه ابن أخيه :

[اذهب - يا ابن أخي ! - فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً]^(١) .

ثم هتف به ، منشداً هذه الأبيات :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في تراب دفيناً
فاصدع بأمرك، ما عليك غضاضة	وابشر بذلك ، وقرء منك عيوناً
ودعوتني ، وعلمت : أنك ناصحي	ولقد صدقت ، وكنت - ثم - أميناً
ولقد علمت بأن دين محمد ،	من خير أديان البرية ديناً ^(٢)

(١) الطبري ٦٤ ، ٦٧ : ٢ ، والسيرة النبوية ١٩٦ : ١ ، والخطبة ٣٢٣ : ١ ،
والهشامية ٢٨٣ ، ٢٨٥ : ١ ، والحديدي ٣٠٥ ، ٣٠٦ : ٣ ، وأبو طالب ٥٧ ، ٦١ ،
وهاشم وأمية ١٦٦ ، وأعيان الشيعة ١٢٧ ، ١٢٨ : ٣٩ . وقد أسندت في الغدير
- ٣٦٣ : ٧ - إلى مصادر عدة .

(٢) الحديدي ٣٠٦ : ٣ ، والسيرة النبوية ٨٥ و ١٩٧ : ١ ، وثمرات الأوراق
٤ : ٢ ، والعباس ٢٢ ، ٢٣ ، وهاشم وأمية ١٦٧ ، والكشاف ١ : ٤٤٨ (١٠ : ٢) ،
وتذكرة الخواص ٩ ، ومعجم القبور ١ : ١٨٦ ، والمناقب ٣٤ ، وديوان أبي طالب ٧ ،
وأعيان الشيعة ١٢٨ : ٣٩ ، والبيت الأول في الخطبة ٣٢٢ : ١ ، والأخيران
في الإصابة ١١٦ : ٤ ، وأسندت في الحجة - ٦٣ - إلى مصادر عدة ، وفي شيخ
الأبطح - ٢٧ - مسنداً لعدة مصادر ، وفي ص ٨٨ أيضاً . وأرجعت في
الغدير ٣٣٤ : ٧ إلى عدة مراجع ، وذكر فيه : أن الثعلبي - في تفسيره -
رواها ، وقال : [قدر اتفق على صحة نقل هذه الأبيات عن أبي طالب :
مقاتل ، وعبدالله بن عباس ، والقاسم بن محضرة ، وعطاء بن دينار] . كما
أن البرزنجي عدّه من كلام أبي طالب المعروف . وقد أخرج البيهقي في
الدلائل - كما يقول شارح الكشاف ١٠ : ٢ - من طريق ابن إسحاق ، عن
يعقوب بن عتبة بن مغيرة بن الأحنس .

وليس لنا أن نمرّ بهذه الآيات الأربعة ، دون أن نعيدها نظرة فاحصة ...
فهذه الآيات صورة رائعة زاهية الألوان بارزة الخطوط ، تعرض لنا إيمان
أبي طالب ، في لونه الثابت ، وخطوطه البارزة ، دون أن تمتد إليه يد بريفر ،
أو غرض بتشويهه ...



شاء أبو طالب بعد ذلك الحديث ، الذي دار بينه وبين قريش ، ثم
أنهاه إلى سمع ابن أخيه ، وقال له قوله تلك ، التي أعادت الطمأنينة إلى
قلبه والسكينة إلى قواده ، والهدوء إلى نفسه ...

شاء بعد كل هذا ، وقد انبعثت خنجرته بهذه الآيات ، التي صاغها
الضمير الحي ، والعقل الفاحص ، والقلب الحذب ...

شاء : أن يبدأها بما يشيع الإطمئنان في نفس ابن أخيه ، ليعلم بأنه له ،
اليوم ، كما كان له قبل اليوم ... إنه له ذلك النصير المجاهد الذائد الحذب ...
وسيكون له كما كان قبل اليوم - حتى يلتقى ربه ، وقد أعطى الرضا من
نفسه ووفى بالعهد المقطوع ، وحفظ وصية الأب في لحظته الأخيرة ...

فهو لن يحول ولن يتخلّى عنه . فما عليه من جمعهم الضال ... فإنهم لن
يصلوا إليه ، ولن ينالوه ، حتى يُوسّد التراب ، ويُوارى منه الجسم ، ويَزول
ظله من الوجود ...

والبيت الثاني : صورة أخرى لما في البيت الأول ، إلا أنه أمره بأن يصدع
بهذا « الأمر » الذي جاء به . فليس عليه مخافة ، ولا غضاضة ، ولا بأس !
بل إن له للبشرى الباقية ، فسوف تقر عيناه بالنصر المؤزّر ، والخلود الدائم .

والبيتان الأخيران ، هما الصوت الحاكي ، والصورة الناطقة ، لإيمانه

العميق ، وأطمئنانه للرسالة الأحمدية . ففيهما من الشناء والاعتراف ، ما لا يصدر إلا عن مؤمن عميق عميق : إيمان معرفة ، ودراسة ، وتحليل ، لا إيمان تسليم ، واستسلام ، وإذعان . . .

وتجد ذلك ظاهراً ، في الرابع من الأبيات ، وهو : مفتاح يوصلنا إلى أن أبا طالب ، كان لديه اطلاع ، ولديه دراية بالأديان ، التي سبقت دين ابن أخيه .

ولذلك ، بهذه الإحاطة ، والدراية ، والإطلاع ، استطاع أن يوازن ، ويرجح ، ويحكم . . . فيها عرف : أن دين محمد ، هو خير أديان البرية . . .

وليست هذه الحشوة - « من » - بالتي تجيء ، أو تنطلق من حنجرة أبي طالب ، لولا الضرورة الشعرية ، التي حتمت بها ، ليكون الوزن صحيحاً . . .

وكثيراً ما اضطرت الضرورة هؤلاء الشعراء ، « لأن يروا حسناً ما ليس بالحسن » - كما يقول أحدهم ! .



ولكن الأغراض الخالقة ، والشهوات الراجفة ، ما كانت لتسر بهذه الأبيات - وهي سلاح ماضٍ ، وسيف قاطع ، يفت دعاوهم الباطلة وأراجيفهم المفترضة ، التي وضعت في حق شيخ بني هاشم ، لتتال من ناصع حياته ، وعظيم بلائه ، ورفيع قدره ، وفذ جهاده . . .

إن هذه الأغراض السوداء ما كانت لتسر بهذه الأبيات - وهي هي ، في صريح اعترافها ، وهي هي ، الصورة الناطقة للإيمان الوطيد ، والاعتراف السافر ، الذي يفضح كل غرض ، ويجهز على كل فرقة . . .

أقول : ما كان لهذه الأغراض العابثة أن تمر بها ، دون أن تستد منها يدً إليها بتشويه ، وتضيف إليها ما ينيلها المطمع ، ويرضي سفال الضمير . . .

فراحت تضيف إليها بيتاً خامساً ، ظننته يشوّه صفاء الصورة ، مِنْ لَأَلَاءِ
الإيمان ، وألّق الاعتراف :

لولا الملامة ، أو حذاري سبّةً لوجدتني سحاً — بذاك — مييناً !

ولأنك لتجد الهوة السحيقة ، بين هذا البيت ، والأربعة التي قرأت ... الهوة
السحيقة ، بينه وبينها ، في الأداء الفني ، وقوة الشاعرية ، والإنسجام ...

وهذا السيد أحمد زيني دحلان ، يقول حوله :

[فقل : إن هذا البيت موضوع ، أدخلوه في شعر أبي طالب ، وليس
مِنْ كلامه] ^(١) .

ونحن لو جارينا أصحاب هذه الأغراض السود ، وسلّمنا معهم بأن
هذا البيت ، قد قاله أبو طالب — وهو لم يقله — فإنه لا ينيلهم غرضهم ، ولم
يشبع مطمعهم التّهم ... فقد طاش سهمهم ، ولم يصب مرماه ...

فمعنى البيت : أنه لولا ما يخشاه مِنَ اللوم ، ويحذره مِنَ المسبّة ، لوجده
جاهراً بقبول الدعوة ، مييناً إيمانه على الملا مِنْ قريش ، غير كاتم .
ومعنى « بَانَ » — في اللغة : اتّضح وظهر ، وأبان الشيء : أوضحه ، فهو
« مبينٌ » — أي : مظهرٌ ...

وهذا لا يعني : أنه لولا ما يخشاه ، لكان ذلك المؤمن المصدّق ... فإن

(١) ص ٣٣٤ : ٧ مِنَ الغدير ، مسنداً إلى ص ١٤ مِنْ « أسنى المطالب » ،
غير أنه شاء أن يجاري المغرضين ، فذكر البيت ، عند ذكره لتلك الأبيات ،
في كتابه « السيرة النبوية » ! . ويظهر : أن هناك تناقضاً — بين الكتابين —
كثيراً . فالسيرة جاري فيها ، واتباع قول المغرضين . أما « أسنى المطالب » —
كما قرأتُ عنه ، وقرأتُ منه ، في ما نُقل عنه — فجهر فيه بالقول الحق ...

هذا معنى لا يحمل شيئاً منه هذا البيت المخلوق ...

ثم لو كان يحمل شيئاً منه ، لكان من التناقض بمكان ، بعد اليتيم السابقين : « ودعوتني » ، و « لقد علمت » ... ، فإنه بعد ذلك الاعتراف والتصديق لا يجوز أن يصدر من عاقل ، ما يناقضه أو ينفيه !...

وهذا التهافت المعنوي - إضافة إلى التهافت الشعري - وهذا التناقض الفاضح ، بين معنى البيت - لو حملناه على غير محله - والآيات التي سبقتة ...

إن هذا ... لا يصدر ، إلا من خولط في عقله ، فلا يدري ما يقول ، ولا يعرف ما ينطق ...

وحتى الآن ، لم يذكر أحد أبا طالب - حتى هؤلاء المغرضون - إلا بحدثة الذكاء وقوة العارضة ، وبلاغة اللسان ، وقوة الحجة ، ومتانة المنطق ...

* *

عرفت قريش موقف أبي طالب ، من الرسالة الجديدة ، ومن رسولها العظيم ... وساءها أن يقف أبو طالب ، هذا الموقف الجريء الصلب ، وساءها : أن لا تنجح محاولاتها هذه ، وتعود بالإخفاق والفشل ...

أرادت منه : أن يكف محمداً ، عن ذكر آلهم وعيها ، فما كف ، وما هادن ...

ثم أرادوه : أن يفسح المجال بينهم وبينه ، لينالوا منه ما يرضيهم ، أولاً ... فإنهم يعلنونها عليه حرباً دامية ...

ولكنهم رأوه : يشجعه في بث رسالته ، ونشرها ، والدعوة إليها ، ويأمره بذلك ، ويعدّه النصر ، والجهاد ، والدفاع ...

ووجدوا - بعد ذلك - منفذاً آخر ، هو - في رأيهم - آخر ما يرجون...
وها هم أولاء يأخذون طريقهم إليه ، وقد مشوا إليه بعمارة بن الوليد ،
حتى إذا جاءوه ، قالوا له :

[يا أبا طالب ! هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى في قريش ، وأشعره ،
وأجمله ، فخذة ... فلك عقله ونصرته ، واتخذته واداً ، فهو لك ... وأسلم
لنا ابن أخيك ، هذا الذي قد خالف دينك ، ودين آبائك ، وفرق جماعة
قومك ، وسفّه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما رجل كرجل !...] .

لو كان أبو طالب ، لا يعرف للمواقف حقها ، لكان له - بعد هذه القولة
المضحكة - صدى فقهية عالية ، تدوي بعيداً ، وترنُّ حاملة كل معاني
الاحتقار والاستخفاف ، بسخف هذه القولة المنحطة ...

ولكنه لم يزد على هذه القولة ، وقد انطلقت من فيه ، هادئة ساخرة :

[والله ! لبئس ما تسوموني ! أتعطوتي ابنكم أغذوه لكم ... !
وأعطيكم ابني تقتلونه ... ! هذا والله ! ما لا يكون أبداً ...] .

حقاً ! إنه لسخفٌ ما بعده سخفٌ ! وانحطاطٌ فكري ، ليس يعدله
انحطاطٌ ! ، وحيفٌ من طرازٍ فذٍّ ، لم يُر له ما يماثله ... ! إن دل على شيء ،
فعلى : انعدام القيم ، وفجاجة الرأي ، وتلاشي الفكر ، وحيف الميزان .

وسمع المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف - وهو من أحلافه -
يقول :

[والله ! - يا أبا طالب ! - لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص
مما تكرهه فيما أراك تريد : أن تقبل منهم شيئاً ... !] .

فأجابه أبو طالب :

[والله ! ما أنصفوني ... ! ولكنك قد جمعت خذلاني ، ومظاهرة القوم

عليّ، فاصنع ما بدا لك ... (١) .



وقد نظم أبو طالب قصيدةً ، عرض فيها بالمطعم بن عدي ، على خذله إياه ! ثم عثم بها من خذله ، من عبد مناف ، ومن نصب له العدا ، من قريش :

أَلَا قُلْ لِعَمْرٍو ، والوليد ، ومطعم :	أَلَا لَيْتَ حَظِّي مِنْ حَيَاطِنِكُمْ بِكَرٍّ (٢)
مِنْ الْخُورِ حِجَابٌ ، كثيرٌ رغاؤه	يُرْشُّ عَلَى السَّاقِينِ مِنْ بُولِهِ قَطْرٌ (٣)
تَخَلَّفَ خَلْفَ الْوَرْدِ لَيْسَ بِلَاحِقٍ	إِذَا مَا عَلَا الْفِيَاءُ ، قِيلَ لَهُ : وَبُرٍّ (٤)
أَرَى أَخَوَيْنَا مِنْ أَيْنَا وَأَمْنَا	إِذَا سَنَلَا ، قَالَا : إِلَى غَيْرِنَا الْأَمْرُ !
بَلَى ! لَهْمَا أَمْرٌ ، وَلَكِنْ تَجَرَّجَمَا	كَمَا جَرَجَمْتَ مِنْ رَأْسِ ذِي عُلُقٍ صَخْرٍ (٥)

(١) الطبري ٦٧ : ٢ — والعبرة مما بين القوسين عنه — والسيرة الحلبية ٣٢٣ : ١ والنسبية ١٩٧ : ١ والمشماتية ٢٨٦ : ١ والحديدي ٣٠٦ : ٣ وأبو طالب ٦١ ، ٦٣ والبحار ٤٤٦ : ٦ وتذكرة الخواص ٩ والغدير ٣٦٠ : ٧ مسندة لمصادر عدة ، والأعيان ١٢٩ : ٣٩ .

(٢) البكر : الفتى من الإبل .

(٣) الخور : الضعف . الحجاب : القصير ، الدميم ، السيء الخلق . ويروى : « حيجاب » ، ومعناه : الكثير ، غير أن هذا لا يمكن ، ما دامت بعدها « كثير رغاؤه » ويروى « خبخاب » ، بمعنى : الهزيل . غير أن الأقرب للمعنى هو : « حيجاب » ، كما في الأصل .

(٤) الفيء : المفازة لا ماء فيها . الوبر : دوية ، تشبه السنور ، وهي دونه .

(٥) تجرجم : سقط وانحدر . وذو علق : جبل لبني أسد ، لهم فيه يوم على ربيعة بن مالك .

أَخْصُ خُصُوصاً: عَبْدُ شَمْسٍ وَنُوفَلاً
 هُمَا أَعَزُّا لِلْقَوْمِ فِي أُخُوِيهِمَا ،
 هُمَا أَشْرَكَاهُمَا فِي الْمَجْدِ ، مَنْ لَا أَبَا لَهُ
 وَتَيْمٌ ، وَمَخْزُومٌ ، وَزَهْرَةٌ ، مِنْهُمْ
 فَوَاللَّهِ لَا تَنْفَعُكَ مِنَّا عِدَاوَةٌ ،
 فَقَدْ سَفَهْتَ أَحْلَامَهُمْ وَعَقُولَهُمْ
 وَمَا ذَاكَ ... إِلَّا سَوْدُدُ خُصْنًا بِرِ
 رَجَالٍ تَمَالَكُوا حَاسِدِينَ ، وَبَغْضَةً
 « وَلَيْدٌ » أَبَوْهُ ، كَانَ عَبْدًا لَجْدًا

هُمَا نَبْدَانَا ، مَثَلُ مَا يَنْبُذُ الْجَبْرُ
 فَقَدْ أَصْبَحَا - مِنْهُمْ - أَكْثَرُهُمْ صَفَرُ
 مِنَ النَّاسِ ، إِلَّا أَنْ يَرَسَّ لَهُ ذِكْرُ (١)
 وَكَانُوا لَنَا مَوْلَى ، إِذَا بَنَى النَّصْرُ
 وَلَا مَشَهُمْ ، مَا كَانَ مِنْ نَسْلِنَا شَقَرُ (٢)
 وَكَانُوا كَجَفْرِ ، بَشَى مَا صَنَعْتَ جَفْرًا
 إِلَهُ الْعِبَادِ ، وَاصْطَفَانَا لَهُ الْفَخْرُ (٣)
 لِأَهْلِ الْعَلَى ، فَيَنْهَمُ - أَبْدَأَ وَتَرَهُ
 إِلَى عِلْجَةٍ زُرْقَاءَ حَالُ بِهَا السَّحَرُ (٤)



(١) رس الحديث ، حَدَّثَ بِهِ فِي إِسْرَارِهِ .

(٢) يقال : ليس هنا شَفَرٌ - أي : ليس هنا أَحَدٌ .

(٣) ذكرها ابن هشام - في سيرته ص ٢٨٦ : ١ - عدا هذه الآيات الثلاثة ،
 وقال : تركنا منها يَتَيْنِ أَقْدَعُ فِيهِمَا .

وذكرها الأُمِينِيُّ - في الغدير ص ٣٦١ : ٧ - وذكر قول ابن هشام ،
 وَعَقَبَ عَلَيْهِ: حَذَفَ ابْنُ هِشَامٍ مِنْهَا ثَلَاثَةَ آيَاتٍ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ غَايَتُهُ الْوَحِيدَةُ
 ... الخ . وذكر - بعدُ - هذه الثلاثة .

(٤) يريد بوليد : الوليد بن المغيرة ، الذي كَانَ أَبَوْهُ عَبْدًا لَجْدَهُ .

كَانَ الْوَلِيدُ هَذَا ، مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالرَّسُولِ «ص» ، وَهُوَ مِنْ بَيْنِ الَّذِينَ مَشَوْا
 إِلَى أَبِي طَالِبٍ ، مَعَ مَنْ مَشَى مِنْ قُرَيْشٍ بِشَأْنِ الرَّسُولِ . وَهُوَ الَّذِي عَنَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ،
 فِي قَوْلِهِ : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » - فَقَدْ كَانَ يُسَمَّى : الْوَحِيدَ .

رأى أبو طالب - وقد أعلن رأيه للسلا من قريش، وعرفوا موقفه تجاههم - أن يتدرّع، ويستعدّ للطوارئ، التي تواجه بها قريش - بعد ما عرفوا رأيه - فلم ير غير بني هاشم، وبني المطلب: سيفاً صقيلاً الحد، رهيف المجس، يعترض به كل من رآه بسوء. فدعاهم إلى أن يقوموا بجانبه، في الذود عن الدين الجديد، بحماية ومنع صاحب الرسالة، من عتاة قريش، والقيام دونه في وجوههم، إن بدت منهم للشر طلائع... فكانوا له عند طلبه، لم يشك بينهم، إلا ذلك الأخ الضال، أبو لهب المنكود...!

ويرى أبو طالب منهم: مواقف مشرقة، فيشيع السرور في ملامحه، حتى يثلج منه القلب، ويقرّ الفكر، وتهلّ الخواطر، فهو في مأمن... فليس يخشى شراً على الرسول، من مريديه بالشر...

وليس يلبث، حتى يقابل هؤلاء بالشكر الموفور، والثناء العطر، يشكر لهم موقفهم، ويشني على عملهم البار، مما يكون لهم حافزاً ومشجعاً، وينظم هذا الشكر في بضعة أبيات، لتلجج بها الألسن، وتهزج بها الشفاه، وتتألقها الأفواه، وتتلقفها الاسماع...

ولابدّ له - وهو يذكر قديم هؤلاء، ويشني على عملهم الحميد - لابدّ له في هذا المعرض أن يذكر محمداً، الذي كان له من هذا الشرف أعظمه، وأبعده جذوراً، وجاء بجلال الأعمال، مما لم يسبقه إليه سابق، ولا يدانيه عمل:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر	فبعد منافٍ سرّها وصميمها ^(١)
فإن حصلت أشراف عبد منافها	ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً	هو المصطفى من سرّها وكريمها

(١) السر: خالص الشيء، أطيبه وأفضله. وهو من صميم القوم، أي:

من أصلهم وخالصهم.

تَدَعَتْ أَقْرِيشَ - غُثَّهَا وَسَمِينُهَا -
 وكنّا - قديماً لا تَقْرُ ظِلَامَةَ
 ونَحْيِي حَمَاهَا - كُلَّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ -
 بِنَا اتَّعَشَ الْعُودُ الذَّوَاءَ ، وَإِنَّمَا -
 عَلَيْنَا... فَلَمْ تَظْفَرْ ، وَطَاشَتْ حُلُومُهَا (١)
 إِذَا مَا ثَوَا صَعْرُ الْخُدُودِ ، نَقِيمُهَا (٢)
 وَنَضْرِبُ عَنْ أَحْجَارِهَا مَنْ يَرُومُهَا
 بِأَكْنَفِنَا تَنْدِي ، وَتَسْمَى أُرُومُهَا (٣)



قويت شوكة الرسول ، فبعدت الشقة ، بين الهاشميين والمطلبين ، وبين

(١) تَدَعَتْ - هنا بمعنى : اندفعت بشدةٍ وعنفٍ وجفوةٍ . طاش : ذهب
 عقله .

(٢) ثنى الشيء : عطفه . صَعَّرَ خَدَهُ : أماله عن النظر إلى الناس
 تهاوئاً وكبراً .

(٣) اتتعش : نشط . ذوي النبات : ذبل ونشف ماءؤه . الكنف :
 الجانب ، الظل . وكنف الإنسان : حضنه ، أو العضدان والصدر . الأرومة :
 الأصل .

تجد القصيدة في السيرة الهشامية ٢٨٨ : ١ . وذكرت الثلاثة الأول
 في النبوية ٣٠ : ١ ، والحلوية ٣٣ : ١ ، وذكرت في الحجة ٧٩ ، ٨٠ - عدا
 البيت الأخيرين - مسنداً إلى كنز الفوائد لأبي الفتح الكرجكي ، ومتشابه
 القرآن لابن شهر آشوب . وذكرت أبياتها الأربعة الأولى - باختلافٍ في
 كلماتها - في الأعيان ١٤٨ : ٣٩ .

وذكرت في الغدير - ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ : ٧ - مسنداً لعددٍ من المصادر .
 وذكر لصاحب « أسنى المطالب » قوله حول هذه الأبيات ، هي :

[هذه الأبيات من غرر مدائح أبي طالب للنبي صلى الله عليه وآله
 وسلم ، الدالة على تصديقه] .

وذكرت في شيخ الأبطح ٣٧ - مسنداً - وقد ذكر هذه القولة أيضاً .

قريش.. وصار أبو طالب يحذر قريشاً على الرسول ، أشدَّ من ذي قبل ،
فصار يحوطه بعنايته ، ويخاف عليه الطواريء فلا يكاد يبعد عن عينيه ، لئلا
يبعث فيه هذا البعد : القلق ، والرعب ، والإضطراب... فتتأبه الأوهام ،
وتنوشه الظنون ...

افتقد أبو طالب ابن أخيه - مرة - ومحت عنه ، فلم يجده ، فثار به القلق ،
وعصف به الخوف ، وعلت وجهه خطوط باهتة ، هي مزيج من : الحزن ،
والإضطراب ، والخوف ، والعزم ، والمضاء ، للثأر والانتقام ... هي مزيج من هذا
كله ... - ولا سيما وقد وصل إلى سمعه بأن قريشاً تنوي اغتيال محمد ، لتجثت
الدعوة من أبعد جذورها ...

هناك ... دعا إليه فتيان هاشم والمطلب ، وأمر كلا منهم أن يخبيء تحت
ثيابه سلاحاً حديد الشفرة ، ماضي الحد ، لا يخون عند الضراب ... وأمرهم
أن يقف كل واحد منهم ، عند زعيم من رجال قريش ، وجعل بينهم وبينه
شارة .. فإن هو يش من وجود محمد ، فإن دمه لا يسفي هدرأ ، وليس يعدل
دمه المسفوح ، حتى دم هؤلاء العتاة كلهم ...

فعلهم - إن نفذ القضاء في محمد - أن يأتوا على هؤلاء ، في لحظة
واحدة .. فلكل رجل أعزل منهم ، رجل بيده بئار صقيل .. فليس - ثمة -
منجاة من الانتقام الصارخ ، وليس لهم محيص ، من جرّع صاب الموت ، من
هذا الحد الماضي ، الناصع البياض ...

وكل ذهب نحو غايته ... فهؤلاء الفتية ، قد أخذوا مكانهم ، حيث
أراد الشيخ ... وهو قد ذهب ، إلى حيث يبحث عن ابن أخيه ، في مظانه ...

وإذ وجدوه في خير ، لم تمتد له يدٌ بسوء ، أخذه بيده ، فوقف به على
رؤوس الملا من قريش ، صارخاً بهم :

« يا معشر قريش ! هل تدرون ما همست به... ؟ »

فقصَّ عليهم عزمه ، وأمر فتياه : أن يكشفوا لهم عن سلاحهم المخبوء ،
ليتحدَّاهم ويدلَّهم على مدى قوَّته ، فيها بوه • فبان الانكسار في وجوههم ،
وكان أشده وضوحاً ، في وجه أبي الجهل العتي ١٠٠٠ !
وقال لهم :

« والله ! لو قتلتموه ما أبقيتُ منكم أحداً ، حتى تتفاني نحن وأتم » (١) .
ثم ينظم أبو طالب أبياتاً ، يطري فيها ابن أخيه ، بعد أن يشنَّع على قريشٍ
موقفها ، ويعلن لها بأنه لمحمد وآله ، ذلك الراعي الحفيظ ، الذي يكنُّ له
الودَّ ، ما بين طوايا ضميره ، وحنايا صدره ، فما هو بقطاعٍ للرحم :

ألا أبلغ قريشاً ، حيثُ حلَّتْ	وكلُّ سرائرٍ منها غرورُ
فإنِّي والضوايحِ عادياتٍ	وما تتلو السفاسرة الشهورُ (٢)
لأنَّ محمدٍ راعٍ حفيظٌ ...	وودَّ الصدرِ منِّي والضيرُ
فليستُ بقاطعٍ رحيمٍ وولدي	ولو جرَّتْ مظالمها الجزورُ
أيامُ جمعهم أنباءً فهيرُ	بقتلِ محمدٍ ١٠٠٠ ؟ والأمرُ زورُ
فلا وأبيك ! لأظفرتُ قريشُ	ولا أمتُ رشاداً ، إذ تشيرُ
بنيُّ أخي ، ونوطُ القلبِ منِّي	وأبيضُ ، مأوهُ غدقٍ كثيرُ

(١) ذكرت هذه الحادثة في الحجة ٦١ وفي الغدير ٣٤٩ ، ٧: ٣٥٢ بالفاظٍ
ثلاثة • ثالثها : لفظ كتاب الحجة • وبين الثلاثة بعض اختلافٍ ، في خطوط
الحادثة • وذكرت في شيخ الأبطح ٢٦ ، ٢٧ • وذكرت - في صورةٍ أخرى -
في إثبات الوصية ٩٦ • وذكرت في أبو طالب ٦٧ ، ٦٨ •

(٢) يروى : « فإنِّي والضوايح كلَّ يومٍ » ، ولا « فإنِّي والضوايح كلَّ
يومٍ » ، والسفاسرة - جمع سفسير ، وهو : القيمُّ بالأمر المصلح له ، العالم
بالأصوات ، الرجل الغريف ، الحداد الماهر - الخ - ولكن العلامة الأميني ،
ذكر أنها أصحاب الأسفار : الكتب • والشهور - جمع شهر - هي العلماء •

ويشربُ بعدَهُ الولدانُ رِيًّا وأحمدُ قدُ تضمَّنهُ القبورُ
أيُّ ابنِ الأنفِ - أنفِ بني قصيٍّ - كأنَّ جبينكُ القمرُ المنيرُ (١)

وهناك حادثةٌ أخرى ، بدا فيها أبو طالبٍ : « صوّالاً على قريشٍ ، مدلاً عليهم بقوته ، متحدّياً لهم في فعالهم الدون ، يردُّ عليهم بأشدَّ وأنكى .
بينما الرسول - في أحد أيامه - في مناجاة ربه ، قد ارتقى للعالم العلوي ، وغاب في دنيا الروح ، فإذا بقريش قد شاعت أن تسخر منه ، وهو يؤدّي الصلاة ، فشاعت أن تفسد عليه صلاته ، وعهدت بهذه المهمة الدون ، إلى عبدالله بن الزبيري ، وقام هذا بها نشيطاً ، وقد أخذ فرثاً ودمَ جزورٍ ، فجاءه وهو ساجدٌ ، غائبٌ في العالم الأفضل ، فلطخه بذلك ... »

وليس للرسول غير أبي طالبٍ ، يفزع إليه ، ويشكو إليه ما يناله من الأذى ، ليدفع عنه الضيم ، ويأخذ له بحقه ... فاندفع إليه - بعدما اقتتل من صلاته - محزون القلب ، دامع العين ، فهذه الإهانة أشدُّ أثراً ، وأعمق أسىً ، من ضربٍ ، أو أيٍّ أذىً ... ففيها من ألم السخرية ، والاستخفاف ، ما يفيض منه القلب ، بالألم النهاش ... »

وقد ساء أبا طالبٍ : ما نال ابن أخيه ! . وعليه أن يأخذ منهم بحقه ، ويكيل لهم الإهانة بصاعٍ طافحٍ ... فاندفع إليهم - وقد أخذ ابن أخيه ، ووضع سيفه على عاتقه - وخطوط الغضب بارزة على صفحة وجهه ، وسيماء الثأر ناطقةً ، حتى طلع على القوم في ناديهم ، فراعتهم منه هذه النظرة الغضبي ، وحاولوا الهرب من وجهه ، لولا أن سمّهم في أماكنهم صوتٌ جهيرٌ ، انطلقت كلماته مجلجلةً ، من فم الشيخ المهيب :
« والله ! لئن قام رجلٌ جلّلتُه بسيفي » (٢) .

(١) الغدير مسندةً ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ ج ٧ والأعيان ١٤٩ : ٣٩ .

(٢) جلّ الشئ بعظمه .

فلصقوا بالأرض ، كُنْ فقد الإرادة ... فدنا منهم ، والتفت لابن أخيه :
« يا بني ! مَنْ الْفَاعِلُ بِكَ هَذَا ... ؟ »

فدله الرسول على ابن الزبيرى ، وأدناه إليه ، فوجأ أنفه ، ثم مرء بالدم
والقرث ، على القوم ، ولطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم ، وأغلظ لهم القول ،
وكال لهم الإهانة . وعاد لابن أخيه ، يقول له بلهجة المتصر ، وإدلال القوي :
[يا ابن أخي ! أرضيت ؟ سألت مَنْ أَنْتَ ؟ أنت محمد بن عبد الله
— وسرد النسب الشريف — أنت ، والله ! ، أشرفهم حسباً ، وأرفعهم
منصباً ...]

يا معشر قريش ! مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَحَرَّكَ ، فليفعل ... أنا الذي
تعرفوني [(١)] .

وأردف على هذا قوله :

أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ قَرْمٌ أَعْرٌ ، مَسْوَدٌ
لِمَسْودَيْنِ أَكْرَامٍ طابوا ، وطاب المولد
نَعْمُ الْأُرُومَةُ أَصْلُهَا عَمُرُو الْحَظِيمِ الْأَوْحَدُ
هَشَمُ الرِّيْكَةِ فِي الْجَفَانِ ، وَعِشُّ مَكَّةَ الْأَنْكَدُ (٢)
فَجَرَتْ بِذَلِكَ سَنَةٌ فِيهَا الْخَيْزَةُ تُشْرَدُ

(١) ذكرت هذه الحادثة في: الغدير — ٣٥٩ : ٧ — وشيخ الأبطح ٢٨ ، وبينها
بعض الاختلاف في الخطوط ، وقد أخذنا — هنا — النسيج ، من الروايتين .
وذكرت في: الحجة ١٠٦ ، ١٠٨ ، وثمرات الأوراق ٣ ، ٤ : ٢ ، وأبو طالب ٦٣
والمناقب ٣٥ .

(٢) هشم الثريد : كسر الخبز ، وقتّه ، وبك بالمرق ، حتى يكون
ثريداً . الريكة : الزبدة مختلطة باللبن . الجفان ، جمع جفنة — بفتح أوله —
القصة الكبيرة ثم الأنكد : العسر ، القليل الخير .

ولنا السقاية للحجيج ، بها يُمَاتُ العنجدُ (١)
 والمأزمان وما حوت ، عرفاتها ، والمسجدُ (٢)
 أتى تضام ، ولم أمت ، وأنا الشجاع العربدُ (٣)
 وبطاح مكة لا يرى ، فيها نجيع أسود
 وبنو أيك كأنهم ، أسد العرين توقدوا ؟
 ولقد عهدتكَ صادقاً ، في القول لا تنزىد
 ما زلت تنطق بالصواب ، وأنت طفلُ امرؤ (٤)



لقد افتتح أبو طالب هذه القصيدة، بالاعتراف بالسافر ، الذي لا يُقي
 لمتعت سبيلاً ، في جدل ، أو نقاش . . .
 فما الفرق : بين مَنْ يقول : « أشهد أن محمداً رسول الله » وبين اعترافه
 بالسافر : « أنت النبي محمد » ؟ . . . !

إن الواقع يصرخ : أن لا فرق ! فكلهما إقرارُ بنبوة محمد (ص) « والله » .
 أما الأغراض الدون ، والقلوب السود ، والضماير المعتلة ، فلعل لها

(١) يُمَات : يذاب . العنجد - بفتح وضم أوله - الزبيب ، أو قسم
 خاص منه ، أو ذو اللون الأسود منه .

(٢) المأزمان : مضيق بين : جمع وعرفة ، وبين : مكة ومنى .

(٣) العربد - بكسر العين ، وكسر وفتح الباء - الشديد من كل شيء ،
 وذكر الأفاعي .

(٤) الحديدي ٣١٥ : ٣ ، والحجة ٧٢ - بزيادة بيت - وشيخ الأبطح ٢٨ ،
 وهاشم وأمية ١٧٣ ، ١٧٤ ، وديوان أبي طالب ١٢ ، ١٣ ، والأعيان ١٤٣ : ٣٩ ،
 والغدير ٣٣٦ : ٧

وقد قال ابن أبي الحديد - بعد ذكره لها - إنها « من شعره المشهور » .

منطقاً ، غير منطق الواقع الرهين !...
وبعد أن امتدح أرومته ، وذكر فعال عمرو وهو : هاشم - الذي سن
إطعام الحبيج ، في قحل مكة وجدها ، وفي ذلك العيش الأُنكد ، ففرشها
بالنماء والرخاء ، وقضى على الجذب ، ومحا العيش الأُنكد ... وأراح القلوب
الخافقة ، وأشبع البطون الساغبة ، وأروى الحشاشات الملتهبة .

بعد هذا... أبدى نحوه - أي : ابن أخيه - عاطفته الرؤوم ، فإنه لن
يضام ، وهو على رقعة الأرض ، يرفأ له جفن ، وتشبي به قدم ... وما هو
بالجبان الرعديد ، ومن حوله أسود العرين ، تسحق كل من تشم منه رائحة
سوء ، أو مكروه !...

وبعد كل هذا ... اختتم قصيدته بيتين ، هما - في اعترافهما السافر -
كافتتاحها ... فكانت الفاتحة والخاتمة ، ~~ومن معدن واحد~~ ...
فهو - فيهما - يصدق ابن أخيه في قوله ... فإنه « لهو الصادق الأمين » ،
لم يره يقول غير الحق والصواب ، منذ نعومة أظفاره : ولم يجده مائلاً عن
منهجه الوضاح ، ولا حائداً عن طريقه الأبلج ...

وإن الذي لا يقول غير الحق ، حتى في دنيات الأمور ، لن يقول غير
الحق ، فيفتري على الله إبهوان الذي لا يكذب على مخلوق ، لن يكذب على
الخالق العظيم !...

فليس هذا ، سوى التصديق له في رسالته ، والاعتراف منه ، بأنها رسالة
سماوية ، لم يتزيد فيها محمد (ص) ، ولم يقل عنها ، غير الصواب
الثابت ، والحق الأبلج ...

✱ ✱

ويجدر بنا : أن نوافي القاري ، بهذين البيتين - أيضاً - وفيهما تصديق
بأن ما يقوم به محمد ، هو الحق الجلي . وفيهما تشجيع له وتطمين ، للمضي

في مهنته العالية ، بعزيمة لا تُغلب .

ويقول الحديدي قبلهما :

[ومن شعره المشهور - أيضاً - قوله ، يخاطب محمداً ، ويسكن جائته ،
ويأمره بإظهار الدعوة] :

لَا يَمْنَعُكَ مِنْ حَقِّ تَقْوَمٍ بِهِ أَيْدٍ تَصُولُ ، وَلَا سَلْقُ بِأَصْوَاتٍ
فَإِنَّ كَفْلَكَ كَفِّي ، إِنْ مَلَيْتَ بِهِمْ وَدُونَ نَفْسِكَ نَفْسِي ، فِي الْمَلَمَّاتِ (١)

إنه للفداء العظيم ، والجود الذي ليس بعده جودٌ !... فهو يقديه
بنفسه ، عندما تلمُّ به الملمات !...

وإنه ليطول بنا السير ، ويتشعب القول ، لو شئنا أن نعرض لشعره ،
الذي يتعلق بهذا الموضوع . ولكن فلنأخذ طريقنا ، الذي إليه انتهينا .
على أننا سنعرض له ، في ثنايا الفصول الآتية ، عندما تدعو الحاجة
لذلك ... وقد نضع له « فصلاً » خاصاً ، فنعرض فيه لحفنةٍ من شعره ، في
هذا الموضوع ...

* *

لم يكن أبو طالب ، بالذي يبذل النصرة لمحمد ، في شخصه ، فحسب ؛
فلم تكن نصرته ، في نطاقٍ ضيقٍ ، في يومٍ مّا ... فهو : نصير الرسالة في
مهداها ، وراعي محمد في طفولته ...

وإذ هو نصير الرسالة ذاتها ، فهو نصيرٌ لكلِّ مَنْ يعتنقها ... فليس يرضى
أن ينال واحداً ضيماً ، أو أذىً ، بسببها ...

وإن له لصفحاتٍ رائعةٍ الإشراف ، بارزةً العنوان ، في هذه النصرة

(١) الحديدي ٣١٥ : ٣ والغدير ٣٣٨ : ٧ ، والحجة ٧٤ - بإبدال "ملت" بـ

بـ « فتكت » - وأبو طالب ٣٣ ، وديوان أبي طالب ١١ ، والأعيان ١٥٠ : ٣٩ .

المؤزرة ...

وليس لنا أن نرَّ بها ، دون أن نشير إلى شيء منها :

✱ ✱

عذَّب المشركون عثمان بن مظعون الجمحي ، وقد استأثر بهدى الإسلام ،
واستجاب لأصداء الدعوة المحمدية ، ففارق ظلمة الشرك ، إلى نور الإيمان ...
فشاءت قريش أن تفتته ، وتضلَّه عن لاجب الطريق ، فعذبتَه ،
ونالت منه ...

ولا يسمع بذلك أبو طالب ، حتى يثار له ، من هذه الوحشية من قريش ،
وهذا العداء المستفحل . ثم يقول :

أصبحْتُ مكتئباً ، تبكي كمحزون؟ يغشون بالظلم من يدعو إلى الدين؟ أنا غضبنا لعثمان بن مظعون؟ بكل مطردٍ - في الكفة - مسنون يشفي بها الداء ، من هام المجانين بعد الصعوبة ، بالإسماح واللين على نبيٍّ كموسى ، أو كذبي النون ^(١)	أمن تذكر دهرٍ ، غير مأمون أمن تذكر أقوام ذوي سفه ألا ترون - أذلَّ الله جمعكم - ونمنع الضيم ، من يبغي مضيمتنا ومرهفاتٍ ، كأن الملح خالطها حتى تقرأ رجال لا حلوم لها ... أو تؤمنوا بكتاب منزل عجب

ماذا يعني - في بيته الأخير - من الكتاب العجيب ، المنزل على نبيٍّ ،
كالنبيِّ موسى ويونس ؟ .

فهل بعد هذا ، غير الإيمان بالقرآن الكريم ، وأنه كتاب إلهي ، منزل
على رسولٍ من رسل الله ، الذين اجتبى ؟ .

(١) الحديد ٣١٣ : ٣ ، والحج ٥٠ ، والغدير ٣٣٥ : ٧ ، وهاشم وأمية ١٦٤ ،
وشيوخ الأبطح ٣٠ ، وفيه زيادة . وديوان أبي طالب ٩ ، ١٠ - زيادة -
والأعيان ٤٢ : ٣٩ .

وهل بعده مغزى ، أو مطعن ، في إيمان هذا الشيخ ، إلا من عدوِّ ضالٍّ؟! .
ثم إنه — إلى جانب ما يحمل من سافر الاعتراف — لدليل على ما سبق أن
ذهبنا إليه — في هذا الفصل — من أن عند أبي طالب دراية وإحاطة بالأديان ،
التي سبقت الشريعة المحمدية ، وهي دليل على امتداد الحنيفية البيضاء ...
وإلا ... فلولا هذه الدراية والإحاطة ، لما كان يعرض لمثل هذه الأديان .
والمفروض أنه — عند المغرضين — كالجاهليين ، تتعفر منه الجبن ، عند أقدام
الأصنام — وأستغفر الله ! .

ثم لا يكفيه هذا ، حتى يذكر هذا الدين ، بصورةٍ يحضُّ فيها المشركين
على اتباعه ، والأخذ بهديه . بل جعله مرفأً السلامة : فأما المرفقات الحداد ،
حتى تقرَّ الرجال ، التي هي أشباه الرجال ولا رجال — كما يقول ابنه الإمام —
أو الإيمان بهذا الكتاب العجيب ...

وصفة القرآن العظيم ، بصفة « عجب » ، لها نظيرها في القرآن ذاته ،
وذلك في حكايته عن مؤمني الجن : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ، يَهْدِي إِلَى
الرُّشْدِ ، فَأَمْنًا بِهِ » (١) .

* *

عذبت قريش — في من عذبت من المسلمين ، وأرادت أن تصدَّهم عن
الهدى ، وتفتنهم عن الدين — أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي . ولم يرَ غير
أبي طالب مفزعاً ، يلجأ إليه ، ليقه غواشي قريش وعواديها ، فراح
يستجير به ...

ولا تعلم مخزوم بأن أبا طالب ، قد أجار صاحبها ، حتى تؤلف وفداً من
رجالها ، فمشى إليه ، قائلاً :

(١) الجن : ١ .

« يا أبا طالب! هبك منعت منا ابن أخيك محمداً... فما بالك ولصاحبنا تمنعه منا؟! » فكان أن أجاب بهذا الجواب :

[إنه استجار بي ، وهو ابن أختي - « لأن أم أبي طالب مخزوميشة » - وإن أنا لم أمنع ابن أختي ، لم أمنع ابن أخي !] .

فارتفع للفظ صدى ، وعلو للجدل صوت ، ويخشى الوفد الفتنة ، فيخاف وخيم العاقبة ، فيعود فارغ اليد ، مغلوباً على أمره ، فاشل المسعى ^(١) .

وإذ رأى أبو طالب : أن أبا لهب قد قال كلمة - في هذه الحادثة - في جانب أبي طالب ، فقد طمع فيه أبو طالب ، وراح يدعو لنصرة الرسول ، وأن يقف إلى جانبه ، في حماية الدين الجديد - كما هو واقف - فراح يدعو لذلك ، في قطعتين ، هذه إحداها :

وإن امرأاً أبوء عتية عمه...
أقول له ، وأين منه نصيحتي :
لهي روضة ، ما إن يسأم المظالم
أبا معتبر ! ثبت سوادك قائماً

إلى أن يقول :

كذبتم - وبيت الله - نبزي محمداً ولما تروا يوماً لدى الشعب قائماً ^(٢)

✱ ✱

لم يكن جهاد أبي طالب ، محصوراً في دفع العوادي ، وحيطة الرسول ، ورعايته من سوء قريش ، أو أن يجير أحد المذنبين من المسلمين ، فيغضب لذلك غصبة الليث المرعب ، وقد تسورت عليه الذئاب عرينه الحصين ...

-
- (١) شيخ الأبطح ٢٩، والنهج الحديدي ٣٠٦ ، ٣٠٧ : ٣، والسيرة الهشامية ١٠ : ٢، والنبوية ٢٥٦ : ١، والأعيان ١٣٠ : ٣٩ .
- (٢) الحديدي ٣٠٧ : ٣، والسيرة الهشامية ١١ : ٢، والحجة ١٠٥ - بدون هذا البيت - والفدير ٣٩٣ ، ٣٩٤ : ٧ .

لم يكن هو هذا فحسب ... وإن كان هذا هو أول ما يرى الإتياء ...
ولكن له هناك ناحية أخرى ، لها قيمتها المعنوية الفضلى ، وإن كانت جهاداً
صامتاً ...

فأبو طالب ، داعية إسلامية ، يشيد بكل ماثرة ، يراها لصاحب
الرسالة - تارة - ويشيد بمنزلة الدين ، ويرفع من ذكره - مرة أخرى -
ويدعو الناس لتصديق الرسول ، واعتناق هذا الدين - في جهة ثالثة -
ويحذر قريشاً سوء المغبة ، إذا هي تمادت سادرة في غيها ، غارقة في
جهلها ...

إلى آخر ما هنالك ، من النواحي المتعددة ، التي يعرض لها أبو طالب ،
وينظم شعراً رفيعاً ، تتناقله الألسن ، وتلوكه الشفاه ، وتترنم به الحناجر .
كانت الهجرة للحبشة ، بعد ما أذاقت قريش مستضعفي المسلمين :
ألوان العذاب ، وأنماط الإضطهاد ، ومرير المذلة ...

وكان في طليعة المهاجرين جعفر بن أبي طالب .

وما كانت هجرة جعفر ، تحت تأثير ما دعى غيره للهجرة ، فهو : عزيز
الجانب ، مرهوب الشوكة ... فيكفيه أن يكون ابن أبي طالب ، لتهابه
قريش ، فلا تنال منه ما يكره ...

ولكن هجرته كانت من طراز غير هذا ، فهي ذات هدف سام ،
ليكون حافزاً للهجرة ، وراعياً للمهاجرين - هناك - وسفيراً بينهم ، وبين
دينهم ، الذي قضت عليهم القوة الجائرة : أن يكونوا بعيدين ، عن نبع
الروى ...

ولكن الخسة والنذالة ، وسقوط النفس ، وعمى الأفتدة ، ليس لها أن
تقف عند حد ... فما كان من قريش ، إلا أن أوفدت عمرو بن العاص ، وعمار
ابن الوليد - كما يقال - إلى الحبشة ، ليكيدا - تحت أستار الغلام - هؤلاء

المهاجرين ، فيحكما لهم المؤامرات ، على نول الخبث والغدر، والبهتان .
 فيخلقا كل فرية ، ويتحلا كل منقصة ، لتصل قريش إلى غايتها الدون ...
 لولا أن جعفرأ - بنفاد بصيرة ، ورجاحة عقل ، واتزان تفكير ، وعمق
 إيمان - كشف عن وجه هذه المؤامرة ، ورد سهام المكيدة والبغي ، إلى
 نحر راميها ...

وليس من موضوعنا عرض هذه الحادثة ؛ ولكن البراع شاء أن
 يضع من الحادثة خطوطها الأولى - فمن شاءها ، فليرجع لها ، في مظانها ،
 من كتب التاريخ ...

ونحن إنما نريد أن نقول : إن أبا طالب ، وقد وصلت إليه
 أصداء هذه المكيدة ، بعث للنجاشي - ملك الحبشة - أبياتا ، يحض فيها
 على إكرام جعفر ، وأن لا يصغي للقول الزور ، الذي يلفقه الأفكك الأثيم
 ابن العاص .

وقد جاء في هذه الأبيات :

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي ! كَيْفَ فِي النَّاسِ جَعْفَرُ ؟	وَعَمْرُو ، وَأَعْدَاءُ النَّبِيِّ الْأَقَارِبُ ؟
وَهَلْ نَالَ إِحْسَانُ النَّجَاشِيِّ جَعْفَرًا	وَأَصْحَابُهُ ، أَمْ عَاقَ عَنْ ذَلِكَ شَاغِبُ ؟
تَعْلَمُ - أَيْتَ اللَّعْنِ ! - إِنَّكَ مَا جَدُّ	كَرِيمٌ ، فَلَا يَشْقَى إِلَيْكَ الْمَجَانِبُ
تَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ زَادَكَ بَسْطَةً	وَأَسْبَابَ خَيْرٍ ، كُلُّهَا بِكَ لَازِبُ (١)

ولا تصل الأبيات للنجاشي ، حتى تشيع في جوانبه الغبطة ، ويبدو

(١) ذكر الحديدي - ٣١٤ : ٢ - البيتين الأولين ، وقال : « في أبيات
 كثيرة » - والسيرة الهشامية ٣٥٧ : ١ ، بزيادة بيت ، واختلاف يسير في بعض
 الألفاظ - والحجة ٥٦ - مع اختلاف يسير أيضاً ، في الألفاظ - والغدير
 ٣٣٧ : ٧ ، والأعيان : ١٤٤ : ٣٩ ، و ١٦ : ٢٧ - بزيادة بيت ، وبعض الاختلاف -
 وذكر البيتان الأولان في هاشم وأمية ١٦٤ .

عليه السرور العظيم ، حيث لم يكن طامعاً ، في مدح أبي طالب ، إياه ... ولا يرى أحسن من أن يشكر أبا طالب - على عاطر ثنائه - بإكرام مثوى من تركوا ديارهم ، وهجروا أوطانهم ، ليكونوا بجواره ، فزاد في إكرامهم .

ولا يعلم أبو طالب بذلك ، حتى يبعث إليه آياتاً ، يدعوها فيها للإسلام ، وينصاع للدعوة ، التي جاء بها الرسول الأعظم « ص » :

أَتَعْلَمُ مَلَكُ الْحَبَشِ أَنْ مُحَمَّدًا نَبِيُّ كَمُوسَى ، وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ (١)
أَتَى بِالْهُدَى ، مِثْلَ الَّذِي أَتَى بِهِ فُكْلٌ - بِأَمْرِ اللَّهِ - يَهْدِي وَيَعْصِمُ
وَأَنْتُمْ تَتْلُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ ... بِصِدْقِ حَدِيثٍ ، لَا حَدِيثَ التَّرْجُمِ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِدَاءً ، وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ ، لَيْسَ بِمُظْلَمٍ
وَإِنَّكَ مَا تَأْتِيكَ مِنْ عَصَاةٍ لِقَصْدِكَ ، إِلَّا أَرْجِعُوا بِالتَّكْرَمِ (٢)

وهذه الآيات صورة أخرى لإيمانه وبرهانه ناطق على أنه « داعية إسلامية » ، يعمل على نشر الإسلام ، واعتناقه ديناً إلهياً ، وتصديق صاحب الدعوة رسولاً من السماء .

وهي - إلى ذلك - برهان آخر ، على تلك الإحاطة والدراية - كما سبق أن أشرنا - لدى أبي طالب ، بكتب السماء ، ورسالات الله وأنبيائه .
وهي تصديق شامل لما جاء من عند الله ، واعتراف بنبوة رسل الله ، كل من محمد وعيسى وموسى . فمحمد قد أتى بالهدى ، كما سبق أن جاء به المسيح والكليم . وليس هذا الهدى - لديهم كلهم - سوى هدى الله .

(١) في رواية : « وزير لموسى ... » - ولكنها غير صحيحة .

(٢) الحجة ٥٦ ، ٥٧ ، والبحار ٥٢١ : ٦ ، وإيمان أبي طالب ١٨ ، وشيخ الأبطح ٨٧ ، ٨٨ ، ومجمع البيان ٣٧ : ٧ - بدون البيت الأخير - والعباس ٢٢ ، والغدير ٣٣١ : ٧ ، والأعيان ١٩ : ١٦ ، عدا البيت الرابع ، مع اختلاف في بعض الألفاظ .

ودعّم ما يقول ، بالبيّنة ، التي لا يردّها المخاطب . فلما كان النجاشي مسيحياً ، فإنه ليحجه بكتابه المقدّس — الإنجيل — فإنه سوف يجد فيه ما يبشّر برسولٍ يأتي ، « اسمه أحمد » . وهنا... نلمس ، جلياً ، إحاطته بالدين العيسوي .

وبعد ذلك... يدعوهم لتوحيد الله ، وأن يذعنوا للإسلام ، بعدما بان لهم سنن النهج القويم . فطريق الحق الحب ، ليس بمظلم...!

وإنها للصفاقة الوقحة ، أن تقول بعد كلّ هذا : إن أبا طالب لم يسلم ، وهو يدعو الناس للإسلام ، وإنه ليعرف طريق الحق ، ويصرخ بأنه « ليس بمظلم » ، بل مشعّ بالنور ، يدعو إليه السراة والضلال ، لينقذهم من التيه والعمى ... دون أن يهتدي هو بهداه ، ويقتبس من نوره... بل يتخط — والعياذ بالله — في دياجي الظلم ، وغياهب الباطل...

أستغفر الله ! فلن يقول ذلك ، سرى الصفيق الأرعن ، والغاوي الضال ، الذي لا يخشى من قول الزور ، ولا يأثم من اتّحال الباطل .



وهو — إلى هذا الإيمان الوطيد ، والمعتقد الرسيخ — مؤمنٌ بالمعجزات ، مصدّقٌ لها ، لا يخالجه فيها شكٌّ أو ريبٌ... فالإعجاز ، لا يكون لإنسانٍ ، لا تميزه على غيره ميزة النبوة والعصمة...

وإن الإعجاز ، ليفرض الإيمان ، حتى على ضعاف العقول... فكيف بمن كان من العقل على اكتمالٍ ، وكان من الأديان على الإحاطة...؟
جاء أبو جهل للرسول « ص » ، وبيده حجرٌ ، وقد عزم أن يضربه به ، حين ما يسجد في صلاته.

ولكن هذا العزم ، يذهب بدداً ، فلا يستطيع أن يحقّقه ، وهذه أصابعه منقبضة على الحجر — ولا ككفّ البخيل على قبضة من الذهب الوهاج — فهي

لا تطاوعه في الانبساط ! فيعود مهلوع القواد ، مرضوض الهمة ، مخدوش التفكير ، بفالعرب قد زلزل منه عزمه ، والخوف قد أنبت في عينيه القذى ... فلا يبصر منبسط طريقه ، وقد رأى ما يزعزع منه الروح ، فحال بينه وبين ما عزم عليه !

فيقول أبو طالب ، وهو يقرأ المستقبل ، فيخشى عليهم ما ستلد به لهم مقتبل الأيام ، إن هم أصرّوا على العناد ، وأصصوا آذانهم ، دون صافي النداء ، وأغلقوا قلوبهم ، دون باهر النور ، ولألاء الحق ... فإن نهاية ستحيق بهم ، كما كان - قبلهم - قوم صالح ، إذ عقروا ناقة الله ، فدمدم عليهم ربهم بعذابه ، وحق بهم غضبه :

أفيقوا - بني عمنّا ! - واتمهوا	عن النعمي ، في بعض ذاك المنطق
وإلا فإنّي - إذا - خائف	بوائق ... في داركم تلتقي ... !
تكون لغابركم عبرة ...	وربّ المغارب والمشرق !
كما ذاق من كان قبلكم :	ثمود وعاد - فمن ذاك بقي ؟
غداة أتتهم بها صرصر	وناقة ذي العرش ، إذ تستقي
فحلّ عليهم - بها - سخطه	من الله ، في ضربة الأزرق
غداة يعضّ بعرقوبها	حسام - من الهند - ذو روق
وأعجب من ذاك في أمركم :	عجائب في الحجر الملتقي !
بكفّ الذي قام في جنبه	إلى الصابر الصادق المتقي
فأبتكه الله في كهّبه	على رغم ذاك الخائن الأحقر ! ^(١)

(١) الحجة ٦٢ وذكرها الحديدي - ٣١٤ : ٣ - وقال : « من جملة آيات » فذكر الأولين والرابع ، وقال : « ومنها » فذكر الثلاثة من الختام ، وفيها : « من خبثه » بدل « في جنبه » و « رغبة » بـ « بلهأ » من (رغم ذا) .
وذكرت في الغدير ٣٣٦ ، ٣٣٧ : ٧ - باختلاف في بعض الكلمات ، وزيادة بيت في ختامها - وفي الأعيان ١٤٢ ، ١٤٣ : ٣٩ .

وذكر بعضها في ديوان أبي طالب ، ص ٩ ، وبعضها في ص ١٠ .

وإني لأُحسُّ في هذه القصيدة - إلى جانب اللهجة الصادقة ، التي
ينضح بها كلُّ شعره ...

إني لأُحسُّ فيها لهجةً رائيةً حانيةً ، تبذل النصح ، وتمحض الخير ، وتدُلُّ²
على النور ؛ يبعث ذلك : الشفقة والرثاء ، لِمَنْ سيسدر في غيِّه ويغمه في
ضلاله ... فهو يخاف عليه سوء المنقلب !

وإنها لظاهرةٌ إنسانيةٌ ساميةٌ ، قلَّ أن تطفر بها عند إنسانٍ !
وهو ، ليَمَكِّنَ قوله من قلوبهم ، دَعَمَهَا بما نال عاقري ناقة ذي العرش ،
حين أصرُّوا على العناد ، ولم يَأْبَهُوا لِإِنْذار نبِيهم صالح !
وإن هؤلاء - إن أصرُّوا على العناد - فنهايةٌ ، كتلك ، ستحقِّق بهم !
وها هي ذي النذر ، قد أخذت تبدو منها طلائع ... !

فهذا الحجر ، قد أثبتته الله ، في كفِّ هذا الخائن الأحمق ، الذي شاء أن
يرمي به الصابر ، الصادق ، المتقي ... !
وإنها لصفاتٌ يخلعها على الرسول « ص » إيمانه ومعتقده ، الذي رأى في هذا
الإعجاز نذيراً لقومه ... - وبألهول نذر الله .

الشعب والصحيفة

أقضى مضجع المشركين : أن يكون الرسول بهذه المنعة ، وأن تكون دعوته بمثل هذا الانتشار ... فقد انحاز إليها الكثير ، واعتنقها الوفر ، من مختلف الطبقات ، والنحل والبلاد ؛ فلاقت : صدىً بعيداً ، متجاوباً مرثياً ، وتعلق بها كثيرون ... فوقعت من أفئدتهم في الصميم ، حتى أنهم ليؤثرون الموت ، بعد أن يذوقوا ألوان العذاب ، وأنماط الأذى ، وأقسى الألم ، وكأنهم يتمتعون ويلتذشون !...

فالألم - في هذا السبيل - ألد من النعيم ؛ والهوان أحلى من الكوثر ؛ والهجرة ، بلفحها الوهاج ، أوف من الظل المتدبب !...

فليس للسان منهم أن ينس بينت شفقة ، تشعر المشركين بأنه حاد عن دين الله القويم ، وصراطه الألب !.

وإنهم ليروحون ديارهم ، ويهجرون أوطانهم ، ويقلون أحبابهم ، في سبيل أن ينجوا بأنفسهم ، وهم في سلامة من دينهم !.

وقفت قريش تتداول الرأي ، وتعمل الفكر ، وتبتدع الحيل ، وتبحث عن المكاييد ...

ماذا عساها أن تعمل ، لتعلم من بساط هذه الرسالة المنشور ، وتلاشي من

صداها البعيد ، العميق الجهير ، الذي لم يكدرن ، حتى جاوبته القلوب ،
وأرهفت إليه الأسماع !

إن كل الحيل ، التي انتهجتها ، لم تجدها نفعا ، ولم تنلها الغاية المرجاة ،
ولم تشبع شهوتها الصارخة . . . فوحشتها على نهما السعار ، وخوفها وقلقها
على مصائر آلتها ، التي تعبد ، تقض عليها المضاجع ، وتنبو بها عن
الرقاد

أما خوفها على انفلات زمام الزعامة ، والتحكّم في مصائر الناس ، وسومهم
الخشف والوبال - فهذا ما يبرز في طبيعة الأمور ، التي تدعوها أن تفكر ،
وتعمل الرأي !

إنها قد سعت لإخماد هذه الجذوة ، وبعد لم يمتد لها لهيب . . . وإخفات هذا
الصوت ، وقد كان همساً ناعماً . . . وكسر هذا الأملود ، وبعد لم تصلب له
قشرة . . . ولكنها عادت بخفي حنين ، صفر اليدين ، خاوية الوفاض . . .
فمحمداً - بعنه ورجاله - في حصن منيع ، وكهف لا تدنو منه الأعاصير .
ولو انها امتدت يدها منها ، لتخمد في محمد جذوة الحياة ، وتسفك منه الدم
على شفرات المواضي - فإنها سوف تجني من ذلك الوبال . . . فسوف تثبت
من كل قطرة من دمه ، سيوف تجت جذورهم . فواجب الأخذ بالتأثر ، وسوف
ينبئ الدفائن ، ويشير الكوامن ، ويشحذ الهمم ، ويصقل المواضي

وهو - إلى ذلك - سوف ترتوي دعوته من دمه ، وإن لها في نفوس
بعض أصحابه لأقدس وأرفع منزلة ، فسوف يذيعها بين الناس ، فتكون
أسرع انتشاراً ، إذ سيرافقها قصة دم مسفوك ، بأيدي أثيمة ، أعشى أعينها
هذا النور الجديد .

وإنها قد قاومت أصحابه ، وفستتهم ، وصدّتهم فوجدت نفسها أمام
حديده ، لا يفل ، وأمام صخر لا يفت ، وأمام طود لا يتزعزع . . . فما
العذاب والاضطهاد ، بالذي يرد مؤمناً عن إيمانه ، أو يفتن مسلماً عن

إسلامه ... بل إن كل ذلك لما يمكن للدعوة في القلوب ، ورسخها في الضمائر - ولا سيما أن هؤلاء مشوقون إلى روائح الجنة ، ونعيمها الدائم ، لينالوا فيها درجات الشهداء الصابرين .

إذن ... فماذا تعمل ، ولا ترى سبيلاً للعمل المثمر ؟!

وفي عتي الحيرة ، وفي أخرج المواقف ، وفي أشدها أزمة ، انفرجت شفة من أحد الأبالسة ، وكأنه فحيح الأفاعي ، فقد اهتدى لحل يرضي الحقد الثائر ، وطريق يصل بهم للهدف المنشود ، وينيلهم البغية الحلوة ، والرجاء الجميل ... عليهم أن يضربوا نطقاً من « الحصار السلمي » - الحصار الاقتصادي - على هؤلاء الذين يحمون محمداً .

عليهم أن يشنوها حرباً باردة ، لينجوا فيها من الضحايا والخسائر ، ويقع كل ذلك ، على عدوهم وحدهم ! ولا بد أن يستسلم هؤلاء ... فيردعوا صاحبهم عن دعوته ، أو يسلموه إليهم : ضحية رخيصة ، وفريسة سهلة الاصطياد ، بخيصة الثمن .

حينذاك ... كتبوا صحيفة ، كان من بنودها ، أن يكونوا يداً واحدة ، على بني هاشم والمطلب ، وحرباً عليهم ، لا يهادنونهم ، فلا يتناكحون وإياهم ، ولا يبيعون إليهم ، ولا يتعاونون منهم ، ولا يقبلون منهم صلحاً أبداً - إن أرادوه - وأن ينفذوا هذا الشرط ، بدون رافة ، أو رحمة بهم ...

وليس يشيهم عن عهدهم هذا ، إلا أن يسلموا إليهم محمداً ، ويخلوا السبيل بينهم وبينه ! فحينذاك ، يرفعون عنهم هذا الحصار ، وتعود لهم الحياة رويّة ، كما كانت في سابق عهدها .

وختموا الصحيفة - وقد تعاهدوا على تنفيذ ما جاءت به ، وجعلوا نسخة منها ، معلقة في الكعبة . وكان ذلك في هلال المحرم ، بعد سبع



ما كاد يمش طلبة أذن أبي طالب ، ما عزمت عليه قريش من قطيعة آثمة ، وعمل وحشي ، يدل على سفالة ضمير ، واسوداد قلب ، حتى نبض شعوره بشعري نعم فيه على قريش ما عزمت عليه من ظلم ، وحذرهما ما يعود عليها ، من البلاء والحرب الضروس ، في قصيدة نجتزي بعضها :

يرجشون ما خطبة ، دوك نيلها	ضارب وطعن ، بالوشيج المقوم !
يرجشون أن نسحق بقتل محمّد	ولم تختضب سمر العوالي من الدم !
كذبتهم - وبيت الله ! حتى تفلقوا	جناجم ، تلقى بالحطيم وزمزم
وتقطع أرحام ، وتنسى حليمة	حليلاً ، ويفشى محرم بعد محرم
على ما مضى من مقتكم وعقوقكم	وغشيانكم - في أمركم - كل مأثم
وظلم نبي ، جاء يدعو إلى الهدى	وأمر ، أتى من عند ذي العرش ، قيم
فلا تحسبونا مسلميه ، فسله	إذا كان في قوم ، فليس بسلم ^(١)

ليس يهنا ما تحمله القصيدة ، من التحدي الصارخ لقريش ، والتأنيب لها ، والتخويف من خوض غمار الحرب - وفي ما تركناه من القصيدة ، تتجلى فيه هذه الناحية أبرز وأشد .

ولكن يعيننا منها - قبل كل شيء - هذان البيتان ، اللذان اختلنا بهما ما شئناه منها .

(١) النهج الحديدي ٣١٢ ، ٣١٣ : ٣ والحجة ٣٧ ، ٣٨ - بزيادة خمسة أبيات في أولها ، وبيتين بعد « وتقطع » ، وبيت في نهايتها في الغدير ٣٣٣ ، ٣٣٤ : ٧ [مسند] - بزيادة بيت عما في الحجة . وذكر بعضها - باختلاف في الألفاظ - في إيمان أبي طالب ١٣ . وذكرت في هاشم وأمية ١٧١ ، ١٧٢ ، والأعنان ١٤١ : ٣٩ بزيادة بيت في نهايتها .

فأليت الأول يتجلى فيه ألح الإيسان ، ولألاء المعتقد . فحسدُ نبي .
ودعوته التي يدعو إليها قريشاً وغيرها ، ليست غير الهدى . وليس هذا
الأمر ، الذي أتى به - وهو الأمر القيم - إلا أمر ذي العرش الرحمن
العظيم .

فمتى كان مثل محمدي - وأنتى لهم بثله ! - في قومٍ مها كانوا ، فإنهم
ليسوا بمسلميه ، وهو رسول ربهم إليهم ، فإنهم لينالون العزَّ به ، والشرف
بسنعه من يد أعدائه ، والهدي بهداه ...
وما عسى أن تقول - أيها المسلم ، الذي تقول في مؤمنٍ قريش ، قول
الزور !

ما عنك أن تقول ، غير هذا القول ، وتؤدي عن إيسانك بدعوة النبي ،
أحسن من هذا الأداء ، وأفصح من هذا البيان ؟

★ ★

حينذاك ... راح أبو طالب يعمل رأيه ، فيرى نفسه في أزمةٍ عاتيةٍ ،
وفي ضيقٍ ومأزقٍ حرجٍ . فعليه أن يتخذ القرار الحاسم . فنادى إليه رجال
بنو المطلب وهاشم ، وأجمعوا على أمرهم أن يدخلوا «الشَّعب» (١) ، ليكونوا
في منجى ، بعد أن نفذت قريشُ صحيفتها ، الظالمة القاطعة . فانحاز المطلبيون
والهاشميون لأبي طالب ، يأتمرون بأمره . فرأيهم لرأيه تبعٌ ، وهم لما يريد
على اتقيادٍ .

(١) ذكر ياقوت الحسوي - في معجم بلدانه ٢٧٠ : ٥ [٣٤٧ : ٣] -
الشَّعب (بكسر الشين) ، باسم «شَّعب أبي يوسف» ، فقال :
(وهو الشعب الذي أوى إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبنو هاشم
لما تحالفت قريشٌ على بني هاشم ، وكتبوا الصحيفة ، وكان لعبد
المطلب ...) - الخ .

ولم يشدَّ عنهم ، سوى ذلك الأخ الظلوم ، الذي رين على قلبه ، أبي لهبر الفضال — تبتَّ يداه ! — الذي راح يعين قريشاً عليهم ^(١) .
 تنضي الأيام عليهم رتيبةً ، لا تفرج لهم كوةً ، من نور الرجاء ، وشعاع الأمل ، فهم في ضائقةٍ وضنكٍ ، لا يحده الوصف ، ولا يأتي على تصويره القول ... فالجوع حَزٌّ في نفوسهم ، ورسم خطوطه البشعة في أجسامهم ! .
 وليست تعدُّ قريشٌ ، مَنْ تستدُّ لهم منه يدٌ بمعونَةٍ ، غير خائنٍ مجرمٍ ، فتشور في وجهه ، لتصدَّه وتعاقبه ... فأصابهم الجهد ، ونال منهم الضنى ، وأضرَّ بهم الجوع ، حتى أنهم ليأكلون « الخَبْط » ، وورق الشجر ^(٢) .



وكان أبو طالبٍ ، ذلك الحفيظ المحترس على ابن أخيه ، والحارس اليقظان عليه . فيخشى عليه من مؤامرةٍ تحاك ، أو دسيسةٍ تنال منه شهوتها . فإذا لفَّهم الليل بسحابته الدكناء ، وحان وقت استسلامهم للنوم ، فرش لابن أخيه فراشاً ، يمتدُّ عليه ، برأىٍ من هؤلاء جميعاً ، حتى إذا استسلموا لغفوةٍ عميقةٍ — وهو ذلك اليقظان — قام ، فأخذ ابن أخيه لفراش ابنه عليٍّ ، وأخذ ابنه لفراش ابن أخيه ... حتى لو كان هناك ، مَنْ بات على سوء نيةٍ ، ويئت سوء القصد ، فإن السوء يقع على ابنه ، لينجو منه رسول السماء ! . فليذهب ابنه ضحيةً ، دون أن ينال الرسول سوءً ، وله عينٌ تطرف ! ...

(١) الطبري ٧٤ : ٢ ، والكامل ٥٩ : ٢ ، والسيرة الهشامية ٣٧٥ ، ٣٧٦ : ١ ، والنبوية ٢٧٣ : ١ ، والحلية ٣٧٤ : ١ ، والحديدي ٣٠٧ : ٣ ، والغدير ٣٦٣ : ٧ .

(٢) كذا ذكر مَنْ عرض لهذه الحادثة . والخَبْط — بفتح أوله وثانيه — ورق الشجر . والخبط — بفتح أوله ، وضَّه — جمع خَبْطَةٍ — بفتح أوله ، وسكون ثانيه — البقية من الماء واللبن ، والشيء القليل . والخبطة : الجرعة من الماء ، والبعض من الشيء ، والقطعة منه .

يا التضحية الفذة : ، يسجلها التاريخ بيد الإعجاب ، بحروف مشرق
السنى ، تبقى مثلاً خالدًا للفداء ، والتضحية ، والحب والفناء ، والإيمان
والعقيدة!

* *

يصم المغرضون دفاع أبي طالب وجهاده ، فينسبون ذلك ، إلى : أنه لا
يقف ، إلا لحمية النسب

فهل القرابة ، بينه وبين محمد - ابن أخيه - أوشج منها ، بينه وبين
علي - ابنه ؟! فما له يضحى بهذا ، فداءً لذلك ؟! ..

وفاتهم - إلى ذلك - أن حمية الدين ، أقوى من حمية النسب ! فلولاً
حمية إيمانه بنبوّة ابن أخيه ، لما حماه للقربى ، وفداه بأمنّ الناس إليه ! ..
ولكانت حمية دينه - البريء منه ، والذي ينسبه إليه المفترون - تفرض
عليه : أن يسحق هذه القربى ، ويقطع جبل النسب ! ..

ولهذه الحمية ذاتها ، وقف أبو لهب ومنّ إليه ، موقفهم ذاك ، وهم
كأبي طالب : منزلة وقربى ، ومساس رحم ، بمحمد الرسول ! ..

وليس أدلّ ، من أن حمية الدين ، لا تعترف بحمية القربى ، إن كان
بينهما خصام ، من أن بعض المسلمين ، قد أراد أن يورد آباه - أو ابنه -
حياض الموت ، لما كان لشركه ذلك العنيد ، وللإسلام ذلك العدو
الجحود ! .. (١) .

* *

ونعود للطرف الأخير ، ممّا وصلنا إليه :

(١) سوف ندلّ على هذه الناحية ، بعرض ما يدعيه - من صفحات
التاريخ - في فصل مقبل .

لقد مرّت ليلةً ، وقد أخذ أبو طالب ، بيد ابنه عليّ ، لنام ابن أخيه ، قال
فيها عليّ :

« يا أبتِ ! إني مقتولٌ ! » .

وإذا بأبي طالب ، يدعو ابنه للصبر ، وأن لا يرهب الموت — وهو غاية
الحياة ، ومصير الوجود . فما الحياة غير طريقٍ للموت ، يقطعه هذا الشبح ،
المدعو بـ « الإنسان » ...

وإنه قد بذله لهذا الفداء ، وقدّمه ضحيةً ، لهذا الحبيب ، الأثير لديه :

اصبرُنْ يا بني ! — فالصبرُ أحجى كلُّ حيٍّ مصيرةً لشعوبٍ ...
قدْ بذلناكَ — والبلاءُ شديدٌ — لفداءِ الحبيب ، وابنِ الحبيب ...
لفداءِ الأغرّ ، ذِي الحسبِ الثاقبِ — والباعِ ، والكريمِ النجيبِ
إنْ تصبكَ المنونُ ، فالنبلُ تبرى فمصيبتُ منها ، وغيرُ مصيبٍ (١)
كلُّ حيٍّ — وإنْ تملئْ بعمرٍ — آخذٌ مِنْ مذاقِها بنصيبٍ !

وأجابه ابنه عليّ ، وهو الشجاع المغوار ، الذي لم يرهب الموت ، في لحظةٍ
مِنْ حياته ، ولا يخشى الألم ، وبه انصهرت حياته ، ويغتبط بفداء رسول الله
(ص) ، وقد أوقف على ذلك حياته :

أتأمرُنِي بالصبرِ في نصرِ أحمدٍ ؟ ووالله ما قلتُ الذي قلتُ جازعاً !
ولكننِي أحبُّ أنْ تَرى نصرَتِي وتعلمُ أنِّي لمْ أزلْ لكَ طائعاً !
سأسعى لوجهِ اللهِ في نصرِ أحمدٍ نبيِّ الهدى المحمودِ ، طفلاً وياقناً (٢)

* *

(١) تبرى ، في روايةٍ تترى ، وأخرى : يرمى .

(٢) ارجع للحادثة والشعر ، لكلٍّ مِنْ : النهج الحديدي ٣١٠ : ٣ ، وفيه
تحريفٌ مطبعيٌّ « بالطبع » في البيت الثاني والثالث مِنْ شعر أبي طالب ←

صار أبو طالب - مدة الحصار في « الشعب » كل ما ثارت به كوامن
 الألم ، ورواسب المرارة ، فثث شعوره ، في شعير ملتهب القوافي :
 ألا أبلغاً عني - على ذات بينهما - لويثاً - وخضاً من لويث بني كعب -
 ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى - خط في أول الكتب (١)
 وأن عليه في العباد محبة ولا حيف فيمن خصه الله بالحب (٢)
 وأن الذي رقتكم في كتابكم يكون لكم - يوماً - كراغية السغير
 أفيقوا ! أفيقوا ! قبل أن تحفر الزبى

ويصبح من لم يجز ذنباً كذبي ذنب (٣)

ولا تتبعوا أمر الغواقر ، وتقطعوا أواصرنا ، بعد المودة والقرب
 وتستحلبوا حرباً عواناً ... وربما أمر على من ذاقه حلب الحرب
 قلنا - ربيت الله - نسلم أحداً لعزاء من عض الزمان ، ولا كرب
 ولما تبنا منا ومنكم سوانف وأيد أترت بالمهتدة الشهب
 بمعترك ضنك ، ترى كسر القنا ، والضباع العرج تعكف كالشراب
 كأن مجال الخيل في حراته ومعمعة الأبطال ، معركة الحرب

وللمناقب ٣٧ : ١ ، والحجة ٧٠ ، والغدير ٣٥٨ ، ٧ ، وأعيان الشيعة ١٢ : ٣٩ ،
 وذكرت الحادثة - وحدها - في السيرة النبوية ٢٧٦ : ١ ، والخطبة ٣٨ : ١ ،
 وأبو طالب ٧٣ ، ٧٤ . وذكرت أبيات أبي طالب في ديوانه ص ٩ .
 (١) ذكر - من القصيدة - هذا البيت ، والبيت الثاني عشر ، في مجمع
 البيان ٣٦ : ٧

(٢) الشطر الأخير - عند « ابن هشام » : [ولا خير ممن] - الخ -
 وقد تأول له الشارح تأويلين ، لحمل معناه على الوجه الصحيح . وفي هذه
 الرواية منجاة من التأويل .

(٣) يروي : « الثرى » ، بدل « الزبى » .

أليس أبونا هاشمٌ شدةً أزره وأوصى بنيه ، بالطعان ، وبالضرب
ولسنا نملء الحرب ، حتى تملئنا ولا نستكي مساً ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفائظ والنهي إذا طار أرواح الكماة من الرعب^(١)
ويكفينا ، من القصيدة ، أبياتها الأولى ، لتنهض : دليلاً نابضاً ، وبرهاناً
دامغاً ، على إيمان قائلها ، فهو يرى محمداً نبياً ، كما كان — من قبله — موسى
الكليم ، وقد خطت نبوته ، وبشرت بها ، كتب السماء التي سبقتة .
وكما تنهض دليل إيمانه ، فإنها لتنهض — مرةً أخرى — كدليلٍ مكرور
— أيضاً — على معرفة أبي طالب بالأديان السماوية ، وإيمانه بأنبياء الله ،
ورسله ، وكتبه . فلم يكن — في يومٍ مآ — ذلك المشرك ، وهو البعيد الجذور ،
في الإيمان الثابت ، والمبدئ الرسيخ الوطيد ...

وندع ما تحمله القصيدة — في أبياتها — من الجوانب الأخرى الرفيعة ، التي
سيجتلها القارئ الكريم ...

ولعل من الخير أن تأتي بهذه القطعة ، من إحدى فصائده — ولعلها ماقاله
في « الشعب » ونحن نقصر منها ، على هذه الأبيات ، التي تنضح بالإيمان ،
وتجلو عن رائع المعتقد ، اليقين :

ألم تعلموا أن القطيعة مائتٌ وأمرٌ بلاءٌ قاتمٌ ، غير حازم ؟
وأن سبيل الرشدر ، يعلم في غدٍ ؟ وأن نعيم الدهر ، ليس بدائم !

(١) النهج الحديدي ٣١٣ : ٣ ، والسيرة الهشامية — مع اختلاف في بضع
كلمات — ٣٧٧ — ٣٧٩ : ١ والصحة — بدون البيتين الأخيرين — ٣٩ ، ٤٠ ،
وأسندها شارحه لعدة مصادر . وهاشم وأمية ١٧٢ ، ١٧٣ وذكر منها — في
إيمان أبي طالب ١٥ — الثلاثة الأولى . وذكرت أبياتٌ منها في المناقب ٣٦ : ٤١ ،
وذكرت في شيخ الأبطح ٣٥ ، ٣٦ ، والغدير ٣٣٢ ، ٣٣٣ : ٧ ، مسندة لمصادرهما ،
والأعيان ١٤٠ ، ١٤١ : ٣٩ .

فَلَا تَسْفَهَنَّ أَحْلَامَكُمْ فِي مُحَسَّدٍ وَلَا تَتَّبِعُوا أَمْرَ الْغَوَاةِ الْأَشَائِمِ !
تَسْتَيْتُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُ ... ؟ وَإِنَّمَا أَمَانِيَّتُكُمْ هَذِي ! - كَأَحْلَامِ نَائِمٍ !
وَأَنْتُمْ - وَاللَّهِ ! - لَا تَقْتُلُونَهُ وَلَمَّا تَرَوْا قُطْفَ اللَّحَى وَالْغَلَّاصِمِ (١)

* *

زَعَمْتُمْ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ مُحَسَّدًا ... وَلَمَّا تُقَاذِفْ دُونَهُ وَتُزَاحِمِ ؟
مِنَ الْقَوْمِ مَفْضَالٍ ، أَبِيُّ عَلَى الْعِدَى تَسْكُنُ فِي الْفَرَعَيْنِ ، مِنْ آلِ هَاشِمِ
أَمِينٌ ، حَيْبٌ ، فِي الْعِبَادِ مَسُومٌ بِخَاتَمِ رَبِّهِ ، قَاهِرٌ ، فِي الْخَوَاتِمِ
يَرَى النَّاسَ بَرَهَانًا عَلَيْهِ ، وَهَيْبَةً - وَمَا جَاهِلٌ فِي قَوْمِهِ ، مِثْلُ عَالَمِ
نَبِيِّ ، أَنَاهُ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ وَمَنْ قَالَ : لَا ... يَقْرَعُ بِهَا سَنَ نَادِمِ (٢)

نعمي على قريش قطيعتها ، التي تجلب لها المآثم ، فتبوء بالخزي ، والبلاء
المقيم ... ثم حذرنا مغبة عملها ، وما سوف تجنيه من شر شرجي ...
فسبيل الرشده ، لاجبة معاله ، سوف تعرف ثماره في يوم الحساب ، يوم
تقدم كل نفس على ما قدمت ... أمّا نعيم الدنيا ، فهو على وشك القضاء
والتلاشي . وإنه لصائر إلى هذه النهاية ، مهما امتد به العمر ، ولن يكفل له
الخلود والبقاء ، إنه لإلى زوال محتوم يسعى إليه ، مهما طال الطريق ،
أو قصر .

(١) يروي « الجماجم » - وقد ذكر الاميني - بعد هذا - بيتين ، لم
نذكرهما .

(٢) ذكر هذه القطعة - عدا البيتين الأولين - الحديدي في شرحه
٣١٣ : ٣ . وذكرت في : الحجة ٤٣ ، ٤٤ ، وشيخ الأبطح ٣٨ ، ٣٩ ، وهاشم وأمية
١٧٣ ، والغدير ٣٣١ ، ٣٣٢ : ٧ . وذكرت خمسة منها في إيمان أبي طالب ١٤ .
وذكرت الثلاثة الأخيرة - كشاهد - في العباس ٢٢ ، والأعيان ١٤١ ، ١٤٢ :
٣٩ عدا البيتين الأولين .

فعلينهم أن يقلعوا عن سفهم في الرسول ، فلا يسدرون في الغي ، يتبعون هؤلاء الغواة الآثمين ...

وبعد أن أعلن عن موقفه - وهم له عارفون - وأنه لن يسلم إليهم محمداً ، حتى تطاح رؤوس ، وتسيل دماء ، وتبعثر مجزرة ، من الأناسين ...

وبعد أن راح يذكر مآتي ابن أخيه ، ومحامده ... أعلن عن رأيه « الذاتي » فيه ، وفي ما جاء به ... فهو : نبي مرسل ينزل عليه الوحي من ربه ، فيصدع بأمره ، ويؤدي رسالته .

أما من كان لديه - في ذلك - شك ، وخالجه ريب ، وقال : « لا ... » فإنه سيقرع بها سنم الندم يوم يعض الظالم على أصابعه - ولات حين مندم !. فهل بعد هذا إقرار ؟ ... وهل غير هذا ... الإيمان ، والتسليم ، والاعتراف ؟ ... !

ونعود فنقول : هل من فرق بين : من يقول : « محمد رسول الله » ، أو ، « محمد نبي يأتيه الوحي من ربه » ، أو ما شابه هذه الكلمة ، في ما تحمله من معناها ؟ ... ويقال لذلك : مؤمن ، وهذا : مشرك ؟ !!

اللهم ! الا انه الجهل ، والضلال ، والاغراض السود ... !

* *

ومن شعره في « الشعب » : هذه الأبيات ، التي نعى فيها على قريش : قطيعتها ، وقطعها جبل المودة ، وعرى الإلفة ، وتفريقها الجماعة ، لغاياتها السافلة وشهواتها الحمقاء :

جزئ الله عنا عبد شمس ، ونوفلاً ، وتيماً ، ومخزوماً : عقوقاً ومائماً !
بتفريقهم - من بعد ودي وإلفة - جماعتاً ... كي ما ينالوا المحارماً ...

كذبتم - وبيت الله! - نبزي محمداً ولما تروا يوماً لدى الشعب إقامتها (١)



دار الزمن ، عدة دورات ، والنبي وحاميه ، والمطليون والهاشميون ، في الشعب ، يلاقون الأمرين ، ويتجرعون صاب الألم ، وينالون أنماط الأذى ، وألوان العذاب ، ومرارة الحرمان ... وأبو طالب ، ينفث بحمم من شعره ، كل ما هاج - في باطنه - الألم ، وعلى رجل الحمية ، وثارت رواسب النفس ، وألما الكمين .

ومضى على هذه الحياة الرتيبة عامان - في قول - أو ثلاثة - في قول آخر ... فكان يوم ، أوحى الله فيه إلى الرسول العظيم (ص) ، بما سلط على الصحيفة الظلمة الجائرة ... فقد أكلت « الأرضة » (٢) جميع ما تحمله الصحيفة ، من الظلم والقطيعة ، ولم تبقر على شيء منها ، سوى اسم الله .

وألقى الرسول ، بهذا النبأ المشرق الحواشي ، إلى عمه ، فمرت فرحة في جسمه ، وبأن الأطمئنان في وجهه ، ونام القلق والألم ، وقد كانت لهما ثورة في باطنه ، وسأل ابن أخيه ، سؤال من يريد المزيد من الطمأنينة :

(١) معجم البلدان ٢٧٠ : ٥ [٣٤٧ : ٣] ، والسيرة الهاشمية ١١ : ٢ ، وذكر البيت الأول ، على أنه مستهل قصيدة لأبي طالب ، في السيرة النبوية ٢٧٣ : ١ ، والحلية ٣٧٥ : ١ .

وقد ذكرنا - في الفصل السابق - البيت الثالث ، من هذه الأبيات ، في قطعة ، نقلناها من مصادرها ، التي تقول : إن أبا طالب ، قالها في دعوة أبي لهب ، لنصرة الرسول (ص) .

(٢) الأرضة - محرقة - دويبة تأكل الخشب ، وجمعها أرض - بالفتح أيضاً .

« يا ابن أخي ! أربك أخبرك بهذه ٤٠٠٠ »
ولما كان جواب الرسول إيجابيًا ، أردف شيخ الأبطح :
« والثواقب ما كذبتني قط ! » .

فخرج أبو طالب - من الشعب - تحيط به بضعة من بني هاشم والمطلب ،
حتى أتوا إلى المسجد الحرام . فلما رأتهم قريش ، ساورها الظن بأنهم جاءوا
ليسلموا إليها محمداً ، تحت شدة الوطأة ، وزحمة الحصار ...

وهنا ... هتف أبو طالب ، بمن رأى من قريش ، بتسوت الرابط الجاش :
« يا معشر قريش ! جرت بيننا وبينكم أمور ، لم تذكر في صحيفتكم ،
فاتوا بها ، لعله أن يكون بيننا وبينكم صلح » .

وهو قد سلك هذا المنهج من القول - كما يقول التاريخ - ليعمي على
هؤلاء ، فلا يباهمهم بالنتيجة ، فيفتحون الصحيفة ، قبل أن يؤتى بها ، فتضيع
الفائدة .

وإذ جاءوا بها ، لم يكن يساورهم شك ، ولا يخالجهم ريب ، في أن
مخالبتهم ، قد نشبت في فريستهم ، التي نصبوا لاصطيادها شتى الأحاييل ،
ومختلف الشباك . فها هوذا أبو طالب ، قد جاءهم - بعد الجهد المضني -
يسلم لهم محمداً ، لينالوا منه ما يشاءون ، ويقضوا فيه ما هم عليه عازمون .
ولكنهم فوجئوا بقوله :

« قد آن لكم أن ترجعوا ، عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم ! » .

قال هذا ، بعد أن جاءوا بالصحيفة - أو المعاهدة - فوضعوها بينهم ،
وقبل أن تفتح ، أخذ أبو طالب في البيان ، بلهجة المطئن ، الوطيد الإيمان ،
العارف بالنتيجة ، دون أن تناله زعزعة أو خوف . فهو يقرأ المستقبل ،
وينظر إليه بعين ، تخترق حجب الكثيفة ، فيقرأ ما بين سطور هذه الصحيفة
التي بين يديه ، فلا يجد فيها غير ما قاله له ، ذاك الذي لم يكذبه قط ،

فيأخذ في القول :

« أُتيتكم في أمرٍ ، هو نصف بيننا وبينكم ... إن ابن أخي أخبرني ، ولم يكذبني قط : أن الله قد بعث على صحيقتكم دابةً ، فلم تترك فيها ، إلا اسم الله فقط ، فإن كان كما يقول ، فأفيقوا عما أتم عليه ، فوالله لا نُسلمه ، حتى نموت من عند آخرنا . وإن كان باطلاً ، دفعناه إليكم ، فقتلتهم ، أو استحييتهم !... »

وإذ رضوا بذلك ... فتحوا الصحيفة ، فكانت تطالعهم بما أخبرهم به ، تدمعهم بالبرهان ، وتؤنبهم ، وتخزهم في السوידاء وتسمهم بميسم العار ... ولكنهم أصرُّوا على البغي والعناد ، قائلين :

— هذا سحر ابن أخيك ... :

فنادى فيهم أبو طالب ، وقد كسب الموقف ، وصدق في المقال ، فكان له طاقة في القوة والإدلال :

— على مَ نحصر ، وقد بان الأمر ، وتبين أنكم أولى بالظلم والقطيعة ؟! .
وحينذاك ... قام هو ومن معه ، فأخذ بأستار الكعبة ، يسأل الله أن يمدَّهم بنصره ، وبسيرة المظلوم صاح :

— اللهم انصرنا على من ظلمنا ، وقطع أرحامنا ، واستحلَّ ما يحرم عليه منا ... !

وعند ذاك ... كانت قد مشت طائفة من قريش ، وقد رأت ظلمها الفظيع وجورها القاسي ، وعنادها البغيض ...

مشت في نقض الصحيفة ، فكان ذلك ... وُرفِع عن هؤلاء الحصار ، وعادت لهم الحياة ، في مجراها الطبيعي ، بعد عامين ، أو ثلاثة — كابدوا

فيها الألم والجوع والعري ١٠٠٠ (١)



وإننا لنجد في كل كلمةٍ ، من كلمات أبي طالب - هنا - صوراً زاهيةً
الألوان ، بارزةً التقاطيع ، صارخةً بما تحمله من الإيمان العميق ، والإطمئنان
الراسخ . يخبره الرسول ، عما فعلته الأَرْضُ بصحيفة قريش الظالمة ، فيسأله
عن علمه هذا ، فهل أوحى إليه ربه بذلك ١٠٠٠ ؟

وما كان سؤاله عن أصل علمه ، إلا ليكون إيمانه إيمان الباحث الخبير ،
والمنقّب الحاذق ، لا إيمان المستسلم الغر ١٠٠٠ وهو من نوع الإيمان ، الذي
ذكره الله ، في القرآن العظيم :

« أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَىٰ ! وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي » (٢)

لذلك لم يكسر الرسول (ص) يُنهي لعمّة الجواب ، وإذا به
يجيب جواب المطمئن المصدّق ، فهو الذي لم يأخذ عليه قولة ، تنحرف عن
مسلك الصدق ، ومهيح اليقين ١٠٠٠

وبهذا الإيمان المكين ، والاطمئنان الثابت ، اندفع أبو طالب لقريش ،
يتحدّاهم ، ويباهلهم بثبات واطمئنانٍ ويقينٍ ، لا يعتوره الشك ، ولا
يخالجه الريب ١٠٠٠

وإلا لولا هذا ١٠٠٠ فهل كان يجزم أبو طالب أن يدع لهم الخيار ، بين
(١) السيرة النبوية ٢٧٦ ، ٢٧٧ : ١ ، والحلية ٣٨١ ، ٣٨٢ : ١ ، والهشامية
١٦ : ٢ ، والكامل لابن الأثير ٧١ : ٢ ، والحجة ٤١ ، والغدير ٣٦٤ : ٧ ، وذكر
الجانب المهم منها في البحار ٤٢٥ و ٥٢٣ : ٦ ، وعلى هامش السيرة ٩٧ : ٣ ،
وأعيان الشيعة ١٣٠ - ١٣٢ : ٣٩ .

(٢) البقرة ٢٦٠ .

اثنتين، إن كان صادقاً، وفيما أخبره ابن أخيه، فهو له كما كان، وإن يكن كاذباً، فعليه أن يسلمه إليهم، يفعلون به ما يشاءون؟؟؟!

وهل بعد هذا إيمان، ومعتقد صلب؟؟؟

ثم إنه بعد أن ركز بين اثنتين... وبأن له صدق ما قال ابن أخيه، ووجده صادقاً في كل قوله - ولم يكن قد جرب فيه غير المقال الصادق...

ثم إنه بعد هذا... لو فرضنا - ونستغفر الله! - عدم إيمانه من قبل، وتركنا كل ما يدل على ذلك، وتركنا مقدمات مقاله: «أربك أخبرك بهذا...» و«ما كذبتني قط».

لو تركنا كل ذلك... فهل يصدر لعقل، وقد شاهد صدق مقال إنسان، في خبر بالغيب، عن الله تعالى أن لا يؤمن، ولا يتبع دعوة هذا الصادق في القول، الشريف في العمل...؟

ولكننا - في الواقع - نلمس الإيمان العميق، في كل كلمة، قالها أبو طالب، ونرى في هذه الحادثة أبرز برهان، وأثبت دليل عليه، ولا سيما بعد أن دفعه الإطمئنان والإيمان، على «المباهلة» - وهي غاية الإيمان...!

فليس يجزم على ذلك شيخ الأبطح، لو لم يكن بالنتيجة على علم ويقين، لا يتطرق إليه الشك، ولا يساوره الخوف...

فإن كان ابن أخيه صادقاً، فهو - كما يعلم - رسول الله، فتجب عليه النصرة والفداء، حتى آخر أنفاس حياته.

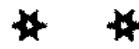
وإن كان كاذباً - وهذا ما لا يكون - فهو مسلمه إليهم، بعد أن كذب على الله، وليس جزاء المفترى على الله، إلا القتل، وخنق الحياة فيه.

ولو لم تكن نصرته للدين وحده، والرسالة ليس إلا... لما دعاهم لهذه «المباهلة»، ما دامت نصرته للرحم فحسب - كما يقول المفرضون - فهو لن

ينسلخ من لحمه ، إن كان كاذب المقال ... ولن يزداد منه مساس رحم ، إن كان صادق القول ...

ولكن ... لما كانت نصرته للرسالة ، ولرب السماء فإن للكذب والصدق أمس العلاقات بموقفه ...

لذلك ... ركز لهم بين الإثنتين ، وهو العارف بما جلت به الأيام ، وسيتمخض به المستقبل !...



وإذ خرجوا من «الشَّعْب» ورفع عنهم نطاق الحصار المضروب ، فإن أبا طالب لا تقوته هذه المناسبة — وقد كان الظفر فيها من نصيبهم ، حيث أسفر الحق فيها عن وجهه ، وبأن مقدار صدقهم ، وظلم الجانب الآخر لهم ... لا تقوته أن يتناولها بالذكر من شعره ، وهي مادة ثرة ، وأرض خصبة ، تأتي بالثمر النضيج ، والزهر الفتواح :

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة متى يخبر غائب القوم يعجب
محا الله منها — كفرهم وعقوقهم وما تقموا من ناطق الحق معرب !
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً ومن يخلق ما ليس بالحق يكذب^(١)

(١) قال ابن الأثير — في كامله ٦١ ، ٦٢ : ٢ — ما نصه : [وقال أبو طالب في أمر الصحيفة ، واكل الأرض ما فيها من ظلم ، وقطيعة رحم ، أبياتاً منها] — وذكر هذه الثلاثة .

وذكر صاحب الحجة ٤٥٤ ، ٤٦٤ ، في ١٢ بيتاً ، قبل هذه الثلاثة بيتان ، وبعدها :
(فأمسى ابن عبد الله فينا مصدقاً على سخط من قومنا ، غير معتبر الخ)
وذكرت منها ثمانية أبيات في البحار ٥٢٣ : ٦ ، والأعيان ١٤٦ : ٣٩ و ٧
أبيات في إيمان أبي طالب ١٥ ، ١٦ ، وقسمها الأخير في المناقب ٣٧ : ١ ، والثلاثة ←

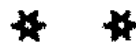
وهذه الأبيات الثلاثة — مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ — خطوطٌ مُتَّصَةٌ لِلصُّورَةِ ، التي تناولناها ببعضٍ مِنْ العرض ، في الصفحات التي سلفت ...

فهو — هنا — يعتبر ما جرى على الصحيفة : عِبْرَةٌ ، وَنُذْرًا إِلَهِيًا ، تبث في النفوس العجب ، وتدعوهم للإيمان بالدعوة ، والكفَّ عن الظلم والعدوان ، والكفر والعقوق ... بل وتفرض عليهم الإيمان ، إذا تجردوا مِنْ العصيَّة الهوجاء .

ونجد في البيت الثاني — كيف ينسب محو الكفر والعقوق لله — وهو ما يدعو للعبرة ، ويبعث العجب ، ويستثير الخوف والرثاء ...

وهو يقول : إِنْ مَا تَقْصُوهُ ، مِنْ نَاطِقِ الْحَقِّ ، وَظَاهِرِ الْيَقِينِ ، الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، لَنْ يَسْتَرَّ ، فَهُوَ : مَعْرُبٌ — أَي : ظَاهِرٌ ، مِنْ أَعْرَبِ الشَّيْءِ : أَبَانُهُ .

وَلَمَّا كَانُوا لَمْ يَنْقُمُوا سِوَى الْحَقِّ ، فَإِنْ كُلُّ مَا أُتُوا بِهِ بَاطِلٌ — وَمَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ — وَمِنْ يَخْتَلِقُ الْبَاطِلَ ، وَيَجَافِرُ الْحَقَّ ، فَإِنَّهُ — لَا مُحَالَةَ — كَاذِبٌ ، وَسَوْفَ يَفْضَحُ ، وَتَعْرِفُ اسْوَدَادَ طَوَيْتِهِ ، وَسُوءَ دَخْلَتِهِ ...



وله — في الموضوع قَصِيدَةٌ ، غير هذه ، ذكر فيها ، صنع الله بالصحيفة ؛ ثم ذكر فيها ماضيهم التليد ، وحاضرهم المشرق ، بهذا الرسول العظيم (ص) . ونحن نجتزئُ مِنْهَا بِأَبْيَاتٍ ، قد لا تكون منسَّقةً في ترتيبها الأصيل :
أَلَا هَلْ أَتَى الْبَحْرِيَّاءُ صَنَعُ رَبِّنَا عَلَى نَائِيهِمْ ؟ وَاللَّهُ بِالنَّاسِ أَرْوَدُ (١)

→ فقط في الغدير ٣٦٧ : ٧ . وذكر البيتان الأولان والبيت الذي في الهامش :
[فأمسى ...] في مجمع البيان ٣٧ : ٧ .
(١) البحري : نسبة للبحر . ويراد به — هنا — مهاجرو المسلمين للحبشة . الأروود : ليِّن المعاملة .

فِيخْبِرُهُمْ أَنَّ الصَّحِيفَةَ مُزَيَّغَةٌ
تَرَاوَحَهَا ، إِفْكٌ وَسِحْرٌ مَجْمَعٌ
تَدَاعَى لَهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِقَرَقِرٍ

★

فَسَنُ يَنْشُرُ مِنْ حَضَارِ مَكَّةَ عِزَّهُ
نَشْأَانَا بِهَا ، وَالنَّاسُ فِيهَا قَلَائِلُ
وَنُطْعِمُ ، حَتَّى يَتْرَكَ النَّاسُ فَضْلَهُمْ

★

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ نَفْسًا وَوَالِدًا
نَبِيُّ الْإِلَهِ ، وَالكَرِيمُ بِأَصْلِهِ
جَرِيٌّ عَلَى جُلَى الْخَطُوبِ كَأَنَّهُ
مِنَ الْأَكْرَمِينَ ، مِنْ لُؤْيٍ بْنِ غَالِبٍ

وَأَنَّ كُلَّ مَا لَمْ يَرْضَهُ اللَّهُ مُفْسَدٌ
وَلَمْ يَلَفْ سِحْرٌ - آخِرُ الدَّهْرِ - يَصْعَدُ
فَطَائِرُهَا - فِي رَأْسِهَا - يَتَرَدَّدُ (١)

★

فَعَزَّتْنَا فِي بَطْنِ مَكَّةَ أَتْلَدُ (٢)
فَلَمْ تَنْفَكْ ، نَزْدَادُ خَيْرًا ، وَنُحْمَدُ
إِذَا جَعَلْتَ أَيْدِي الْمَفِضِينَ تَرَعْدُ (٣)

★

- إِذَا عَدَّ سَادَاتُ الْبَرِيَّةِ - أَحْمَدُ
وَأَخْلَاقِهِ ، وَهُوَ الرَّشِيدُ الْمُؤَيَّدُ
شِهَابٌ ، بِكَفِّي قَابَسٍ يَتَوَقَّدُ
إِذَا سِيمَ خَسْفًا ، وَجْهُهُ يَتَرَبَّدُ (٤)

(١) القرقر : اللين السهل ؟ الضحك بترجيعٍ وعلوٍ واستغرابٍ .
فيجوز أن يكون المراد : ليس بذليلٍ - على معنى الكلمة الأولى - أو ليس
بهازلٍ ، ضدَّ الجاد - على المعنى الثاني - ويراد مِنْ « الطائر » - هنا -
الحظ مِنْ الشرِّ والشؤمِ ، وقد جاء في القرآن الكريم : « وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ
طَائِرَةً فِي عُنُقِهِ » - الإسراء : ١٣ .

(٢) ينشُرُ : ينشأ ، فحذف منها الهزة . التلید : القديم . والأتلد :
الأقدم .

(٣) عَلَّقَ الْأَمِينِيُّ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ بِقَوْلِهِ : [الْمَفِضِينَ : الضاربون بقداح
الميسر . يريد سلام الله عليه : أنهم يطعمون ، إِذَا بَخِلَ النَّاسُ] .
(٤) سام : كلف . سامه خسفاً : أذله . ترَبَّدَ اللون : تَغَيَّرَ . وهو
يريد : أنه ليس يرضى الذل .

طويل النجاد ، خارج نصف ساقه
عظيم الرماد ... سيد وابن سيد
على وجهه يسقى الغمام ويسعد (١)
يحض على مرقى الضيوف ويحشد (٢)
إذا نحن طفنا في البلاد ويمهد (٣) الخ

هل رأيت : بساذا يطري أبو طالب ابن أخيه ؟ وفي أي منزلة ، يراه فيها ،
بين الناس ... ؟

فهو : خيرهم « ذاتاً ونسباً » وله القيمة الفضلى ، والرجحان في
ميزان القيم ، إذا قيس بساتات الإنسانية ، ورجالها ...

وهو — إلى ذلك — « نبي الإله » العظيم ، و « الكريم بأصله » ومحتده ،
و « أخلاقه » ، ومآتيه ... وهو « الرشيد المؤيد » ، بنصر الله العظيم ...
وهو « الجريء » الشديد ، الذي لا يهين ولا يستكين ، ولا تلين قناته ، لشديد
الخطب ، وهول النازلة ...

فهو « كالشهاب » ، الذي لا تنطفئ منه اللهب ، ولا يتلاشى منه الشعاع ،
في العواصف المعربرة ، والأعاصير المجتاحة ، ينير سبل الطريق ، ويدل
السراة ، إلى حيث المهيح الأبلج ، والمنهج الأقوم ...

(١) النجاد : حمائل السيف . وطويل النجاد . كناية عن طول القامة .
(٢) عظيم الرماد : تعبير رمزي ، يراد منه الرجل المضياف ، ذو الجود
الفياض ، واليد النديانة ، وعبر عنه بذلك ، لكثرة ما يطهي من الطعام ،
لضيوفه . وهذا التعبير دليل يدعم رأياً نرتأيه ، وهو : وجود الأدب الرمزي ،
في أدبنا العربي القديم .

(٣) السيرة الهشامية ١٧ ، ١٩ : ٢ ، وذكرت بعض أبياتها في الاستيعاب
٩٢ : ٢ ، وفي نسب قریش ٤٣١ . وذكرت ، كاملة مسندة ، في الغدير ٣٦٥ ،
٣٦٦ : ٧ وديوان أبي طالب ٦ ، ٧ . وذكرت الثلاثة الأولى في أعيان الشيعة
١٣٤ : ٣٩ .

إلى آخر ما تحمله القصيدة ، مِنْ النعوت والصفات ، التي يذكرها أبو طالب ، مثلاً ابن أخيه ، مِنْ محامد فضلى ، وخصال رفيعة ... مِنْ : إباء ، وكرم ، وخلق ، وشجاعة ، وطيب منبت ، وعمل للصالح العام ، وطسلاقة وجه ، يُستقى به الغمام ...

وهذا المدح والإطراء ، لا يصدر ، مِنْ عمٍّ ، وشيخٍ كبيرٍ ، وزعيمٍ مبجلٍ - لولا الإيمان بالدعوة - في مدح ربيبٍ ، وابن أخٍ ، هو بمنزلة ولده ...

إنه لا يصدر ، إلا مِنْ نصيرٍ للرسالة ، لا نصيرٍ للرحم والقربى ...

لا يصدر إلا مِنْ نصيرٍ للرسول محمد (ص) ، لا مِنْ نصيرٍ لمحمد بن عبدالله ، أخ أبي طالب ! ...

عند الاحتضار

إن تلك الشجرة الفارعة ، التي أظلت الإسلام ، وأقالت نبي الإسلام
عن حرّ الهاجرة ... قد امتدّت لها يد الذبول ، فهضرت منها الأغصان ،
وقطعت عنها نبع الحياة الدافق ، فاصفرت منها الوريقات سراعاً ، وسرت
صفرة الموت في أجزائها جمعاء ...

لقد آن لذلك الشيخ المجهد ، الذي بذل طاقته ، وأفراغ وسعه ، وأدّى
جهده : أن يريح جسمه المتعب ، وروحه المنهوكة ، وأعصابه المكدودة ،
ونفسه الحزينة الضاحكة ... الحزينة ، لما ينال هذا الدّين وأتباعه ، من أذى
هؤلاء السفهاء ... والضاحكة ، لأنه امتدّ به العمر ، فقام بهذه الخدمات
الفضلى ، وقام بالواجب المفروض - ولم يشنر ، ولم يستخذِر - وآمن بالدين ،
الذي بشر به أبوه ، وأوصاه باتباعه ونصرته ، عند الاحتضار ...

لقد آن له - الآن - أن يستلذ بحلاوة ثمر جهوده ، وينال جزاء
عمله الأوفى ...

ولكن أبا طالب - حتى عند الاحتضار - لا ينسى أن يوصي بابن أخيه ،
هذه الهالة التي تحوط به ، من بنيه وأهليه ، فيلقي على عواتقهم المهمة ، التي
قام بها وحده ... وبهذه السواعد المقتولة ، ستقر عينه ، فلن تتخاذل ،
أمام قوى الشرك المظلم ... ستقوم بالمهمة ، وإن كانت ثقيلة المحمل ،
عظيمة الجهد ...

وإن بين هؤلاء ابنه علياً ، المؤمن الأول ، والنصير الأوحى . فلسوف
يتم الرسالة ، التي قام بها أبوه ، وسيضحي بأعلى ما في الحياة ، في سبيل
نصرة رسول السماء ...

✱ ✱

ها هوذا أبو طالب ، يدير عينيه ، وقد أخذت جذوة الحياة منها ، في
الخمود ... ثم ينبر بصوت خاشع ، تجلّله هبة الموت ، وخشوع الشيخوخة
الواهنة ، ليُلقي عليهم هذه الوصية الفذة ، التي شاء أن يشرك فيها وجهاء
قريش - مِن دعى إليه منهم - لعل الله يهدي لدينه من يشاء :

[يا معشر قريش ! أتم صفوة الله من خلقه ، وقلب العرب . فيكم السيد
المطاع ، وفيكم المقدام الشجاع ، الواسع الباع واعلموا :

أنكم لم تتركوا للعرب ، في المآثر ، نصيباً ، إلا أحرزتموه .. ولا شرفاً ،
إلا أدركتموه ... فلكم - بذلك على الناس ، الفضيلة ، ولهم به إليكم
الوسيلة ، والناس لكم حربٌ ، وعلى حربكم إلبٌ ...

واني أوصيكم بتعظيم هذه البنية ^(١) فإن فيها : مرضاة للرب ، وقواماً
للسعاش ، وثباتاً للوطاة ...

صلُّوا أرحامكم ، ولا تقطعوها ؛ فإن صلة الرحم : منسأة في الأجل ،
وزيادة في العدد .

واتركوا البغي والعقوق ؛ ففيهما هلكت القرون ، قبلكم .
أجيبوا الداعي ، واعطوا السائل ؛ فإن فيهما : شرف الحياة والممات .
وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ؛ فإن فيهما : محبة في الخاص ،
ومكرمة في العام .

(١) يعني : الكعبة .

وإني أوصيكم بحسدٍ خيراً فإنه الأمين في قريش، والصدّيق في العرب،
وهو الجامع لكلّ ما أوصيتكم به ... وقد جاءنا بأمرٍ، قيل له الجنان، وأنكره
اللسان، مخافة الشنآن ...

وأيّم الله ! كآني أنظر إلى: صعاليك العرب، واهل الأطراف،
والمستضعفين من الناس، وقد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظّموا أمره ...
فخاض بهم غمرات الموت ... وصارت رؤساء قريش وصناديدها
أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً ... وإذا أعظمهم عليه أحوجهم
إليه !، وأبعدهم منه أحظاهم عنده !، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له
فؤادها، وأعطته قيادها ...

دوّنكم - يا معشر قريش ! - ابن أبيكم ... كونوا له ولاةً، ولحزبه
حياةً ...

والله لا يسلك أحدٌ سبيله، إلّا رشداً، ولا يأخذ أحدٌ بهديه،
إلّا سعداً ...

ولو كان لنفسي مدةٌ، وفي أجلي تأخيرٌ، لكففتُ عنه الهزاهز، ولدافعتُ
عنه الدواهي ... [(١)]



(١) السيرة النبوية ٨٦، ٨٧: ١٠٨٧، والطبقة ٣٩٠، ٣٩١ : ١، وثمرات
الأوراق ١٤، ١٥ : ٢ .

وذكرت - مسنداً لعدة مصادر - في شيخ الأبطح ٣٩ - ٤١، وقد
ذكر : أن في أحد المصادر، زيادة هذه الجملة : [غير أنني أشهد بشهادته،
وأعظم مقالته] . وقد جاءت هذه الجملة - أيضاً - مع كامل الوصية في
أعيان الشيعة ١٦٤، ١٦٥ : ٣٩ .

وذكرت في الغدير، بمصادرها العديدة، ٣٦٧، ٣٦٨ : ٧ . وذكر

يا لروعة الإيمان ، يحوطه جلال المغيب ! .

لو لم يكن لأبي طالب ، غير هذه الوصية من دلائل إيمانه ، السافرة الوجه ، لكانت تفرض علينا هذه الوصية : الاعتقاد بإيمان قائلها ، وتبين لنا عن مذهبه ودينه ، وكل كلمة نقرأها منها ، نجدها : صارخة بالإيمان السافر ، تدل على المعتقد الرسيخ .

إنها قطعة فذة ، من الإيمان ، لا تقبل الشك ولا الريب ، وتجهز على كل فريق ، يرتعش بها لسان المغرضين الأفأكين ، وتفضح سوء دخلتهم ، والتواء طريقهم ، وسود أغراضهم .

راح يوصيهم بوصايا ، لا تصدر إلا عن مؤمن عميق ، له إحاطة بباطن التشريع ، وظاهره ، ومعرفة بأسراره ، وله عين تخترق حجب المستقبل ، وسدمه الكثيفة ، لتنظر ما سيقع ، وتنقل منه صوراً ، جلية التقاطيع . . .

أوصاهم بالكعبة - وهي بيت الله وحرمة - وتعظيمها ، لأنها من شعائر الله . ففي ذلك مرضاة للرب . إذ أن تعظيمها دليل على : أن الإيمان يغمر قلب هذا المعظم ، فيقوم بأداء ما فرضه الله عليه . . . وإنهم - بتعظيم هذه البنية - سيجنون جنى الشر ونضيره . . . فالدين يعطيهم طاقة ، لقوام المعاش ، والثبات أمام الزعازع النكباء ، وتحت الوطأة البهيمية الثقل . . .

ويأمرهم بصلة الأرحام ، لأن فيها : منسأة في الأجل ، وامتداداً في فسحة العمر ، ورقعة الحياة ، وزيادة في العدد . . . وينهاهم عن قطعها - ففيه :

→ بعض منها - حسب حاجة المؤلف - في العباس ٢١ ، وأسندت لبعض مصادرها الوفيرة كما ذكر قسمها الأخير في الإمام علي صوت العدالة ص ٣٦ [٥٩ ، ٦٠ : ١] وفي آخرها زيادة عما ذكرنا ، ما سيأتي :

[إن محمداً هو الصادق الأمين، فأجيبوا دعوته ، واجتمعوا على نصرته، وارموا عدوه من وراء حوزته ، فإنه الشرف الباقي لكم على الدهر] .

ضد ما في صلتها ...

ونجد - بعد ذلك - التشريع الإسلامي ، يطابق ما جاء على لسان نصير الرسول (ص) : - فيحضر على صلة الرحم ، « ولو بالسلام » ، ويعلل ذلك بمثل هذا التعليل ...

وينهاهم عن البغي والعقوق ؛ فهما : معولا هدم في المجتمع ، يأتيان على قيم الانسانية ، ويمحوان منها الأثر ، ولهم العبرة في من ملك - قبلهم - من القرون الكثر ...

وأمرهم بإجابة دعوة الداعي ، وإعطاء السائل ؛ فهما يضمنان لهم شرف الحياتين : الدنيا ، والآخرة ... ففي الأولي : الإسم الباقي ، والذكر العطر ، والثناء الخالد ، والقدوة الفضلى . وفي الأخرى : الجزاء الأوفى ، والكفنة الراجحة في ميزان الأعمال ...

وأمرهم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة فهما ميزتان إنسانيتان ، وصفتان خيرتان ... بهما تكمل خصائص الإنسان ومزاياه ؛ فهما دليلان على رفعة النفس ، وارتفاعها عن وهدة الانحطاط والدناءة ، وعلى طهارة الضمير ، فخلجة الحياة فيه دافقة ، ونبعها ثرٌ رويٌ ...

وكل هذه قوانين إنسانية ، وفروض إسلامية ، جاء بها دين الله ، الذي اختار لأدائه ابن أخيه وربيّه ... فهو دليل على : أن أبا طالب قد استقى من نبع هذه التعاليم ، واتتهج هذه القوانين ، على أنها دين الله ...

وقد شاء أن يوصي بها وجهاء قريش - وهم يحوطون به ، في لحظاته الأخيرة ، من الحياة - ليكون إيمانهم ، خطوة أولى ، للتصديق بمحمد (ص) ؛ فهذه هي التعاليم ، التي جاء بها ... وهي - كما رأوا - تعاليم إنسانية ، وقوانين رفيعة ، لا ينالها النقد ...

لذلك ... لم يكذب عند هذا الحد - وقد شاء أن يقف عنده ...

لم يكذب يضل عند هذا الحد ، مِنْ عرضه للتعاليم الإسلامية ، حتى أخذت وصيته منهجاً آخر ، غير الأول ، فقصر وصيته بمحمد بن أخيه ، « الجامع لكل ما أوصاهم به » ، والحامل للرسالة العظمى ، والتي هذه من أهدافها .



وهنا في هذه السطور — النقطة الحساسة ، مِنْ إيمانه السافر الصريح... فهو يقول : إن محمداً هو الأمين في قريش — وليس الأمين « بالطبع » مَنْ يخون الله — وهو الصديق في العرب — وليس الصديق ، بالذي يقول الكذب على الله ... وإن اعترافه له بالصدق والأمانة : اعتراف له بالنبوة والرسالة ... (١)

ومحمداً — إلى هذا كله — هو الجامع لكل الخصائص ، التي أوصاهم بها ، وحضهم على انتهاجها ، فهو المعظم لبيت الله ، والوصول للرحم ، التارك

(١) هذه نتيجة حتمية ، لأنه شهد لمحمد بالصدق والأمانة المطلقتين ، وما دام هذا الصادق الأمين ، يقول : « إنه رسول الله لخلقه » ، فإن هذا الشاهد له بالأمانة والصدق ، مصدق له في ما يقول ، تصديقاً مطلقاً ...

ومن هنا ... نرى أن المشركين ، الذين لم يؤمنوا لمحمد بالرسالة ، والذين كانوا — سابقاً — يصفونه بهاتين الصفتين ، توقفوا عن ذلك ، منذ صدع بالرسالة ، وراحوا يصفونه بضدّهما . فهو — لديهم ، انهم الله — ساحر وكذاب ، لأنهم لو لم يسلبوه ما كانوا يصفون عليه — سابقاً — لكانوا ، بذلك وحده ، معترفين له بالرسالة . فإن كذبوه فيها ، كذبوا أنفسهم ، وهم يروونه الصادق الأمين . لذلك ... لو لم يكن لأبي طالب ، سوى اعترافه بصدق وأمانة ابن أخيه — بعد صدوعه بالرسالة — لكان هذا كافياً ، للدلالة على إيمان ابن عبد المطلب !

العرب

للبغي والعقوق ، المجيب لدعوة الداعي ، والمعطاء للسائل ، الصدّيق في العرب
والأمين في قريش...»

ولم يقف من اعترافه بنبوة ابن أخيه ، عند هذا الحدّ فحسب ! بل أعقب
ذلك باعتراف ، أشدّ وضوحاً ، يبين عن موقعه من دين ابن أخيه ، في هذه
اللحظة الحرجة ، وهي خاتمة الأعمال ...

فهل — ثمة — غير إيمان وإسلام مكين ، بعد هذه القولة :

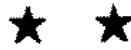
« وقد جاءنا بأمر ، قيله الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن » ؟
يقول إن محمداً قد جاء بأمر — ويريد « الرسالة » — قيله الجنان ، فأمن
به ، وأقرّ به ... وأنكره اللسان ، فلم يجهر بإقراره ذاك ، لغاية تفرض عليه
هذا الموقف ، ليؤدّي رسالته ، ويؤدّي واجبه ، وينصر الرسالة ، النصر
المؤزّر ... فقد أنكره مخافة الشنآن — والشنآن هو: البغض ، مع العداوة
وسوء الخلق — ليستطيع أن يؤدّي رسالته ، ويحوط رسول الإسلام برعايته .

ثم ينظر — من وراء ستر الغيب — ليقراً منه سطراً ، نصيع الحرف ، فيرى
كيف تمتد دعوة ابن أخيه ... وكيف تقرّ في القلوب ، حتى تخضع لها
صاغرة ... وكيف تنال هذه الطغاة جزاء عنتها وجبروتها ، فتذلّ منها الهامات ،
وتكون هذه الرؤوس العاتية ، كالأذنان الذليلة ... وكيف يقوى المستضعفون
من المسلمين ... وكيف ... وكيف ...

ثم يعود ، ليحضّمهم على اتباع منهجه ، وسلوك لاجب طريقه ، فيبذلوا له
النصرة ، ويكونوا له أولئك الأولياء الخالصان ، ولأتباعه أولئك الحماسة
الحفظة ... فإنهم إن سلكوا مسلكه ، واتهجوا نهجه ، كان الرشيد إلى
جانبيه ... وإن أخذوا بهديه ، واقتبسوا من نوره ، كانوا أولئك السعداء ...
ثم يأسف ، فيطلب المزيد من شرف نصرته وحياطته ، ليكفّ عنه
الهزاهز ، ويقيه الإغصار ، ويردّ عنه الدواهي ، ويحميه من العتاة ، ويردّ عنه
الأذى والمكروه .

إنها - أي الوصية - نموذجٌ فذٌّ ، للإيمان العميق ، والتفاني في سبيل
المبدأ والمعتقد ، لا يتنكر له ، ولا يتأخر عن الدعوة إليه ، حتى في أدق
الساعات ، وأحرج الظروف . . . !

وقد شاء أن يعلن رأيه ، ويدلي باعترافه ، ليسجله التاريخ ، سلاحاً
ماضي الشفرة ، يجهز على كل فريسة ، يفترها الجبهة المغرضون ، وتأتي على أسس
بنائهم المنهار . . . !



هذه الوصية ، شاء منها أبو طالب أن تكون عامّة لقريش ، ليعلم من كان
يظن منهم ، بأنه على دينهم ، أنه قد اهتدى بهدي الإسلام ، واستجاب
لدعوة رسول الله « ص » :

ثم شاء أن يخصّ بني عبدالمطلب ، وبني هاشم ، بنصحه ، ليتبعوا محمداً ،
فينالوا الخير والرشد .

[لن تزالوا بخير ، ما سمعتم من محمداً ، وما اتبعتم أمره ، فاتبعوه ،
وأعينوه ترشدوا] .

« يا معشر بني هاشم ! أطيعوا محمداً ، وصدقوه ، تفلحوا وترشدوا » (١)

ثم خصّ من بني هاشم أربعة منهم ، ليلذوا النصر والفداء في حياطة
الرسول « ص » :

أوصي بنصر نبي الخير أربعة :	ابني علي ، وعمّ الخير عباساً . . .
وحمزة ، الأسد المخشي صوته	وجعفر - أن تذودوا دونه الناس
كونوا فداء لكم أمي ، وما ولدت -	في نصر أحمد ، دون الناس ، أتراساً

(١) السيرة النبوية ٨٦ و ٢٨١ : ١ ، والحلية ٣٨٨ و ٣٩١ : ١ ، وأبو طالب
٩١ ، والغدير - مسندة لصادر علق - ٣٦٨ : ٧ .

بكل أبيض مصقول عوارضه تخالؤه في سواد الليل مقبأ^(١)



ليس من العقل : أن الذي يدعو لاتباع دعوة محمد ، وتصديقه ، وإعائته ، لأن دعوته مصدر : فلاح ، ورشد ، وخير...
ليس من العقل ، في شيء : أن يدعو للرشد والفلاح ، والخير...
والتصديق بدعوة من جاء بها... من لم يكن ذلك المتبع المؤمن!...
ليس من العقل : أن الذي يعترف لدعوة بالرشد ، والفلاح ، والخير ،
يكون كافراً بها ، ولا يأخذ بهديها... بل يعمه - والعياذ بالله ! في الضلال...
ويسدر - وأستغفر الله ! - في النفي!...



بتلك السطور النيرة ، الملتبة الإيمان والمضخة بطيب المعتقد، والسافرة
عن المبدل - اختتم أبو طالب ، صفحة حياته المشرقة ، النصيحة البيضاء...
اختتم صفحة حياته ، المليئة بالجهاد والتضحية ، في سبيل الدين الحنيف ،
بكلمات ، يغمرها الإيمان السافر ، والدعوة الطيبة ، والوصايا المكرورة ،
لنصرة الرسول ، وحياطته...
فأي رجل مؤمن هذا...؟
وأي نصير فذ ، وراع أمين...؟

(١) الغدير « مسند » ٣٤٢ و ٤٠١ : ٧ ، وذكر البيتان الأولان في إيمان
أبي طالب ١٧ ، وذكرت الثلاثة في الحجة ٩٧ ، ٩٨ وأرجعها الشارح لبعض
المصادر . وذكرت في المناقب ٣٥ : ١ ، والأعيان ١٢٠ ، ١٢١ : ٢ ، ١٤٥ : ٣٥ ،
ومجمع البيان ٣٧ : ٧ .

الجزء الثاني

في ذمة الخارج

بعد الموت

« ص » /

ما كان الرسول « ص » - وهو مثال الوفاء والعدالة والإنصاف - بالجحود الذي ينكر فضل ذي فضل ، أو يتناسى معروف ذي معروف ...

لذلك ... كان أثر موت أبي طالب ، في نفسه عميقاً ، انعكس على صفحة وجهه . فجمد أمام شدة الأمر الواقع ، وأحس بالفراغ الذي سيخلقه عنه ، بعد حياته ١٠٠٠

فلم يكذب يلقي عليه الإمام علي ، نبأ الفاجعة - كما حدثت عن علي :
عبيد الله بن أبي رافع - حتى انهمرت عيناه بالدموع الغزار ...
وبعد أن كففت الدموع ، نبر بصوت خاشع ، ورنة حزينة ، يأمر علياً :
« اذهب ، فاغسله ، وكفنه ، ووارده - غفر الله له ورحمه ١٠٠٠ » (١)

(١) ذكر ذلك في السيرة النبوية ٨٤ : ١ - مروياً عن : أبي داؤود ، والنسائي ، وابن الجارود ، وابن خزيمة - والغير ٩٩ : ٣ ، و٣٧٣ : ٧ - عن طبقات ابن سعد ، والواقدي ، وابن عساكر ، والبيهقي ، وسبط ابن الجوزي ، والبرزنجي ، وغيرهم - وشيخ الأبطح ٤٤ ، عن مصادره ، والحجة ٦٧ ، ومعجم القبور ٢٠٤ : ١ ، وتذكرة الخواص ١٠ ، وإيمان أبي طالب ١٠ ، وفي أعيان الشيعة ١٦١ : ٣٩ :

[امض فتول غسله ، فإذا رفعته على سريريه ، فأعلمني] .

وهذا دليلٌ — إلى جانب دلائل ودلائل ، تأبى الحصر — على إيمان هذا الشيخ الكريم . فالرسول يأمر علياً — ولا نظنُّ أحدًا ، يخالجه الشك في إسلام عليٍّ « ١٩ » — بأن يفصل أباه . وليس الإسلام ، بالذي يجيز للمسلم : أن يفصل كافرًا ...

والرسول يستغفر الله لعمه ، ويدعو له بالرحمة والغفران — والنبيُّ شديدٌ على الكافرين ، بالمؤمنين — وخدمهم — رؤوفٌ رحيمٌ !...

وإذ ذهب عليٌّ ، وأنجز غسل أبيه ، وحملت جنازة نصير الإسلام ، على أعناق الرجال ، عاد عليٌّ ، لينهي للرسول الخبر ... فقام الرسول ، واعترض الجنازة ، ليشيِّع عمه بآيات المدح والإطراء ، وفيه له بحقه على الرسالة الإسلامية :

« وصلتكَ رحمٌ — يا عمَّ! — وجزيتَ خيرًا ! ، فلقد ربيتُ ، وكفلتَ صغيرًا ، ونصرتَ وآزرتَ كبيرًا » م (١) .

وسار مع الجنازة ، حتى إذا لحد ، وقف عليه ، فقال :
« أما والله ! لأستغفرنَّ لك ، ولأشفعنَّ فيك ، شفاعَةً ، يعجب لها الثقلان » (٢) .

فالرسول (ص) : يذكر مآثر عمه ، وحسن عمله ، فيدعو له بجزاء

(١) النهج الحديدي ٣١٤ : ٣١٤ والبحار ٤٤٥ و ٥٢٣ و ٥٢٩ : ١٦١ و شيخ الأبتاح « مسنداً » ٤٣ ، والغدير ٣٧٤ و ٣٨٧ : ٧ « مسنداً » ، والحجة ٦٧ ، وأبو طالب ٨٩ ، ومعجم القبور ١٩١ و ٢٠٤ : ١٠ وتفسير علي بن إبراهيم ٣٥٥ وتذكرة الخواص ١٠ ، وإيمان أبي طالب ١٠ ، والأعيان ١٣٩ و ١٦١ : ٣٩ .

(٢) المصادر الخمسة الأولى ، ومعجم القبور ٢٠٤ : ١٠ وإيمان أبي طالب ١٠ — وقد أسنده الشارح للإصابة وغيره . والأعيان ١٦١ : ٣٩ .

الخير ... ثم يستغفر الله له ، ويَعِدُه بشفاعةٍ يُعْجِبُ لها الثقلان ...!

وما عسى أن تكون هذه الشفاعة ، التي تعجب الثقلين ؟ ...!

لنفرض - وفرض المحال ، ليس بالمحال - أن أبا طالب [وأستغفر الله ، والحق ، والضمير الواعي ، والوجدان !] ، لم يكن مؤمناً ، ولم يُحِط الرسول بنصره ومؤازرته ، فشفع له الرسول ، وأدخله الجنة ... فإن هذه الشفاعة ، ليست بالتي تُعْجِبُ الثقلين ... على أن الرسول ليس بالذي يشفع في كافرٍ !

أمّا أن الجنة ، هي جزاءٌ - باستحقاقٍ - لعمله الطيب ... فإن شفاعته الرسول إليه ، هي فوق دخوله الجنة - وهو من أهلها - وهي التي تُعْجِبُ الثقلين ...!

وقد شاء الرسول ، بقولته هذه - فوق وفائه لحقِّ عمه ، وقيامه بواجبه - أن يزيل الظنَّ الآثم ، مِنَّ لم يكن بإيمان أبي طالب على معرفةٍ ، نتيجةً لتستره ، بإيمانه ، في بعض الأحيان حين ما لا تسح بالجهر به الظروف السود ، والمحن الصَّلاب ، ليؤدي بهذا الكتمان ، ما يعود على صاحب الدعوة ، بالخير العميم ...



ويتبع الرسول قوله التأنينية - تلك - بهذه الندبة الحزينة :
[واأبتاه ! واأبا طالباه ! وا حزناه عليك ، يا عمَّاه !
كيف أسلو عنك ، يا من ريتني صغيراً ، وأجيتني كبيراً ، وكنتُ عندك بمنزلة العين من الحديقة ، والروح من الجسد] (١) .

(١) شيخ الأبطح ٤٤ ، مسنداً عن المجتبي ، عن المفيد ، وعن ابن حجر في إصابته ١١٢ : ٧ من طبعة مصر عام ١٣٢٥ ، وقال : « بتصرفٍ واختصارٍ » .

وهذه الندية - هي الأخرى - شهادة صريحة من الرسول ، بإيمان أبي طالب : « وأجبتني كبيراً » .

ولتصوّر هذا التعبير الدقيق... فهو يقول : إنه كان عند عمه ومكانه من نفسه - بمنزلة العين ، وهي : مصدر النور ، والعدسة الباصرة ، التي تعكس ما ترى ، ويفقد ما ، يفقد الإنسان النور ، فلا يبصر الضياء ، بل يغمره الظلام الأفحم . وأية قيمة للحدقة ، بعد فقد النور ...؟! وهو - أيضاً - ينزله الروح من الجسد ... الروح التي تخفق بالحياة ، وبدونها يكون الجسم خشبةً باليةً ، لا تسمع ، ولا تعي . بل تفقد قيمتها الإنسانية ، وتتحول عن قيسها المعنوية ...

وليس للجسم - بعد ما تبارحه الروح - سوى أعماق القبر ، يوارى منه : الأثر الكريه ، واللون الحائل ، والمنظر البشع ، والرائحة الخائقة ...!

إنه تصويرٌ دقيقٌ ، يعطينا مدى حبّ أبي طالب للرسول ، بشهادة الرسول ذاته ... ولن تكون مكانة الرسول - في قلب امرئٍ - بهذه المكانة ، وذلك القلب ، لا يستجيب لدعوته ، ولا يصدق رسالته ... فإن ذلك أبعد وقوعاً من المحال إن كان بعد المحال ، ما هو أبعد منه !



أماً - الآن - وقد انهده الحصن ، الذي بقي الرسول غواشي قريش ...
أماً وقد اقترش الأسد المصور رغام القبر ، وأطبق على جسمه اللحد الضنك ...
فإن الوحوش - من قريش - تجد الطريق خالياً ، وقد تلاشى زئير الأسد ، من حصنه المنيع ، لتنال من الرسول ، ما لم تنله في حياة عمه ، وقد كان له المانع القوي ... فتتاله بألوان الأذى ، ومختلف العذاب ، وآلم السخرية ، ولاذع الإهانة والتنكيل ...

لذلك ... لم تكن صورة أبي طالب ، لتزایل خيال الرسول ، أو تتلاشى

من بين عيبيه ، وهو يحس مسيس حاجته إليه ...



يدخل - مرة - داره ، وقد حشا بعض السفهاء التراب ، على رأسه ،
فتقوم ابنته محزونة القلب ، دامعة العين ، لتزيل التراب ... فيصبرها
الرسول ، بقوله :

« لا تبكي - يا بنيّة ! - فإن الله مانع "أباك" .
ويعقب - وقد عاد للماضي ، من حياة عمه ... وكيف كان ينال مثل
هذا السفيه ، لو كانت باصرة عمه ، تلتقط ما حدث له اليوم ، ليأخذ بحقه ،
ويرد كيد هذا المعتدي الأثيم :

« ما نالت مّي قريش شيئاً أكرهه ، حتى مات أبو طالب ! » (١)

وفي كل مناسبة ، كانت تندش من شقيقه ، مثل هذه القولة ، التي تعبر عن
حنيه لعمه ، وتصوّر حاجته إليه ، وتعرض ماضيه الحيد :
« يا عمّ ! ما أسرع ما وجدتُ فقدك !... » (٢) .



لقد شاء الله : أن يتلي رسوله ، فقدّر عليه أن : يواجه محتتين ، وتنصب
عليه مصيبتان ... الواحدة منها تهدّث الجلد ، وتأتي على القوى ... فيفتقد
- في أيام متقاربة - سنيين ، طالما شدّأ أزره ...

(١) و (٢) السيرة النبوية ٨٨ و ٢٨١ : ١ ، والحلية ١ : ٢٩١ ، والهشامية
٥٨ : ٢ ، والطبري ٨٠ : ٢ ، وابن الأثير ٦٣ : ٢ ، والمناقب ٣٨ : ١ ، والبحار
٤٣٠ و ٥٢٨ : ٦ ، وشيخ الأبطح ٥١ ، ومعجم القبرور ٢٠٢ : ١ ، وأبو طالب
٩١ ، والغدير - في عدة مصادر - ٣٧٧ : ٧ . وذكرت الكلمة الأولى في الإمام
علي صوت العدالة ٣٦ - [٦٠ : ١] - والثانية في الأعيان ١٢٧ : ٣٩ .

فأبو طالب: بحدبه ورعايته ، وحياطته ومنعته ... فلا تصل إليه
قريش بمكروه ، ولا يعترضه ، دون أداء رسالته ، ما يصدّه عنها ... فلا
يصل إليه الأذى ...

وخديجة : بسالها وحنانها ، وإخلاصها وتقانيها ... فتساعده على احتمال
الشدائد ، وتهوّن عليه الآلام ، وتأسو له منه الجراح ، التي يدميها الألم القتال ،
لصدّ قريش عنه ، وأعمالها القباح معه ...

وها هو ذا يفتقدتهما ، في وقتٍ عَصيبٍ ... فيضيق عليه رحيب الفضاء ،
وتسودّ في وجهه رقعة الوجود ، لولا فيض الله عليه ، وثقته به ، واتكاله
عليه ...

لقد افتقدتهما ، بعد تلك السنين الصلاب القاسية ، التي قضوها في
الشَّعب ... وكان عمه ، نَيْفَ على الثمانين من سنيه ، فكانت مليئةً بالعمل
الجسيم ، مشرّةً بالثمار النضرة ، مخلفةً الأثر الحميد ، والذكر الباقي ، والأثر
الجميل ... قد آتت أكلها ، وضاعفت ثمارها ... (١)



في ساعةٍ ، من ساعات ألمه ، وقد ثار منه الدفين ، تنبث من حنجرتِه
هذه الكلمات المثقلة بالحزن ، والمعمورة بالثقة بالله ، والأمل في رضاه ،
والصبر على قضائه ... والصارخة بالشكوى لربه في ما ناله ، من الأذى ،
والهوان ، والآلام .

[اللهم إليك أشكو ضعف قوّتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ...

(١) اختلف في الشهر ، الذي توفي فيه سيد البطحاء ، بين: رجب ،
ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة . وفي العام ، بين: العاشر ، والحادي عشر
— للبعث النبوي — وفي أيّهما مات ، قبل الآخر : أبو طالب ، وخديجة . وفي
عدد الأيام ، التي فصلت ، بين افتقاد هذا وهذه ...

اللَّهُمَّ ! - يا أرحم الراحمين ! - أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربِّي ، إلى
 مَنْ تكلّني ؟ ... إلى بعيدٍ يتجهّمني ؟ ... أو عدوّ ملكته أمري ؟ ... !
 إنَّ لم يكن بك عليّ غضبٌ ، فلا أبالي ! ... ولكن عافيتك هي أوسع لي ..
 إني أعوذ بنور وجهك ، الذي أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر
 الدنيا والآخرة ، مِنْ أَنْ ينزل بي غضبك ، أو يحلَّ عليّ سخطك ... لك
 العتبي ، حتى ترضى ... لا حول ، ولا قوة ، إلا بك ... [(١)]



لم يبقَ له - بعد أبي طالبٍ - مأوىٌ في مكة ، وقد انهدَّ منه الحصن ،
 الذي يقيه الزعازع ، والكهف الذي يدرأُ عنه المكروه ، والنصير الذي
 يسخو عليه بالنفس والنفيس ...

وفي غمرةٍ من غمرات الحزن والألم ، يلقي عليه الملاك ، هذا الأمر
 الصاعد :
 [اخرج منها - أي : مكة - فقد مات ناصرك] . (٢) .

-
- (١) الطبري ٨١ : ٢ ، وابن الأثير ٢ : ٦٤ ، والحديدي ٣٢٢ : ٣ ، والحلية
 ٣٥٣ : ١ ، والنبوية ٢٨٦ : ١ ، والهشامية ٦١ ، ٦٢ : ٢ ، والمناقب ٣٨ : ١ ،
 والبحار ٥٢٩ : ٦ ، وشيخ الأبطح ٥٢ ، وعلى هامش السيرة ١٤٩ ، ١٥٠ : ٣ ،
 ومحمد النبي العربي ٦٥ ، ٦٦ . وقد ذكره بعض هؤلاء في صورته هذه .
 وآخرون اقتصروا على بعضه .
 (٢) النهج ١٠ : ١ ، والحجة ١٧ و ٦٤ و ١٠٣ ، والبحار ٥٤٣ : ٦ ، وشيخ
 الأبطح ٥١ ، ومعجم القبور ١٩٧ : ١ ، وأعيان الشيعة ٧ : ٣ ق ١ و ١٢٧ : ٣٩ .

ذكر عطر

على لسان الرسول

لم تكن مواقف أبي طالب ، بالتي تزايل ذاكرة الرسول (ص) ولا صورته بالتي تبرح باصرته ...

لذلك لم يكد ينسأه ، ولا يزال يذكره الذكر العطر ، ويشني عليه الشناء الموفور ، ويشكر له أعماله الباقية ، وما تيه الخير ، ومواقفه المشرقة ... لينفي له ، ويحفظ اليد ، التي أسداها إليه ...

وما كان الرسول بالذي يغض الطرف ، عن معروف يسدى ... بل إنه ليذكر ذلك ، مكافأةً للجميل — من ناحية — وتشجيعاً للعمل ، من جانب الآخرين ، ليحتذوا هذا المنهج الحميد ، والمسلك الأبلج — من ناحية أخرى .



أتى الرسول أعرابي ، وعليه خطوط من الأسى ، ويخالطه بريق نقاذ ، من عينه ، يحمل الرجاء الحلو ، والأمل الخضل . فوقف بين يدي رسول الله (ص) ليقول له :

[يا رسول الله ! لقد أتيناك ، وما لنا بغير يئس ، ولا صبي يصطحب .]
وأعقب قوله ، فأنشد أبياتاً ، يصور فيها حالتهم المرة ، تصويراً دقيقاً .

أَتَيْنَاكَ ، والعذراءُ يَدْمَى لَبَانُهَا وَقَدْ شَغَلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطِّفْلِ (١)
وَأَلْقَى بِكَفِيهِ الصَّبِيَّ ، اسْتِكَانَةً مِنْ الْجُوعِ ، ضَعْفًا ، مَا يَمُرُّ وَلَا يَحِلِّي
وَلَا شَيْءٌ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا سِوَى الْحَنْظَلِ الْعَامِيِّ ، وَالْعِلَازِ الْفُتْلِ
وَلَيْسَ لَنَا ، إِلَّا إِلَيْكَ ، فَرَارُنَا وَأَيْنُ فَرَارُ النَّاسِ إِلَّا إِلَى الرَّسْلِ؟!

فقام الرسول الرحيم - وقد أثرت فيه هذه الصورة الباكية - حتى
وصل ، وهو يجرُّ رداءه ، إلى المنبر ، فانفجرت شفتاه ، عن دعوات رقاقٍ ،
بعد حمده لله تعالى ، وثنائه عليه :

[اللَّهُمَّ ! اسْقِنَا غِيثًا مَغِيثًا ، سَحَابًا طَبَقًا غَيْرَ رَائِثٍ ، تَبَّتْ بِهِ الزَّرْعُ ،
وَتَمَلَأَ بِهِ الضَّرْعُ ، وَتَحْيَى بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا - وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ] •

ولم يشارف من الدعاء النهاية ، إلا والسماء تلتهم بالبرق ، والأرض
تفعل بالمطر الفياض ، فجاء إلى الرسول مَنْ يَصِيحُ :
« يَا رَسُولَ اللَّهِ ! الْغَرَقُ ! الْغَرَقُ !... »
فترفع كَفَّانَ ، لَا يَرُدُّ اللَّهُ طَلِبَتَهُمَا ، وَتَبَسَّ شَفَتَانِ ، لَا يَخَيِّبُ اللَّهُ
رَجَاءَهُمَا :

(١) العذراء : البكر • اللَّبَان - بفتح اللام - الصدر ، أو ما بين
الثدين • وهو تصويرٌ للمجاعة ، التي اجتاحتهم ، فأدمت حتى صدر العذراء !
(٢) الحنظل ، نباتٌ يمتد على الأرض ، كالبطيخ ، وثمره يشبهه ، لولا
أنه أصغر منه بكثيرٍ ، وهو مضرب المثل للمرارة • العامي : لعله صفةٌ مِنْ
صفات الحنظل ، أو هو الطويل منه • والعِلَاز - كما في الحجة - بكسر العين
وسكون ثانيه وكسر هائه : طعامٌ مِنْ الدَّمِ وَالْوَبَرِ ، كَانَ يَتَّخَذُ فِي الْمَجَاعَةِ •
والفسل - بفتح فائه - الرديء •

ويروى : [وَالطَّهْلُ الْفُتْلُ] • وعطى كلتا الروايتين ، فهو : تصويرٌ
للمجاعة ، التي حلت بهم ، حتى اضطرتهم لأكل ما لَا يُؤْكَلُ !...

« حوالينا ولا علينا » .

فتنجا السحب عن المدينة ، بعد تلك الزحمة المتراكمة ، لتستدير حولها ، وتتعد كالأكاليل ... وتبلغ من الرسول الفرحة : أن تنفرج شفتاه ، عن ضحكة ناعمة ، تبدو فيها نواجذه ... ثم تختلج شفتاه بنبرة ، فيها غير الماضي الحنون :

[لله درُّ أبي طالب ! لو كان حياً لقرت عيناه . من الذي ينشدنا شعره ؟]

فيقف على قدميه : ذاك الذي حفظ أباه في ابن عمه - الإمام علي عليه السلام - ليقول :

يا رسول الله ! لعلك أردت قوله :

وأبيض يستقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى ، عصمة للأرامل
وإذ كان جواب الرسول : « أجل ! » ، راح علي ينشده أحياناً ، من رائعة أبي طالب هذه ، والرسول - وهو على المنبر - يتابع استغفاره لعمه الوفي .

وحينذاك ... قام رجل ، من كنانة ، لينشد :

لك الحمد ، والحمد ممن شكر	سقيناً بوجه النبي المطر
دعاً لله - خالق - دعوة	إليه ، وأشخص منه البصر
فلم يك ، إلا كالقا الرعد ،	وأسرع ، حتى رأينا الدرر
دفاق الغزالي جم البعاق	أغاث به الله علينا مضر
فكان - كما قاله عمه -	أبو طالب : أبيض ، ذو غرر
به الله يقيه صوب الغمام	وهذا العيان لذاك الخبر ... (١)

★ ★

(١) الحديدي ٣١٦ : ٣ ، والحجة ٨٨ - ٩٠ ، والبحار ٣٨٨ : ٦ ، وشيخ

الأبطلح ٤٥ ، ٤٦ ، والغدير ٣٧٥ ، ٣٧٦ : ٧ - مسندة لمصادر عدة - ←

وهل لنا أن نقف — هنا — عند (استغفار الرسول (ص) لعمه ،
وقد واره الموت ؟ • وليس ذكره له ، عند كل مناسبة تمرُّ ، إلا لأنه يشغل
منه البال ، وهذه أعماله الحسان ، تجدّد ذكره عند الرسول ••• ؟
« لله درُّ أبي طالب ••• ! — الخ » (١) : كلمات عطرة ، يضمنها طيب
الإعتراف والإطراء ••• فالرسول يعرف أن أبا طالب ، لتقرُّ منه العين ،
لو شهد هذه المأثرة للرسول •••
« والله درُّه ! » دعاء وإطراء له ، من ابن أخيه — والرسول لا يطري مَنْ
ليس أهلاً ، ولا يذكر مَنْ لا يستحقُّ الذكر •••

وهو يلاحق الاستغفار لعمه ، في الوقت الذي ينشده عليُّ شعر أبيه —
والرسول لا يدعو الله بالمغفرة ، لمن لم يعمر الإيمان قلبه •••

•••

إن الرسول — وقد رعى لأبي طالب يده — ليحفظها له في ولده ، وهو
يقول : « يُحفظ المرء في ولده » ••• ومن أولى من الرسول ، من تطبيق
أقواله ، على أفعاله ؟!

مرة ، يقول لعليٍّ « عليه السلام » :
[ليس أحدٌ أحقُّ بمقامي ••• لِقِدَمِكَ في الإسلام ، وقربك منِّي ،
وصهرك لي ، عندك فاطمة سيدة نساء المؤمنين • وقبل ذلك ، ما كان من]

→ و ٣ ، ٤ : ١٥٢ ، ١٥١ ، ٣٩ .
وذكرت الحادثة — بإيجازٍ ، وبدون ذكر الشعر — في السيرة الهشامية
٣٠٠ : ١ والنبوية ١ : ١٨١ ، وأبو طالب ٩٣ •
(١) للبرزنجي كلمة قيمة — جديرة بالالتفات — تتصل بهذا الموضوع ،
موجودة في الغدير ٣٧٦ : ٧ .

حماية إليك — أبي طالب — وبلائه عندي ، حين نزل القرآن ، وأنا حريصٌ
أن أرى ذلك ، في ولده ، بعده ! [(١)]

أرأيت كيف كانت منزلة أبي طالب لدى الرسول — إذ يعدُّ بلاء
أبي طالب ، لديه ، حين نزل القرآن ، من الميزات التي تميّز عليّاً ،
وتقرض عليه : أن يراه أحقُّ إنسانٍ بسقامه — وهو مقام النبوة — ويعدها
ضمن ميزات الأخرى ، من : قديم سابقته ، وقرابته منه ، ومصاهرته له ...
ويؤدي إليه حرصه على أن يرى يد أبي طالب ، في ولده ، بعده ، لينفي
إليه بحقه وفضله ، ويجازيه على عمله الأسمى ... فليس غير عليٍّ ، خليفة
الرسول ... وليس من هو أحقُّ منه ، بعد كل هذه الميزات ...!



ومرّة أخرى ، يقول لعقيل :
[يا أبا يزيد ! إني أحبك حين : حبّاً لقرابتك مني ، وحبّاً لما كنتُ أعلم
من حبِّ عمي إياك] (٢) .

ما هذا الحب الطاغى من الرسول ، لعمه ... ؟
فهو لا يحبُّ عقيلًا ، لمساس رحمه به — هذا حبٌّ ... ويحبه — وهو الحبُّ
الآخر — لأنه يعلم بالغ حبِّ عمه إليه ... فهو يرى : أن حبِّ عمه لشخصٍ ،

(١) ينابيع المودة ٢٦٣ [١٤١ : ٢] بهواية المرام ٤٩٧ — مسنداً فيها
عن أبي إسحاق الثعلبي ، في تفسير القرآن — والغدير ٣٧٨ و ٣٨٨ : ٧ ،
مسنداً للحافظ الكنجي في الكفاية ص ٦٨ ، من طريق الحافظ ابن فنجويه ،
عن أبي عباسٍ ، مرفوعاً .

(٢) الاستيعاب ١٥٧ : ٣ ، والحديد ٣١٢ : ٣ ، والحجة ٣٤ ، وتذكرة
الخواص ١٥ ، ومعجم القبور ٢٠٢ : ١ ، والغدير ٣٧٨ و ٣٨٧ : ٧ مسنداً لعدة
مصادر .

يفرض عليه هو أن يحبه... فمحبوب عمه ، محبوبٌ لديه ، والقريب منه ،
قريبٌ إليه ...

وإنها لشهادة صادقة ، تدلُّنا على بالغ حبِّ الرسول لعمه ... وأيُّ حبٍّ ،
أرفع درجةً ، من هذا الحب ، الرفيع الذري ...!



وفي يوم بدرٍ ، والمعركة الفاصلة في هياجها ، بين : الحق والباطل ، بين
التوحيد ، والشرك - خرج أبو عبيدة بن الحرث بن المطلب ، ليلقى المشركين ،
منافحاً عن عقيدته ، مجاهداً عن دينه ، فقطع رجله عتبة بن ربيعة - وقيل :
شبية - فانقضَّ عليه سيفان مصلتان ، من سيوف الله - هما : عليُّ والحنزة -
فاستنقذا صاحبهما ، وخبطا عدوَّهما ، بصارميهما الحديدين ، واحتملا صاحبهما
إلى العريش ، حيث هناك الرسول (ص)

وإن مخَّ ساق أبي عبيدة - وهو يسيل - لم يشغله عن أن يفتح عينين ،
قد ذوت منهما لهبة الحياة ، يقول بصوتٍ مرتعشٍ :
- يا رسول الله ! لو كان أبو طالب حيًّا ، لعلم : أنه قد صدق في قوله :

كذبتُم - وييت الله ! - نخلي محمداً ولما نطاعن دونه وتناضل !
ونصره ، حتى نصرَّع حوائه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فهاجت برسول الله ذكرى عمه ، وفتحت نفسه المشرقة ، لذكره ،
وراح لسانه يلهج بالاستغفار له ، ولأبي عبيدة معاً (١) .



(١) الحديدي ٣١٦ و ٣٣٤ : ٣ ، و ٣٠٥ ، ٣٠٦ : ١ ، والحجة ٤٧ ، و شيخ الأبطح
٤٧ ، ٤٨ ، والأعيان ١٥١ : ٣٩ . وذكرت في البحار ٥٩٥ : ٦ ، بصورةٍ
تختلف عن هذه .

ثم تحين - ذلك اليوم - من رسول الله نظرة ، بعدما دارت الدائرة على قريش ، وتكشف الموقف عن هزيمتها النكراء ...

تحين من الرسول هذه النظرة ، الهادئة الرزينة ، وهي تنتقل بين هذه الجثث الهامدة ، التي خمدت فيها جذوة الحياة ، وكانت تحرق الأرواح ، وتضرم وقيد النار ، وتسعر أوار الحرب على الرسول ...

تحين هذه النظرة منه (ص) ، إلى جانبه أبا بكر ، ليقول له :

« لو أن أبا طالب حيٌّ ، لعلم أن أسيفنا قد أخذت بالأمائل » (١) .

يُشير إلى بيت أبي طالب ، من رائعته اللامية :

كذبتُم - وبيت الله - إن جدَّما أرى لتلبسُن أسيفُنَا بالأمائل

★ ★

وهذا العباس ، يسأل الرسول :

- يا رسول الله ! أترجو لأبي طالب ؟

فيكون جواب الرسول بهذه اللهجة المطمئنة :

- كلَّ الخير أرجو من ربي (٢) .

★ ★

وقد صحَّح الرواة حديثاً ، ندَّت به شفتا الرسول (ص) ، وهو :

[إذا كان يوم القيامة ، شفعت لأبي ، وأمِّي ، وعمِّي - أبي طالب - وأخ

لي كان في الجاهلية] .

وقد ورد هذا الحديث ، في صورٍ مختلفةٍ لكنه ينتهي إلى غايةٍ واحدةٍ ،

(١) الأغاني ٢٨ : ١٧ ، والغدير ٣٧٨ : ١ ، و ٤ : ٢ ، عن الأغاني ، وطلبه

الطالب ٤٨ . وأشير إليها في الشرح الحديدي ٣٠٩ : ٣ .

(٢) الحديدي ٣١١ : ٣ ، والحجة ١٥ ، وتذكرة الخواص ١٠ ، ومعجم

القبور ١٨٩ : ١ ، والغدير ٣٧٤ و ٣٨٧ : ٧ - عن طبقات ابن سعد ، بسندٍ

صحيحٍ ، وعن مصادر عدةٍ غيره - والأعيان ١٣٦ : ٣٩ .

ولا يختلف في مفاده (١) .



إن هذه الأحاديث ، لتفرض علينا أن نقرّ بإيمان نصير الرسول « ص » ، وهذا هو الرسول لا يذكره ، إلا بعاطر الثناء ، ولا يجازيه ، إلا بخير الجزاء ، فيدهو له ربه أحرّ الدعاء . لا أو الرسول لا ينساق مع عاطفة ، ولا يذكر فرداً ، إلا بعمله ، إن خيراً ، أو شراً .

ولو كان ذكر الرسول واستغفاره لعمه ، وهو لم يكن مسلماً — وهذا ما لا يجوز على الرسول ، بالطبع — لكان قد وقع الرسول « ص » (وأستغفر الله !) في ما نهى الله عنه في عدّة آيات :

١- (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ ، أَوْ عَشِيرَتَهُمْ — أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) — الخ (٢) ..

فالقرآن الكريم ، نفى وجود قوم ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وتكون في قلوبهم ذرة من حبة ، لمن يعادي الله ورسوله ، حتى ولو كانت بين هذا المؤمن ، وذاك الجاحد ، روابط النسب واشجة ، وتشدها أواصر القربى ..

لقد جعل ذلك ، من باب « النقيضين » اللذين لا يجتمعان في حالٍ ... فلا يقع الإيمان ، وحب الجاحدين ، في قلبٍ ... وليس يتسع ، إلا لأحدهما

(١) النهج ٣١١ : ٣ ، وتفسير علي بن إبراهيم ٣٥٥ و ٩٠ ، والحجة من ص ٣ إلى ٥ — وهي الصحيفة التي رصدت (٩) في الكتاب ، غلطاً ، وعليها بني ترقيم الكتاب — والغدير ٣٧٩ و ٣٨٦ : ٧ ، مسنداً لمصادر عدّة .

(٢) المجادلة ٢٢ .

فحسب .

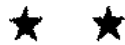
ولعل من المناسب : أن تأتي على ما فسّر به الزمخشري ، هذه الآية الكريمة :

(خيل أن من المستمع المحال : أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين . والغرض به : أنه لا ينبغي أن يكون ذلك . وحقه أن يستمع ، ولا يوجد بخال ، مبالغة في النهي عنه ، والزجر عن ملاسته ، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم . وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله : « وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ » ، وبقوله : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ » . وبمقابلة قوله : أُولَئِكَ حَزَبَ الشَّيْطَانِ ، بقوله : أُولَئِكَ حَزَبَ اللَّهُ . فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص ، من موالاة أولياء الله ، ومعاداة أعدائه ؛ بل هو الإخلاص بعينه) — الخ (١) .

وقد ذكر بعد ذلك حديثاً ، عن الرسول ، هذا نصه :

(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ وَلَا لِفَاسِقٍ عِنْدِي نِعَةً . فَإِنِّي وَجَدْتُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ : لَا تَجِدُ قَوْماً) (٢) .

وفي مجمع البيان : (والمعنى : لا تجتمع موالاة الكفار مع الإيمان) (٣) .



ب — (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ) (٤) .

(١) و (٢) الكشاف ٤٤٤ : ٢ (٣٩٦ : ٤) وتجد الحديث في تفسير ابن

كثير ٣٣ : ٤ .

(٣) ٢٨ : ١٩ .

(٤) المتحنة : ١ .

لقد نهى الله في هذه الآية — المؤمنين ؟ ان يتخذ الكفار أصدقاء لهم ، أو
يوالوهم ، ويحقق قلبه بالحب لهم وتنطوي منهم الجوانح منهم على المودة .
لهم ، أو يستنصروهم وينصرونهم .



ج- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ، إِنَّ اسْتَحْبَبْتُمُ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ .
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ : إِنْ
كَانَ آبَاؤُكُمْ (. إِلَى قَوْلِهِ :) أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ،
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١) .

ففي الآية الأولى ، نهى المؤمنين أن يتخذوا آباءهم وإخوانهم — وهم
المرتبة الأولى التصاقاً وقرباً للسر — أولياء ، إذا كان هؤلاء ، بمن يفصل
بينهم الكفر ، فإن الإيمان يقطع جبل المودة، بين المؤمن والكافر ، حتى لو كان
هذا الكافر أباً للمؤمن ، الذي هو خالقه الثاني ، وله على ابنه فضل الإيجاد
والرعاية — بعد الموجد الأول .

ثم قال : إِنْ مَوَالَاتِهِمْ وَحِبِّهِمْ ، يَخْرِجُهُمْ مِنْ حَقِيرَةِ الْإِيمَانِ ، لِيُضِيفَهُمْ
إِلَى عَدَادِ الظَّالِمِينَ .

وفي الآية الثانية جعل فيها حداً فاصلاً... فَمَا أَنْ يَرْغَبُوا إِلَى اللَّهِ ،
وَيَدْعُوا هَؤُلَاءِ... وَإِلَّا فَلْيَتَرَبَّصُوا ، حَتَّى يَنَالُوا الْجَزَاءَ ، وَيُرُوا أَمْرَ اللَّهِ ،

(١) التوبة : ٢٣ ، ٢٤ .

فما هم سوى قومٍ فاسقين ! .
وقد ذكر الزمخشري ، بعد تفسير هذه الآية ، أن النبي
« ص » ، قال :

[لا يطعم أحدكم طعم الإيمان ، حتى يحب في الله ، ويغض في الله ، حتى
يحب في الله أبعد الناس ، ويغض في الله أقرب الناس إليه ^(١)] .
[وهذه هي آيةٌ شديدةٌ ، لا ترى أشدَّ منها ، كأنها تنعى على الناس ما هم
عليه ، من رخاوة عقد الدين ، واضطراب جبل اليقين . . . فلي نصف أروع الناس
وأَتْقاهم من نفسه هل يجد عنده من التصلب في ذات الله ، والثبات على دين الله ،
ما يستحبُّ له دينه على الآباء والأبناء . . . ؟] الخ ^(٢) .

وفي مجمع البيان .

[إن أمر الدين مقدَّمٌ على النسب . وإذا وجب قطع قرابة الأبوين
فالأجنبي أولى] — [قال الحسن : من تولى المشرك فهو مشرك] ^(٣) .



د - هـ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ! مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ
دِينِهِ ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) ^(٤) .
(وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ ،
مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ . وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) ^(٥) .

(١) و (٢) الكشف ٥٤٨ « ٢٠١ ، ٢٠٢ : ٢ »

(٣) ٣٤ : ١٠ .

(٤) المائة : ٥٤ .

(٥) المائة : ٨١ .

ففي تلك الآية : جعل من شروط الإيمان : هذا التذلل والمحبة — بينهم —
والتآلف والتقارب ، ليكونوا يداً واحدةً ، كالبنيان المرصوص ، يشدُّ
بعضه بعضاً ...

وهذه العزة والقوة والبطش ، على الكفار المشركين ، لئلا يعيشوا في هذا
البنيان ، المشتدَّ الصليب ، ويفتقوا هذه الوحدة المتماسكة ...

وفي المجمع : [رحماء على المؤمنين ، غلاظٌ شدادٌ على الكافرين ، وهو
من الذل الذي هو اللين ، لا من الذل الذي هو الهوان . قال ابن عباس :
تراهم للمؤمنين كالولد لوالده ، والعبد لسيده ، وهم في الغلظة على الكافرين
كالسبع على فريسته] (١)

وفي الآية الثانية : نفى عن أولئك الإيمان ، لمولاتهم الكفار ، واتخاذهم
إياهم أولياء ، فاستحقُّوا بذلك غضب الله ، وسخطه عليهم ، فخلدهم
في العذاب المهين — كما في آيةٍ مرَّت ، ممَّا ذكرنا — وأن الأكثرية من هؤلاء
لفسقاء ...

وإن [موالاة المشركين كفى بها دليلاً على تفاقهم ، وإن إيمانهم ليس
بإيمانٍ ، ولكنهم متمردون في كفرهم وتفاقهم] (٢) .

وقد علَّل [وصفهم بالفسق — وإن كان الكفر أبلغ في باب الذم —
لأمرين :

أحدهما : أنهم خارجون عن أمر الله وهذا المعنى لا يظهر بأن يصفهم
بالكفر .

والآخر : أن الفاسق في كفره هو المتمرد فيه . والكلام يدلُّ على : أنهم

(١) ١٢٢ : ٦ .

(٢) الكشف ٤٣٠ : ١ [٥٢٠ : ١] .

فاسقون في كفرهم ، أي : خارجون إلى الترد فيه [(١)] .



و = (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رَحِمَاءُ يَبِينُهُمْ) (٢) .

وذكر المفسرون — بعد هذه الآية — قوله ، عن الحسن :

[بلغ من تشددهم على الكفار : أنهم كانوا يتحرزون من ثياب المشركين حتى لا تلتزق بثيابهم ، ومن أبدانهم ، حتى لا تمس أبدانهم] (٣)

وبعد أقوال ذكرها الزمخشري ، يقول :

[ومن حق المسلمين ، في كل زمان ، أن يراعوا هذا التشدد ، وهذا التعطف ، فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودينهم ، ويتحاموه (٤) ،

(١) المجمع ١٧١ : ٦ .

(٢) الفتح — ٢٩ .

(٣) المجمع ٨٠ : ٢٦ ، والكشاف ١١٥ : ٣ [٣٧٥ ، ٤]

(٤) ليس يفرض الإسلام هذا التشدد — الذي يظن منه : المقاطعة أو المحاربة — على كل من ليس مسلماً ، حيث جعل لأهل الذمة حقوقاً ، كحقوق المسلمين ، في حفظ أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ... وقتن لذلك القوانين الرفيعة المثلى ، وهو الدين السامي ، الرفيع الذري ... ولكن هذا التشدد يفرضه على كل من لم يحم بالحفاظ على تلك القوانين ، ولم يحم من جانبه بما يجب عليه ... فهنا يجب مكافئته ، وهو العدو الصريح ، أو العدو المستتر ، المبطن بالغش والنفاق .

على أنه فرق بعيد ، بين أهل الذمة — وهم من أهل الكتاب ، موحدون —

ويعاشروا إخوانهم في الإسلام ، متعطفين بالبر والصلة ، وكفّ الأذى ، والمعونة ،
والاحتمال ، والأخلاق السجيحة [(١)] .

ولكن ... فيا لتعس حظّ المسلمين ! ، وها هم أولاء يعملون على عكس
هذه القولة ، وقد انقلبت - لديهم - الآية ، فكانوا رحماء بغيرهم ، أشداء على
أنفسهم ... وإن بعضهم ليقدم البعض ، ضحية للعدوّ !... وينال بعضهم
البعض ، ما لا يناله الجاهل ، في نفسه ، أو في عدوّه !... في حين أنه
يمحض عدوّه في الدّين ، أو الوطن - سواء كان شرقياً ، أو غربياً - خالص
الودّ ، ويبدل من أجله ما تتطلبه المصلحة العميلة ، من تفانٍ في الإجرام
والخيانة ، فيضحى ببني قومه ، ويقدم وطنه لقمة سائغة ، لفم العدوّ المستعمر
البغيض ، في ثوبه الأحمر الدامي ، أو ثوبه الأسود المظلم ... وهو - في
النهاية - لا ينال سوى سيّء الجزاء - وهو من جنس عمله - حتى ممن كان
له ذلك الذنب العميل الحقيق ، وما للذنب من قيمة ، متى استغني عنه ، فلا
يقتى له سوى البتر !...

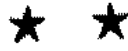
وبذلك ... انفصمت العرى ، وقُتِرَ الوحدة ، وسرت نار الخلف ،

→ للخالق - وبين المشركين ، الذين يُشركون في العبادة ، غير الله سبحانه ،
أو الكفار ، الذين وصل بهم الجهل إلى رواسبه ، فأنكروا الخالق العظيم !...
فهؤلاء ليس يمكن - بحالٍ من الأحوال - سوى التشدّد معهم ، والتحامى
عنهم !...

وهؤلاء هم المعنيّون - بصورةٍ أخصّ - بهذه الآيات الزاجرة الناهية .
وأبو طالب - في رأي المغرضين المفترين - ليس من أهل الكتاب . وإنما هو
من هؤلاء الكفار ، أو المشركين - وعفوّ الحق والعدل ! - فهو داخل - على
رأيهم التفيه - في نطاق المنهيّ عن: موالاتهم ، وقربهم ، وودّهم !...

(١) الكشف ١١٥ : ٣ [٢٧٥ : ٤] .

كما يندلع اللهب ، في الهشيم اليبس!



ولنَعُدْ إلى موضوعنا ، فنَعُدْ نظرةً فاحصةً ، في هذه الآيات ، وفي آياتٍ آخر ، تدور حول هذا الموضوع ، وتلمس هذه الناحية — شئنا أن لا نتقصَّها ، فتطول بنا الخطى ، ويتشعب بنا الطريق ...

نُعِيد هذه النظرة ، لنرى ما تعنيه هذه الآيات الكريمة ... ثم تتساءل : هل يجوز على نبيِّ الإسلام ، أو له — وهذه تعاليمه — أن يكون ذلك الرحيم بمشرِّكٍ، أو كافرٍ — والعياذ بالله ! — لأته قريبه، فحسب ... ويضرب ، عرض الجدار ، بهذه التعاليم التي جاء بها الوحي الصادع المججل ...؟! ...!

وهل يجوز أن يتقبل دفاع رجلٍ — عنه ، وعن دينه — مِنَّ لم يعمر قلبه الإيمان ، ولم يطمئنَّ للدعوة ، وهو الذي روي عنه : « اللَّهُمَّ لا تجعل لفاجرٍ ولا لفاسقٍ عندي نعمةً » ؟ ...!

وتعليل ذلك : أن مَنْ أسدى إليه يد المعروف ، ومدَّ إليه يد النصرة ، كانت له عليه النعمة الفضلى ... حينذاك وجب عليه الشكران والمكافأة ، وكانت له في قلبه ، منزلة سامقة ، ومحبة عميقة ...

وهذا كله يتخالف ، وما جاءت به الآيات ، التي فيها شدة ، وفيها إنذارٌ ، وفيها نفيٌ ، وفيها زجرٌ ، وفيها وعيدٌ ...

اللَّهُمَّ ! إلا أن نقول : إن الرسول ، لا يتمشَّى ونصوص دستور ربه ، وما يتنزَّل عليه مِنْ وحي السماء ...! ، فيخالف حرفية القرآن ، وما جاء فيه — وأستغفر الله ! — ليتسنَّى لنا — حينذاك — القول بكفر مؤمن قريشٍ ، بعدما ثبتت لنا فعاله ونصرته ، ومواقفه الصلاب ، في حياة الرسول ، ونصرة الدعوة ، وحفظ كيائها الوطيد ...!!!

وإذ ليس — ثمة — مَنْ يقول هذا ... فهو على الإعتراف بإيمان أبي

طالبٍ لمجبر... وقد سُدت عليه السبل ، بعد أن ثبت عن الرسول هذا الاستغفار ،
وهذا الذكر المتجدد ، والثناء العطر ، والتمجيد المستمر ، والتعظيم الرفيع...
وكلُّ هذا ... مع إغضاء النظر عن العمل ، الذي قام به أبو طالب ،
والاعتراف الذي سجَّله على صفحة الوجود ، وشكَّف به مسمع الدهر ،
يتألق بنور الإيمان ، ويشعُّ بلألاء اليقين !...

على لسان الإمام علي

إذا ما اتقلنا إلى الإمام عليّ « عليه السلام » ، لنجد ما يذكر به أباه ،
فإننا لنجد في أقواله ما ينضح بالدليل ، على إيمان أبيه ، ويبدد بألق اليقين
عُمة الشك ... ويقضي على المزاعم والتقوُّل ...

أغض أبوه عينيه ، فجاء للرسول ، وأنهى إليه خبر فقده ، فألقى إليه
الرسول تعاليمه ، فاثمر بما ألقى إليه النبي من قول ، فغسل أباه ، وحنَّطه ،
وكفَّته وشيَّعه ...

وهل يكون هذا لغير المسلم ؟... أنا لا أدري !!!

ثم رأى الرسول (ص) ، وهو يعترض جنازة أبيه ، ويتحفه زكيّ
القول ، وتهمر من عينيه دموع الأسي ، وزفير الألم ...

ثم تمضي الأيام - تبعاً - فيرى الرسول في ضائقة ، قد اشتدَّت عليه
الأمور ، وتأزَّم به الحال ... فلا يلبث أن يث الشكوى والألم ، لفقد
عمه الحنون ...

وتطوف بعليٍّ صورة أبيه ، وتمرُّ به مواقفه من الدين ، وذبحه عنه ،
وحياطته للرسول ، ومنعته به ، فتثور فيه كوامن الوجد الدفين ، وتخزُّ
جنبه شوكة الألم المستفحل ، فتسيل منه الدموع ، في انسكابٍ ، وهو يتمتم

بهذه الآيات ، التي تعكس لهبة ألمه الكمين :
 أبا طالب ! عصمة المستجير ! وغيث الحول ! ونور الظلم !
 لقد هده فقدك أهل الحفاظ ، فصلتني عليك ولي النعم !
 ولقائك ربك رضوانه فقد كنت للمصطفى خير عم (١)



وهكذا تمضي السنون ... فتعمل أمة عملها السيء ، وتضع الأحاديث الزور ، فيشاهد منها الإمام عليُّ شرَّ قذحها ، ويمرُّ بها شيءٌ من لهبها المحرق - وهي فاتحة عمرها المسودَّ ...

قفي يوم كان الإمام عليُّ ، في الرحبة ، والناس حوله ، إذ قام إليه رجلٌ ، ممن وصل إلى سمعه سوء القالة ، وزور الحديث ، فلبَّس عليه الحق ، بالباطل المفترى ... وقال له :

[يا أمير المؤمنين ! إنك بالمكان الذي أنزلك الله ، وأبوك معذب في النار ؟!]

فتنطبع صفحة وجه الإمام بالغضب ، وتثور نفسه أن ترجف أمة ، هذا الإرجاف الدنيء ، فتتسى كل واجبات الإنسانية ، فلا تحفظ ميتاً ، قد حاطه الموت ، وصاته الخلود . وأصبح لا يزاحمها في الحياة ، حتى بظله - اللهم إلا باقي الذكر ، ورفيع العمل - فلا تكتفي بأن تتناسى عمله الباقي ، وفعله الحميد ، ومقاومته لها على شركها ورجسها ، حتى تضع في حقه ، ما يدنس صفحة الصديق ، النصيحة البياض !

ويجيبه الإمام بجواب ، يكشف له فيه ، عن كذب هذه القولة :

(١) الحجة ٢٤ ، وتذكرة الخواص ١٢ ، وشيخ الأبطح ٥٠ - بدون الثالث - ومعجم القبور ٢٠٦ : ١ - بدون الثاني - والغدير ٩٩ : ٣ و ٣٧٩ و ٣٨٩ : ٧ - مسندة - والأعيان ١٤٠ : ٣٩ .

[مه ! فضَّ الله فاك ! * والذي بعث محمداً بالحق نبياً ! لو شفع أبي في كلِّ مذهبٍ ، على وجه الأرض ، لشفَّعه الله ... !

أبي معذبٌ في النار ، وابنه قسيم الجنة والنار ... !
إن نور أبي طالبٍ - يوم القيامة - ليطغى أنوار الخلائق ، إلا خمسة أنوارٍ ...] - الخ (١) .

فَمَنْ كان بهذه المنزلة الفضلى ، والدرجة السامية ، حتى أنه لهو «قسيم الجنة والنار» (٢) لا يكون مِنَ الفضل ، إلا على اكتمالٍ ... وإنه لا يليق لذلك ، إلا مَنْ كان مِنَ الإيمان ذلك العريق الجذور ... لم يدنس بأدناس الشرك ، ولا بأوضار الدناءة ...

وإنه لَمَّا ينقصه : أن لا يكون أبوه مؤمن القلب ، أو أن يكون مدنس الصفحة بالشرك ... فإنه ليعلق به منه ، ما يللم من فضله ، ويلاشي من قيمته ، ويخدش من منزلته .



ومرَّة أخرى يقول :

- والله ! ما عبد أبي ، ولا جدي عبد المطلب ، ولا هاشم ، ولا عبد مناف ، صنماً ، قط ! .

- فما كانوا يعبدون ؟ .

(١) الحجة ١٥، وتذكرة الخواص ١١، وشيخ الأبطح ٣٢، والغدير ٣٨٨: ٧، مسنداً لعدة مصادر، ومروياً عن الإمام الحسين السبط «عليه السلام»
(٢) حديثٌ صحيحٌ متكثرُ الرواة . وقد أُسند لأبي بكر الصديق ، في الرياض النضرة ١٧٧ و ٢٤٤ : ٢ .

— كانوا يصلثون إلى البيت ، على دين إبراهيم « عليه السلام » ،
متمسكين به (١) .

وحدث أبو الطفيل — عامر بن وائلة — عن عليٍّ « عليه السلام » :
[إن أبي حين حضره الموت ، شهد رسول الله (ص) ، فأخبرني
عنه بشيء ، خير لي من الدنيا ، وما فيها] (٢) .
ومرة أخرى يقول — ويوضح السر في كتم أبي طالب إيمانه :

[كان — والله ! — أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب مؤمناً مسلماً ،
يكتُم إيمانه مخافةً على بني هاشم ، أن تنابذها قريش] (٣) .
ومرة يقول :

[ما مات أبو طالب حتى أعطى رسول الله (ص) — من نفسه —
الرضا] (٤) .

هذه الأقوال من الإمام عليٍّ « عليه السلام » ، في حق أبيه ، وهذه
الشهادات السافرة ، والتي تصدر عن قصديء بعد أن يسمع سوء القالة ،
وأراجيف التهم — ما عسى أن يكون باعثها ؟ وما الذي يدعوه إلى
نشرها ؟ وما الذي يدفعه إلى الحديث ، عن أبيه ؟؟

(١) الغدير ٣٨٨ : ٧ — مسنداً — والعباس ١٨ — مسنداً لمرآة العقول

١ : ٣٦٢ — ومعجم القبور ٢٠٠ : ١١

(٢) الحجة ٢٣ ، والغدير ٣٨٨ : ٧ .

(٣) الحجة ٢٤ ، والغدير ٣٨٩ : ٧ ، ومعجم القبور ٢٠٠ : ١ .

(٤) الغدير ٣٧٠ و ٣٨٩ : ٧ . وفي الحجة ٢٣ مروياً عن الصادق

« عليه السلام » . والأعيان ١٣٦ : ٣٩ .

فهل نعزوها إلى العاطفة الأبوية ، وحمية الرحم ، دون أن يكون لها
 مساسٌ بالواقع ، وصلةٌ بالحق ؟؟؟
 لا أظن واحداً - ممن قرأ في قلبه الإسلام - بقادم على سلوك هذا
 الطريق المنقاد ... وهو من الوعورة ، بحيث يخرج سالكة عن حصن الإسلام
 وحظيرته ، لأنه تسوّر على مقام إمام المسلمين ، وحامي الإسلام ونصيره ...
 وخلاف سافر ، لما نصّ به الرسول (ص) ...
 فعليّ ليس بالذي يميل عن الحق - وهو معه - كما نصّ الحديث ،
 المتفق عليه ، بين المسلمين أجمع :

« عليّ مع الحق ، والحق مع عليّ » ، يدور مع حيث مدار .
 ولنا بحاجة لأن نسرّد كلّ ما نذّرت به شفتا الرسول الأعظم (ص)
 في حق وصيّته - وهي التي تضارع نور الشمس : ظهوراً وشهرة ...
 وإن كان - ثمة - من يحتمل أقوال الإمام ، شيئاً من عاطفة ، فانه
 ليطعن نبيّ الإسلام ، حيث أشاد بفضل رجل ، تغلب عاطفته على دينه ،
 ويفضّل رحمه على مبدئه ... فينساق مع شهوة ، ليغيّر حقاً ، ويحقّ باطلاً ...
 إذ أن واجبه المقدس ، يفرض عليه : أن ينفض يده من أيّيه - على فرض
 موته على الشرك - ويبرأ منه ، وهو العدو لله ، ولا يسدل على سواته ستراً ...
 فما حق الأب بأعلى من حق الله عليه ...

وله بسيرة أيّيه إبراهيم الخليل ، خير نبراس ، في ما اقص الله عنه :
 « فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » (١) .

فليس له : أن يوالي عدوّ الله ، إذا شاء أن يخلص العبادة لله وحده ،
 ويوثق الصلة بينه ، وبين الخلائق العظيم ، وهو وليّ النعم ! ...
 وليس بين المسلمين من يداني - بله يرجح - عليّاً ، إيماناً وإسلاماً ،

هو طاعة لله ورسوله ...

وإننا لنرى بينهم : مَنْ ضرب المثل الرائع ، في : رسوخ المعتقد ، ووطادة الإيمان ، والفناء في جنب الله ، وتقديم الواجب الديني على العاطفة النسبية - فما جبل النسب ، بالذي لا ينبت ، إذا تعارض وقوة الدين ، الرسيخ في القلب ...

وليس شيء ، مهما كانت له القوة والمنعة ، ومهما اشتد وصلب ، بالذي يقف أمام قوة الدين الجارفة المشتدة ، وهي كالنوء الغاضب ، يأتي على كل شيء يعترض دربه ، ويصدّه عن وجهته ، التي يريد ...



وإن التاريخ ليقصّ علينا : موقف عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول (١) ، مِنْ أبيه ، حيث فاه أبوه بكلمات النفاق ، في غزوة بني المصطلق ، فأحدث في صفوف المسلمين الفساد ... فلا يسمع بذلك ابنه عبدالله - وهو أقرب الناس إليه - حتى يذهب للرسول (ص) ليقول له :

[يا رسول الله ! بلغني أنك تريد قتل أبي ، فإن كنت فاعلاً فمُرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه . وأخشى أن تأمر غيري بقتله ، فلا تدعني تهسي أنظر إلى قاتل أبي ، يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل م مؤمناً بكافراً ، فأدخل النار] (٢) .

(١) يقول الزمخشري : إن اسم عبدالله هذا ، هو: حباب بن عبد الله بن أبي ، ولكن الرسول غير اسمه لعبدالله ، وقال : إن حباباً اسم شيطان ...!

(٢) وفي رواية الزمخشري : إن عبدالله بن أبي ، لما أراد أن يدخل المدينة ، اعترضه ابنه هذا ، وقال : وراءك ! والله لا تدخلها ، حتى تقول : رسول الله الأعز ، وأنا الأذل . فلم يزل حبيساً في يده ، حتى أمر الرسول ←

إنه ليرجو الرسول أن لا يطيح من أبيه رأسه الشموخ ، أحد سواه !... ولماذا ؟... لأنه يخشى أن يقوم بهذه المهمة غيره ، فتبت في قلبه بذرة الحقد ، لهذا القاتل ، ويقع منه ما لا يحمد له نفسه ، ويعرض نفسه لمسا لا يرضاه لها من عاقبة سوء... فإن نفسه قد لا ترضى منه : أن يصفح عن قاتل أبيه ، فتمتد إليه منه يد بمكروه ، فينال بذلك جزاء السوء ..

ولكنه إذا قام هو بالمهمة ، فلتأكل قلبه نيران الألم ، ويتلوَّى على مذبح الوجد ، دون أن تدنس منه صفحة الإيمان ، وتقاوة المعتقد ... ولكن الرسول الصفوح الرحيم ، يريحه من الإثنيين ، فيعفو عن ذاك المنافق من أجل ابنه المؤمن ^(١).



وهذه حادثة أخرى ، تدلنا على مدى طغيان العاطفة الدينية ، وتغلبها على عاطفة الرحم ...

فقد مرَّ عدى بن حاتم ، ومعه ابنه زيد — بعد المعركة الدامية بين الحق والباطل ، في صفين — فوجدا رجلاً ، من بين قتلى جيش معاوية الباغي

→ بتخليته •

وقيل : إنه قال له : لئن لم تقرأ لله ولرسوله بالعزة ، لأضربن عنقك ! فقال : ويحك ! أفاعل أنت ؟ ! قال : نعم ! • فلما رأى منه الجد : قال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين • فقال رسول الله لابنه : جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً ! •

(١) ذكر الحادثة ، كل من عرض لغزوة بني المصطلق ، كالكمال ١٣١ ، ٣٢ : ١ ، والطبري ٢٦٠ — ٢٦٣ : ٢ ، والكشاف ٤٦١ ، ٤٦٢ : ٢ [٤٢٣ — ٤٢٤ : ٤] ، وتفسير علي بن إبراهيم ٦٨٠ — ٦٨٢ ، وأشير إليها — بصورة أخرى — في مجمع البيان ٨٥ — ٨٧ : ٢٨ .

الضال ، وكان هذا القتيل خال زيد بن عدي ، فراح يصوت ، يسأل عن قاتل خاله ، فوافاه رجل طوال ، وهو يقول : أنا قتلته ...

وإذ أجابه القاتل على سؤاله ، عن صفة القتل ، وثب عليه زيد يرمحه ، فطعنه به وأرداه قتيلاً ...

وحينذاك ... حمل عدي على ابنه ، يكيل له السباب ، ويزف الشتم لأمه ، ويقول له :

[يا ابن المائقة ! لست على دين محمد ، إن لم أدفعك إليهم] .
لولا أن زيدا قد هرب من وجه أبيه ، ونجّاه منه - كما نجّى معاوية -
« سابح ذو علالة » (١) ، ذلحق بمعاوية ، فنال من معاوية ضرب الإكرام ،
فرفع عدي يديه ، داعياً عليه :

[اللهم ! إن زيدا قد فارق المسلمين ، ولحق بالملحدين ... (١) اللهم !
فارمه بسهم من سهامك لا يلتوي ... (٢)
لا والله ! لا أكلمه من رأسي كلمة ، أبداً ... ولا يظلني وإياه سقف
أبداً] (٣) .

-
- (١) إشارة لقول النجاشي - أيام صفين :
- ونجّى ابن حرب سابح ذو علالة أجش هزيم والرماح دواني
إذا قلت : أطراف الرماح تنوشه مرّة له الساقان والقدمان
- (١) في وقعة صفين : بالملحين .
- (٢) في الوقعة : لا يشوي - أو لا يخطيء - وبعدها : فإن رميتك
لا تنمي - وأشوي : رمى فأصاب الشوي ، أي : الأطراف - دون المقتل .
- (٣) كنا قد استقينا خطوط الحادثة - فيما تتصور - من الغدير ،
وفاتنا أن نضع الصفحة والجزء ، فلم نعر عليها فيه ، رغم إعادة البحث ، ولا
ندري فقد تكون من مصدر آخر .

وعاطفة الأبوة ، أشد قوة وأمضى ، من عاطفة البنوة ، فأتت تجد عديداً ،
قد أراد أن يورد ابنه حياض الموت ، لولا فراره منه ١٠٠٠ فلم يبق له ،
سوى الدعاء الحار ، وقد أفلت من يده ، ولحق بالحزب الملحد الباغي ١٠٠٠



وليست هذه الحادثة — في وقعة صفين — بالولد البكر ، فقد سجلت
حادثة أخرى ، هي صورة ثانية لهذه ، نرى عرضها هنا :

خرج من الفئة الباغية من يطلب البراز ، ولم يكده يسمع النداء حزب
الحق ، حتى يخرج على الصوت من يجيبه ، ويقتل الرجلان ، مثلاً فيهما :
الباطل المفضوح ، والحق الأبلج ، ويشتد بينهما الصراع ، بين الصنفين ، حتى
اعتنق الرجل الحق — العراقي — ذلك المبطّل — الشامي — فيقعا تحت قوائم
فرسيهما ، ويجلس هذا على صدر الشامي ، ويكشف المغفر عن وجهه ،
ليجهز على رمق الحياة فيه ، وإذا به يكشف عن وجه أخيه ، لأبيه وأمه ١٠٠٠
ولكنه يسمع أصواتاً ، تتعالى من حزبه ، وتدعوه :
« أجهز على الرجل ! »

ولكنه يتأثى ويجب : « إنه أخي » . فيسمع جواب قوله :
« فاتركه ! » .

وقد كان له في ذلك مخرج ومنجاة ، ولكنه لا يقنع بذلك حتى يتلقى
ما يبرّر مقامه وساحته ، فما هو بالذي يقدم عاطفة الدم على واجب الدين ،
وخدمة المبدأ ، فيجيب بعناد وإصرار :
[لا ! حتى يأذن لي أمير المؤمنين] .

→ وقد ذكرت في وقعة صفين ٥٩٩ ، ٦٠٠ .
وأشير لها في كامل ابن الأثير ١٦٥ : ٣ — وذكر أن القليل مع معاوية ،
هو : حابس بن سعد الطائي ، خال زيد .

فيخبر عليّ « عليه السلام » بذلك ، فيضع الحدّ الفاصل : « دعه ! » (١)
ولو لم يتلق الأمر من قائد البار ، لما دعاه يفلت من سيفه ، ولأورده
حياض الموت

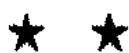
وليس هؤلاء بأشدّ مخشنة في جنب الله ، وتفانياً في سبيل المبدأ ، ممن
قام الإسلام ، على ساعديه : قوياً ناشطاً ، وممن أطاح بسيفه المرفف ، رؤوساً
مشركة شامخة ، وهدد حصوناً من الشرك ، على منعة ، ودعائم على قوّة
ومتانة

وما هو بالذي يخرج عن الحق ، أو يفرق عنه طرفة عين ، كي ينفلت منه
اللسان ، بغير حقّ المقال ، ويذكر أباه بغير الواقع الصادق !

فلو لم يكن عليّ بإيمان أبيه ذلك العليم ، لما نفى عنه سوء القالة ، وذكره
بباطر الشناء ولكان إلى جانب الثالين ، لا يهدئ من تههم واهي الأسس .
فإنه أولى بأن يقول الحق ، ولو على أبيه ، أو نفسه ، وله من إيمانه ، وملازمة
الحق إياه ، ما لا تزل به القدم

وهو الأولى — بعد الرسول (ص) — بأن يتمسك بما جاء في
القرآن العظيم ، وينتهي عما ينهى عنه وقد مرّت بنا تلك الآيات الكريمة ،
التي تحمل الوعيد الزاجر ، والنهي الراعد ، لمن يتوالى من لم يتهل قلبه ، من
نبح الإيمان الروي

وما عليّ ، بالذي يخالف القرآن ، في نهْي أو أمر — وهو الحق مجسداً .



ومناسبٌ جداً أن نضع — أمام القارئ — هذه الفقرة ، من قولهِ ، ألقاها

(١) وقعة صفين ٣٠٨ .

الإمام ، في أحد أيام صفين ، أمام العدو والصديق :
 [ولقد كنا مع رسول الله (ص) ، نقتل آبائنا وأبناءنا وإخواننا ،
 وأعمامنا ، وما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ، ومضيئاً على أمض الألم ، وجداً
 على جهاد العدو ، والاستقلال ببارزة الأقران] - الخ (١) .
 وإنها لصورة رائعة ، تكشف لنا عما كان عليه المسلمون ، من شدة وقوة
 وصلابة في إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، حتى لو كان ضحية ذلك
 الآباء والأبناء - كما وصفهم لنا القرآن الكريم ، وكما أمر به دستور
 الخالد ...

على لسان أهل البيت

إذا ما تتبعنا سيرة أهل البيت الأطهار ، وجدنا كل واحدٍ منهم ، يهده
 حصون التهم ، التي شيدت حول إيمان بيضة البلد ، ويكشف الستر المسدل ،
 الذي أريد منه أن يحجب السني ، من إيمان شيخ الأبطح ، ويسمى ليرد
 للحق رواءه ، ويهد من الباطل دعائمه الواهية البناء ... ليجار بكلمة الحق
 - وهي الصافية الثيرة - في مجتمع ، قد أصم آذانه صراخ الباطل ...
 وكل ما ازدادت هذه الأصوات ، والجلبة الكاذبة ، وجدنا مثل هذه
 الكلمة الحققة ، يمتد منها النفس ، وتطول المقاطع ، وتردد من الحناجر ...
 وكل ما اشتدت زحمة الظلمة ، واحلولكت من الوجود رقعة ، كانت
 الإشعاع أشد لمعاناً ، وأطول بقاءً ، لتفري شيئاً من هذه الظلمة المتلبدة ،
 ولتأخذ بيد من ضل الطريق ، من زحمة الظلام ، عن غير قصد ، وراح يبحث
 عن الضوء ، ليسير على سناه ، ويعود إلى المنهج الأقوم ...



سأل الإمام السجّاد - علي بن الحسين « عليه السلام » - واحد من

هؤلاء ، الذين وصلت إلى سمعهم ضوضاء الباطل ، من السحب ، التي أُثيرت
حول إيمان أبي طالب... فكان جواب الإمام : نعم !
وأعاد السائل القول ، ليقف على مصدر هذه التهم ، ويعرف مدى
الواقع منها ...

— إن هنا قوماً ، يزعمون أنه كافر !
فتتفلت من صدر الإمام أنه جريح ، وصرخة مهتضم مظلوم ، مفترى عليه :
[واعجباً كل العجب ! أيطعنون على أبي طالب ؟ أو على رسول الله
(ص) ، وقد نهاه الله تعالى أن يقر مؤمنة مع كافر ، في غير آية
من القرآن ؟]

ولا يشك أحد أن فاطمة بنت أسد « رضي الله عنها » من المؤمنات السابقات .
فإنها لم تزل تحت أبي طالب ، حتى مات أبو طالب « رضي الله عنه » [(١) .



إن قولة الإمام السجاد — هذه — تعني : أن القول بشرك أبي طالب ، ليس
غير طعن على الرسول (ص) ، الذي تهاون في إنفاذ ما استنّه الله في
كتابه ، فقد جاءت فيه غير آية ، تنهى : أن بطل امرأة ، قرء في قلبها الإيمان :
جناح رجل ، لم يهتد بسنى الدين ...
ولم يكن — ثمة — من شك في إيمان فاطمة بنت أسد — أم علي ،
وزوج أبي طالب التي لم تنل من إيمانها الدعايات ، ولم تحك حولها الدسائس .
وليس — ثمة ، أيضاً — من يقول : إن الرسول قطع حبل الزوجية
بينهما ، والذي بتّه القرآن ، لو لم يكن أبو طالب مؤمناً ! ...

(١) الحجة ٢٤ ، والنهج الحديدي ٣١٢ : ٣ ، وشيخ الأبطح ٧٦ ، والغدير
٣٨١ و ٣٩٠ ، ٣٩١ : ٧ ، مسنداً للمصدرين الأولين ، وللدرجات الرفيعة ،
وضياء العالمين ، الذي قال عنه قيل : إنها متواترة عندنا — والأعيان
١٣٦ ، ١٣٧ : ٣٩ ، بصورة مختصرة .

وإذ بقيت فاطمة - وهي المسلمة بإيمانها - تحت جناح أبي طالب ، فإن
القائل بشرك أبي طالب ، بين :

طاعن على أبي طالب ؛ إذ افترى عليه ما هو منه بريء ، وناله بالظلم ،
حين ينسبه إلى الشرك ، وهو المؤمن ...

وطاعن على الرسول ؛ إذ لو ثبت شرك أبي طالب - وذلك ما لا يجوز -
فإن الطعن يتوجه للرسول ذاته ، إذ كان ذلك المتهاون ، في ما يتلقاه من
وحي السماء ، بعد أن كنهاه الله : أن يقر مؤمنة مع كافر ، فلا ينفذ ذلك ،
ويقطع هذا الحبل الممتد بين فاطمة وعمة ...

إذن ... فالقول بشرك أبي طالب ، يتطلب جرأة فذة ، وصلابة وقحة ،
لأنه طعنة توجه إلى صميم الدين الإسلامي الحنيف ... إلى صميم رسوله
الأقدس ... إذ لم يكن ذلك الصلب في جنب الله ، والشديد في ذاته ،
والعامل بما ينزل عليه من وحي مقدس ...



وهذا ابن السجّاد - الإمام الباقر « عليه السلام » - يُسأل عن فرية ،
من تلك المفتريات الشائنة ، وهي : ذلك الحديث المخلّق المكذوب ، الذي
تلهج به السنة ، من مراض القلوب ، وهو : أن أبا طالب في ضحضاح
من نار :

[لو وضع إيمان أبي طالب ، في كفة ميزان ، وإيمان هذا الخلق في الكفة
الأخرى ، لرجح إيمانه] .

ثم يقول :

[ألم تعلموا : أن أمير المؤمنين علياً « عليه السلام » كان يأمر : أن
يُحج عن عبدالله ، وآمنة ، وأبي طالب ، في حياته - [أي : علي] - ثم

أوصى ، في وصيته ، بالحج عنهم ؟ [(١)] .
 إله يقول : إن لإيمان أبي طالب رجحانا ذاتيا ، على إيمان الخلق .
 فهو إيمان عارف ، لا مقلد . . . إيمان نصير مكافح . . .

فإيمان ، يصدر من زعيم قبيلة — هي لباب العرب — وبلدة يؤمها
 العرب أجمع . . . وتحوطها بالتقديس والإجلال قلوب ، على وفرة عدد . . . فلا
 يلبث هذا الزعيم المتبوع أن يتخلّى عن زعامته ، ويكون تابعا لتيه ، نشأ في
 حضاته ، وتحت رعايته . . . إن ذلك لإيمان رجيح ، له قيمته الفضلى ،
 وقيمه السامقة ، ولا سيما أن هذا الإيمان ، يحطّ من رقيع قيمة هذا المؤمن ،
 وسامق منزلته . . . يحطّ ذلك منه ، في أعين قومه . . .

ثم راح يستدلّ على ذلك ، بعمله ، كان يقوم به إمام المسلمين عليّ عليه
 السلام . . . فقد كان يأمر أن يُحجّ عن أبي طالب . ولم يقتصر على ذلك في
 حياته . . . فأوصى به ، بعد موته . . .

والحجّ ركنٌ من أركان الدين الإسلامي . . . فليس يجوز على عليّ : أن
 يأمر به عمّن لم يضمّه الإسلام إليه . . .

★ ٣ ★

أمّا الإمام الصادق « عليه السلام » — فإننا نقف على ثروة ، ممّا قاله في
 حقّ جدّه ، ودخض التهم الملصقة به . . .

ذلك أن عصر الصادق « عليه السلام » — وقد كان بعد انحطاط دولة

(١) النهج ٣١١ : ٣ — وتجدر الإشارة ، إلى غلطة مطبعية ، في النهج ،
 عند ذكر هذا الحديث ، فقد جاء فيه : [وقد روي عن عليّ بن محمد] .
 والصحيح : [محمد بن علي] . ومعجم القبور ١٨٩ : ١ ، والحجة ١٨ ، وشيخ
 الأبطح ٣٢ و ٧٦ ، والغدير ٣٨١ و ٣٩١ : ٧ — مرجعا لعدّة مصادر —
 والأعيان ١٣٦ : ٣٩ .

غاشمة ، سقت الأمة كأساً مبسّرةً ... وقيام دولة ، اتخذت لها شارة العلوية ... وحددت لها هدف ردّ الحق إلى أهله ، لتجعلها سلاحاً ، وحجر الزاوية في تأسيس دعامة الدولة الجديدة ... وكان من ثمار هذا أن ترفع السيف — لحدّ مّا ، ولوقت محدود — عن الرقاب العلوية ... وترفع الكمّات عن الأفواه ، لوقت معلوم ... على أن تعود لذلك كلّها ، متى استقرّ بها الحال ، فتستوفي ما فات ، والصّاع صاعين ...

ذلك أنّ هذا كان سبباً فعّالاً ، ليجلجل صوت جعفر بن محمد ، بكلمة الحق ، ويؤثر عنه فيض من سنى نوره ، ورفعة تعاليمه ... وكان — من بين هذا — شيء ، له قيمته في حق نصير الرسول ...

فمرة يجب سائلاً ، قال له :

[إن الناس يزعمون : أن أبا طالب ، في ضحضاح من نار] •

فيقول الإمام :

[كذبوا ! ما بهذا نزل جبرئيل !]

ثم قال :

[إنّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف: أسروا الإيمان ، وأظهروا الشرك ، فاتاهم الله أجرهم — مرتين — وإن أبا طالب أسرّ الإيمان ، وأظهر الشرك ، فاتاه الله أجره — مرتين — وما خرج من الدنيا ، حتى أتته البشارة من الله تعالى بالجنة] •

ثم قال :

[كيف يصفونه بهذا ؟! وقد نزل جبرئيل ، ليلة مات أبو طالب ، فقال :

يا محمد ! اخرج من مكة ، فما لك بها من ناصر ، بعد أبي طالب] ^(١) •



(١) الحجة ١٧ و ١١٥ ، والنهكج ٣١٢ : ٣ ، والغدير ٣٨١ و ٣٩١ : ٧

— مستنداً — ومعجم القبور ١٩١ : ١ ، وجاء شطر منها في الأعيان ١٣٦ : ٣٩ •

إن الإمام يقول : إن الله قد أتى أبا طالب ، ضعفي المشوبة والأجر ،
إذ استطاع أن يكتنم إيمانه ، لما رأى الكتمان هو الأصلح... فله أجر الإيمان ،
وأجر الكتم هذا... فما كل مؤمن ، بقادرٍ على أن يكتنم ما يؤمن به ، وإن
كان ذلك في صالح الدعوة ...

وإنه ليقول ذلك ، بعد أن مثله بأهل الكهف ، الذين حكى قصتهم
القرآن الكريم .

فما مضاعفة الأجر بكثيرٍ ، على مَنْ بلغ به الإيمان ، هذه الذروة الرفيعة...
وما الكتم - إذا فرضته المصلحة - ببدعٍ على أبي طالب ، أو بمستنقع الوجود ،
بعد أن تجده في أهل الكهف !

... وبعد أن يقول إن الله بشره بالجنة ، قبل أن يبرح هذه الدار
الفانية ... وليس في هذا كبير أمر ، بعد أن ذكروا أن النبي « ص » ، بشر بالجنة
أناساً بالذات ... ولعل فيهم مَنْ لا يقاس بأبي طالب : نصرة للإسلام ، وذبا عنه..

بعد أن يقول ذلك ... يدعم قوله بإيمانه ، بدليل رسيخٍ ، وحجةٍ
لا تُدحض... فَمَنْ كان موته يهدئ ركن الرسول ، فلا يبقى له بمكة قرارٌ...
بل ينزل عليه الوحي صادعاً ، يأمره بالخروج ، بعد فقدان الناصر...
مَنْ كان كهذا ... فهل مِنْ الجائز أن يكون كافراً ، أو تمسُّ النار
شعرةً مِنْ جسده...؟!!

إذن ... فليتساوِ المؤمن والملاحد ، والمسلم والمشرِك...!



ويدور مع الإمام الصادق ، ويونس بن نباتة - حديثٌ ، يسأل فيه
الإمام :

- يا يونس ! ما يقول الناس في أبي طالب ؟
- هو في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ ، يغلي منها أمُّ رأسه !

— كذب أعداء الله ! إن أبا طالب من رفقاء النبيين والصدّيقين ،
والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا^(١) .

ومرّة يقول له سائلٌ : إنهم يزعمون أن أبا طالب كان كافراً .
فقال : كذبوا ! كيف وهو يقول :
ألم تعلموا أنّنا وجدنا محمّداً نبياً — كموسى — خطّفي أول الكتب^(٢)

ومرّة أخرى يقول : كيف يكون أبو طالب كافراً ، وهو يقول :
لقد علموا أنّ ابننا لا مكذبٌ لدينا ، ولا يعبا بقول الأباطيل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمالُ اليتامى عصمة للأرامل^(٣)

يقول الإمام : كيف يكون كافراً ، من يعترف للرسول ، بالنبوة
والصدق ، وأنه نبعه السماء والمعتصم للأرامل ، المبارك الوجه ، الميمون
الطلعة ؟...



ويحدّث الإمام الصادق :

[كان أمير المؤمنين « عليه السلام » يعجبه أن يروى شعر أبي طالب
« عليه السلام » وأن يُدوّن . وقال : تعلّموه وعلمّوه أولادكم ، فإنه كان
على دين الله ، وفيه علمٌ كثيرٌ]^(٤) .

وهذا الحديث — بالإضافة إلى الشهادة السافرة ، من عليٍّ بإيمان أبيه

(١) الحجة ١٧، وشيخ الأبطح ٣٢ و٧٥، والغدير ٣٩٤ : لا مسنداً لكنز
الفوائد وضياء العالمين .

(٢) و (٣) الغدير ٣٩٢ : ٧ لمصادر عدّة .

(٤) الحجة ٢٥ — مسنداً عن أبي الفرج الأصفهاني — والغدير ٣٩٥ : ٧ ،
مسنداً لعدة مصادر .

— يكشف لنا ، عن قيمة أبي طالب ، ومنزلة السامية... فإن الإمام علياً ، ليشير إعجابه أن يروى شعر أبي طالب...! ولذلك... فإنه يأمر بتعلمه وتعليمه ، فهو يحفل بالعلم الكثير، وهو على دين الله ، وله إحاطة ومعرفة بأديان الله...

★ ★

وهذا درست بن أبي منصور ، يسأل الإمام الكاظم موسى «عليه السلام» عن أبي طالب... وهذا السائل لا يسأله عن إيمانه — وهو به ذلك العليم ، ولديه ذلك الثابت — وإنما يسأله عن شيء ، فوق الإيمان : — أكان رسول الله «ص» محجوجاً بأبي طالب ؟.

- لا ! ولكنه كان مستودعاً للوصايا ، فدفعها إليه .
- فدفع إليه الوصايا ، على أنه محجوجٌ به ؟.
- لو كان محجوجاً به ، ما دفع إليه الوصية !.
- فما كان حال أبي طالب...؟
- أقرَّ بالنبى ، وبما جاء به ، ودفع إليه الوصايا (١) .

★ ★

وهذا الحديث ، هو إحدى الدعامات ، التي تسند ما قلناه، حين تحدثنا عن « شخصية » أبي طالب — من هذا الكتاب — فإن مثله ضروريُّ الوجود، ليصل الإشاعة ، المنبثقة من الدعوة الحنيفة ، التي نادى بها إبراهيم الخليل — بهذا القبس المشع ، الذي رفعته الحمديّة البيضاء !.

وسير الحديث ، يدلُّنا على أن السائل ، كان مطمئناً لإيمان أبي طالب ، ومعتقداً بأنه مستودعٌ للوصايا ، أسلمها لخاتم النبيين . وليس يستودع هذا الإرث الإلهي ، من أغلق قلبه ظلام الشرك...! وليس السؤال، إلا عن شيء، هو فوق الإيمان... وإلا فلهجة السؤال،

(١) العباس ١٨، والغدير ٧: ٣٩٥ — مسنداً .

تدلُّ على الإيمان والوصايا ... وإنما ظنَّ السائلُ من عظيم معرفته بمنزلة أبي طالبٍ - أن الرسول كان ، قبل البعثة ، محجوجاً بهذا الوصي ... فدفع هذا الوهم من السائل : جوابُ الإمام الصريح ... —
وأكد الإمام ذلك ، في جوابه على السؤال الثاني ، من السائل ، الذي شاء الإحاطة والتقصي ...

وبعد أن اقلعت من نفسه ، سحب الوهم ، خصَّ بالسؤال حال أبي طالب ، بعدما دفع لابن أخيه : ما استودع من الميراث النبوي ... فأجابه الإمام : بأنه أقرَّ بالنبوة ، وآمن بالله . وما دفعه الوصايا ، سوى الإقرار العملي ... !

★ ٥ ★

وكتب أبان بن محمود - ، إلى الإمام عليّ الرضا « عليه السلام » ، وقد كادت قولة الزور ، تززع منه الإيمان :

« جعلتُ فداك ! . إني قد شككتُ في إسلام أبي طالبٍ » .
فما كان من الإمام إلا أن كتب إليه :

[وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ،
وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثَوَّلَهُ مَا تَوَلَّيَ ، وَثَنَّا^(١) جَهَنَّمَ ،
وَسَاءَتْ مَصِيرًا . (١)]

— وبعدها : إنك إن لم تقرَّ بإيمان أبي طالبٍ ، كان مصيرك ، إلى النار [(٢)]

★ ★

(١) النساء ١١٥

النهج ٣١١ : ٣ ، والحجة ١٦ ، والغدير ٣٨١ و ٣٩٦ : ٧ — مسنداً لمصادر
عديدة — ومعجم القبور ١٨٩ : ١ ، والأعيان ١٣٦ : ٣٩ — بدون ما بعد الآية .

ان جواب الإمام الرضا ، يدلُّ على أنَّ الشك في إيمان أبي طالب ، شيء يتنافى والإيمان بالرسول . فإن إيمان أبي طالب ، مِنْ الوضوح والثبوت ، بحيث لا يتسرَّب إليه شكٌ ... وَمَنْ كَانَ مِنْهُ عَلَى شَكٍّ فَإِنَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ عَلَى زَعْرَعَةٍ ، لِأَنَّهُ مُشَاقَّةٌ لِلرَّسُولِ ، وَتَعَامٍ عَنِ الْهَدْيِ ، بَعْدَ مَعْرِفَةٍ مِنْهُ بِهِ ...

وَمَنْ يَتَعَامَى عَنِ الْهَدْيِ ، وَيَتَّبِعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ ، وَزَلَّتْ بِهِ الْقَدَمُ ، عَنْ مَنَهِجِ الْحَقِّ الْأَلْحَبِّ ، وَصِرَاطِهِ الْأَقْوَمِ ... وبذلك يكون مصيره إلى النار ، بعد ما سلك الطريق ، التي تذهب بسالكها ، إلى حمم الجحيم !...

على أن هذا إيذاءٌ للرسول الأعظم (ص) ... وإيذاء الرسول - هو الآخر - ذنبٌ يستوجب النار ، لقوله تعالى :

« إِنَّ الْكَافِرِينَ يَمُوتُونَ فِي الذُّلِّ وَرَسُولُهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ وَالْآخِرَةُ لَعَنَّاهُمْ وَعَذَابُ اللَّهِ أَلِيمٌ » (١)
« وَالْكَافِرِينَ يَمُوتُونَ رُسُلًا لِلَّهِ لَعَنَهُمُ اللَّهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٢) .

وفي حديثٍ ، رُوي عنه :

« مَنْ آذَى شَعْرَةً مِنِّي ، فَقَدْ آذَانِي . وَمَنْ آذَانِي ، فَقَدْ آذَى اللَّهَ » (٣) .

★ ٦ ★

وهذا الإمام العسكريُّ - الحسن بن عليٍّ « عليه السلام » يقول ، في حديثٍ طويلٍ ، يسنده لآبائهُ الأطهار :

[إنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ (ص) : إني قد أَيْدَتَكَ بِشِيعَتَيْنِ : شِيعَةً تَنْصُرُكَ سِرًّا ، وَشِيعَةً تَنْصُرُكَ عَلَانِيَةً .

(١) الأحزاب ٥٧ ، (٢) التوبة ٦١ ، (٣) الصواعق ١١١ .

فأما التي تنصرك سرّاً ، فسيّدهم وأفضلهم : عمك أبو طالبٍ . وأما
التي تنصرك علانيةً ، فسيّدهم وأفضلهم ابنه عليّ بن أبي طالب عليه السلام .
ثم قال : [وإن أبا طالبٍ كمؤمن آل فرعون ، يكتُم إيمانه] ^(١) .

يقول : إن الله نصر الرسول بشيعتين ...

وإن إحداهما : لا تقوم بالمهمة ، إلا في الخفاء ، ما دام الجهر يتعذّر عليها ،
ولا تستطيع القيام بها ، إلا في السر ، لأُمورٍ تحتم ذلك ... كنصرة الملائكة ،
في ما قصّه القرآن الكريم :

(وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا) ^(٢) ، (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) ^(٣) .
(أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ) ^(٤) .
(يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) ^(٥) .
(إِنِّي مُمِدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ) ^(٦) .

إلى آخر ما هنالك من آياتٍ تتعلق بهذا الموضوع .

... وكنصرة أبي طالبٍ الفعّالة ، وكانت في حكم السر ، ما دام يكتُم
إيمانه . فإن النصرة لم تكن لتأتى له ، لولا هذا الكتمان ...

وإن مثله ، كمثل مؤمن آل فرعون ، الذي تقرأ قصته في ما تتلوه من
القرآن العظيم ^(٧) ... فإنه لولا كتمان الإيمان ، لكان قد نفذت الفراغة
ما اعتزمته من قتل الكليم موسى ... ولكنه وقف موقفه الفعّال ذاك ،

(١) الحجة ١١٥ والغدير ٣٦٨ : ٧ مسنداً .

(٢) التوبة ٢٦ (٣) التوبة ٤٠ (٤) و (٥) آل عمران ١٢٤ و ١٢٥ .

(٦) الأنفال ٩ .

(٧) افتتحنا الكتاب ، بهذه الآيات الكريمة ، لشبهها ومساسها بالموضوع .

وقومه لا يعرفون منه : مؤمناء... وإنما يظنونه مثلهم... ولم يلقر إليهم بهذه النصائح ، إلا لأنه متفقٌ معهم على المبدأ .

وكذلك كان موقف أبي طالب ، من دعوة الرسول (ص) .
والى هذا يشير الإمام ، في ما قصه من حديث ، أسنده - عن آبائه الأطهار - إلى جدّه الرسول (ص) .



وليس من يستطيع : أن يظن بأقوال العترة النبوية ، شيئاً غير الحق ، فيحمله على حمية النسب ، ورابطة الرحم ، بعد ما جاء القرآن بطهارتهم :
(إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ - أَهْلَ الْبَيْتِ - وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) (١) .

وهي آية تفصح لنا عن عصمة العترة الطاهرة ، رغم المواقف المخزية ، والتحذلق البغيض ، في تفسيرها ، من بعض المنحرفين ، عن أهل البيت « عليهم السلام » .

وأهل البيت : عدل القرآن - المعجزة الخالدة - وحبلٌ ممدودٌ ، بين : الأرض والسماء... من أخذ به ، فإنه يرتفع إلى القمة من الخلود... ومن لم يكن له منه نصيبٌ ، فهو في السفح ، لن يرتفع من الوهدة ، وقد أحاط به الهلاك والدمار :

[إني مخلّفتُ فيكم الثقلين... ما إن تمسّكتُم بهما لن تضلّوا : كتاب الله ، وعترتي أهل البيت ، لن يفرقا حتى يردا عليّ الحوض] .
وهذا الحديث - المجمع عليه بين المسلمين - شاهدٌ آخر على عصمتهم .

فَمَنْ نَالَ مِنْهُمْ بِنَقْدٍ أَوْ ذَمٍّ، فَإِنَّهُ قَدْ نَالَ الْقُرْآنَ - وَهُمْ عِدْلُهُ - وَمَنْ
تَخَلَّفَ عَنْهُمَا، فَمِنْ الْهَلَاكِ وَإِلَيْهِ ...

هذا إلى أحاديث وأحاديث ... وآيات وآيات ... ليس مِنْ موضوعنا
عرضها، بله تقصّيها، وكلّها شاهد صدقٍ على طهارة أهل البيت .

فليس يجوز أن يجانب الحق : مَنْ نِيْطَتْ بالتسك به ، نجاة العباد ...
وليس يقول غير الحق : مَنْ كَانَ عدلاً للقرآن - وهو : الدستور الإلهي ،
والمعجزة الباقية .

وهم أولى الناس بأن لا يخالفوا القرآن ، في ما سنّه مِنْ دستورٍ ، في ما
جاء به ، مِنْ نهيٍّ وأمرٍ ...

وقد وقفنا عند تلك الآيات ، الناهية الزاجرة ، عن اتخاذ أعداء الله
أولياء ، وهو الذي ينافي الإيمان - فكيف بهم « عليهم السلام » ، يمدحون
لسببٍ ، أو نسبٍ ... ويقولون في شخصٍ - ولو كان أباهم - غير الحق ،
وينسبون إليه ، ما لم يصحّ منه ، أو يبرئونه ممّا هو به ألصق ...!

وإن القائل فيهم « عليه السلام » ، مثل هذا القول : متسوّرٌ على
مقامهم الذي هو مقام رسول الله (ص) ... ونائلٌ مِنْ قدس الرسالة
المحمّدية ، وقداسة رسولها الكريم ...!

على لسان الصحابة وآخرين

إننا لنجد ، بين الصحابة - مَنْ لم تعمّر عينيه الشهوات ، ولم تتحرف
به الأغراض ، عن سويّ الطريق - مَنْ يشهد لأبي طالبٍ بالإيمان ، ويذكره
خيرّ الذكر ...

ولسنا نريد أن نتقصّى جميع ما قالته الصحابة ، فنطيل البحث والعرض ...

ولكننا نشير إلى قولات بعضهم ، كدليل على وجود ذلك بينهم ليس ، إلا...
فهذا الخليفة أبو بكر الصديق ، يقول :

[إن أبا طالب ، ما مات ، حتى قال : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله] (١) .
وكذلك قال العباس ، بمثل ما قال أبو بكر (٢) .

★ ★

وهذا عبد الله بن العباس ، يسأله رجل :
يا ابن عم رسول الله ! أخبرني عن أبي طالب ، هل كان مسلماً ؟
فيجيبه : وكيف لم يكن مسلماً ، وهو القائل :

وقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ، ولا يعبأ بقول الأباطل...!

إن أبا طالب ، كان مثله كمثل أصحاب الكهف ، حين أسروا الإيمان ،
وأظهروا الشرك ، فأتاهم الله أجرهم مرتين (٣) .

★ ★

وهذا أبو ذرّ - وهو الصحابي الجليل ، الذي لم يغم عينيه بريق
الذهب ، ولم يرهبه بطش معاوية ! - يقول :

[والله الذي لا إله إلا هو ! ما مات أبو طالب - رضي الله عنه - حتى
أسلم] - الخ (٤) .

★ ★

(١) النهج ٣١٢ : ٣ ، وشيخ الأبطح ٧١ ، والغدير ٣٧٠ و ٤٠١ : ٧ ،
والأعيان ١٣٦ : ٣٩ .

(٢) شيخ الأبطح ٧١ و ٧٣ ، والغدير ٣٩٩ : ٧ مروياً عن ابن عباس ،
عن أبيه - و ص ٤٠١ : ٧ ، والأعيان ١٣٦ : ٣٩ .

(٣) الحجة ٩٥ و ١١٥ ، والغدير ٣٩٧ : ٧ (٤) الغدير ٣٩٩ : ٧ .

وفي أبياتٍ لحسان بن ثابتٍ :
فإِذَا نَدَبْتُمْ هَالِكاً فابْكُوا الوفيَّ أَخَا الوفيِّ

قال سبط بن الجوزي : « يعني : حمزة وأبا طالب » .



ما كانت هذه الشهادات ، لتختصَّ بعصرٍ دون عصرٍ ، أو طبقةٍ دون غيرها . فإن كلَّ مَنْ لم تفرض عليه الأغراض ، أن يقول ما يشاء — ولو حول هذا الموضوع ، بخاصَّة — نجد لديه بصيصاً من نورٍ ، ينبعث في زحمة الظلام ، لينير الطريق السوي ...

وهذه كلمة حقٍّ ، تنبثق من حنجرة الملك العباسي عبدالله المأمون — وهو هو ... ولكنها كلمة حقٍّ لا بدَّ وأن تنفلت من صدره ، حتى لو شاء أن يطول لها الحبس ... فقد كان يقول :

أسلم أبو طالب — والله ! — بقوله :

نصرتُ الرسولَ رسولَ الملِكِ م	بيضٌ تلالاً ، كلمعُ البروقِ
أدبٌ وأحمي رسولَ الإلهِ	حمايةً حامٍ ، عليه شفيقٌ
وما إن أدبٌ لأعدائه	ديبُ البكارِ ، حذارُ الفنيقِ ^(١)
ولكن أزيرو لهم سامياً	كما زار ليثٌ بغيلٍ مضيقٍ ^(٢)



(١) تذكرة الخواص ٣١ .

(٢) البكار ، جمع بكر : الفتية من الإبل . الفنيق : الفحل المكرَّم ، لا يؤذى ولا يتركب ، لكرامته .

(٣) النهج الحديدي ٣١٤ : ٣ ، والفدير ٣٣٧ : ٧ ، والحجة ٥٤ ، وديوان

أبي طالب ١٠ .

وهذا أبو جعفر الإسكافي ، يذكر أبا طالب - عَرَضاً - وهو في سبيل
« نقض العثمانية » - الرسالة التي يرده ، فيها ، على رسالة الجاحظ :
« العثمانية » - فلا يسعه حينئذ إلا أن يتحفه بالثناء مما يستحق ... فإنه يقول :
[وكان أبو طالب أباه - يعني : الرسول - في الحقيقة ، وكافله وناصره والمحامي
عنه ، ومن لولاه لم تقم له قائمة * ومع ذلك لم يسلم - في أغلب الروايات] (١)
ونحن نستغرب ؛ بل لا نظن أن أبا جعفر قد قال هذا الذيل ، الذي
ينقض مقدمة كلامه ، مضافاً إلى أن أبا جعفر ، من القائلين بإسلام أبي طالب -
كما سنشير إليه في الفصل الأخير .

ومما يضاعف الشك عندنا هو : أن مصدرنا في هذا ، هو خلاصة رسالته ،
لا رسالته بالذات ، وجامعها هو : حسن السندوبي ، الذي وقفنا معه في مقدمة
الكتاب : « على العتبة » .

ثم لو ثبت هذا الذيل له ، فهو لم يوضح رأيه الذاتي ، في الموضوع ...
وإنما أشار إلى أن من الروايات ، ما تميل إلى عدم إسلامه ...

وفي موضع آخر ، حيث عرض لمن أسلم بحسن دعاء أبي طالب ، وإقباله
على الرسول الأعظم (ص) يقول حول ذلك :

(ولأجله - يعني : أبا طالب - صبر بنو هاشم على نصرة رسول الله - صلى
الله عليه وآله وسلم - بمكة ، من بني مخزوم ، وبني سهم ، وبني جمح . ولأجله
صبر بنو هاشم على الحصار في الشعب ... وبدعائه وإقباله على محمد صلى الله عليه
« وآله » وسلم ، أسلمت امرأته فاطمة بنت أسد ، فهو أحسن رفقاء وأمين تقيّة
من أبي بكر ، وغيره * وما منعه عن الإسلام - إن ثبت أنه لم يسلم -
إلا تقيّة [(٢) .

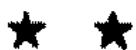
(١) رسائل الجاحظ ٣٢ .

(٢) المصدر ص ٥١ .

وهذا الذيل — أو هذه الجملة الإعتراضية الدخيلة ، إن ثبتت منه ، كما
كما قلنا ، ليست تعني قوله بعدم إسلامه ، بعد أن تقف على قوله بإسلامه ،
كما يصرح بذلك تلميذه ابن أبي الحديد .
وقد تكون هذه القولة — إن كانت له — قبل جزمه بإسلامه ، حيث
يجوز أنه كان في شكٍّ منه ، ثم بانَّت له الحقيقة ، بعد فحصها ، والبحث عنها ،
فَنطق — بعدئذٍ — بما بان له .
على أن كلمته هذه ، إن نقت شيئاً ، فإنما تنفي إعلانه بإسلامه ، حيث
تقضي التقية بالكتمان .



وإن الجاحظ — على موقعه المخزي والجاهل ، في رسالته : «العثمانية» —
لم يستطع وقد ذكر أبا طالب ، ليحط من قيمة سبق عليٍّ للإسلام ، إلا أن يقول :
[أو لست تعلم أن قریشاً خاصّة ، وأهل مكة عامة ، لم يقدرُوا على
أذى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ما كان أبو طالبٍ حيناً ١٩] (٢)



وفي تذكرة الخواص ، بعد عرض الحديث لأبي طالب ، في ثنايا الكلام
عن الإمام عليٍّ « عليه السلام » ، وبعد ذكر شيءٍ من فعل أبي طالب الحميد ،
وفوله السافر عن المعتقد ، وذكر الرسول (ص) له ، وترحمه عليه ...
إن فيها مثل هذه القولة :

[أقول : كون أبي طالبٍ من أهل الجنة ما لا ينبغي التأمل فيه . وإن
شواهد أكثر من أن تذكر : « اهتمامه » بكفالة النبي المختار ، ونصرته له .
« واهتمامه » بدفع أذى الأشرار والكفار عنه ، وجزع النبي (ص)
عليه عند موته ، وتسمية عامه بعام الحزن لموته وموت خديجة ، وترحمه
« واستغفاره له » خصوصاً في طول أيام . ولا يُرتاب في استجابة دعائه ،

لا سيما مع الاصرار [(١)]

ثم نجد - في حديث طويل - الاستدلال على ذلك ، بذكر الأئمة الأطهار له ، وأقواله هو في الرسول ، وفي دينه ...
ومن الخير : أن تأتي بهذا المقطع منه :

[وأيضاً لم يؤرّخ أحدٌ من أعدائه : استيلاء ولده بأن أباك من الكفار .
هذا معاوية ، أعدى « أعدائه » ومنازعيه ، وهذا عمرو بن العاص ، وهذا عبد الله بن الزبير ، وهذا مروان ، وغيرهم ، مع قدحهم فيه عليه السلام ، وإسنادهم ورميهم إليه ما هو بريء منه - وما عابوه ، وما شنعوا عليه بذلك (٢) وهو عليه السلام يذكرهم بكفر الآباء والأمهات ، ورذالة النسب ، وما قابلوه بالمثل .

بل هذا أقوى شاهد على إسلامه ، وعلى شدة تعصب من أسند الكفر إليه من العامة .

فانظر - أيها المنصف ! - إلى سوء سريرة أشباه الخفافيش ، في عداوتهم لشمس الاسلام ونوره !... [(٣)] .

وإنه لبرهان نصيغ ، وحجة دامغة ، هذا القول المنطقي ، المستمد من الواقع ... فلو كان هؤلاء - وهم من أعداء الإمام - لا يعرفون من أبي طالب : ذلك المؤمن - بل لو يشكّون فيه ، فحسب - لما تركوا تنقص الإمام من هذا الجانب ، وهم الذين يرمونه بما هو منه بريء ، ويلصقون به ما هو منه بعيد ... وليس من إيمان ، أو إنسانية ، أو ضمير ، يحد من غلواء بغض

(١) تذكرة الخواص ص ١٠ ، ١١ .

(٢) يعني : لم يعيبوا ولم يشنعوا على عليّ : أن أباه كافر .

(٣) تذكرة الخواص ص ١١ .

هؤلاء ، ولكن السبيل عليهم مقطوعٌ ٠٠٠

★ ★

ولا بدَّ لنا في هذا الفصل — مِنْ أَنْ نَأْتِي عَلَى هَذِهِ الْقَوْلَةِ الصَّرِيحَةِ
المجلجلة ، تنطلق مِنْ فَمِ مَسِيحِيٍّ عَرَفَ الْحَقَّ ، فَنَصَرَهُ ٠٠٠ وَرَأَى النُّورَ ،
فَدَلَّ عَلَيْهِ ٠٠٠

وَنَحْنُ نَأْتِي بِهَا هُنَا ، وَلَا نَرَى أَنْ نَعْلَقَ عَلَيْهَا بِحَرْفٍ وَاحِدٍ ، فَتَكْفِي
الْحَقَائِقُ الَّتِي ضَمَّتْهَا هَذِهِ السُّطُورُ ، عَنْ تَعْلِيْقٍ أَوْ تَوْضِيْحٍ ٠٠٠ !

يقول الكاتب المؤرِّخ عبد المسيح الأنطاكي :

[وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْمُؤرِّخُونَ فِي إِسْلَامِ أَبِي طَالِبٍ ، أَوْ بَقَائِهِ عَلَى الشَّرْكَ •
وَلِكُلِّ فَرِيقٍ أَدْلَةٌ ، يَرْتَكِنُونَ إِلَيْهَا ، وَأَحَادِيثٌ نَبَوِيَّةٌ يَسْتَشْهَدُونَ بِهَا • وَلَيْسَ
لِمُثْلِي أَنْ يَتَّ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْخَطِيرِ • وَإِنَّمَا الْاِسْتِدْلَالُ مِنْ وَاقِعِ الْحَالِ ،
يَرْجِّحُ قَوْلَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِإِيْمَانِهِ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا تَعَالَى فِي صَلَةِ رَحْمِهِ ، وَفِي
حَبْلِهِ لِابْنِهِ ، أَوْ ابْنِ أَخِيهِ ، أَوْ نَسَبِهِ ، لَا يَسْعَى أَنْ يَغْضُضَ الطَّرْفَ عَنْ ذَلِكَ
الْمُنْتَسَبِ إِلَيْهِ الْمَحْبُوبِ مِنْهُ ، إِذَا رَأَاهُ يَتَعَدَّى عَلَى دِينِهِ ، وَيَحَاوِلُ أَنْ يَدْكُ
أَرْكَانَهُ ، وَيَقِيمَ فِي مَوْضِعِهِ دِينًا آخَرَ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ — أَيْضًا — مَعَهُ فِي
الْإِعْتِقَادِ ، لِمَا تَعْلَمُ مِنْ تَمَسُّكِ النَّاسِ بِأَدْيَانِهِمْ ، وَمُبَالَغَتِهِمْ بِتَقْدِيسِهَا ، وَتَفْضِيلِهِمْ
لَهَا عَلَى كُلِّ عَتَبَارٍ آخَرَ ، حَتَّى أَنْ الْمُؤْمِنَ لِيَقْتُلَ ابْنَهُ أَوْ أَبَاهُ ، إِذَا رَأَاهُ يَحْقِرُ
دِينَهُ ، وَيَسْتَهِنُ بِمَعْبُودِهِ ^(١) • وَإِذَا صَدَقَ هَذَا عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ ، فَبِالْأَوَّلَى :
أَنْ يَصْدُقَ عَلَى خَاصَّتِهِمْ ، مِثْلَ أَبِي طَالِبٍ ، الَّذِي كَانَتْ لَهُ الْمَكَانَةُ الْعُلْيَا فِي
قُرَيْشٍ ، فَهُوَ مُلْزَمٌ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ ، وَجِهَةِ مَرْكَزِهِ ، أَنْ يَدَافِعَ عَنِ الدِّينِ ،
الَّذِي يَدِينُ بِهِ ، هُوَ وَقَوْمُهُ ، كَيْ لَا تَسْقُطَ مَكَاتِهِ مِنْ عَيُونِهِمْ ، وَكَيْ لَا يَعْزِضَ

(١) دَلَّلْنَا عَلَى ذَلِكَ — مِنْ صَفْحَاتِ التَّأْرِيخِ — فِي إِحْدَى حَلَقَاتِ

هَذَا الْفَصْلِ •

نفسه لغضب معبوداته ، فيخسر آخرته • وعلى هذا فأبو طالب ، لا بد وأن يكون قد آمن برسالة ابن أخيه عليه « وآله » الصلاة والسلام ، في قلبه ؛ ولكنه لم يجهر بها ، لا اعتبارات تقتضيها الحكمة ، وتدعو إليها السياسة • فإنه لو جهر بإيمانه في بدء البعثة وفجر الدعوة ، لا تقلبت عليه قريش بجملتها ، وأسقطته من حلق مجده ، وعشت بحرمة... • حينئذ يعجز عن رد الأذى عن ابن أخيه ، وهو لا يزال ضعيفا... وهذا الذي جعله يكتفم ما في نفسه من الإيمان... وظاهر أعماله وقصائده وخطبه ، تظهره بأجلى بيان ، إذ رأيناه يدافع عن المصطفى بنفوذ وجهه ، ويمدحه بقصائده وخطبه ، حتى آخر لحظة من حياته ، على ما رأيت من وصيته • وعلى هذا فيكون أبو طالب من خير الصحابة والأنصار ، بغير جدال • وجبذا لو وفق الله الإسلام - في عصر الناس هذا - إلى من يحمون ذمارة ، ويعلون كلمته ، كما فعل أبو طالب في فجر البعثة ، إذن لظل الإسلام في خير •

هذا هو أبو طالب كفيل المصطفى وعمه ، وحبيه ونصيره ، ووالد سيدنا أمير المؤمنين ، يعسوب الدين أسد الله الغالب ، علي بن أبي طالب • بل هذا هو الرجل العظيم ، الذي ربى هذين النيرين ، فأضاء في سماء الدنيا والدين [(١)] •

ولا نرى حاجة لتعليق ، على هذه القولة الواضحة ، الناصعة الحجة ، والدامغة البرهان... • وإن من صفحات التأريخ - كما عرضنا نماذج منها ، في الحلقة الثانية ، من هذا الفصل - ما يؤيد ذلك ، ويدعمه في قوله : إن العاطفة الدينية أقوى وأمضى من العاطفة الدمية... • فإن هما كاتتا في حبة صراع ، كانت الغلبة المحتومة للأولى ، والخذلان للثانية... •



(١) معجم القبور ١٩٤ ، ١٩٥ : ١ ، عن هامش شرح القصيدة العلوية

ويقول الدكتور طه حسين :
[فعطف أبي طالب على النبي معروف ، وقيامه دونه يحميه ، ويحيي
دينه من قريش ، مستفيضاً]^(١) .



وقد وضع الأستاذ المنصف عبدالعزيز سيّد الأهل كتاباً ، عن أبي
طالب^(٢) ، وقد لاحظ عليه بعض القراء : أنه لم يقل بإسلام
أبي طالب ... وأنا على النقيض منه ، فإني أرى الأستاذ قد اعترف ،
أصرح ما يكون الاعتراف ، وأوضح وأجلى ما يكون الإيضاح : أن أبا طالب
من المؤمنين الأوّل ، والمسلمين السبق ، فله الفضل على الإسلام .

ولو لم يكن فيه ، سوى بضعة ، من السطور الناصعة ، في مقدمته
— لكانت خير دليل ، وخير برهنة ، على ما يراه ويكفّنه ، تجاه شيخ
بني هاشم ...

ويجدر عرض بعض ، من سطور هذه الصفحات النواصع :
[وليس من المحمود للناس ، في سيل رجل رعى النبيّ وحمّاه ، أكثر من
أربعين عاماً : أن تقتضب أخباره ، كما اقتضبت ، وأن تنثر وتبعثر كما نثرت
وتبعثرت ، وأن يقلّ رواها ويضطربوا كما قلّوا واضطربوا ، ثم يُنسى فضله
كله ، ويقف التاريخ منهم في ساعة موته ، موقفاً واهناً عجيباً ، يتحدث عن
الرجل الذي حمى النبوة ، ونافع عنها بقوة وتضحية وإيمان ، وكأنما يتحدّث
بلسان خَلِقَ من الهوى عن رجل دخيل ، أو عن وافد غريب .
أتفدّ الرجل حياته كلّها في نصرة النبيّ ، وألزم أهله باتّباعه ، وأتفق

(١) الفتنة الكبرى : عثمان ص ١٥١ .

(٢) هناك العديد من الكتب ، التي وضعت في حق شيخ الأبطح ، من :
الشيعة ، وأهل السنة .

عليه جهده وجهه وماله ، وخاصم أعداءه وضربهم وقهرهم • وأعدَّ من نفسه
عزماً صادقةً ، تخفَّت إلى المستغيث بهام في طريق الهوم •

وكان وجود أبي طالب لنصرة رسول الله ضرورةً من ضرورات الخلقة ،
وسنداً لا بدَّ منه لظهور البعثة وانتشار الدعوة — كما تقول ابن خلدون
في نظريته (١) — وتلك مشيئة الله ، فليس بتصرُّ رجلٍ ولا مبدأ ولا دينٍ ما لم
يستند إلى ما يشدُّ أزره ، وينصره من العصية المهيبة ، كما ينتصر بالاتباع
والأنصار إلا أن ذلك هو أوَّلُ ، ولا بدَّ منه ، ولولاه ما كان الأتباع
والأنصار (٢)] •

[وأبو طالب لم يفته أن يعرف الواجب الذي نيط به ، ولم يُثقله العبء
الذي ألقي عليه ، فنصر النبي وأيده ، وخاصم الناس جميعاً فيه ، ولم تأخذه
العزة بالإثم ، كما أخذت غيره من الكبراء الذين أضلُّوا الناس السبيل • وقد
كان أبو طالب — غير مدافع — سيد قريش جميعاً (٣) •

[وبكى رسول الله لنعي عمه ، ومن الذي يبكي رقةً ورحمةً ووفاءً ، إذا
لم يكِ محمدٌ — وقد أحسن ربُّه تأديبه — عمًّا كفه وربَّاه ونصره ، وتقضى
عذره في التحمل ؛ فكان له أباؤه حين فقد الأب ؛ وكان له عضداً حين احتاج
إلى النصير ؛ وكان له حزباً حين احتاج إلى حقٍّ قويٍّ يقهر الباطل ، ويمحق
الطغيان (٤)] •

لقد حاولنا أن لا نكثر من هذه الكلمات ، المبثوثة في الكتاب ...
إلا أننا — رغم هذه المحاولة — لم نستطع إلا أن نأتي بما أتينا به ... وأن
نسأل مثل ذلك القارئ الكريم : هل يجوز القول : بأننا لم نجد الكاتب

(١) كنّا نتمنى لو أسند قوله ابن خلدون هذه .

(٢) أبو طالب شيخ بني هاشم ص ٦٥ •

(٣) ص ٧ • (٤) ص ٨٩ •

قد قال بإسلام شيخ بني هاشم ، بعد كل ما بثه في كتابه — وما هذه سوى عينة له — من : قول واضح صريح ، وشهادة ، هي أرفع وأحق ما تكون الشهادة الصادقة... ١٩



ونجد الأستاذ جورج جرداق — في كتابه الفذ « الإمام عليُّ صوت العدالة الإنسانية » — يتحف أبا طالب بباقات ، من معطار الثناء ، وعبارات الإجلال والتعظيم .

ومن المناسب جداً : أن نقتطف شيئاً ، من هذا الذكر العطر :
[ولما توفيَّ جدُّه — يعني : عبد المطلب جدُّ الرسول — كفه عمه أبو طالب — والد عليٍّ — فاستمرَّ الغلام يحيا في جوِّ الحنان والدعة وحسن التربية ، الذي خلَّفه الأب الراحل للإبن المقيم] (١) .

وبعد ان ذكر استخلاف عبد المطلب أبا طالب ، لرعاية حفيده ، عقَّب ذلك بقوله :

[وهو ما اختار أبا طالب إلا استثناساً بما يعرف من أمره وما يدرك . فإن الحنان والعطف وإن كان لأكثر ولد عبد المطلب منهما نصيبٌ ، لم يبلغا في قلوبهم من القوة والبعد ما بلغا في قلب أبي طالب . وأثر الحنان والعطف في حسن الكفالة والرعاية أظهر من أثر المال . لذلك كلُّه اختار أبا طالب أبوه لرعاية محمَّد . أضف إلى هذا : أن أبا طالب كان يضمُّ من العطف على ابن أخيه ما يدفعه دفعا إلى رعايته وإن لم يكلِّفه ذلك أبوه . فكيف إذا اجتمع هذا العطف وهذا التكليف .

ومما لا مرأى فيه أن أبا طالب شخصية جميلة ومحبة . شخصية جميلة تطالنا بحكمة الشيخ الطيّب الأمين المجرَّب ، الذي يضع كل ما أوتي

(١) ص ٣٤ (١٥٤ : ١) .

من: طيبة، وأمانة، وتجربة، موضع العمل والتنفيذ في كلِّ حالٍ [(١)] .
ولنرَ هفـ السمع لهذه الكلمة الرائعة :

[حتى لكأنَّ الله لما اختار رسوله من بني عبد المطلب، اختار لتشيته
هذا العمَّ الكريم . وكأنَّ قوة الوجود الشاملة، هيأت لأبي طالب أن يعلم من
أمر ابن أخيه ما لا يعلمه سواه] (٢) .

وكلمة أُخرى ، لا تقلُّ عن هذه روعةً ، ووضوحَ أداءٍ في ما تحمله من
تحليل شخصية أبي طالب ، وما تحمله من المعاني الخيرة :

[فإذا ما بنفس أبي طالب من معاني الطبيعة يشفق في نفس محمد ،
فإذا هي جزء من ذاته يتكوَّن وينمو تحت نظرة العمِّ المحبِّ] (٣) .

[وكان أبو طالب أولَّ من قال شعراً في الإسلام يفيض بالحب لمحمد
ويدعو إلى نصرته . وكان يكثر عليه كلُّ عملٍ أو قولٍ فيه بعض الأذى لابن
أخيه] (٤) .

[ولم ينسَ أبو طالب دقيقةً واحدةً في حياته، أن محمداً إنما هو استمرار
عبقرية الخلق، التي تميَّز بها بصورة عفوية هو، وأخوه عبدالله، وأبوهما
عبد المطلب] (٥) .

[ولما تُوفي أبو طالب، شعر النبيُّ بأنه فقد أعظم ركنٍ يستند إليه، ويدفع
عنه أذى قريش . وما كان هذا الشعور إلا تدليلاً على تجاذب أسباب الخير
بين محمد وعمه ربِّ البيت، الذي نشأ فيه وسما خلقه ! وإذا كان من أسباب
هذا الشعور بخسارة أبي طالب، أن محمداً فقد به نصيراً، يفديه بدمه، ويدفع
عنه الأذى ، وملجأً حصيناً ضدَّ قريشٍ والمستبدين الغلاة من بنيها، حتى أنه

(١) ص ٥٤ ، ٥٥ : ١ - (٢) ص ٥٥ : ١ .

(٣) ص ٣٤ (٥٦ : ١) . (٤) ص ٣٥ (٥٨ : ١) .

(٥) ص ٣٦ (٥٩ : ١) .

قال : « ما نالني من قومي سوءٌ حتى مات عمي أبو طالب » ، فما تعليل هذا الحزن العميق الذي غزا قلب محمدٍ بموت عمه ؟ وما علّة هذه الكآبة وما كان محمدٌ إلا صبوراً حازماً واثقاً بنصر رسالته مهما كثر العدو وقلّ الصديق ، ومهما كان من شأن الأخيار والأشرار ؟! أجل ما علّة هذه الكآبة ، إن لم تكن الكارثة التي حلت بمحمدٍ هي كارثة الإنسان بأعزّ من يعطف عليه ويحميه ؟ وما تكون هذه الدموع الغزارة ، إن لم تكن شاهداً على أن النبي - كرجلٍ - أحسّ بأنه فقد شيئاً من ذاته ، من حاضره وماضيه ؟ [(١)] .

ثم يعود في فصلٍ آخر ، يعرض للصلات ، التي تتماسك في الأعماق ، على اتحاد الود بين محمدٍ وعليٍّ ، كما كان بين أبي طالبٍ ومحمدٍ ، وكيف أثمر هذا الاتحاد الثمار الطيبة :

(وتستمرّ صلات المودة والإخاء بين محمدٍ وعليٍّ . ويستمرّ بينهما تعاطي الخير على إنجاح الرسالة ، هذا التعاطي الذي يتماسك في أعماقه ، ويتحد منذ أن عرف محمدٌ أبا طالبٍ ، ومنذ أن عرف عليٌّ محمدًا ، ومنذ أن اجتمع الثلاثة في بيتٍ واحدٍ قام على مزايا الشهامة . وما كانت خصائص البيت الطالبيّ إلا حافزاً لأبي طالبٍ وابنه عليٍّ على فهم عبقرية محمدٍ فهماً يتمثل لدى الأول : شعوراً وتضحية ، ولدى الثاني : فكراً جبّاراً ، وشعوراً عميقاً شاملاً ، وتضحيةً أشبه بصنع المعجزات !) (٢) .



وقد يقول قارئٌ : أن ليس - في ما أتخف به الكاتب الكبير شيخ البطحاء - شيءٌ ، ينبئ عن قوله بإسلامه ، إذ ليس فيه سوى الإشادة بمزايا وخصائص أبي طالبٍ ، وتفانيه في حبّ وخدمة الرسول ، والدعاية لسمعته ونصرته ...

(١) ص ٣٦ ، ٣٧ (٦٠ : ١) .

(٢) ص ٤٦ (٧١ : ١) .

ونحن نكتفي بهذا ... فإن مفكراً - كجرداق - لا نحتاج منه لأن يقول لنا عن النور : إني المحب ! فإذا ما وصف الضوء ، وعرض لمزاياه ، ودلّ عليه ... فإن هذا يُشعرنا بأن هذا المفكر ، يسير في دربه على هذا النور ، الذي يطري ويشيد ...

لذلك ... فإننا لا نحتاج لأن ندلّ القارئ ، ونأخذ بيده ، فنضع النقط على الحروف - وهي موضوعة وضعاً فنياً - لنشير له عما تزخر به هذه الكلمات القيمة - والتي شئنا أن تقتصر على أقلّ مما أتينا به ، فلم نستطع ، إذ أسرتنا بعلو ما تهدف إليه ، من حقّ صريح ...

هذه الكلمات التي تزخر ، بما شحنت به ، من صريح الاعتراف الواضح ، بإسلام أبي طالب ...

ولكننا نُشير إلى ما أوضحه ، من ضرورة وجود أبي طالب ، حيث هيأته قوّة الوجود الشاملة ، لاكتشاف أمر ابن أخيه ...

وكيف يكون محمدٌ استمراراً لعبقرية الخلق الرفيع المتميّز بها - بصورة عفوية - كلٌّ من : أبي طالب ، وأخيه عبدالله ، وأبيهما عبد المطلب ... كيف يكون محمدٌ استمراراً لهؤلاء ، إذا كانوا مشركين - ومعاذ الحق !!؟

ثم ما هذه النفس الجبارة ، التي تشفّ في نفس محمدٍ ، لتنصهر ، وتمتزج النفسان ، لتكونا جزئين لشيء واحد ، ويكون أبو طالب ومحمدٌ وعليٌّ كلّاً ، لا يتجزأ ...؟!!

إن خصائص البيت الطالبي ، تكون الحافز القوي ، الذي يدفع الأب والولد ، على فهم عبقرية الرسول : فهماً عميقاً ، حتى أنه ليشتمل شعوراً وتضحيةً ، فيتماسك تعاطي الخير ، من أجل إنجاح هذه الرسالة - بكلّ ما يتطلبه هذا الإنجاح ، من: الشعور العميق الشامل ، والفكر الجبار ، والتضحية الشبيهة بصنع المعجزات !.

وإن هذا الشعور السامي ، ليتحد بين : الرسول ، وعمه ، وابن عمه ،

منذ عرف محمداً عمه ، ثم عرفه ابن عمه ، ويجتمع ذلك في وحدة متماسكة متراصة ، لا فصل بينها ، ولا تفرقة ، منذ اجتمع الثلاثة في بيت ، ابتني على مزايا الشهامة ، وتدعم بخصائص الفضيلة والسو ... !

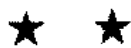
فما هو هذا الخير ، الذي يجاذب أسبابه محمداً ، وعمه ، وعليه ؟
فهل يجاذب محمداً أسباب خير ، يكون فيه المشترك : الطرف الثاني ، في تجاذب أسبابه ؟

وهل يرجى خير من مشرك عبيد ؟ بل هل يمكن أن يكون فيه أدنى خير ، لا أن يكون شريكاً ، في تجاذب أسبابه ، لحامل رسالة التوحيد ؟

إذن ... فطبيعي - أن يشعر النبي ، بفقده عمه : أنه افتقد أعظم ركن ، يستند إليه ، ويشد أزره ، ويحمي دعوته ... وهو رب البيت ، الذي نشأ فيه الرسول ، وسما خلقه ...

وطبيعي - أيضاً - أن يغزو الحزن العميق قلب محمد (ص)
ويطفح أثره على وجهه ، بالرغم مما تحفل به شخصيته من الصبر والحزم ...
وبالرغم من امتلاء قلبه : ثقة بربه ، المتكفل بنصر رسالته ، وإن تضاءلت أسباب النصر الظاهرية ، بكثرة العدو ، وقلة الصديق ، أو ازداد عدد الأشرار ، وتضاءل عدد الخيرين ...

ولكنه الحزن ، الذي تبقيه كارثة الإنسان ، بأعز من يعطف عليه ويحميه ، حيث افتقد شيئاً ، هو جزء من ذاته ، يمتد من حاضره لماضيه ... !



إن كان ولا بد أن نقف عند حد ، من هذا الذكر العطر - بعد أن قدمنا منه باقات ، تحفل بكل ما يضمه الزهر ، من : فواح الأريج ، ونضارة اللون ، وفن التنضيد ...

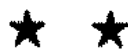
إن كان ذلك ... فعلياً أن نقف عند هذا الحد ، ونكتفي بما قدمنا ،
بعد أن طفنا بعديد العصور والأزمان ، وقدمنا شهادات العديد من
الشخصيات ، التي قد تختلف في كثير من أسباب الاختلاف ، سواء كانت :
قيمةً ودينيةً ، أو زمنيةً ، أو في الهوى والمشرب ... ولكنها تجتمع عند
نقطة واحدة ، تربط بينها كل الربط وتوثقها بكل الصلة ، هي : نصره
الحق المهتم ، والكشف عن الحقيقة المستورة ، والجأء بالقول الصريح ،
في الوسط المملوء بالجلبة الصاخبة الكاذبة ، والزقاق الناصح البغيض ،
والفحيج من أنياب زاعفة بالسسم القتال ...
ولكنه الحق الأبلج ، والحقيقة الناصعة ... ولا بد أن يقيض الله لهما من
ينصرهما ، ويدل عليهما ، ويعلي من قيمتهما ، لئلا تتساوى الفضيلة والرذيلة ،
أو ينتصر الباطل المزخرف على الحق الصريح الواضح !

وقفة مع الحديدي

ذاك ... حديث ، يطول بنا مداه ، وتنشعب منه الطرق والممالك ،
لو شئنا أن تنقضي كل كلمة ، قيلت في الموضوع ، أو إشارة أو مأت
نحوه ...

ولا بدء — كما قلنا — أن نقف منه ، عند هذا الحد ، بعد أن أتينا على
وفر من الشهادات الصادقة الصادقة ، ممن لا يشك في صدق حديثهم مسلم ،
أقر بالشهادتين — وهم : الرسول ، وعترته الطاهرة ، بنص الكتاب المبين —
وأقوال أناس لمحو النور ، فدلوا عليه ، وعرفوا الحق ، فسلخوا منه لاجب
الطريق .

ولكن لا بدء لنا — وقد تناولنا ، من هذا الموضوع ، طرفاً على اتساع
مدى — أن نأتي على قولاتي لابن أبي الحديد ، عثرنا عليها عند التنقيب ، في
شرحه لنهج البلاغة ، لنقف منه موقف المحاسب ، على قوله له — أيضاً —
حول الموضوع .



يقول ، وقد عرض للأمة ، التي بُعث فيها الرسول « ص » ، وقسمها إلى
أقسام ... فمنها : « المعطلة » ، وغير المعطلة — ومن المعطلة : من أنكر الخالق ،

وَمَنْ يَدِينُ بِالتَّنَاسُخِ ، وَأَرْبَابِ الْهَامَةِ ، وَعِبْدَةِ الْأَصْنَامِ الْخ ... حَتَّى قَالَ :

[فَأَمَّا الَّذِينَ لَيْسُوا بِمُعْطَلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ ، فَالْقَلِيلُ مِنْهُمْ ، وَهُمْ الْمُتَأَلِّهُونَ ، أَصْحَابُ الْوَرَعِ وَالتَّحَرُّجِ عَنِ الْقَبَائِحِ ، كَعِبَادَةِ اللَّهِ ، وَعِبْدِ الْمَطْلَبِ ، وَابْنِهِ أَبِي طَالِبٍ] (١) .

فَأَنْتَ تَرَاهُ — هُنَا — يَقُولُ : إِنْ أَبَا طَالِبٍ كَانَ مِنَ الْمُتَأَلِّهِينَ — أَيِ الَّذِينَ يُقَرِّثُونَ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ خَالِقِ الْوُجُودِ — وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ عَرَضَ لِمَنْ يَنْكُرُ وُجُودَ الْخَالِقِ وَالْبَعْثِ ، وَمَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَغَيْرِهِمْ — وَأَنْ أَبَا طَالِبٍ ، كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْوَرَعِ ، وَمِمَّنْ يَتَحَرَّجُ عَنِ الْقَبَائِحِ ...
وَلَيْسَ أَقْبَحَ مِنْ أَنْ يَرَى هَدْيَ الرَّسُولِ ، فَلَا يَسْلُكُ لِأَحَبِّ مِنْهُجِهِ ...!



وَيَقُولُ ، فِي تَعْدَادِهِ لِمِيزَاتِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ « عَلَيْهِ السَّلَام » ، وَعَرَضَهُ لِبَعْضِ خَصَائِصِهِ وَفَضَائِلِهِ :

[وَمَا أَقُولُ فِي رَجُلٍ ، أَبَوْهُ أَبُو طَالِبٍ ، سَيِّدُ الْبَطْحَاءِ ، وَشَيْخُ قَرِيشٍ ، وَرَأْسُ مَكَّةَ !؟] .

إِلَى أَنْ يَقُولَ :

...
[وَأَبُو طَالِبٍ ، هُوَ الَّذِي كَهَلَ رَسُولَ اللَّهِ « ص » ،

صَغِيرًا ، وَحَمَاهُ وَحَاطَهُ كَبِيرًا ، وَمَنْعَهُ مِنْ مُشْرِكِي قَرِيشٍ ، وَلَقِيَ لِأَجْلِهِ عُنْتًا عَظِيمًا ، وَقَاسَى بَلَاءً شَدِيدًا ، وَصَبَرَ عَلَى نَصْرِهِ ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ ... وَجَاءَ فِي الْخَبَرِ : أَنَّهُ لَمَّا تَوَفَّى أَبُو طَالِبٍ ، أُوحِيَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ « وَآلِهِ » السَّلَامُ ، وَقِيلَ لَهُ : أَخْرِجْ مِنْهَا ،

(١) النّهج ٣٩ - وقد أتينا على هذه الجملة ، في حديثنا عن عبد المطلب ولكن الحاجة دعتنا ، لنعيدها .

فقد مات ناصر^(١) [.

فالحديديُّ يعدُّ الانتساب لأبي طالب شرفاً ، وأن ذلك إحدى الميزات ،
التي يمتاز بها الإمام الأعظم . أي : إنه يقول : إن للإمام من الشرف العظاميِّ
ثروةً ثروةً ، وميراثاً ضخماً... فمن كان أبو طالب أباه ، فإنه لضارب
الجذر ، في الشرف العظامي ، نائلٌ منه بكلتا يديه ! .

ثم ذكر ميزات فضليِّ ، لأبي طالب ، وهي : كفايته ، وحمايته ،
وحياضته للرسول ، ومنعه له من أذى قريشٍ ، حتى أن ذلك عرَّضه لأن
يلقى العنت العظيم ، ويقاسي البلاء الشديد ، فصبر على ذلك ، وقام مقامه
المحمود ، مع شدة الحال ، وتأزُّم الأمر... وحتى أنه لم تقرَّ بالرسول أرض
مكة بعد ما افتقد من وجهها ظلُّ عمه ، الحاني الغليل ، فجاءه الأمر
صادعاً بالخروج ، من أرضٍ ، افتقد فيها : الحصن الواقى ، والجنة المنيعه ! .
وقد أشار لهذه النقطة - أي : الأمر للرسول بالخروج - مرةً أخرى ،
بقوله :

« ص »
(لما مات أبو طالب بمكة ، طمعت قريش في رسول الله « ص » ، ونالت منه
ما لم تكن تناله ، في حياة أبي طالب ، فخرج من مكة ، خائفاً على نفسه ، مهاجراً
إلى ربه) (٢) .

ومما يتناول هذه النقطة - أيضاً - هذه القولة :
[واعلم : أن عليّاً « عليه السلام » ، كان يدعى التقدُّم على الكلِّ ،
والشرف على الكلِّ ، والنعمة على الكلِّ ، بآبٍ عمه « ص » ، وبأبيه
أبي طالب « عليه السلام » . فإن من قرأ علوم السير ، عرف أن الإسلام ، لولا
أبو طالب ، لم يكن شيئاً مذكوراً .

(١) النهج ص ٩ ، ١٠ : ١٠١ (٢) المصدر نفسه ص ٣٢٢ : ٣ .

وليس لقائل، أن يقول : كيف يقال هذا ، في دين تكفل الله تعالى بإظهاره ، سواء كان أبو طالب موجوداً ، أو معدوماً ؟ — لأننا نقول :
 فينبغي على هذا أن لا يمدح رسول الله « ص » ، ولا يقال : إنه هدى الناس من الضلالة ، وأنقذهم من الجهالة ، وأن له حقاً على المسلمين ، وأنه لولاه لَمَّا عبد الله تعالى في الأرض ...) .

إلى أن يقول :

[فإن قلتم في كل ذلك : إن هؤلاء يحمدون ، ويشن عليهم لأن الله تعالى ، أجرى هذه الأمور على أيديهم ، ووفقهم لها ، والفاعل بذلك بالحققة هو الله تعالى ، وهؤلاء آلة مستعملة ، ووسائط تجري الأفعال على أيديهم ، فحمدهم والثناء عليهم ، والاعتراف لهم ، إنما هو باعتبار ذلك — قيل لكم في شأن أبي طالب مثله... !] (١) .

ولعل من الخير : أن نشير إلى : أن قوله ابن أبي الحديد — هذه جاءت عند شرحه ، لخطبة للإمام علي « عليه السلام » ، بعد انصرافه من صفين ، وبعد هذه الفقرات منها ، بخاصة :

(لا يُقاس بآل محمد « ص » ، من هذه الأمة ، أحد ، ولا يسوى بهم من حوت نعمته عليه أبداً . هم : أساس الدين . وعماد اليقين . إليهم يفيء الغالي . إليهم يلحق التالي . ولهم خصائص حق الولاية ، وفيهم الوصية والوراثة) .

ثم هل لنا أن نفهم ، عند هذه النقاط ، التي جاءت في قوله ابن أبي الحديد تلك... ؟

هل لنا : أن نضع النقط على الحروف ، عند قوله : إن علياً « عليه السلام » كان يدعي التقدم والشرف والنعمة على الكل ، بأبيه أبي طالب ،

(١) المصدر ٤٧ : ١١

كما يدَّعيه بنفسه ، وكما يدَّعيه بسيد الخلق الرسول الأعظم « ص »

ولكننا نكتفي باسترعاء اتباعه القاريء الكريم ، ليعيد الفكر فاحصاً ، في ما في ما تحمله هذه الفقرة وما تُشير إليه مِنْ الوحدة ، التي تجمع بين الثلاثة ، في: التقدُّم والشرف، والنعمة على الكل...!

ولا تنقضي ، فنشير إلى قوله ابن أبي الحديد : « عليه السلام » ، بعد ذكره اسم أبي طالب... فإن « السلام » على شخص يدل على رأي القائل في هذا الشخص ، ومنزلته الرفيعة ، التي لا تكون ، إلا لمن هو في درجة : الرسالة ، أو الإمامة ، أو الوصاية ، أو مَنْ هو في عدادهم ، أو يتدنى مِنْ درجتهم ، فإن كثيراً مِنْ الصحابة ، لا تُقال في حقهم هذه الكلمة...!

ولم يقل ابن أبي الحديد ، لأبي طالب : « عليه السلام » ، إلا لأنه هو العمدة الوطيد ، في توطيد دعامة الإسلام ، وأن الاسلام ، لولاه كما يقول - لم يكن شيئاً مذكوراً...!

وصوِّر : أن هناك مَنْ سيعترض على هذا القول ، فردَّ على هذا الاعتراض ، وهذَّ منه بواقعي البناء... إذ لو قدَّر : أن لا فضل لأبي طالب في نصرته للرسول - كما يقول هذا المعترض - لما كان للرسول ذاته ، فضل في ذلك ، وهو مبلغ الرسالة ، ورافع مشعل الهداية والنور...!

وليس لنا : أن نطيل التعليق على هذه الفقرات ، مِنْ قولة الحديدي ، وهي مِنْ الجلاء والوضوح - في ما تُشير إليه وتعنيه - بمكان ، لا يحلو معه قول ، أو تعليق...!



وإني لم آت على هذه الفقرات المتفرقة ، مِنْ أقوال ابن أبي الحديد - في حق شيخ الأبطح - إلا لأقف معه ، في ما وقع فيه ، مِنْ اضطرابٍ

(١) أمانة التحقيق ، دعت « محمد أبو الفضل إبراهيم » ، إلى حذف هذه الكلمة مِنْ الأصل ! - راجع ص ١٤٢ ج ١ ، مِنْ تحقيقه لشرح النهج .

متجلجج ، وتناقض مفضوح ، في ختام حديثه الطويل ، عن أبي طالب^(١) ،
وقد أتى فيه على بضع ، من المفتريات البغيضة ، في حق أبي طالب : « الكافل
والمحامي » — كما يقول الحديدي^(٢) .

وهذه الفريات الواهية النسيج ، لا تتجاوز أحد عشر سطر^(٣) ، من هذه
الصفحات الطوال ، التي تنضح كل سطورها بالحجج الدامغة ، والبراهين
الساطعة التي تدل على إيمانه وتبرهن عن صحيح معتقده ، من : فعل حميد ،
وأقوال سافرة الوجه ، عن إيمان قائلها ، وشهادات ممن لا تنالهم الظنون ،
لا يعلو إليهم شك ، أو ريب ...

ولكنه شاء أن يختتم هذا الحديث ، بهذه القولة المتداعية المتهافئة ... !
ونود أن نتناول منها : فقرات فقرات ، لنقف وإيَّاه موقف المحاسبة ،
ونشير إلى النقاط المتداعية منها ...



يقول ، بعد ذلك الحديث الطويل ، وقد أتى فيه على دامن الحجج ،
وسافر البراهين ، إيمان أبي طالب « عليه السلام » ...
يقول بعد هذا : على

[قلت : فأما أنا فإن الحال ملتبسةٌ عندي ، والأخبار متعارضةٌ ، والله أعلم
بحقيقة حاله ، كيف كانت . ويقف في صدري رسالة النفس الزكية ، إلى
المنصور ، وقوله فيها : فأنا ابن خير الأخيار ، وأنا ابن شر الأشرار ، وأنا ابن
سيد أهل الجنة ، وأنا ابن سيد أهل النار ، فإن هذه شهادةٌ منه على أبي طالب
بالكفر ، وهو ابنه ، غير متهم عليه ، وعهده قريبٌ من عهد النبي « ص » ،
لم يطل الزمان فيكون الخبر مفتعلاً (١) .

(١) النهج ٣٠٥ — ٣١٨ ، (٢) ٣١٠ : ٣ ، (٣) ٣١٠ ، ٣١١ : ٣ .



يقول: إن الحال ملتبسةٌ عنده لتعارض الأخبار! — ويريد بتعارض الأخبار: الأخبار التي أتى بوفرٍ منها، وكلها تشهد على إيمان أبي طالب، عن مصادر لا يتطرق إليها الريب، فهي عن الرسول، وعترته الطاهرين، مما قد أتينا على الوفر منها... ومن أقوال أبي طالب وأفعاله نفسه، التي هي شاهد صدق، على ذلك، أيضاً.

ولكنه يريد أن هذه الأخبار الثابتة، قد عارضتها تلك الأخبار المفتعلة المكذوبة، والتي اشتراها معاوية، ورواها المغيرة، ومن إلى هذه السلسلة التتة... وسوف نهدئ منها واهي البناء في فصلٍ مختصٍّ — إن شاء الله! — والتعارض بين حديثٍ وحديثٍ، لا يكون إلا إذا حصل بينهما تكافؤ، بأن تكون رواية الحديثين ثقةً، لا يسقط واحدٌ، من السندين، في ميزان الرجال. بل ولا ترجح كفة جانبٍ على أخرى، بأيٍّ وجهٍ من أوجه الترجيح، لأنه إن رجحت إحداهما، عوّل على الراجعة... .

وهذا شيءٌ لا يحصل في موضوعنا، بحالٍ من الأحوال... .
فهل يتساوى حديثٌ، ترويه العترة المطهرة، عن الرسول الأعظم (ص)، مع حديثٍ يرويه المغيرة، ومن إليه... ؟
وإذ ليس ثمة من تكافؤ، فإن التعارض معدومٌ... .



ثم راح يتشَبَّث برسالة: النفس الزكية — وهو محمدٌ بن عبد الله، بن الحسن، بن الإمام السبط الحسن «عليه السلام» — إلى المنصور الدوانيقي.

(١) النهج ٣١٧ : ٣.

وقد رجعنا لهذه الرسالة ، في مواطنها ، مِنْ كُتُبِ التَّأْرِيخِ ، فوجدنا فيها
مِمَّا ثَقَلَهُ الْحَدِيدِيُّ ، هَذَا الْمَقْطَعُ :

[فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات ، في الجاهلية والإسلام ، حتى
اختار لي في « النار » . فأنا أرفع الناس درجةً في الجنة ، وأهونهم عذاباً
في النار . وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ،
وابن خير أهل النار] — الخ ^(١) .

وقد قمنا بالبحث عن روايتها ، فلم نجد لهم — في « كامل ابن الأثير » —

ذكرًا .

ولكن صاحب « شيخ الأبطح » ذكر أن راويها هو: عثمان بن سعيد ،
بن سعد ، المدني . وقال : [وهذا سعيد مِنْ مجاهيل الرواة] ^(٢) .

وأما الطبريُّ ، فقد ذكر لها إسناداً مبتوراً . ونحن نأتي به ، لنرى موضع
هؤلاء الرواة ، المبتوري النسب :

[قال : وحدثني محمد بن يحيى ، قال : نسختُ هذه الرسائل ، مِنْ محمد
بن بشير ، وكان يصحّحها ، وحدثنيها أبو عبد الرحمن ، مِنْ كتاب أهل
العراق ، والحكم بن صدقة بن نزار ، وسمعتُ ابن أبي حربٍ يصحّحها] ^(٣) .

(١) الطبري ١٩٦ : ٦ — وتجدها في كامل ابن الأثير ٥ : ٥ ، وفيه بدل
« النار » — الأولى المقوَّسة — « الأشرار » . وليس فيه : « وأنا ابن خير — الخ » .
وتجدها في « محاضرات تاريخ الأمم — الدولة العباسية » ٦٥ — وتختلف عن
هذه الصورة .

أما المبرد ، فلم يأتِ بشيءٍ ممَّا ، مِنْ هذا المقطع ، عندما أتى على هذه
الرسالة ، في كامله ص ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ : ٣ .

(٢) شيخ الأبطح ٨١ .

(٣) الطبري ١٩٥ : ٦ .

وهذا الإسناد — كما تراه — مبتور الصلة ، لا يستطيع إنسان أن يعوّله عليه :

نجد في السند :

١ — محمد بن يحيى • ولا نعلم من جدّه ؟ .

ولكننا إذا رجعنا إلى « ميزان الاعتدال » ، وبحثنا في من جاء على هذا الاسم ، فإننا لا نقف على واحد منهم — وقد بلغوا سبعة عشر رجلاً ، على هذا الاسم ، وعلى كنى مختلفة

لا نقف من بين هؤلاء ، إلا على متروكٍ ضعيفٍ ، وذو حديثٍ منكرٍ ، وأحاديثٍ مظلمةٍ منكورةٍ ، وضعيفٍ لا يجوز الاحتجاج بخبره ، ودجالٍ يضع الحديث ^(١) ، وذو أحاديثٍ مفردةٍ ، ومن لا يدري من يروي عنه ، وراوي مناكيرٍ ، وأحاديثٍ موضوعةٍ ، ومن ليس بثقةٍ ، ومن يروي عن الضعفاء ، ومن ليس بالمرضيّ ، ومن يحدث بما لم يسمع ، ومن يزوّر ^(٢) .

٢ — وبوافينا ، بعد هذا : محمد بن بشير . ونجد شخصين على هذا الاسم :

أ — محمد بن بشير بن مروان الكندي الواعظ • وهو ليس بثقةٍ • وقال الدارقطني : ليس بالقويّ في حديثه •

ب — محمد بن بشير بن عبدالله القاص ، وهو — كما يقول ابن معين — ليس بثقةٍ ^(٣) .

(١) في الغدير — ٢٢٩ : ٥ — في « سلسلة الكذابين والوضاعين » :

محمد بن يحيى بن رزين المصيبي : دجالٌ يضع الحديث • وكذا جاء في ميزان الاعتدال ١٤٧ : ٣ .

(٢) ميزان الاعتدال ١٤٦ — ١٤٨ : ٣ .

(٣) الميزان ٣١ : ٣ .

٣ - ولسنا ندري مَنْ هوذا « أبو عبد الرحمن » ، ولا مَنْ هو « ابن أبي حرب » .

٤ - ولم نجد ، في الميزان ، ذكراً ، للحكم بن صدقة هذا .



وندع السند المبثور، ولا نقتل الوقت بحثاً عن حلقاته المتفككة، وأجزائه المتباعدة، لنعود فنبحث في ذات الكلمة، الواقعة في صدر الحديدي، مِنْ رسالة النفس الزكية .

ولسنا نقف عند هذا الاختلاف المعنوي، في ما وقع مِنْ تغيير، بين : رواية ابن أبي الحديد، ورواية الطبري، وابن الأثير والخضري^(١) .

ولكننا نقف مشدوهين، عند هذا الفخر ! ، بأن ينتسب - مفتخراً ! - لشرّ الأشرار، أو لخير الأشرار - وهل في الشرّ خيرٌ، وبين الأشرار خيرٌ؟! - وليسيد أهل النار - وهل بين النار خيرٌ؟! .

أما أن يكون ابن سيد أهل النار ... فإن كانت في النار سيادةً لواحد، فلن يحوزها، إلا مَنْ كان شرّ الأشرار، وَمَنْ كان أشدّهم عذاباً ... وهذا ممّا يتنافى، والفريّة المكذوبة على الرسول (ص)، مِنْ أن أبا طالب، أخفُّ أهل النار عذاباً ... وهذا لديهم - هو : ثمرة شفاعة الرسول لعمه ...!

ويا لعظمة هذه الشفاعة، التي ينجّل منها أبخل وألأم الناس ! - فكيف بِمَنْ بُعث ليتنّم مكارم الأخلاق؟! .

وهل يصدر، إلا مِنْ غير عاقلٍ، مثل هذا الفخر، الذي ليس هو غير اعترافٍ بالمنزلة المنحطة، التي لا تتفق وموقف النفس الزكية، مِنْ هذا

(١) ذكر الحديدي : « وأنا ابن الأشرار » . وذكر غيره : « وابن

خير الأشرار » .

الفخر ، وهو يطلب الخلافة ، ويقاوم الملك المترفع على العرش ، فهو — بهذه الرسالة — يخضم نفسه !...!

لذلك ... نجد ، في ما ذكرنا من جواب المنصور ، على هذه الرسالة ، قوله حول هذه النقطة :

(وزعمت : أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار ... وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار ! واسترد فتعلم ! « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ») (١) ،

وهذا الجواب ينطبق — أتم الإنطباق — على تلك الفقرة ، المنسوبة للنفس الزكية ، وهو الجواب الحتمي والدامغ لها ، سواء كان الأصل والجواب ، قد قاله من نسب إليهما ، أو وُضع على لسانهما !...!



أما قول النفس الزكية : « وأنا ابن شر الأشرار » — على رواية ابن أبي الحديد ، الذي اضطرنا أن نقف وإياه ، في نقاش ! — فهذا ما لا ينطبق ، بأي حال ، على أبي طالب ! ، لأن مفاد معنى هذه القولة : أن ليس أشر من أبي طالب ، في قومه وفي عصره — على الأقل !...! وإلا فالمعنى يفيد الاستمرار ... أي : إنه ابن أشر من ينتسب للشر !!!...!

وحتى لو خصصناه بأنه ابن أشر أهل عصره وقومه — فهل هذا المعنى ، هو أبو طالب !...!

لم نجد واحداً من الكاذبين ، والوضّاعين ، والمفترين ، من وصل إلى هذه

(١) الطبري ١٩٧ : ٦ ، والكامل ٦ : ٥ ، ومحاضرات الأمم — العباسية ٦٦ ،
والكامل في اللغة ١٢٧٧ ، ٣ — في صورة غير هذه .

الوهدة ، مِنْ الانحطاط... فلم يقل واحدٌ منهم : أن أبا طالبٍ كان مِنْ
الأشرار - بله أشرهم ! - وخيره يقطر بالنعماء ، ويفيض بالنماء ، ويؤتي
خير الثمار ...

وهل يكون ابن شرِّ الأشرار: ابن مَنْ كان العمدة لبناء الاسلام ، ولولاه لما
كان الاسلام شيئاً مذكوراً - كما نقلناه عن الحديدي ؟! ،
وهل يجوز أن تكون يدٌ لرجلٍ ، عند الرسول (ص) ، وهو في
هذه الدرجة مِنَ الشر - والرسول هو القائل : «اللهم لا تجعل لفاجرٍ ولا لفاسقٍ
عندي نعمة» ، في الحديث الذي أتينا عليه ، في ما سبق ، عن الزمخشري ؟!
وهل يكون أبو طالبٍ أشرَّ من أبي لهبٍ ، وأبي الجهل (١) - وهما اللذان
ملا الوجود شرّاً وفساداً ، وأنزلا بالرسول أنواع الأذى ، وأنماط الهوان ؟!
اللهم ! إلا أن تكون نصرة الرسول وحياطته شرّاً ، وأشرَّ مِنَ النيل
منه وأذاه ...!!!

إذن ... فكيف يجوز للنفس الزكية: أن يفخر بمثل هذا الذمّ المنتقص ،
والعيب المخزي ، وهو في هذا الموقف الحرج الدقيق ؟!



ولنتزّل ... فنسلم صدور هذه الرسالة مِنَ النفس ، فتساءل عن
الدليل ، الذي دعى ابن أبي الحديد ، لأن يخصَّ بـ «شر الأشرار» أبا طالبٍ ؟!
أليس ذلك ، سوى الظن والتخمين ، إذا شئنا أن لا نجهر بالقول الحق
الصراح ...؟ وإلا فليس ذلك ، سوى الغاية والغرض ...!
ولماذا لا يكون المعنيُّ به : طلحة بن عبيد الله - وهو : والد أمِّ إسحاق ،
التي هي : جدّة النفس - أو عبد العزّي ، وهو : جدّه لأُمّه ...؟ فأُمُّ

(١) هذا السؤال ، ليس سوى تنزّلٍ ... وإلا فليس بين أبي طالبٍ ،
وهذين مشاركة في الشر ، حتى يصح التساؤل عن أيّهم أشرُّ ! .

النفس الزكية ، وهي: هند بنت أبي عبيدة ، بن عبد الله ، بن زمعة ، بن الأسود ،
بن المطلب ، بن أسد ، بن عبد العزى ^(١) - وعبد العزى ، هذا ، كان علماً
بين كفرة قريش !.

ونحن لا نقول إن أحد هذين هو المعني ، من قوله النفس ، ليس إلا...
فما هو سوى الظن والتخمين ، اللذين دفعا ابن أبي الحديد ، لأن يخص بها أبا
طالب ، وحده !.

ونمضي في التنزيل... ونسلم بأن النفس الزكية ، لم يعثر بشرُّ الأشرار ،
سوى أبي طالب...! فلماذا تقف هذه القولة - وهي هي... في مجانبتهما
للحق ، في جميع نواحيها - في صدر الحديدي ، ولا يقف في صدره شيء ،
من أقوال الإمام الصادق ، وقد عاش هو والنفس الزكية ، في رقعة من الزمن
واحدة ، وقد وقف الحديدي على الكثير من أقواله...؟!.

وأين النفس من الصادق ، في أي منزلة من العلم ، أو المعرفة ، أو الأمانة ،
أو الصدق ، أو ملازمة الحق والجهر به !.

وهل بينهما ما يجيز النظر ، في المقارنة ، أو التفضيل لأيهما ؟! .
ليس بينهما شيء من هذا... والحديدي يعلم بذلك ، ولا يجهله...
ولكن - مع هذا - وقفت في نفسه ، هذه الرسالة... تقف في حلقة شعرة
من بعيره ، ويتلع الأباغر بأخفافها ، متى شاء...! فحلقة مطاط ، تشع عند
الحاجة ، فيبتلع ما يشاء ، ويضيق - عند الحاجة - حتى عن الشعرة...!
ثم لماذا لا تقف في صدره ، شهادات ابنه الصلبي الإمام علي ، « عليه السلام » ،
وولده من بعده ، من الأئمة المعصومين - وهم هم... من لا ينفرد عنهم ،
من وقفت رسالته في نفسه ، في فضيلة... وقد انفردوا عنه بفضائل ، وتميزوا
بميزات ، لا تقع تحت الحصر !.

(١) نسب قريش ٥٣ و ٢٢٧ و شيخ الأبطح ٨٢ .

وإذا كان النفس الزكية ، ابناً لأبي طالب ، « غير متهم عليه » ... فهل
شهادات الإمام الأعظم ، وولده من الأئمة ، تكون مغرضة ، لأنهم متهمون
لأجله ، ليضيفوه إلى عداد المسلمين ، وهو في قائمة الكفار ١٩٢٠٠٠!

فهل النفس أكثر ورعاً ، وأصدق حديثاً ، من عليٍّ والأئمة ، حتى يقول
هذا : ما لا تثمه عليه ، ويقول أولئك : ما لا يستحق للحق بصلته ١٩٠٠!

أما أنا فلا أعتقد أن النفس ، قد قال تلك المقالة ، بعد ما المنما
بالكثير من البراهين ، التي تمنع أن يقول مثل هذا ، حتى المعتوه
والمجنون ١٠٠٠! (١).

وإن قالها ، فما كان بالذي يعني بها : « الكافل والمحامي » ... وإن عناه
بها ، فما نحن بالذين تمسك بها ، لنضرب صفحاً بأقوال مسلمة ، مثنى لا
يُظن فيهم مجانبة الحق ، في فعلٍ ، أو قولٍ ١٠٠٠!



ويقول : إن « عهده قريب من عهد النبي (ص) » لم يطل الزمان ،
فيكون الخبر مفتعلاً .

فالحديث يأخذ بقولة شخص بعد مضي ما يقارب قرناً ونصفاً ، على
وفاة من قيلت فيه — كما حملها — ولا يأخذ بقولة إمام ، يلزم الحق ، وقد
عاش في كنف من شهد له ، وشاهد ظله ، واستظل بوريف ظلاله .

ولا يحمل الخبر على الافتعال ، حيث لم يطل الزمن ! ، ولكنه يروي
الوفر ، من مخلق الحديث ، ومزور القول ، على عهد معاوية ، وهو الذي

(١) الواقع يشير إلى أن الرسالة مفتعلة ، أو على الأقل مدسوس فيها ،
مثل هذه الفقرات ، التي هي للتنقص ، لا للفخر ١٠٠٠! وليس داساً عليها ،
سوى السياسة الغاشمة ... فهي من أنصار الملك العباسي قربان وزلفى !

ولد في عهد الرسول (ص) .!
فلو كان السبب هو: امتداد العهد وقصره ، لما كنا نشاهد ذلك الزور في عهد معاوية !

ولا أدري على مَ أحمل قولة الحديديّ هذه ؟ وما السبب الذي دفعه لتبني هذا الرأي ؟ وما الذي دعاه لأن تقف هذه القولة — دون غيرها — في صدره دون غيره ؟

ولكننا لا نُسيء الظن به ! ما دامت « إساءة الظنّ بالمسلم حرام » ، و « حرمة أعظم من حرمة الكعبة » — كما يقول الغزالي ، في ما نقلناه عنه ، عند حديثنا « على العتبة » من هذا الكتاب .



وبعد سير في طريقٍ رجراجٍ ، سار عليه الحديديّ خطواتٍ هزيلةً ، عاد فناقضه بقوله :

[وصنّف بعض الطالبين ، في هذا العصر ، كتاباً في إسلام أبي طالب^(١) وبعثه إليّ وسألني أن أكتب عليه بخطي ، نظماً أو ثراً ، أشهد فيه بصحة ذلك ، وبوثاقة الأدلة عليه ، فتحرّجت أن أحكم بذلك ، حكماً قاطعاً ، لما عندي من التوقف فيه ... ولم أستجز أن أقعد عن تعظيم أبي طالب ، فإني أعلم أنه لولاه لما قامت للإسلام دعامة ، وأعلم أن حقه واجبٌ على كل مسلم في الدنيا ، إلى أن تقوم الساعة ... فكتبتُ على ظهر المجلّد :

ولولاً أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخصاً ، فقاماً
فذاك بمكة : آوى وحامئ وهذا يشرب جسّ الجماما

(١) هو: كتاب « الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب » ، للسيد شمس الدين ، وهو أحد مراجعنا ، لهذا الكتاب .

تَكْفُلُ عَبْدٌ مُنَافٍ بِأَمْرِ . وَأُودِي ، فَكَانَ عَلَيَّ تَمَامًا
فَقُلْتُ فِي ثَبِيرٍ مَضَى ، بَعْدَ مَا قَضَيْتُ مَا قَضَاهُ... وَأَبْقَى شَمَامًا
فَلِلَّهِ ذَا فَاتِحًا لِلْهُدَى ... وَلِلَّهِ ذَا لِلْمَعَالِي خَتَامًا ...
وَمَا ضَرَّ مَجْدَ أَبِي طَالِبٍ جَهْلٌ لَعًا ، أَوْ بَصِيرٌ تَعَامَى !
كَمَا لَا يَضُرُّ آيَاتِ الصَّبَاحِ مَنْ ظَنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ الظَّلَامَا !

فَوَفِّيْتَهُ حَقَّهُ ، مِنْ: التعظيم، والإجلال ، ولم أجزم بأمرٍ ، عندي فيه
وقفة [(١)] .



وإِنَّا لنجد التناقض صريحاً ، في الفقرة التي قبل آياته . فهو يقول :
إِنَّهُ تَحَرَّجَ عَنِ الْحُكْمِ بِإِسْلَامِ أَبِي طَالِبٍ ، لتلك الوقفة في نفسه ...
ولكنه لم يستجزِ القعود عن تعظيم مَنْ كَانَ السَّانِدُ لِبِنَاءِ صِرْحِ الْإِسْلَامِ
الشُّمُوحِ ، وَمَنْ لَوْلَاهُ لَمَا كَانَتْ لِلْإِسْلَامِ دَعَاةٌ قَائِمَةٌ ... وَحَقُّهُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ
مُسْلِمٍ ، فِي الدُّنْيَا ، وَجَدٌ ، أَوْ كَانَ فِي عَالَمِ الْإِبْجَادِ ، حَتَّى فَنَاءِ الدُّنْيَا ، وَقِيَامِ
يَوْمِ الدِّينِ .

فهذان ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ : أَبُو طَالِبٍ كَافِرٌ ! ، وَلَكِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ ، لَمَا
كَانَ لِلْإِسْلَامِ دَعَاةٌ ! . وَبِذَلِكَ لَهُ الْحَقُّ الْمَفْرُوضُ ، فِي عُنُقِ كُلِّ مَنْ يَمُتُّ لِلْإِسْلَامِ
بِسَبَبٍ ! . فَأَيُّ كَافِرٍ هَذَا... ؟!

وَمِنْ أَيْنَ لَهُ هَذَا الْحَقُّ الرَّجِيحُ ؟ ! أَهَلْ كَانَ مِنْ كَفَرِهِ ؟ وَكَيْفَ كَانَ الْعُضْدُ
وَالدَّعَاةُ ، فِي بِنَاءِ الْإِسْلَامِ ، ذَلِكَ الْكَافِرُ... ؟؟!

ولكنه — بعد ذلك كُلُّهُ — كَتَبَ عَلَى الْكِتَابِ ، تِلْكَ الْآيَاتِ ، الَّتِي
نَطَقَ الْحَقُّ فِيهَا ... فَرَّاحٌ يَعْرِضُ لِمَا قَامَ بِهِ أَبُو طَالِبٍ ، وَابْنُهُ الْإِمَامُ ، مِنْ :

(١) النهج ٣١٧ ، ٣١٨ : ٣

رفيع العمل ، وفذّ النصره ، وهم دعامتا الإسلام ، اللتان لولاهما ، لما مثل الدين ، وقامت له قائمة .

فالأب : بدأ العمل الرفيع ، وأسّس دعامة البناء .
والولد : أتمّ العمل ، وزاد في البناء .
الأب : حاط الرسول ، ونصره .

والولد : لاقى الحمام ، حتى جسّ منه الملمس ، في سبيله .
فالمهمة الفضلى ، التي تكفل بها الأب الكريم ، وأودى ، بعد أن لم تصل الغاية ... كان لها الإبن العظيم ، ذلك المتّم ، فكان تماماً للجهد ، الذي قام به الأب .

فأبو طالب ، هو الفاتح للهدى . وابنه : كان الختام للمعالي .
ما تقول في هذا : « فلهذا فاتحاً للهدى » ؟ . وما الهدى هذا ؟ . أليس يعني هدى الإسلام ؟ . فهل الفاتح لهدى الإسلام ، يكون ذلك الكافر الجاحد ؟ ! - أستغفر الله !

ولكنه ، وقد وفّاه حقّه من التعظيم والإجلال - كما يقول - لم يجزم بإسلامه ، وقد وقف في حلقه ما وقف !... ولعله قد « شرق بالماء » ، أو قد امتلأ به فوه ، فلم يستطع النطق !...

ولكننا نقف عند قوله :

وما ضرّ مجد أبي طالبٍ جهولٌ لنا ، أو « بصيرٌ تعامى » ؟
كما لا يضرّ آيات الصباح ، من ظنّ ضوء النهار الظلاماً !

فأيُّ ضررٍ على مجد أبي طالب الأثيل ، وإيمانه الرسيخ ، وإسلامه الثابت : أن يتعامى عنه ابن أبي الحديد - وهو به ذلك البصير - لأشياء...
قد تكون فرضت عليه : أن يسلك هذا الطريق المنثاد ، ويتجنب المهيح الأبلج !...

افتراء وتزوير

أشرنا - في حديثنا « على العتبة » - إلى السوق السوداء ، التي أقامها معاوية ، وأنفق عليها ، مِنْ مال المسلمين ، إتفاق مَنْ لا يحسُّ بالمسؤولية ، ولا يخشى سوء مغبة العمل ؛ فكثُر فيها زور الحديث ، وتأويل الآيات ، وتحريفها عما أنزل الله ... ومضت هذه السوق - وقد احتشدت فيها البضائع الزائفة - تسجل على جبين الدهر ، ما تسودُّ منه الصفحات ، بحروفها القاتمة ، حتى مسخت الحقائق ، وشوهت وجه التاريخ .

وقد كان لأبي طالب - وهو أبو عليّ البطل - نصيبٌ مِنْ ذلك الظلم الشنيع ، هو مِنْ طراز « جزاء سنمار » ...! فوضعت في حقه الأراجيف ، لتسال مِنْ وضيء إيمانه ، وتطفئ مِنْ لآلئه معتقده ، وتتناسى صلابة جهاده ... بل إنها تريد أن تنتقم منه ... مِنْ صلابة هذا الجهاد ، الذي حال بينها ، وبين خنق الرسالة في مهدها ، يوم جاء بها ابن أخيه ... فراحت تخلق في حقه الأراجيف ، مِنْ الأحاديث المزورة ، وتحريف الآيات ، عما أنزل الله .

فعلينا أن نطوف - في هذا الفصل - بهذا الزور مِنْ التهم ، التي حيكت حول أبي طالب ، والأغراض التي افترت عليه ما هو منه براء ، وما هو منه نقي الصفحة ، نصيع البياض ، طاهر الذيل .

علينا أن نطوف بهذا الزور المفتعل ، والتأويل المخلوق ، فنلقي عليه

النظرة الفاحصة ، ونضعه على مطرقة النقد ، وتحت مجهر التحليل ، لنرى ماذا هناك ...

الآية الاولى

(وَمِنْهُمْ : مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا . وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يَأْمِنُوا بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ، يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ - وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقَالُوا : يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ، وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)^(١) .



أنت تجد : أن هذه الآيات الثلاث في سياقها المتصل - تعرض لنا عمل بعض المشركين ، الذين يستمعون للرسول في ما هو يتلو الوحي ، الذي ينزل عليه بالقرآن الكريم ، ولكنهم لا يفقهون شيئاً مما يتلو ، وقد جعل الله الأكنة على قلوبهم أن تعي ، والوقر في آذانهم أن تسمع ، فلا يؤمنون بهذه الآيات ، التي يرونها ، من الرسول « ص » . وهم - بعد ذلك - يجادلون الرسول ، في هذه الآيات الوفيرة ... ويقولون من صلابة عنادهم : أن هذه الآيات ، ليست سوى أساطير الأولين . فما هي سوى خرافات باطلة ، وأكاذيب

(١) الأنعام ٢٥ - ٢٧ .

مفتعلة - فهي : غاية الكفر والضلال (١) .

وليس يقف عنادهم ، عند هذا الحد . بل يوغلون في عملهم المنكر ، فينهون الناس أن يستمعوا للقرآن الكريم ، لأنهم يخشون أن يسيطر عليهم بجلاله وهيبته ، ويستحوذ منهم على القلوب ، بعظمته وسلاسته... أو ينهون عن الرسول ، فلا يتبعه أحد من المشركين ، فيؤمن بما يحمل من رسالة سامية فيحولون بين هؤلاء وبين الإيمان... وينأون عنه - والنأي هو: البعد - فهم يتباعدون عن الرسول . وليسوا يبعدون إلا عن مصدر النور ، يفضلون غيرهم بنهيمهم ، ويضلّون أنفسهم بنأيهم... وما ذلك سوى الهلاك ، ولكنهم من الشعور على فقدان....!

ولكن لهم وقعة على النار ، يعششون فيها الأنامل ، من الغيظ والألم ، ويندمون على ما فرط منهم ، من تكذيب الآيات الباهرة ، فيرجون عودة ، ليكونوا فيها من المؤمنين ، حتى ينجوا من أليم العذاب ...



وأنت ترى من سياق الآيات الثلاث : أنها متّحدة الغرض، تعني موضوعاً

(١) يقول الزمخشري في كشفه : ٤٤٧ : ١ : (٢:١٠) - عند حديثه على

هذه الآيات :

[روي : أنه اجتمع أبو سفيان ، والوليد ، والنضر ، وعتبة ، وشيبة ، وأبو جهل ، وأضرابهم ، يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ! ما يقول محمد ؟ فقال : والذي جعلها بيته - يعني : الكعبة - ما أدري ما يقول ! إلا أنه يحرك لسانه ، ويقول : أساطير الأولين] .

إلى أن قال الزمخشري : « فنزلت » .

وقد ذكرها البيضاوي ، أيضاً ، في تفسيره - ١٨٤ : ٢ - وذكرت في مجمع

البيان ٣٣ : ٧ .

واحدًا ، وتناول عرض عمل بعض المشركين •
ولكنَّ محرِّفي الكلم عن مواضعه، جاءوا، فتأولوا الآية الوسطى — من
الثلاث — وحرَّفوها عما أنزل الله •

فقد أخرج الطبري وغيره ، من طريق سفيان الثوري ، عن حبيب بن
أبي ثابت، عن سمع ابن عباس، أنه قال : إنها نزلت في أبي طالب، ينهى
عن أذى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤذى ، وينأى أن يدخل
في الاسلام (١) •

ونجمل ملاحظتنا عليه في ما يلي :

أ — نجد في هذه السلسلة : سفيان الثوري • وقد كان يدلس عن
الضعفاء ويكتب عن الكذابين (٢) ، ويروي عن الضعفاء (٣) •

قال ابن مبارك : حدث سفيانٌ بحديثٍ، فجئته وهو يدلسه ، فلمَّا
رأني استحيى ، وقال : زويه عنك (٤) ! • وقال ابن معين : مراسلات سفيان ،
شبه الريح (٥) •

ونقل عن الذهبي في تذكرة الحفاظ : أن الثورياني قال : سمعتُ سفيان
يقول : لو أردنا أن نحدثكم بالحديث ، كما سمعناه، ما حدثناكم بحديثٍ
واحدٍ (٦) •

وسفيان هذا، يحدث عن الصلت بن دينار الأزدي، والصلت هذا ، ممن
ينال عليًّا ويتنقصه ، وهو ممن طعن فيه أرباب الجرح والتعديل • ومع
هذا كله ، فسفيان يروي عنه ، ويقول إذا حدث عنه : حدثنا أبو شعيب ،

(١) تفسير ابن كثير ١٢٧ : ٢ ، والغدير ٣ : ٨ مسنداً له ولغيره •

(٢) ميزان الاعتدال ٣٩٨ : ١ ، ودلائل الصدق ٣٤ : ١ •

(٣) إسعاف المبطأ ص ٢ ، ودلائل الصدق ٣٤ : ١ •

(٤) دلائل الصدق ٣٤ : ١ ، وأعيان الشيعة ١٣٨ : ٣٥ •

(٥) و (٦) المصدر الأول — الدلائل •

ولا يسييه ، حتى قال شعبة : إذا حدثتكم سفيان عن رجل لا تعرفونه ، فلا تقبلوا منه ، فإنما يحدثكم عن مثل أبي شعيب المجنون^(١) .
وهناك من جعل سفيان هذا ، من عداد الشيعة . ونجدنا بين قيسين :
نسبته للتشيع ؛ وصحة رواية هذا الحديث عنه ... فهما ضدان لا يجتمعان :
التشيع ؛ وتكفير أبي طالب ، حيث أن أهل البيت « عليهم السلام »
- وتبعمهم شيعتهم - مجمعون على إيمان أبي طالب الثابت ، ومثلهم كل عاقل منصف ، والخروج عن هذا الإجماع خروج عن التشيع ... فإن ثبت شيعيته ،
تنتفي بذلك هذه الرواية عنه ...

وقد ترجم له الإمام الأمين في أعيانه^(٢) - وذكر فيه التجريح والتعديل ، إلا أنني أميل إلى التجريح ، لتعدد جوانبه ، ولا سيما أن فيه كثيراً من الاعتراض ، على إمام المذهب الشيعي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام^(٣) .

وهناك قول بتشيعه ، وعُدوله عن ذلك^(٤) ، وقول آخر ، بزيدته^(٥) .

ب = إرسال الحديث ، بما بين حبيب ، وابن عباس ، وقطع الصلة بين الاثنين ، يكشف لنا السر الكمين ، ويفضح اللغز الخفي .

ج = يقول الأميني : إن هذا الحديث ، مما انفرد به حبيب ، ولم يشاركه أحد في ما روى ، وقد قال عنه ابن حبان ، وابن خزيمة : إنه كان مدلساً .
وقال العقيلي : غمز ابن عون ، وله عن عطاء أحاديث ، لا يتابع عليها .

(١) دلائل الصدق ص ٣٨ : ١ - وقد جاء ذلك ، في ميزان الاعتدال

ص ٤٦٨ : ١ في ترجمة الصلت .

(٢) ص ١٣٧ - ١٤٨ : ٣٥ . (٣) ص ١٤٢ - ١٤٨ : ٣٥ .

(٤) ص ١٤١ : ٣٥ .

(٥) ص ١٣٩ - ١٤١ : ٣٥ ، كما ذكر ضمن الزيدية في الفهرست ٢٥٣ .

وقال القطان : له غير حديث عن عطاء ، لا يتابع عليه ، وليست بمحفوظة .
وقال الآجري ، عن أبي داود : ليس لحبيب ، عن عاصم بن ضمرة ، شيء .
يصح (١) .

وقال ابن جعفر النحاس : كما يقول : إذا حدثني رجل عنك بحديث ،
ثم حدثت به عنك ، كنت صادقاً (٢) .

أرأيت تساهل الرجل ، في روايته ؟ وهزئه في حديثه ؟ .

د = إن القرطبي قال : معنى الآية عام في جميع الكفار — أي : ينهاون عن
اتباع محمد ، وينأون عنه — عن ابن عباس ، والحسن (٣) .

في ما نقله الأميني ، عن الطبري ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن
مردويه ، من طريق علي بن أبي طلحة ، والعمري : إن الثابت عن ابن عباس
— عن هذه الطرق العديدة — يراها أنها في المشركين ، الذين كانوا ينهاون
الناس عن محمد ، أن يؤمنوا به ، وينأون عنه (٤) .

ونقله الأميني أيضاً — مخرجة ، عن عديد الطرق ، وكلهم يرون في
تفسير الآية : ينهاون عن القرآن وعن النبي ، وينأون عنه : يتباعدون
عنه (٥) .

ه = ليس بين هؤلاء من فسرها على ما نقله سفيان الثوري ، عنه ،
بعدهما نقل عن ابن عباس — من عديد الطرق ما يخالف ما رواه الثوري عنه ،
في تفسير هذه الآية بالذات ، وفي رأيه حول عنه أبي طالب ، ولا سيما بعد
صريح ما نقلناه من رأيه في عنه ، في الفصل السابق (٦) .

٨ :

(١) الغدير ٤ عن تهذيب التهذيب ١٧٩ : ٢

(٢) دلائل الصدق ٣٦ : ١ . (٣) الغدير ٣ : ٨ .

(٤) الغدير ٣ : ٨ . وذكر ذلك عن ابن عباس ، في المجمع ٣٥ : ٧ .

(٥) الغدير ٣ : ٨ . (٦) تحت عنوان على « لسان الصحابة وآخرين » .

و = إن ما نجده من سياق الآيات الثلاث ، واتّحادها في ما رمي إليه ،
يقف مانعاً ، أمام مَنْ يريد : أن يحرف من بينها الآية الثانية ، وهي متصلة
بما سبق وما لحق .

ز = إن تحريف معنى الآية الوسطى - في ذاتها - عن معناها ، يتنافى
ووضوح ما ترمي إليه من معنى ...

فبينما سياق الآية - كما فسّرها بذلك المفسرون - ينهون عن استماع
القرآن ، والإصغاء للرسول ، ويتباعدون عنه ... وإذا بالنهي يخصّون به
الحياطة ، ونصرة الرسول - أي: ينهون عن أذاه ! .

فمن أين نحصل على هذا المعنى ، من هذه الآية الكريمة ؟!

ح = وليس أكذب من هذا التأويل ، إلا مَنْ خصّ به أبا طالب ،
وحده ! - كما قيل : هو خاصٌّ بأبي طالب ، ينهي الكفار عن أذى الرسول ،
ويتباعدون عن الإيمان به (١) .

فإن الضمير في الآية - ضمير الجمع ، وهو : « ينهون وينأون » . ولو
كان مختصّاً بأبي طالب ، لَكُنّا نجد الخطاب ، خطاب المفرد ، لا الجمع .

ثم كيف يصحّ انطباق معنى « ينأون عنه » على أبي طالب ، وهو
الذي لم ينأ عنه طرفة عين ؟! . فمتى كان هذا النأي ؟! ، أي نصرته ، وحياطته ،
والقرب منه ، والدعاية له ولدينه ، والدفاع عنه ، وعن أتباع دينه ... ؟!
فكيف تجتمع هذه الأعمال منه ، مع نأيه عنه ... ؟!

ط = لعلّ من الخير : أن تأتي - هنا - على أقوال بعض المفسّرين ،
في ما قالوه حول هذا الموضوع .
ونحن تأتي على هذا ، نقلاً عن الأميني - وهو الثقة الأمين - لتعذر²

(١) الغدير ٣ : ٨ .

بعض المصادر ، التي أخذ منها :

[وذكر الرازي في تفسيره ٤ : ٢٨ قولين : نزولها في المشركين ، الذين كانوا يهون الناس عن اتباع النبي ، والإقرار برسالته ، ونزولها في أبي طالب خاصة ، فقال : والقول الأول أشبه ، لوجهين :

الأول : إن جميع الآيات المتقدمة على هذه الآية ، تقتضي ذم طريقتهم ، فكذلك قوله . وهم يهون عنه ، ينبغي أن يكون محمولاً على أمر مذموم ، فلو حملناه على أن أبا طالب كان ينهي عن إيذائه ، لما حصل هذا النظم .

والثاني : إنه تعالى قال بعد ذلك : وإن يهلكون إلا أنفسهم . يعني به ما تقدم ذكره ، ولا يليق ذلك بأن يكون المراد من قوله : وهم يهون عنه — النهي عن أذيته ، لأن ذلك حسن ، لا يوجب الهلاك .

فإن قيل : إن قوله : « وإن يهلكون إلا أنفسهم » ، يرجع إلى قوله : « وينأون عنه » ، لا إلى قوله : « يهون عنه » ، لأن المراد بذلك : أنهم يبعدون عنه بمفارقة دينه ، وترك الموافقة له ، وذلك ذم ، فلا يصح ما رجحتم به هذا القول .

قلنا إن ظاهر قوله : « وإن يهلكون إلا أنفسهم » ، يرجع إلى كل ما تقدم ذكره ، لأنه بمنزلة أن يقال : إن فلاناً يبعد عن الشيء الفلاني ، وينفر عنه ، ولا يضر بذلك إلا نفسه ، فلا يكون هذا الضرر ، متعلقاً بأحد الأمرين ، دون الآخر — إله .

وذكر ابن كثير في تفسيره ٢ : ١٢٧ : القول الأول نقلاً عن ابن الحنفية وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغيرهم واحد ، فقال : وهذا القول أظهر ، والله أعلم — وهو اختيار ابن جرير^(١) .

(١) كذلك وجدناه ، عند رجوعنا إليه ، في تفسير ابن كثير . ←

وذكر النسفي في تفسيره بهامش تفسير الخازن ٢ : ١ - القول الأول .
ثم قال : وقيل : عني به أبو طالب - والأول أشبه .

وذكر الزمخشري في الكشاف ١ : ٤٤٨ ك (١) ، والشوكاني في تفسيره
٢ : ١٠٣ وغيرهما : القول الأول ، وعزوا القول الثاني إلى القيل : وجاء
الآلوسي ، وفصل القول الأول ، ثم ذكر الثاني ، وأردفه بقوله : وردّه الإمام .
ثم ذكر محصل قول الرازي [(٢)] .

وهناك مَنْ عَمَّ هذه الآية، فرآها : نازلةً في عمومة النبي (ص) ،
[وكانوا عشرةً ، فكانوا أشدَّ الناس معه في العلانية وأشدَّ الناس عليه
في السرِّ] (٣) .

وليس خفي أن مَنْ بين أعمام النبي (ص) : حمزة سيد الشهداء ،
والعباس . ولك - بعد ذلك - أن تحكم ، في ما إذا كان هذان مِنْ يقفون
على النار ، فيقولون ما حكاه الله سبحانه ، عنهم ، في هذه الآية ، مِنْ إبداء
الندم ، حيث لا تقع فيه ! أم ماذا يتأول المهوِّسون المغرضون ؟!

أما أنا فلا أستبعد وجود مَنْ يقول ذلك ، بعد أن عرضنا نماذج ، في
الفصل الأول - «على العتبة» - مِنْ هذا الكتاب . ومنها ما حدث به عروة ،
مِنْ أن العباس وعليًا ، مِنْ أهل النار !
وما الحمزة بالذي يداني عليًا في فضله ، وقد قيل فيه ما قيل !!! .

وذكر هذا القول - في المجمع ٣٦ : ٧ - عن ابن عباس ، ومحمد بن
الحنفية ، والحسن ، والسدي ، وقتادة ، مجاهد ، واختاره الجبائي .

(١) ص ١٠ : ٢ .

(٢) الغدير ٧ ، ٨ : ٨ .

(٣) أسباب النزول ٩٨ مخرجاً عن ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن أبي
هلال . وتفسير ابن كثير ١٢٧ : ٢ مخرجاً عنهما .

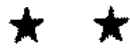
ي = مِنْ هذا كله... ينكشف لنا الستر المسدّل ، وتنفضح الغايات
الدون ، مِنْ تحريف الآية ، وتحويلها مِنْ المشركين ، إلى أبي طالب ، المؤمن
العميق ... مِنْ حيث السند ، فهو واهٍ متهاك ... وَمِنْ حيث المعنى ، فهو
متصلٌ متماسكٌ ، لا يفصل بينه شيءٌ ... وَمِنْ حيث آراء المفسّرين ، انّذين
عرضنا البعض مِنْ آرائهم ... وَمِنْ حيث الثابت ، مِنْ سيرة أبي طالبٍ - قولاً
وعملًا - وشهادات الرسول وآله ، ممّا عرضنا ...

كلُّ هذه ... تفرض علينا أن نصفع بذلك التأويل المجرف ، عرض
الجدار ، ولا نلتفت للافتئات المفرض ... والذي نال بعضه ، في ما نال ، سيد
الشهداء حمزة ، وأبا الفضل العباس !

الآية الثانية والثالثة

١ - مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالْكَافِرِينَ أَمْنٌ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١)

٢ - (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (٢) .



نودُّ هنا - حول حديثنا عن تأويل هاتين الآيتين الكريمتين ، وتحريفهما
عمّا أنزل الله ، إلى النيل مِنْ أبي طالبٍ - أن تأتي ، أولاً ، بالأقوال ، التي
حرّفتها ، وصرفتها إليه ، لنتناقش السند ، ونفضح الرواة ، واحداً
بعد آخر .

(١) التوبة ١١٣ . (٢) القصص ٥٦ .

١ = [عن إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبدالرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيّب ، عن أبيه ، قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعنده أبو جهل ، وعبدالله بن أبي أمية ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي عم ! قل : لا إله إلا الله ، أحاج لك بها عند الله ! فقال أبو جهل ، وعبدالله بن أبي أمية : يا أبا طالب ! أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « وآله وسلم » : لأستغفرن لك ما لم أدنه عنك ، فنزلت : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا - الآية (١) .



٢ = [وعن أبي اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، قال : أخبرني سعيد بن المسيّب ، عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوجد عنده : أبا جهل ، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال : أي عم ! قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل ، وعبدالله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل الرسول ﷺ يعرضها عليه ، ويعيدان بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . قال : فقال رسول الله ﷺ : والله لأستغفرن لك ، ما لم آت به عنك ، فأنزل الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفَرُوا لِلْمُشْرِكِينَ . وأنزل الله في أبي طالب ، فقال لرسول الله ﷺ : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [(٢)] .

٣ = [وعن حرمة بن يحيى التميمي ، أخبرنا عبدالله بن وهب ، قال : أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرني سعيد بن المسيّب ، عن أبيه ،

(١) البخاري ٢٠١ : ٣ و ٨٧ : ٣ . (٢) المصدر ١٠٧ : ٣ .

قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاء رسول الله - الخ [(١)] .

★ ★

٤ = [عن محمد بن عبادة ، وابن أبي عمر ، قالا : حدثنا مروان عن يزيد - وهو ابن كيسان - عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : لعن الله الموت : قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة . فأبى . فأنزل الله : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ] (٢) .

★ ★

٥ = [عن محمد بن حاتم بن ميمون ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا يزيد بن كيسان ، عن أبي حازم الأشجعي ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : لعن الله قل : لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة . قال : لولا أن تعيرني قريش ، يقولون : إنما حملة على ذلك الجزع من الموت ، لا قررت بها عينك ، فأنزل الله : إِنَّكَ لَا تَهْدِي - الآية] (٣) .

★ ★

رواة الأحاديث الثلاثة الأولى

نبدأ النظر في سلسلة الأحاديث ، بالثلاثة الأولى ، وهو من جوانب :

- ١ -

نجد في الحديث الأول ، من بين رواه :

أ - إسحاق بن إبراهيم : مبتور الاسم . ولا نعلم به هل هو الضعيف ؟

(١) صحيح مسلم ٤٠ : ١ (٢) و (٣) المصدر ٤١ : ١ .

أو مَنْ شيخه ساقط؟، أو مَنْ ليس بثقة؟، أو مَنْ لا يعرفه الذهبيُّ ، وضعفه الدارقطنيُّ؟، أو مَنْ كذبه ابن عديُّ والأزديُّ لوضعه الحديث؟، أو مَنْ قال عنه الحاكم : ليس بالقويِّ ، ومرةً أخرى : ضعيفٌ ، وقال الدارقطنيُّ : ليس بالقويِّ؟، ومَنْ قال عنه النسائيُّ : ليس بثقة؟، وأبو داود: ليس بشيءٍ ، وكذبه محدث حمص : محمد بن عوف الطائيُّ؟، أو مَنْ روى الأحاديث المنكرة؟، أو مَنْ ترك الأخذ عنه ؟ (١).

ولكن فلعله إسحاق بن إبراهيم الدبري ، صاحب عبد الرزاق ، الذي قال عنه الذهبيُّ : « ما كان الرجل صاحب حديثٍ » إلى قونه : « لكن روى عن عبد الرزاق أحاديثَ منكرةً ، فوقع التردد فيها : هل هي منه ، فانفرد بها؟، أو هي معروفةٌ مما تفرَّعه به عبد الرزاق ؟ » (٢).

ولكن صاحب شيخ الأبطح — وقد عرض لهذا الحديث — يقول : إنه إسحاق بن إبراهيم ، بن راهويه (٣) .

وهذا قد ذكره الذهبي ، فقال عنه :

[وقال أبو عبيد الآجري : سمعت أباداود يقول : إسحاق بن راهويه، تغيرَ قبل أن يموت ، بخمسة أشهر ، وسمعتُ منه في تلك الأيام ، فرميتُ به] — حتى يقول : [وذكر لشيخنا أبي الحجاج حديثٌ ، فقال : قيل : إسحاق اختلط في آخر عمره] .

ثم أورد عنه ، ما رآه مِنْ مناكير حديثه (٤) .

غير أنَّنا نُقرِّبه بالدبري ، صاحب عبد الرزاق . ودليلنا على ذلك إسناده الحديث لعبد الرزاق .

(١) الميزان ٨٤ — ٨٦ : ١ ، (٢) المصدر ٨٥ . ١ .

(٣) ص ٧٠ ، (٤) الميزان ٨٦ : ١ .

ب = ونجد ، بعدئذ عبد الرزاق. ومن عبد الرزاق هذا ؟ هل هو عبد الرزاق بن عمر الثقفي ، الذي قيل عنه : ضعيف ليس بثقة ، منكر الحديث ، وقال عنه الدارقطني : هو ضعيف من قبل أن كتابه ضاع . وقال أبو مسهر : ضاع كتابه عن الزهري ، فكان يتبعه بعد أن ذهب ، فيأخذ عنه ما سواه ؟ (١) .

ولكن فلعلة هو الذي قال عنه الذهبي ، في حديثه عن إسحاق بن إبراهيم ، وهو ما نقلناه : « لكن روى عن عبد الرزاق أحاديث منكراً » - إلخ .

وهو الراوي عشرة آلاف حديث ، عن معمر بن راشد ! (٢) .
ج = وكذلك نجد ما ذكر ، من اسم معمر . فليس غير الكذاب المجهول ، راوي المناكير (٣) .

و في ما نظن أن معمرًا هذا ، وهو معمر بن راشد (٤) . وقد قال عنه الذهبي : « وله أوهام معروفة » ، احتملت له . وقال أبو حاتم : وما حدث به - بالبصرة - ففيه أغاليط (٥) .

وقد قال عبد الرزاق عنه - وهو أحد حلقات السند ، الذي روى عنه إسحاق منكر الحديث ، الذي نحن بصدد رجاله الكذبة : « انه كتب عن معمر عشرة آلاف حديث » : (٦) .

أرأيت هذه الكثرة ! رب زد وبارك !

وهل رأيت ما في هذه الحلقات المفرغة من الكذب والافتراء... فما

(١) الميزان ١٣٦ : ٢ .

(٢) الميزان ١٨٨ : ٣ - وعبد الرزاق ، هذا ، كان ينال من عثمان -

كما في الغدير ٢٥٢ : ٥ .

(٤) إلى هذا ذهب شرف الدين ، في شيخ الأبطح ص ٧٠ .

(٣) (٥) و (٦) الميزان ١٨٨ : ٣ .

في حلقات سلسلة الحديث ، إلا عرى متفصلة^(٦) .

- ٢ -

ويوافينا - في الحديث الثاني - هذا السند :

أ - وهكذا لا تنتهي سلسلة الأسماء البتراء ! فمَنْ أبو اليمان هذا ؟

فإننا لا نجد ، سوى اسم واحد ، أرسل حديثاً^(١) .

ب - والثاني فيهما ، هو : شعيب . ونجد - على هذا الاسم - سلسلة ، ليس فيها غير الوضائع ، الكذوب ، الضعيف ، والراوي للمناكير ، والمجهول ، إلى آخر السلسلة^(٢) .

- ٣ -

وهنا ... تلتقي سلسلة الحدين بالزهري . وإنها لعروة مفككة
الأجزاء !

ولا ندري ، فهل يؤخذ حديث عن الزهري ، وهو الراوي ذلك الحديث
المفتعل ، عن عليٍّ والعباس - في ما نقلناه ، في حديثنا « على العتبة » وهو
حديث : إن علياً والعباس ، من أهل النار ، وأنها يموتان على غير مسألة

(٦) تفصُّم : تصدَّمَع .

(١) الميزان ٣٨٨ : ٣ .

(٢) المصدر ٤٤٧ ، ٤٤٨ : ١ . وفي الغدير ٢٠٤ : ٥ : [شعيب به عمرو

الطحان . قال الأزدي : كذاب] .

الرسول (١) .

فهل يؤخذ حديث في أبي طالب، يرويه هذا الطاعن في علي، القائل الزور والإفك، بكل قحّة، وصلافة وجه، وتقلص إيمان؟! .

إن الباعث بارز، أوضح من الشمس... وإنه لهو المنتظر منه... فما عسانا نتظر منه أن يقول عن أبي طالب، غير ما قال، بعد أن قال في علي، مثل هذا القول، النابي، والتهمة الفاحشة...؟! .

أليس يكفي أن يكون أبو طالب أباً لعلي، ليقول فيه أشدّ ممّا قال...؟! .
ولسنا - بعد هذا - في حاجة لأن نقول : إنه كان من المدكّسين (٢) .
فيكفيّا عنه هذان الحديثان - في عليّ والعباس - ليسقط ، عندنا ، من ميزان الرجال .

ومن الخير أن نشير إلى أن الحديث الأول ، الذي أتينا عليه ، والمفتعل في حق أبي طالب، والذي رواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري...
من الخير أن نشير إلى أن عبد الرزاق ومعمر - هذين اللذين اجتمعا مع الزهري ، وشاركا في نسج خيوط ذلك الحديث الكذوب - لم يستطيعا أن يسائرا الزهري في بهتانه ، إلى الشوط الأخير... فإن النّفَس قد قصر منهما، أن يمتد حتى نهاية الشوط... .

لذلك... روى عبد الرزاق ، عن معمر، فقال : كان عند الزهري حديثان ، عن عروة ، عن عائشة ، في عليّ « عليه السلام »، فسألتُهُ عنهما يوماً ، فقال : ما تصنع بهما وبحديثهما؟! الله أعلم بهما ! إني لأتُهمهما في بني هاشم (٣) .

(١) ذكرنا الحديثين - في حديثنا « على العتبة » - عن النهج ٣٥٨ : ١ .

(٢) الميزان ١٢٦ : ٣ .

(٣) النهج ٣٥٨ : ١ .

يعني بذلك الزهري ، وعروة • ويعني بالحديثين ما اختلق في حق علي بن
والعباس ، بأنهما من أهل النار ، ويسوتان على غير الدين الإسلامي الحنيف •
ولعل من الخير أيضاً - أن نعرض عن الزهري ، هذه الحادثة :
شهد شاهدٌ مسجد المدينة ، فإذا الزهري ، وعروة بن الزبير ، جالسان
يذكران علياً « عليه السلام » ، فنالاه منه ، فبلغ ذلك علي بن الحسين « عليه
السلام » ، فجاء حتى وقف عليهما ، فقال :
أما أنت - يا عروة ! - فإن أبي حاكم أباك ، فحكم لأبي علي عليك ؛
وأما أنت - يا زهري ! - فلو كنت بمكة ، لأريتك بيت أبيك ! (١) •

- ٤ -

وفي سلسلة الحديث الثالث ، نجد بينهما هذه الأسماء :

أ - حرمة بن يحيى التميمي - أو التميمي - انفرد بغرائب • قال
أبو حاتم : لا يحتج به • وضعفه عبد الله بن محمد الفرهاذان ، في ما نقل عنه
ابن عدي ، واشتهر عن حرمة أن « لديه ألف حديث » ، كلها عن ابن وهب •
وهذا الحديث ، الذي نحن بصدده ، رواه حرمة ، عن ابن وهب - فقد
أخذ حرمة هذا ، حديث ابن وهب كله ، ما عدا حديثين (٢) .

ب - وهنا ... تقع في البلبلة ، إذا قرأنا ما قيل ، عن عبد الله بن وهب
- وهو الثاني في سلسلة الحديث المكذوب - فإنه قيل عنه : إنه صنّف
مئة ألف ، وعشرين ألف حديث ، وحديثه كله عند حرمة ، سوى حديثين (٣) .

(١) النهج ٣٧١ : ١ . (٢) الميزان ٢١٩ : ١ .

(٣) إذا أردنا الجمع بين القولين ، في ما قيل عن حرمة ، في ما قيل عن
ابن وهب ، فإن الظاهر سقوط جملة « مئة ألف حديث وعشرين » ، عند
الكلام عن حرمة •

وسأل الإمام أحمد بن حنبل سائلٌ عنه: أليس يُسيء الأخذ؟ قال: بلى! (١) .

أليس يكفي — لو قدّر صحة توثيق مَنْ وثّقه! — أن يكون سييء الأخذ، وأن ينفرد برواية مئةٍ وعشرين ألف حديثٍ؟! .

فما هذه الوفرة الهائلة ، والكثرة المتضخّمة ، من هذه الأحاديث؟! .

فما عليه ، إلا أن يقول : حدثني ، وأخبرني ، وروى لي ، وقال لي ، حتى تتم هذه الوفرة ، وتتضاعف هذه الروايات! .

ج — ولسنا نعرف يونس هذا . فإن بين هذا الاسم ، سلسلةً ، فيها : الكذوب ، والسي الحفظ ، والمنكر الحديث وحتى أن فيهم مَنْ لُقّب بـ «الكذوب» (٢) .
د — وأما ابن شهاب ، فهو أكثر غموضاً ، وأعرق في الخفاء ، مِنْ أن نستطيع معرفة شيءٍ عنه! .

— ٥ —

وهكذا تتّصل سلسلة الأحاديث الثلاثة : بسعيد بن المسيّب ، عن أبيه .

أ — ونحن لا نستطيع أن نأخذ بهذا الحديث ، بعدما وجدنا فيه ، ما وجدنا ولا نستطيع أن نأخذ به ، وإن كان عن سعيد بن المسيّب ؛ حيث أنه قد اختلف في سعيد هذا ، اختلافاً كبيراً جداً ، بين : التعديل والتجريح فمن بين القادحين فيه ابن أبي الحديد ، حيث سلكه في عداد المنحرفين عن عليّ «عليه السلام» ، وأن في قلبه شيئاً منه (٣) ، وأنه من القالين

(١) الميزان ٨٦ : ٢ . (٢) الميزان ٣٣٦ — ٣٤٠ : ٣ .

(٣) كان سعيدٌ من المنحرفين عن الإمام «عليه السلام» — كما في

النهج ٣٧٠ : ١ ، والغدير ٩ و ٥٦ : ٨

له ، القائلين فيه ، المبغضين إياه ...

ومتى ثبت بغضه لعلّي ، لا يسكن - بأي حال - أخذ حديث منه ، فكيف بحديث في أبي طالب - والد علي - لأن علياً هو محك الإيسان والنفاق ، إذ لا يحبه منافق ، ولا يبغضه مؤمن ... كما جاء في المستفيض من الأحاديث النبوية .

وعلينا أن نعرض بعض الحوادث ، والكلمات ، التي وقفنا عليها عنه ... ونبدأ بتسجيل هذه المحاوراة ، بينه وبين عمر بن علي - كما سجلها ابن أبي الحديد :

[وجهه عمر بن علي عليه السلام ، في وجهه ، بكلام شديد . روى عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبي داود الهمداني ، قال : شهدت سعيد بن المسيّب ، وأقبل عمر بن علي ابن أبي طالب عليه السلام ، فقال له سعيد : يا ابن أخي ! ما أراك تكثر غشيان مسجد رسول الله (ص) ، كما يفعل إخوانك ، وبنو أعمامك ؟! فقال عمر : يا ابن المسيّب ! أكلما دخلت المسجد ، أجيء فأشهدك ؟! فقال سعيد : ما أحب أن تغضب ! سمعت أباك يقول : إن لي مقاماً ، فهو خيرٌ لبني عبد المطلب ، ممّا على الأرض من شيء . فقال : وأنا سمعت أبي يقول : ما كلمة حكمية ، في قلب منافق ، فيخرج من الدنيا ، إلا يتكلم بها . فقال سعيد : يا ابن أخي ؟ جعلتني منافقاً ؟! فقال : هو ما أقول لك ! ثم انصرف] (١) .

وهكذا ... خرجت هذه الكلمة الحقّة ، من قلب ابن المسيّب ، قبل أن يلفظ منه النفس الأخير ...

وهذه الشدة في المقابلة ، والمخشنة في الحديث - من عمر بن علي ، مع ابن المسيّب ، قد تدلُّ على موقف ابن المسيّب ، من علي ، وانحرافه عنه ، وبغضه له ، والوقیعة فيه !...

(١) النهج ٣٧٠ : ٨ والغدير ٩ : ٨ ، وأعيان الشيعة ٧٨ ، ٧٩ : ٣٥ .

وهذه حادثة ، هي الأخرى تدل على انحراف ، عن أهل البيت « عليهم السلام » :

فقد مرَّ سعيدُ بن المسيَّب هذا، بجزاة الإمام السجاد ، عليّ بن الحسين عليهما السلام ، ولم يصلّ عليها ، فجاء إليه ، مَن استنكر منه هذا العمل ، قائلاً له :

— ألا تُصلي على هذا الرجل الصالح ، مَن أهل البيت الصالحين ؟!

فكان جوابه إليه ، هو هذا :

— صلاة ركعتين ، أحبُّ إليّ من الصلاة ، على الرجل الصالح ! (١) .
فكيف بنا نستطيع أن نأخذ حديثاً ، ضدَّ عليّ ، مَن شخصٍ متهمٍ عليه ؟!
وإذا عرفنا أن سعيداً ، هو القائل :

[مَن مات محبّاً لأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليّ ، وشهد للعشرة بالجنة ، وترحمَّ على معاوية «!؟» كان حقّاً على الله أن لا يناقشه الحساب] (٢) .
— فحينئذٍ نعرف ، بعد ما أوضح موقفه مَن معاوية ، أيّ قيمة لهذا الحديث ، يوضع في حق شيخ الأبطح ...

وليس موقف ابن المسيَّب مَن معاوية ، بمحلّ نكرانٍ ، بعد أن قال عن معاوية ، أيضاً :

[لقد رغب إلى مَن لا مرغوب إلا إليه ، وإنني لأرجو أن لا يعذبه الله] (٣) .

وهل تعرف ما الذي دفعه لهذه القولة ، الجانية على الحق ، ودعته

(١) شيخ الأبطح ٦٦ والغدير ٨٧٩ ، والأعيان ٧٢ ، ٧٣ : ٣٥ .

(٢) الغدير ١٣٨ : ١٠ ، عن تاريخ ابن كثير ٨ : ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٣) أعيان الشيعة ٨٠ : ٣٥ .

لتناسي الدماء المهرقة ، والحقوق المغتصبة والمضاعة ، وتجاهل كل الأعمال الشائنة والأفعال القباحة التي يقوم بها معاوية...؟! إنه ليتعلل بقوله ، قالها معاوية ، عند احتضاره : حين ما رأى أجنحة الموت تخيّم عليه ، والمقامع مسددة له ، ففاه بهذه القولة المأثرة :

[اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، ومعد بطلك على من لم يرج غيرك ، ولم يثق إلا بك ، فإنك واسع المغفرة ، وليس لذي خطيئة مهرب إلا إليك] (١) .

ولعل قولة معاوية هذه ، هي حجر الأساس ، في بدعة المرجئة . ومنها عد من أول المرجئين .

والترجيء يشيد من هذا البناء الظلوم - الذي أقامه معاوية - المبيح لاقتراف الجرائم والآثام ، وتقوية الرذيلة ، وإشاعة الظلم ... ثم ما على هذا الظلوم ، إلا لقلقة باللسان - عند الاحتضار - يتم بها ، دون أن يقرها قلبه ، ولم يعرفها عمله المبين لها ... ليحيى من بعده ، من يرجو : أن لا يعذب الله هذا السفاح الإباحي ، والوصولي المتاجر ... ويحاول أن ينسى الله - وأستغفره ! - ما نسيه هذا ، أو ذاك ، من أعمال هذا الظلوم ...!

ولعل من الخير - أيضاً - أن نقف من سعيد بن المسيّب ، على مدى تقديره لمعاوية ، ومن هو من سنخه ، من البيت الأموي اللئيم ، حيث قيل له : من أبلغ الناس ؟ فقال : رسول الله (ص) فقيل له : ليس عن هذا نسألك ! عندئذ لم ير غير معاوية ، وابنه يزيد ، وسعيد بن العاص ، وابنه عمرو الأشدق (٢) .

ونحن - بهذا - نعرف فيه انحرافاً عن عليّ وأهل بيته ...! إذ ما بلاغة

(١) أعيان الشيعة ٨٠ : ٣٥ .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٢ : ١١ .

هؤلاء ١٩٠ وما هي - لو كانت - غير نقطة متلاشية، إلى بحر ثجاجٍ . اللهم !
إلا أن يعتذر عنه بأن السائل لم يسأله عن هؤلاء ، حيث دل على رسول الله
(ص) ، بجوابه الأول ، فعدل السائل ؛ لأن الرسول خارجٌ من
السؤال بالدليل - كما يقولون - وهو وعليه نفس واحدة .

ولكن هذا يأتي ، لو كان الجواب ، من غير من اتهم بالانحراف !

وقد اختلف في سعيدٍ اختلافاً كبيراً، وتضاربت الآراء فيه - كما أشرنا .
فمنهم من يعدّه شيعياً ، ومن حوارى عليّ بن الحسين « عليه السلام » .

وهذا لا يكون من عدّة نواحٍ : لا نحاول بسطها ، هنا . وتكفينا هذه
الروايات ، في حق أهل البيت ، وحق أيهم العظيم شيخ الأبطح ، حيث
يتناقض قول سعيد ، مع أقوالهم في حق أبي طالب ، ومع قولة السجاد
نفسه التي مرّت في فصل سابق ، والذي عدّه هذا من حواريه ١٩٠ . فان
ثبتت شيعيته ، اتفت هذه الرواية عنه ،

ومنهم - كالنفيد - من يعدّه ، ممن لا يدفع نُصْبَهُ . ومنهم - كمالك -
من يعدّه من الخوارج الأباضية (١) .

وعلى كلّ فإن تغلب جانب التعديل على التجريح - في هذا الرجل ، وهو
ما نودّ - فإن هذه الرواية منتفية عنه قطعاً ...

ثم يكفي ما في هذه السلسلة ، من عرى مفصّلة ، هي التي وضعت
الحديث ، على لسان سعيد - إن كان مقطوعاً بصلاحه ١٠٠٠ !

ب - أما والد سعيد - وهو المسيب بن حزن ، هذا الاسم الذي ورث
وليدّه منه « حزونة وسوء خلق » (٢) فما هو إلا من « مسلمة الفتح » (٣)

(١) أعيان الشيعة ٨٠ : ٣٥ . (٢) نسب قريش ٣٤٥ .

(٣) الاصابة ٤٠١ : ٣ عن مصعب الزبيري .

فَمِنْ أَيْنَ شَهِدَ احْتِضَارَ أَبِي طَالِبٍ؟! وَإِنْ شَهِدَهُ ، فَكَيْفَ يُؤْخَذُ قَوْلُهُ ، وَهُوَ
يُرِيدُ أَنْ يَكْثُرَ الْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ مَعَهُ فِي الرَّأْيِ ، تَبْرِيراً لِمَوْقِفِهِ الْمُشْرِكِ... (١)

عَلَى أَنَّنَا لَمْ نَقِفْ عَنْهُ عَلَى تَوْثِيقٍ لَهُ • فَأَقْلُّ مَا يُقَالُ عَنْ حَدِيثِهِ هَذَا : إِنْ
فِيهِ انْقِطَاعًا ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى تَفْصُّمِ السَّلْسَلَةِ ، وَمُعَارَضَةِ الْحَدِيثِ بِالْأَقْوَى •

رَوَاةُ الْحَدِيثَيْنِ الْآخِرَيْنِ

نَخْلُصُ - الْآنَ - لِلنَّظَرِ فِي سَلْسَلَةِ رَوَاةِ كُلِّ مِّنَ: الْحَدِيثِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ •

- ١ -

نَنْظُرُ فِي سَلْسَلَةِ الْحَدِيثِ الرَّابِعِ ، لِنَرَى الْأَقْوَالَ فِيهَا :

أ - مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ - هَذَا - مَنْ هُوَ ؟ • فَلَيْسَ بَيْنَ هَذَا الْأِسْمِ ، غَيْرِ
الْمَجْهُولِ الَّذِي لَا يُعْرَفُ ، وَغَيْرِ مَنْ لَمْ يَكُنْ الْبَصِيرَ بِالْحَدِيثِ ، وَمَنْ لَمْ يُحْمَدْ
عَلَيْهِ ، وَفِي أَمْرِهِ نَظَرٌ ، وَمَنْ ضَعَّفَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ (١) •

ب - ابْنُ أَبِي عَمْرٍ ، مَنْ هُوَ هَذَا ؟ • ؟ فَلَندَعُهُ فِي غَمَارِ الْمَجْهُولِينَ •

ج - ثُمَّ مَنْ مَرَّوَانُ هَذَا ؟ • فَلَديْنَا خَفْنَةَ مِنْ هَذَا الْأِسْمِ ، فِيهِمْ : الْكَذُوبُ ،
وَالْمَجْهُولُ ، وَالضَّعِيفُ ، وَذُو الْمُنْكَرِ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَالرَّائِي عَمَّنْ هَبَّ وَدَبَّ ،
وَمَنْ لَا يُوثَقُ بِحَدِيثِهِ ، وَمَنْ لَا يُحْتَجُّ بِهِ (٢) •

(١) الْمِيزَانُ ٧٧ : ٣ •

(٢) الْمِيزَانُ ١٥٩ - ١٦١ : ٣ •

- ٢ -

ننظر في سلسلة الحديث الخامس ، فما عسانا أن نرى فيها ؟!

أ - محمد بن حاتم بن ميمون، القطيعي - المعروف بالسمين - قال ابن معين، وابن المديني : كذاب • وقال الفلاس : ليس بشيء^(١) •

ب - يحيى بن سعيد، قال عنه البخاري وأبو حاتم : منكر الحديث • وقال النسائي : يروي عن الزهري أحاديث موضوعة • وقال ابن عدي وغيره : يروي عن الثقة لبواطيل • وقال ابن حبان : كان ممن يخطئ كثيرا^(٢) • وقال يحيى بن سعيد القطان : يدلس • وقال الدماطي : يقال إنه يدلس^(٣) • ويحيى بن سعيد، هو الذي يقول : إن في نفسه شيئا من جعفر الصادق^(٤) •

- ٣ -

وهنا تتصل سلسلة الحديثين ، يزيد بن كيسان ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة :

أ - أما يزيد بن كيسان ، فقد ذكر الذهبي - على هذا الاسم شخصين - فالأول منهما ، هو ما يعنينا أمره ، حيث أشار إلى أنه يروي عن أبي حازم ، الأشجعي وغيره ، ويروي عنه يحيى القطان • ثم قال :

(١) الميزان ٣٧ : ٣ ، ودلائل الصدق ٥٩ : ١ •

(٢) الميزان ٢٨٩ : ٢ •

(٣) دلائل الصدق ٦٨ : ١ (٤) الغدير ٢٥٢ : ٥ •

[وقال أبو حاتم : لا يحتجُّ به • وقال يحيى بن سعيد القطان ، وهو صالحٌ وسَطٌ : ليس مَثْنٌ يُعتمد عليه] (١) •

ولا ندري هل يعني الذهبي يحيى القطان ، الذي يروي عن يزيد • يحيى بن سعيد - الطاعن فيه - أم غيره ؟
ب - لم نعرف اسم أبي حازم الأشجعي ، فلم نستطع أن نقف عنه ، على قول •

ج - أما أبو هريرة ، فهذا الذي اختلف في اسمه ، واسم أبيه ، ونسبه ، حتى تكاد تظنُّ هذا اللقب ، لعددٍ من الشخصيات ... (٢) هذا المكثَر من الحديث ، الذي أُجمع على أنه أكثر الرواة حديثاً (٣) ، فقد وجد له في مسندٍ واحدٍ - هو مسند تقيِّ بن مخلدٍ - ما ينيف على خمسة آلاف ، وثلاثمائة حديث (٤) •

هذا هو الذي كان يضع رداءه - في ما حدث هو بذلك - ويسطه ، ليملاه من الأحاديث ، فيضته إليه (٥) •

ولا ندري ما عسى أن تكون هذه الأحاديث ، التي يمتلىء بها الرداء ١٩ • ولا ندري ماذا عساه أن ينطوي عليه الرداء ... في ما هو يضمُّ إليه رداءه هذا الملليء !

ولست أظنُّ ، إلا أن هذا الحديث - المسند إليه - من بين تلك

(١) الميزان ٣١٨ : ٣ •

(٢) ارجع لذلك لترجمته ، في كلٍّ من : الإصابة والاستيعاب - ص ٢٠٠ :

٤ - فإنك تجد فيهما أكثر من صفتين ، في اختلاف اسمه ونسبه • وكذلك ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤١٧ : ٢ •

(٣) الإصابة ٢٠٢ : ٤ •

(٤) المصدر ، والغدير ١١٥ : ٧ ، وسير أعلام النبلاء ٥٣ : ٢ •

(٥) الإصابة ٢٠٥ : ٤ •

الأحاديث ، التي علقت بهذا الرداء! فرواه على أنه حديث ، ولم يدرِ عنه : أنه مما علق بالرداء!!!

ونحن لا نقبل هذا الحديث منه ، لأموهٍ عديدةٍ

فأبو هريرة - كما عرضنا لذلك ، في حديثنا « على العتبة » - كان من بين من استأجرهم معاوية ، لوضع الحديث في عليٍّ « عليه السلام » .

ونحن نأتي على النص الكامل ، الذي نقله الحديدي ، عن أبي جعفر الإسكافي :

[إن معاوية وضع قوماً من الصحابة ، وقوماً من التابعين ، على رواية أخبارٍ قبيحةٍ في عليٍّ عليه السلام ، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه ، وجعل على ذلك جُعلاً يُرغب في مثله ، فاختلفوا ما أَرْضاه . منهم : أبو هريرة ، وعمر بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين : عروة بن الزبير] (١) .

فأنت ترى أبا هريرة ، ومن استأجره معاوية ، لينال من عليٍّ ، ويضع فيه الأخبار القبيحة ، التي تحمل بين حروفها : الطعن في عليٍّ ، والبراءة منه !

وكذلك وجدناه ... فقد وضع ذلك الحديث ، الذي عرضنا له - أيضاً - في حديثنا « على العتبة » ، من أنه « يشهد بالله ! أن علياً أحدث » ، بعد الرسول ، حدثاً ... فاستوجب عليٌّ - بذلك ، على رأي أبي هريرة - لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين (٢) .

وهو لم يسأِر معاوية ، إلا طمعاً في مالٍ ، فقد كان [إذا أعطاه معاوية سكت ، فإذا أمسك عنه تكلم] (٣) .

(١) النهج ٣٥٨ : ١ .

(٢) المصدر ٣٥٩ : ١ - وقد نقلنا الحديث كاملاً ، عند حديثنا

« على العتبة » . (٣) سير أعلام النبلاء ٤٤٢ : ٢ .

ونودُّ قبل أن نعرض — هنا — بعض الأقوال عنه ، أن نشير لما حدثت به
هو نفسه ، عن الرسول (ص) ، حيث قال :
قال لي النبي ﷺ : ممَّنْ أنتَ ؟ قلتُ منْ دوسٍ . قال : ما كنتُ
أرى أن في دوسٍ أحداً فيه خيرٌ (١) .

وهو لم يستثنِ أحداً . . . فأبو هريرة ممَّنْ يشملهم هذا الحكم
العامُّ الشامل ! . . .

وهذه طائفةٌ مِنَ الأقوال حوله :
قال أبو جعفر الإسكافي :

[وأبو هريرة مدخولٌ عند شيوخنا ، غير مرضيِّ الرواية ، ضربه عمر
بالدرة ، وقال : قد أكثرَت الرواية وأحرَّ بك أن تكون كاذباً على رسول
الله (ص)] (٢) .

ومرَّةٌ أخرى ، يقول له عمر ، أيضاً :

[لتتركَنَّ الحديث عن رسول الله ، أو لالحقنَّك بأرضِ دوسٍ] (٣)
— وهي ، مِنَ اليمنِ ، وطنه في جاهليته .

فماذا تقول في عمر ؟ فهل هو له ظالمٌ ، حين ضربه ، أو هددته بالنفي ؟ !

أما أنا فاستغفر الله أن أظن بالخليفة شيئاً مِنْ هذا النوع . ولكنه — وهو
الصليب الشديد — لم يرضَ ضميره : أن يجد هذه الكثرة مِنَ الأحاديث ،
عند أبي هريرة ، عن الرسول ، وقد عرف فيها ما هو المنحول ! ، فأدمى ظهره
بدرته — مرَّةً — وهدده بالنفي — أخرى — لعله يقلع عن الخلق ! .
وما هذه هي المرة الأولى ، التي يدمي فيها الفاروقُ ، ظهرَ أبي هريرة ،

(١) سير أعلام النبلاء ٤٢٥ : ٢ . (٢) النهج ٣٦٠ : ١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٣٤ : ٢ والغدير ٢٩٥ : ٦ .

بدرّوته ... فقد أتى به من البحرين ^(١) وكان قد ولّاه عليها ، فقال له — كما حدث بذلك أبو هريرة ذاته :

يا عدوّ الله وعدوّ كتابه ! سرقت مال الله ! — إلى آخر الحادثة ^(٢) .

هذا ... ونحن نجده قد أكثر ، وهو على عهد الخليفة عمر ، وعمر هو الشديد الذي لا تأخذه — في موضوع كهذا — هوانة أو لين ... ويعرف منه ذلك أبو هريرة ، فهو يهابه ويخشاه ...

لذلك ... نجده — بعد عهد عمر — يُجيب أبا سلمة ، وقد قال : أكنّثُ تحدث في زمن عمر هكذا ؟ ، فقال :

(لو كنّثُ أُحدّث في زمان عمر ، مثل ما أُحدّثكم لضربني بسخفته) ^(٣) .

ويقول :

(١) البحرين — في معناها القديم — تعني : الساحل ، الممتد من البصرة إلى عمان . ويضم — حينذاك ، في ما يضم — القطيف ، التي اختصت بالخط — بفتح وكسر الخاء ، وأوال ، التي اختصت بالبحرين ، والأحساء ، التي اختصت بهجر ، وكل منها تضم مدناً وقرى كثيرة .

كما أن الخط ، وهجر ، كانتا تعنيان ، في القديم ، أيضاً ، ما تعنيه كلمة البحرين ، فهي أسماء ثلاثة ، لمسمّى واحد ، قبل أن تختص كل — بعدئذ — باسم من الثلاثة الأسماء .

(٢) ارجع للحادثة إلى النهج ١٠٤ : ٣ ، وفتوح البلدان ١١٢ — ١١٤ ، وسير أعلام النبلاء ٤٤٠ : ٢ ، وإلى « أبو هريرة » ص ١٥ مسنداً لمصادرهما ، والغدير ٢٧١ : ٦ .

(٣) الغدير ٢٩٥ : ٦ — وفي سير أعلام النبلاء ٤٣٣ ، ٤٣٤ : ٢ ما يماثله .

[لقد حدثتكم بأحاديث ، لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب ، لضربني عمر بالدرة] ^(١) .

ولكن هذا كله ، لم يعصه عن الخلق والإكثار ، من الحديث ، حتى استراب منه عمر ، فنالت منه درته ، ونال ظهره منها ما أدماه !
فكيف به على عهد معاوية ، وقد استماله إليه ، وأعطاه « جُعلاً »
يُرجب في مثله ، وليس إلا من أجل الخلق والوضع !؟...



وعن إبراهيم التيمي ، قال :

[كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة ، إلا ما كان من ذكر جنة ،
أو نار] ^(٢) .

وهذا الحديث — والحمد لله ! — ليس من هذا ولا ذاك ...
على أن الذي لا يُؤخذ منه شيء في ناحية — لانعدام الثقة منه ! —
كيف يطمأن إليه ، في ناحية ثانية ، لم يُعرف نصيبها منه !؟... ^(٣) .

(١) الغدير ٦: ٢٩٥ — وفي سير أعلام النبلاء ٤٣٣ ، ٣٣٤ : ٣ ، ما يماثله .

(٢) النهج ١: ٣٦٠ ، وسير أعلام النبلاء ٤٣٨ : ٣ .

(٣) أما أحاديثه ، التي من غير ذاك النوع ، فنحن نضرب منها مثلاً ،
لنصل منه إلى دخلة الرجل ، فقد حدث — كما قال الشافعي ، في
رواه الطبري :

[رأيتُ هنداً بمكة ، كأن وجهها قلقة قمر ، وخلفها من عجيزتها مثل
الرجل الجالس ، ومعهما صبي يلعب] — الخ — معاوية في الميزان ص ١٥٩ .
فماذا دفع به ، ليصف لنا بهاء وجهها وجماله ، وكبر عجيزتها الضخمة
العالية ، وهو في معرض الحديث عن مستقبل معاوية ، وما كانوا يرون فيه ،
من أنه سيسود قومه ، فتقول أمه هند : إن لم يسُد إلا قومه ، فأمامه
الله !؟ — أنا لا أدري !؟ .

وقال شعبة : كان أبو هريرة يدكس (١) .

وليس يهنا ما حاول أن يعلّق به الذهبيّ - بعد هذا - حتى جاء بفريّة
« عدالة الصحابة » ، أجمعين ، أكتعين ، أبصعين !!! . . .

وعن الأعمش ، قال :

[كان إبراهيم صحيح الحديث ؛ فكنت إذا سمعت الحديث ، أتيتّه ،
فعرضته عليه ، فأتيتّه يوماً بأحاديث ؛ فحدثني أبي صالح ، عن أبي
هريرة ، فقال : دعني من أبي هريرة ! ؛ إنهم يتركون كثيراً من حديثه] (٢) .

★ ★

وروي عن الإمام عليّ (عليه السلام) ، أنه قال : ألا إن أكذب الناس
- أو قال : أكذب الأحياء - على رسول الله (ص) : أبو هريرة
الدوسي (٣) .

فما عسى أن تقول ؟ فقولة الإمام هذه ، هي : المدية التي تجهز على كلّ
فريّة ، يفترها الرجل ، أو افتئات ينتحلها ! .
فهل نكذب الإمام في قوله ، لنصدّق أبا هريرة ؟ أم نصدّق الإمام ، فيما
قال ، وفيه القضاء على ما يفتت أبو هريرة ! ؟ .

★ ★

نزيّ أبو يوسف ، قال :

قلت لأبي حنيفة : الخبر يجيء عن رسول الله (ص) ، يخالف
قياسنا ، ما نضنّ به ؟ قال : إذا جاءت به الرواة الثقة ، عملنا به ،
وتركنا الرأي .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٣٧ : ٢ .

(٢) النهج ٣٦٠ : ١ . وفي سير أعلام النبلاء ٤٣٨ : ٢ ، مثله .

(٣) النهج ٣٦٠ : ١ .

وطال بهما الحديث ، حتى قال أبو حنيفة : والصحابة كلهم عدول ! ، ما عدا رجالاته - ثم عدّ منهم : أبا هريرة ، وغيره (١) .



وذكروا أن أبا هريرة ، وقد قدم الكوفة ، في ركاب معاوية ، كان يجلس بالعشيات ، ياب كندة ، ويجلس الناس إليه ، فجاءه شاب من الكوفة - قيل : إنه الأصبغ بن نباتة (٢) - وجلس في من جلس إليه ، فقال له :

- يا أبا هريرة ! أنشدك الله أسمعت من رسول الله « ص » ، يقول لعلي بن أبي طالب : اللهم وآل من وآله ، وعاد من عاداه ؟ .
فقال : اللهم نعم ! .

قال : فأشهد بالله لقد واليت عدوه ، وعاديت وليه ! .
ثم انصرف عنه (٣) .



ودخل أبو الأصبغ بن نباتة التيمي ، وهو يحمل كتاباً من الإمام علي « عليه السلام » ، إلى معاوية . وإذ دخل ، وهو محاط برجال السوء ، وفيهم : عمرو بن العاص ، وذو الكلاع ، وحوشب ، وابن عامر ، والوليد بن عقبة ، وشرحبيل ، وأبو هريرة ، وأبو الدرداء ، وغيرهم .

إذ دخل ... ودار الحديث ، بين أبي الأصبغ ومعاوية ، وأخشن لمعاوية في القول ... التفت لأبي هريرة ، وهو يقول له :

أنت صاحب رسول الله « ص » : أقسم عليك بالله ، الذي لا إله إلا هو ،

(١) النهج ٣٦٠ : ١ (٢) أبو هريرة ٣٩ .

(٣) النهج ٣٦٠ : ١ ، وأبو هريرة ٣٩ ، والغدير ٢٠٤ : ١ .

وبحق رسوله ! هل سمعت رسول الله « ص » ، يقول يوم غدیر خم ، في حق أمير المؤمنين : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ ، فَعَلَيْهِ مَوْلَاهُ ؟ .

فأجابه : إِي وَاللَّهِ ! لَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ ! .
فقال له أبو الأصبغ : فَاذْنُ أَنْتَ — يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ! — وَالَيْتَ عَدُوَّهُ ،
وعاديت وليَّه ! .

ولم يزد أبو هريرة ، على أَنْ تَنْفَسَ ، وقال :
إِنَّا لِلَّهِ ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! (١) .



وهذا جارية بن قدامة السعدي ، يدخل المدينة ، بعد أعمال بسر
الشنيعه فيها ، بأمر معاوية الطاغية ، وقد قام بالصلاة فيها أبو هريرة ، فهرب
هذا خوفاً وفرقاً ، حين ما وصل لسمعه قدوم جارية ، في جيشٍ موقدٍ ، مِنْ قَبْلِ
الإمام عليٍّ « عليه السلام » ، فقال جارية :
والله لو أخذتُ أبا سنور ، لضربتُ عنقه ! (٢) .



وقالوا : إِنْ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَسْبِّحُ ، كُلَّ يَوْمٍ ، اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ تَسْبِيحَةٍ ،
يقول : أَسْبِّحُ بِقَدْرِ ذَنْبِي (٣) .
ونحن لا نريد نقاش صحة هذا ، أو معقوليته ! ، وكيف يتسع وقته
للإكثارِ مِنَ التَّسْبِيحِ — الَّذِي يَعَادِلُ الذَّنْبَ الْكَثِيرَ — وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْحَدِيثِ ،

(١) تذكرة الخواص ٩١ و ٩٢ ، والغدير ٢٠٢ ، ٣٠٢ : ١ عن الأصبغ ،
في بعض الاختلاف .

(٢) الطبري ١٠٧ : ٤ ، والكامل في التاريخ ١٩٣ : ٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٣٩ : ٢ .

مع فقره وجوعه — في بدء حياته الإسلامية — وانشغاله بسايرة معاوية ، ومن
إليه — في ختامها ...

إتنا ندع هذا ، ولا نعلق عليه • وإننا نشير إلى قوله : بأن تسيحه بقدر
ذنوبه...! فيا لهول هذه الذنوب...!! وترك الذنب خيراً من الاستغفار !
وهناك من جاء — أخيراً — يدعو للذنب ، بصورة مستورة ، إلا أنها
شوهاء ، تستند على حديث مكذوب منكر... ومن يدري، فلعل واضعه هذا
المسبّح بقدر ذنبه !

[والذي نفسي بيده، لو لم تذبوا لذهب الله بكم ، وجاء بقوم يذبون،
فيستغفرون ، فيغفر لهم] •

ونشير إلى أن في طليعة هؤلاء المدافعين عن صحة مثل هذا الحديث :
مثل الأستاذ خالد محمد خالد ، في بعض كتبه •
ولسنا في صدد نقاشه فيها، إلا أنها إشارة من الشاطيء، دعا إليها الموضوع



وكان أبو هريرة ضحك التفكير ، ضحك العقل ، فقد استخفته الدرجة ،
التي نالها عند معاوية... فرأى نفسه ظاهراً بعد خفاء ، معروفاً بعدما كان
مغموراً ، مقرباً بعد أن كانت تنال منه الدرّة العسرية ، متى رأى فيه الخليفة
عسراً عوجاجاً ، يحتاج إلى تقويم...!

لذلك نجد — تارةً — يؤاكل الصبيان ، ويلعب معهم (١) •

ولا ندري ! فلعله يأتي لهم ، بأحاديث عن الرسول ، في لعبهم هذا ،
ليبرّر بها موقفه منهم ! • ولا سيما بعد أن كثرت أحاديث الدعاية التجارية ،
على لسان تجّار الحديث الزائف ، كحديث :
[من أكل من بصل عكة ، فكأنما قد زار مكة] !

(١) النهج ٣٦٠ : ١ •

— الى آخر ما هنالك من مثل هذه الأحاديث ...

ومرة أخرى : يخطب في المدينة بعد أن ولاه إياها معاوية^(١) ، جزاء لما شهد به على عليٍّ ، بما أحدث بعد الرسول ، مما يستوجب لعنة ، من الله ، والملائكة ، والناس أجمعين !!!

عفوك ! يارب !

أقول : إنه كان يخطب في المدينة ، فكان يقول : الحمد لله الذي جعل الدين قياماً ، وأبا هريرة إماماً — يضحك بذلك الناس^(٢) ، بدلاً من أن تتناول خطبته شتى النواحي ، التي تعود على المجتمع بالخير ، والأمة بالنفع ، بما أنه أميرهم الكريم ، وخطيبهم المصقع !

وثالثة : — يمشي وهو الأمير أيضاً — في السوق ، حتى إذا انتهى إلى

(١) ليست توليته المدينة هذه ، بأول مرة . فقد سبق أن أمره عليها بسر بن أرطاة ، يوم بعث معاوية ، ليشن الغارات ، في خلافة الإمام عليٍّ « عليه السلام » فكان للمدينة منه : يوم مسود الجبين ، سالت فيه الدماء ، وأهدرت الكرامات ، وانحطت القيم .

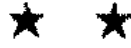
وفي هذا اليوم الفاحم ، غرست بذرة مرة المذاق ، كان من ثمارها « يوم الحرة » . ويزيد من معاوية : ثرة شجية الطعم ، من ثمار معاوية الخيثة .

وبعد فعل بسر الشنيع ، قال لهم : (وقد استخلفت عليكم أبا هريرة ، فأياكم وخلافه) .

انظر شرح النهج ١١٨ : ١ ، وأبو هريرة ٢٥ ، والغدير ٢٤ : ١١ .
وإليها أشير في تاريخ الطبري ١٠٧ : ٤ ، والكامل ١٩٣ : ٣ ، في أحداث سنة ٤٠ .

(٢) النهج ٣٦٠ : ١ ، وسير أعلام النبلاء ٤٤٠ : ٢ .

رجل ، يمشي أمامه ، ضرب برجليه الأرض وقال :
الطريق ! الطريق ! قد جاء الأمير ! (١) •



ويقول ابن أبي الحديد — بعد عرضه لهذه النقاط ، مِنْ حياة أبي هريرة :
(قد ذكر ابن قتيبة هذا كله ، في كتاب المعارف ، في ترجمة أبي هريرة •
وقوله فيه حجة ، لأنه غير متهم عليه) (٢) •



وأبو هريرة — هذا — كان قد انحاز إلى معاوية ، منذ عرف : أن عند
معاوية ما يشبع نهمه الصيَّاح • فكان لمعاوية ذلك الظلَّ الملازم ، ينحني إذا
انحنى ، ويعوجُّ إذا اعوجَّ !...!

حمل معاوية النعمان بن بشير : رسالةً إلى عليٍّ — أشرك فيها أبا
هريرة (٣) — ليسلم عليٌّ لمعاوية : قتلة عثمان — ومعاوية بسوق عليٍّ ، مِنْ

(١) و (٢) النهج ٣٦٠ : ١.

(٣) بعض المصادر تشير إلى : أن رفيق أبي هريرة ، كان أبا الدرداء •
ولعلَّ هذه الحادثة قد تكرَّرت ، فصحب أبو هريرة النعمان — مرَّةً —
— وأبا الدرداء — أخرى •

وتقول بعض المصادر: إن الصحابيَّ الفقيه عبدالرحمن بن غنم ، عاتب أبا
هريرة وأبا الدرداء ، بجمص ، بعد منصرفهما مِنْ عليٍّ «عليه السلام»، رسولين
له مِنْ معاوية ، فكان مِنْ قوله لهما :

[عجباً منكما ! كيف جاز عليكما ما جئتما به ، تدعوان عليّاً إلى :
أن يجعلها شورى ، وقد علمتما أنه قد بايعه المهاجرون والأنصار ، وأهل
الحجاز والعراق ، وأن مَنْ رضيه خيراً مِنْ كرهه ، وَمَنْ بايعه خيراً مِنْ لم
يبايعه ؟!] وأيُّ مدخل لمعاوية في الشورى : وهو مِنْ الطلقاء ، الذين ←

هذه الطلبة الكاذبة ، ذلك ... وما هي سوى الواسطة ، لما يبيّت من سوء النية ، فاختار هذين ، ليحمل رسالته ، ويعودا ، وهما لعليّ لائمان ، وله عاذران ، فينال من عليّ أمام الطعام الشامين ١٠٠٠ !

وإذ وصل الرسولان لعليّ ، بدأ الكلام أبو هريرة ، فقال قوله ... وثنى به النعمان بن بشير ، فأعرض الإمام عن أبي هريرة ، ووجه الحديث للنعمان ، فنصح في دينه ، دون أن يتناول كلام الإمام : ردّاً ، أو تعريضاً لتلك الناحية ، التي قال عنها أبو هريرة ، ما قال ... وقنع النعمان

→ لا تجوز لهم الخلافة ، وهو وأبوّه من رؤوس الأحزاب [.
فندما على مسيرهما ، وتابا منه بين يديه الاستيعاب ٤١٧ : ٢ ، والغدير ٣١ و ٣٣١ : ١٠ مسنداً للاستيعاب وأسد الغابة ٣ : ٣١٨ .
ونحن لا نريد أن نناقش في هذه التوبة : أصحح وقوعها ؟ أم وهم وخيال خلّاق ؟ !

ولكن تساءل عما وقع بين التوبة والحبوبة ، من أخطاء وآثام ، أقلّها : الإنسياق في ركاب معاوية ، وتسخير له - والمقصود هنا : أبو هريرة - وطاعة هذا له ، في جميع رغائبه وشهواته الجامحة ...

إن أقلّ إرضاء لهذه الشهوات ، هي : هذه الرحلات المتتابعة ، يقوم بها أبو هريرة ، طالباً من عليّ هذا الطلب الأثيم المخزي : تسليم قتلة عثمان ، كمقدمة للنتيجة ، التي هي : زحزحته عن منصبه الإلهي : الخلافة ... وهي : هذه الأحاديث المخلقة ، تنتقص بها عليّاً ، ومن تمامها : تنقص أبيه !

أما أبو الدرداء ، فما لنا وله - هنا - من مجال لحديث ، إلا أننا نتذكر قوله : [إني لأستجثم نفسي بالشئ من الباطل ، ليكون أقوى لها على الحق !] - الكامل للمبرد ٦٦٨ : ٢ .

— ظاهراً — بالبقاء مع الإمام ، وقد بطن الغدرة ، ليعود لصاحبه...!
 أمّا أبو هريرة ، فكان أصرح من النعمان — في هذه الحادثة — فقد
 استحثته الغاية ، وما للبقاء من حاجة ، والغاية التي جاء من أجلها ، لا تتم ،
 حتى يعود لمعاوية ، ويخبر أهل الشام ، بما رأى ، وما سمع...! (١)
 وإن احتاج للزيادة ، فلديه — من « أجربته الخمسة » — ما يكفي ، ويأتي
 بالغاية...!

ونحن لم نزد عليه ، بقولنا : « أجربته الخمسة » ، فقد حدث هو نفسه :
 [حفظت من رسول الله خمسة جرّب ، فأخرجت منها جرابين ؛ ولو
 أخرجت الثالث ، لرجمتوني بالحجارة] (٢) .
 ولعلّه لما أخرج من هذين الجرابين ، قال : [كذّبت ، حتى رُميت
 بالقشع] — أي : كناسة الحمام (٣) .
 ولو أخرج الثالث ، لرجم بالحجارة . ولو حدّثكم بكلّ ما في كيسي
 لرميتوني بالبر (٤) .

(١) النهج ٢١٣ : ١ ، وأبو هريرة ٢٢ ، ٢٣ — فليرجع لها من أرادها
 بالتفصيل ؛ غير أننا ننقل قوله مؤلف « أبو هريرة » ، سماحة الإمام ، تعليقا
 على الحادثة :

[وإنما أعرض أمير المؤمنين عن أبي هريرة ، فلم يكلّمه ، لكونه لم يره
 أهلاً لتزلفه بدينه إلى معاوية . وعلم أمير المؤمنين ما أواده معاوية ، من المكائد ،
 إذ أرسلهما إليه يطلبان قتلة عثمان ، فلم يجبهما بشيء سلباً ولا إيجاباً ، بل
 أعرض عن طلبهما ، وتكلّم مع النعمان ، في موضوع آخر . وهذا من
 قوّته في سياسته عليه السلام] .

(٢) أبو هريرة ٤٨ ، مسنداً لحلية أبي نعيم ص ٣٨١ . وفي سير أعلام
 النبلاء ٤٢٩ ، ٤٣٠ و ٤٤٢ : ٢ صور من هذه .

(٣) الكامل للمبرد ١٢٤١ : ٣ . (٤) سير أعلام النبلاء ٤٤٢ : ٢

فكيف به لو أخرج الرابع والخامس...؟
ولعله أشار لذلك بقوله :

[حفظتُ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعاءين : فأما
أحدهما فبشّته ، وأما الآخر ، فلو بشّته لقطع هذا البلعوم] (١) .
وقد تفنّن في عرضه لهذه النقطة ، التي تجعل من الأحاديث ، شيئاً مادياً ،
توضع في : الجرب ، والأوعية ، والرداء ، والنمّرة (٢) ، حين يفرشها ، والقلم
يدبّ عليها ، فيملؤها حديثاً ، ويضئها إليه ، مع ما كان يدبّ عليها من
القلم (٣) !... .

ولا نرى حاجةً للمضيّ ، في عرض ذلك ، فنضاعف السير ، ونضخم
الصفحات (٤) .



ونحن لا نريد أن نطيل هذا العرض ، عن أبي هريرة ، من جميع نواحيه ،
فقد قام بذلك ساحة الإمام الموسوي ، في كتابه الفذ « أبو هريرة » ،
بحيث لم يبقَ للقوس منزعٌ — كما يقولون .

ف هناك عرضٌ لنواحي حياته ، وتناولٌ بالتحليل أكثر جوانبها ... وخصّص
بالتقاش أربعين حديثاً ، كانت مفضوحة الاقتراء ، تناول الخالق العظيم — من
ناحيةٍ — ورسله الذين اصطفى — في الجانب الآخر — والنيل من أولياء الله الخ... .
وكان من بين هذه الأربعين المكذوبة : هذا الحديث ، الذين عرضنا له .
إذن... فلا تقبل هذا الحديث ، من أبي هريرة ، من نواحٍ وفيرة .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٣٠ : ٢ .

(٢) النمّرة : شملةٌ فيها خطوطٌ بيضٌ وسودٌ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٢٩ : ٢ .

(٤) ارجع لـ « أبو هريرة » ولسيرة أعلام النبلاء .

العدد — كما قلت .

فأبو هريرة ، ليس ممن يُرتضى في حديثٍ ، بعدما رأيتُ من أقوال أهل الحديث ، ومن كثرة أحاديثه ، ونكرها ...

ولا نرضى منه هذا الحديث — بخاصة — مادام هو ذلك المنحرف عن إمام المتقين عليّ « عليه السلام » ... يضع في حقه الأراجيف ، وينال من قداسته ، السامقة الذرى ...

فكيف يرجوي من يقول : إن علياً ، أحدث بعد الرسول — ما يستوجب به اللعن — أن يضع في أيه ، مثل هذا الحديث المكذوب ؟! ...



وأنت ترى صيغة الحديث ، الذي أتى به أبو هريرة ، يدلُّ على أنه شاهدٌ اختصارٌ أبي طالبٍ ... فهو يحدث بحديثٍ ، شهدته عيناه ، فكأنه حضر أبا طالبٍ ، والرسول عنده ، فعرض عليه الرسولُ الشهادة ، فأبأها شيخ البطحاء ، ونزلت الآية في حقه ! ...

ألا ترى الحديث : عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله لعنه : قل لا إله إلا الله ... قال : لولا أن تعيّرني قريشٌ — إلخ ؟ !
ولكن أبا هريرة كان — يوم اختار الله لأبي طالبٍ ، داره الباقية — كان ، حينذاك ، في اليمن ، وهي منسقط رأسه ، وبعد لم تقع عينه على شبح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم تنفتح عينه — ولا أقول : قلبه — على ضوء الرسالة الهادي ...

فكيف جاز له : أن يحدث بحديثٍ ، لو قدّر له الوقوع ، لكان قبل ثلاثة أعوامٍ ، من هجرة الرسول (ص) ... في حين أن أبا هريرة ، لم تطأ له قدمٌ ، بأرض الإسلام ، إلا والرسول في خير^(١) — أي : في العام

(١) الإصابة ٢٠٣ : ٤ ، وسير أعلام النبلاء ٦٤ و ٤٢٣ و ٤٢٥ و ٤٣٦ : ٢ .

السابع الهجري ١٠٠٠!

فمقدمه بعد عشر سنين - على أقل تقدير - مضت على وفاة أبي طالب...
فبين أين حضر وفاة أبي طالب، ليحدث بذلك الحديث ١٠٠٠! اللهم! إلا
أن يكون في عالم الحلم والخيال - وهو عالم غير محدود - لا في عالم
الواقع الرهين...!

نظرة في آية « ما كان للنبي »

أما وقد عرضنا لمواضع الأخذ ، في السند ، ووضعنا النقط على الحروف ،
عند النقاط المتداعية ، وجواب الضعف من السلسلة الكاذبة ، وكشفنا عنها
الخيي... فإنه ليحذر بنا - الآن - أن نتناول بنظرة فاحصة ، ما يهدئ من
هذا الحديث أشبه النهار :

- ١ -

تدلنا رواية البخاري ، على أن الآيتين ، نزلتا عند احتضار أبي طالب...
ولكننا إذا رجعنا إلى نزول الآيتين ، وجدنا أن الآية الأولى منهما ، مدنية...
فكل من يعرف أين نزلت « براءة »... وذلك بعد أن رست دعائم
الإسلام . وقصة تبليغ براءة ، يعرفها كل من - وهي آخر ما نزل من
القرآن (١) .

(١) صحيح البخاري ٧٧ : ٣ ، والكشاف ٥٧٠ : ١ (٢٤٦ : ٢) -
وتعليق شارح الكشاف ، أيضاً ١٨٨ : ٢ - وتفسير البيضاوي ٢٧٤ : ٢ ،
ومجمع البيان ٥ : ١٠ ، وتفسير ابن كثير ٣٣١ : ٢ ، والاتقان ٢٧ : ١ - عن
البراء بن عازب . وقد نقل - ص ٢٦ : ١ - القول بأنه لم ينزل بعدها من
القرآن ، سوى خاتمته . وقد استغرب في ص ١٥ : ١ : ١ قول « ابن
الفرس » (مدنية إلا آيتين « لقد جاءكم رسول - الخ) ، فقال : (غريب)

فهناك طويل أمدٍ ، بين نزول الآيتين ، يقارب عشرة أعوامٍ ، أو يربو عليها .

- ٢ -

بهذا يتضح أن الآية الأولى « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ » - الخ - التي هي مِنْ سورة « براءة » ، كان نزولها بالمدينة ، بعد الفتح . فبين وفاة أبي طالب ، ونزول هذه الآية ، ما ينوف على ثمانية أعوامٍ .

فمجرى الحديث ، يدل على استمرار استغفار الرسول (ص) ، لعمته - وهو كذلك - ولم ينقطع طيلة هذه المدة عن الاستغفار . وذلك حسب ما نجده مِنْ القول ، الذي قيل على لسان الرسول (ص) « لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ مَا لَمْ أَتَقَّ عَنْكَ » ، فاستمر الاستغفار ، ولم ينقطع - عندهم - إلا عند نزول هذه الآية : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ » .

وهنا ... تتساءل كيف جاز للرسول أن يستغفر لعمته ، في الفترة ، التي بعد موته ، حتى نزول هذه الآية - كما يُكَلِّمُون به - وكانت قد نزلت على الرسول آياتٌ زاجرةٌ ، تنهاه والمؤمنين : أن يوادُّوا المشركين ، أو يستغفروا لهم ؛ أو يوالوا أعداء الله - قبل نزول هذه الآية ، بأمدٍ طويلٍ ، كالأيات التي عرضنا لها ، في فصلٍ سابقٍ ، ونأتي بالبعض منها هنا :

→ كيف وقد ورد أنها آخر ما نزل (!) .

وفي الغدير . ٨ : ١ عن مصادر عدةٍ ، وتقلياً عن ابنِ أبي شيبة ، والبخاري والنسائي ، وابن الضريس ، وابن المنذر ، والنحاس ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، عن طريق البراء .

أ - (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ) - الخ ١١٢ .

فهذه الآية في سورة المجادلة - نزلت بالمدينة ، قبل سورة براءة - التي فيها آية الاستغفار - بسبع سور^(٢) . وقيل : إنها نزلت على الرسول ، يوم بدر^(٣) أي في العام الثاني من الهجرة .
وقيل : إنها نزلت في أحد^(٤) - أي في السنة الثالثة .

كما أن هناك من قال : إنها ، أو بعضها ، مكية^(٥) .
وعلى جميع الأقوال هذه ... فإن نزول « المجادلة » - بدون شك - قبل نزول « براءة » بسنين عدة .

ب - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِئَمْ يَمُؤِنُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) ١٢ (١) .

فهذه الآية مكية ، على قول النحاس ، كما قيل : إنها نزلت عند الهجرة^(٧) .

(١) المجادلة ٢٢ .

(٢) الغدير ١٠ : ٨ عن الاتقان ١٧ : ١ ، وقد وجدناه في نسختنا في ص ٢٦ : ١ ، وقد ذكر بين نزول السورتين ست سور . وكذلك المنظومة التي أتى بها للبرهان الجعبري .

(٣) الغدير ١٠ : ٨ عن أبي حاتم ، والحاكم ، وأبي نعيم ، والبيهقي ، وابن كثير - كما في تفسيره ٣٢٩ : ٤ ، وتفسير الشوكاني ١٨٩ : ٥ .

(٤) الغدير . (٥) أشار لذلك كثيرون من المفسرين .

(٦) النساء ١٤٤ .

(٧) الاتقان ١٢ : ١ .

وذهب أناسٌ إلى أنها مدنيةٌ . ومستندُهم في ذلك : قول عائشة : « ما نزلت سورة النساء ، إلا وأنا عنده ^(١) . فيكون نزولها في أوليات سني الهجرة ^(٢) . وعلى كلٍّ ... فإن سورة النساء ، كان نزولها قبل سورة « براءة » — وهي ذات آية الاستغفار — بإحدى وعشرين سورة ^(٣) .

جـ — [الْكَافِرِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . أَيْبَتُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ ؟] ^(٤) .

وقد رأيت : أن سورة النساء ، كان نزولها ، قبل « براءة » .
 د [لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ، إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تَقَاةً] ^(٥) .

فهذه الآية في صدر آل عمران ، وقد نزل صدرها ، إلى بضع وثمانين منها ، يوم وفد نجران ^(٦) — وهي في أوائل الهجرة ^(٧) .
 وذكروا : أن هذه الآية ، نزلت في يوم الأحزاب — وهو العام الخامس — في عبادة بن الصامت ^(٨) .

(١) الاتقان ١ : ١٤١ ، وصحيح البخاري ١٤١ : ٣ ، والغدير ١١ : ٨ .

(٢) الغدير ١١ : ٨ .

(٣) الغدير، والاتقان ٣٦ : ١ ، في منظومة البرهان الجعبري .

(٤) النساء : ١٣٩ ، (٥) آل عمران : ٢٨ .

(٦) السيرة المشامية ٢٢٥ : ٢ ، وأسباب النزول ٤٣ ، وتفسير ابن كثير

٣٤٣ : ١ .

(٧) و (٨) الغدير ١١ : ٨ .

وعلى كلا الرأيين ... قَالَ عمران نزلت قبل « براءة » بأربع وعشرين سورة^(١) .

هـ - [سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ، أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ، أَمْ لَمْ تُسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ] (٢) .

وقد نزلت السورة - التي فيها هذه الآية - في عام غزاة الرسول ، لبني المصطلق ، وهو العام السادس للهجرة . ونزلت قبل سورة « براءة » (٣) . إلى بضع آياتٍ آخر ، كلها تنهى عن الموالاة للمشركين ، والاستغفار لهم ، والموادة لهم .

* *

وأنت - كما رأيت - تجد الرسول ، يُواصل استغفاره لعمه ... وهذا غاية الموالاة والتوادد ... وحتى الحديث المكذوب ، يدل^٤ على تواصل استغفار الرسول لعمه ، وأنه لم ينقطع ، إلا عندما نزلت هذه الآية « الناهية » - كما يقول الحديث .

فهل يجوز لنا - نحن المسلمين - أن ننسب للرسول عملاً ، ينهيه عنه الذي أرسله بالحق ؟!

فهل يجوز من الرسول : أن يستغفر لعمه - لو كان ذلك المشرك -

(١) الغدير ١١ : ٨ ، عن الاتفاق ١٧ : ١ . وقد وجدنا - في ص ١١٢٩

من الاتفاق - أنه عُدَّ بين السورتين خمسة عشرة سورة ، وفي منظومة البرهان الجعبري ، بينهما خمسة وعشرون .

(٢) المناقبون : ٦ .

(٣) الغدير ١١ : ٨ ، عن الاتفاق ١٧ : ١ - أي : ص ٢٦ : ١ ، بنسختنا .

ولديه وفرةٌ مِنَ الآيات ، وكلُّها ناهيةٌ زاجرةٌ ... فلا يَأْبَهُ لها ، ولا يمتنع عنها
تنهاه ، ولا يقلع عن عمله ، إلا عندما همس الوحي إليه ، بهذه الآية ، مِنْ
سورة « التوبة » ١٩ .

وكم ضمت هذه السورة ، مِنْ آياتٍ، تحمل مثل هذا الزجر والنهي ؟! .
ولكن الرسول - وأستغفر الله ! - لم يطع ربه ، إلا عند تلقيه هذه
الآية ١٠٠٠ ؟!

ولا نعلم على مَنْ نحمل سابق استغفاره لعنه ، وفي كلِّ حينٍ ينزل عليه
الوحي ، بقطع كلِّ الصَّلَات ، بينه وبين المشركين ١٠٠٠ ؟!
اللَّهُمَّ ! إن هذا لا يجوز على رسول الهدى والرحمة ! . وليس هذا ،
سوى نيلٍ مِنْ قداسة الرسول ، وتجاسرٍ على مقامه الأسمى ، وأذى له ... !
اللَّهُمَّ ! إِنَّا نعوذ بك مِنْ أذى رسولك (ص) لئلا يحلَّ علينا
غضبك وعذابك ، الذي وعدت به مَنْ يؤذي منه شعرةً - كما نصت على
ذلك الآيات والأحاديث ، الوفيرة العدد ١٠٠٠ ؟

- ٣ -

إننا نبحث ، فنجد رواياتٍ وأقوالاً ، تنقض هذه الأحاديث ، التي آتينا
عليها ، في وجه نزول الآية الكريمة .

وليس لنا ، إلا أن نوقف القارئ الكريم ، على جانبٍ منها :

أ - عن الإمام عليٍّ « عليه السلام » قال : سمعتُ رجلاً يستغفر لأبويه ،
وهما مشركان ، فقلتُ : تستغفر لأبويك ، وهما مشركان ؟! ، فقال : أو لم
يستغفر إبراهيم ؟ فذكرتُ ذلك للنبي (ص) ، فنزلت :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ

إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ، إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ
لِلَّهِ ، تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١) .

وهذا يدلُّنا على أن النهي عن الاستغفار للمشرِّكين ، معروفٌ بين
المسلمين وإلا فلولا ذلك ، لَمَّا كَانَ الإمامُ الَّذِي يَعْتَرِضُ ، عَلَى هَذَا
الْمُسْتَغْفِرِ لِأَبِيهِ ، حَيْثُ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَسْتَكْرَ مِنْهُ عَمَلًا ، لَمْ يَعْرِفْ فِيهِ النَّهْيُ ! .
وإِسْتِكْرَارُ عَلِيِّؑ لِهَذَا الْمُسْتَغْفِرِ ، لَا يَتَّفِقُ وَاسْتِغْفَارَ الرَّسُولِ لَعَمْرِهِ ، مَعَ
الزَّعْمِ بِشِرْكِهِ

ولو كَانَ كَذَلِكَ لَوَجَدْنَا جَوَابَ الرَّجُلِ لِعَلِيِّؑ ، غَيْرَ هَذَا الْجَوَابِ ، وَلَكِنَّا
نَرَاهُ : يَحْتَجُّ عَلَى عَلِيِّؑ ، بِاسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ لَعَمْرِهِ ، تَبَرُّرًا لِعَمَلِهِ وَلَكِنَّهُ
اِحْتَجَّ عَلَيْهِ بِاسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ، لِتَوْضِيحِ الْغَايَةِ مِنْ اسْتِغْفَارِ
إِبْرَاهِيمَ لَهُ ، فَهِيَ : مَوْعِدَةٌ وَعَدَهَا إِيَّاهُ وَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ لَمْ يَجِدْ مَعَهُ ،
تَبَرُّأً مِنْهُ . عَلَى أَنَّ اسْتِغْفَارَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ، وَهُوَ عَلَى وَجْهِ الْحَيَاةِ ، يَرْجُو مِنْهُ

(١) بَرَاءَةٌ : ١١٣ ، ١١٤ .

ارْجِعْ لِهَذَا الصَّحِيحِ لِلْغَدِيرِ - ١٢ : ٨ - فِيهِ : [صَحِيحَةٌ أُخْرِجَهَا
الطَّيَالِسِيُّ ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَأَحْمَدُ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَأَبُو يَعْلَى ،
وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَالْحَاكِمُ
- وَصَحَّحَهُ - وَابْنُ مَرْدُودِيهِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ،
وَالضَّيَاءُ فِي] الْمُخْتَارَةِ .

وَلِشَيْخِ الْأَبْطَحِ ٦٧ - مَخْرَجًا عَنْ هَؤُلَاءِ أَيْضًا - وَالْإِتْقَانُ ٣٤ : ١ - عَنْ
التِّرْمِذِيِّ حَسَنًا - وَالْأَعْيَانُ ١٥٨ : ٣٩ ، وَأَسْبَابُ النُّزُولِ ١٢٧ ، وَتَفْسِيرُ
ابْنِ كَثِيرٍ ٣٩٣ : ٢ .

وَذَكَرْتُ فِي الْكَشَافِ ٢٤٧ : ٢ .

الهداية والإيمان ...

أما استغفار الرسول لعمه ، فهذا ما لا يجوز بحالٍ ، لو لم يكن أبو طالبٍ مؤمناً ... لأن الاستغفار والدعاء — بعد الموت — دليل على الإيمان . وليس فيه ما يحمل على طلب الهداية ، والتوجيه نحو الإقرار بالرسالة .

وقد قال زيني دحلان ، حول ما نقلناه عن الإمام عليٍّ « عليه السلام » :

[هذه الرواية صحيحة . وقد وجدنا لها شاهداً برواية صحيحة ، من

حديث ابن عباس « رضي الله عنه » قال : كانوا يستغفرون لآبائهم ، حتى نزلت هذه الآية . فلما نزلت ، أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا . ثم أنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ » — الآية — يعني : استغفر له ما دام حياً ، فلما مات أمسك عن الاستغفار له . قال : وهذا شاهدٌ صحيح . فحيث كانت هذه الرواية ، كان العمل بها أرجح . فالأرجح : أنها نزلت في استغفار أُناسٍ لآبائهم المشركين ، لا في أبي طالبٍ [ص ٤١] .

ب — قال المسلمون للرسول (ص) . ألا نستغفر لآبائنا ،

الذين ماتوا في الجاهلية ؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، ويبيِّن أنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يدعو الكافر ، ويستغفر له (٢) .

ج — كان يقول المؤمنون : ألا نستغفر لآبائنا ، وقد استغفر إبراهيم لأبيه كافراً ؟ فأنزل الله : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ » — الآية (٣) .

(١) الفدير ١٣ : ٨ عن أسنى المطالب ١٧ — وشيخ الأبطح ٦٧ ، عنه أيضاً .

(٢) الأعيان ١٥٨ : ٣٩ ، ومجمع البيان ١٥٠ : ١٠ ، عن تفسير الحسن .

ومثله ما في الأعيان — أيضاً — ٥٨ ، ١٩٥ : ٣٩ عن ابن عباس .

(٣) الأعيان ، وقريب منه : ما في تفسير ابن كثير ٣٩٤ : ٢ ، والكشاف

١ : ٥٧٠ [٢ : ٢٤٦] .

د - إن الرسول لما أقبل من غزوة تبوك، اعتمر، فجاء قبر أمه ، فاستأذن ربه أن يستغفر لها، ودعا الله أن يأذن له في شفاعتها ، يوم القيامة ، فأبى أن يأذن ، فنزلت الآية (١) .

هـ - إن الرسول لما قدم مكة وقف على قبر أمه ، حتى سخت عليه الشمس ، رجاء أن يؤذن له ، فيستغفر لها ، حتى نزلت ، ما كان للنبي - إلى قوله : تَبَرَّأ مِنْهُ (٢) .

و - إن الرسول (ص) أتى قبر أمه فبكى ، وأبكى من حوله . فقال (ص) : استأذنت ربي ، في أن أستغفر لها ، فلم يأذن لي ... واستأذنت أن أزور قبرها، فأذن لي ، فزوروا القبور ، فإنها تذكركم الآخرة (٣) .

وهذا الحديث ، أخرج عن أبي هريرة - أيضاً .

وهو إلى ذلك - كما ترى - يجيز البكاء على الأموات ، وزيارة القبور معاً... رغم أن البعض - وهم ممن يشق بأحاديث أبي هريرة - يشنع على هاتين النقطتين ، وعلى من يقول بهما...!

ز - إن الرسول مرّ بقبر أمه - عام الحديبية - فاستأذن ربه ، في أن يزور القبر ، فأذن له ، فزاره وأصلحه ، ومكث عنده حيناً . ثم

(١) الغدير ١٣ : ٨ عن الطبري ، والحاكم ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي - عن ابن مسعود وبريدة ، والطبراني ، وابن مردويه ، والطبري ، من طريق عكرمة ، عن ابن عباس .

(٢) الغدير ١٣ : ٨ عن الطبري في تفسيره ٣١ : ١ .

(٣) صحيح مسلم ٦٥ : ٣ والغدير ١٣ : ٨ عن مسلم وأحمد في مسنده - وأبي داود في سننه - والنسائي ، وابن ماجه ، وقال : إنهم أخرجوها في سبب نزول آية الاستغفار .

وقريب من هذا : ما في تفسير ابن كثير ٣٩٣ : ٣ والسيرة النبوية ٧١ : ١ .

استأذن ربه ، في أن يستغفر لأمته ، فأبى عليه ، فانصرف عن القبر باكياً
كثيلاً ، وبكى المسلمون لبكائه ، واكتأب المسلمون لاكتابه (١) .

ح - عن ابن مسعود : خرج رسول الله (ص) - يوماً - إلى
المقابر ، فجلس إلى قبرٍ منها ، فناجاه طويلاً ، ثم بكى ، فبكيته لبكائه ،
فقال : إن القبر ، الذي جلستُ عنده قبر أمي ، وإني قد استأذنتُ ربي في
الدعاء لها ، فلم يأذن لي ، فأنزل الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ (٢) .

ط - عن بريدة : كنتُ مع النبي (ص) ! إذ وقف على عسفان ،
فأبصر قبر أمه ، فتوضأ ، وصلى ، وبكى ، ثم قال : إني استأذنتُ ربي أن
أستغفر لها ، فنهيتُ ، فأنزل الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ (٣) .

ي - وذكر الزمخشريُّ حديث نزولها في أبي طالبٍ ، ثم قال :
[وقيل : لما افتتح مكة ، سأل : أيُّ أبويه أحدث به عهداً ، فقيل :
أمك آمنة ، فزار قبرها بالأبواء . ثم قام مستعبراً ، فقال : إني استأذنتُ

(١) على هامش السيرة ١٩٣ : ١ .

(٢) أسباب النزول ١٢٧ ، محمَّد الحاكم ، والبيهقي ، وغيرهما - وتفسير
ابن كثير ٣٩٣ : ٢ ، والسيرة النبوية ٧٢ : ١ ، والاتقان ٣٤ : ١ ، حيث استدلت
به ، بعد أن ذكر غيره ، لجواز الحمل على تعدد النزول وتكراره ! إلا أن
الأصل عدم التكرار !

أسباب النزول ١٢٧ - عن أحمد بن محمد بن مردويه ، وقال أيضاً :
[وأخرج الطبراني وابن مردويه نحوه ، من حديث ابن عباسٍ ، وأن
ذلك بعد أن رجع من تبوك ، وسافر إلى مكة معتمراً ، فهبط عند ثنية
عسفان] .

وأورد مثل هذا تفسير ابن كثير ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، وعقب عليه :

[وهذا حديث غريبٌ ، وسياقٌ عجيبٌ] .

ربي ، في زيارة قبر أمي ، فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها ، فلم يأذن لي ، فنزلت . وهذا أصح ، لأن موت أبي طالب ، كان قبل الهجرة ، وهذا آخر ما نزل بالمدينة [(١)] .

لـ قال القسطلاني : [قد ثبت أن النبي (ص) أتى قبر أمه ، لما اعتمر ، فاستأذن ربه أن يستغفر لها ، فنزلت هذه الآية — رواه الحاكم ، وابن أبي حاتم — عن ابن مسعود — والطبراني — عن ابن عباس — وفي ذلك دلالة على تأخر نزول الآية ، عن وفاة أبي طالب ، والأصل : عدم تكرار النزول] (٢) .

ورأي القسطلاني — هنا — يتعارض ورأي السيوطي ، في الإتيان ، حيث حاول أن يجمع بين صحة الأحاديث المفتعلة ، والتي ينال بعضها أبا طالب ، وبعضها أم الرسول ، فصلها على جواز تعدد النزول وتكراره... رغم أن الأصل عدم التعدد والتكرار ...

لـ إن رجالاً من أصحاب الرسول (ص) قالوا : يا نبي الله ! إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الرحم ، ويفك العاني ، ويوفي بالذمم ، أفلا نستغفر لهم ؟ فقال النبي (ص) : والله ! لأستغفرن لأبي ، كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأمر الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ . ثم عذر الله إبراهيم « عليه السلام » فقال : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ — إني قوله : تَبَرَّأ مِنْهُ (٣) .

(١) الكشف ٥٧٠ : ١ [٢٤٦ : ٢] . وقريب منه : ما تفسير البيضاوي

٢ : ٢٩٨ .

(٢) الغدير ١٤ : ٨ عن إرشاد الساري ٢٧٠ : ٧ . وذكر مثل هذا

الحديث في السيرة الحلبية ١٢٦ : ١ .

(٣) الغدير ١٤ : ٨ عن تفسير الطبري ١٣١ : ١ ، من طريق قتادة ،

وتفسير ابن كثير ٣٩٤ : ٢ ، عن قتادة أيضاً .

م — إن النبي أراد أن يستغفر لأبيه ، فنهاه الله عن ذلك بقوله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ — الآية — قال : فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه ، فنزلت : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ — الآية (١) .

ن — دخل النبي مكة ، عام الفتح ، ظافراً منتصراً ، وبينما هو في بعض مواضعها ، رأى أصل قبرٍ فعطف عليه ، وأقام عنده ، واستأذن في الاستغفار لصاحب القبر ، فلم يؤذن له ، فانصرف محزوناً كئيباً ، وبكى فبكى الناس ، وما رأى الناس يوماً باكياً ، أكثر من ذلك اليوم (٢) .

وقد علّق طه حسين ، بعد هذا الحديث ، بقوله :
[واختلط أمر هذا القبر على الرواة ، فظنوه قبر أمّ — أمّ في الأبناء . ومن يدري ، لعلّ قبر جدّه الشيخ] (٣) — ويريد به . جـد المطلب . . ولا أدري ما قيمة « لعل » — هنا — ونحن في موضع حسابٍ تاريخيٍّ ، وحكّ له قيمته المعنوية ، في ميزان الأعمال ، وقيم الرجال !

وقد عرفنا طه حسين مشككاً ، يُنكر ضوء الشمس الباهر ، ببساطة قوله : لعل الشمس غير طالعة ! . أمّا أن ينقلب تشكيكه — فجأةً — إلى خطرٍ معاكسٍ ، وإلى حدٍّ إثبات المجهول ، ووصفه بمن هو منه بريء ، فشيء غريبٌ منه حقاً . . . ! وكان الأولى به — ولا سيما على مبدئه المشكك — أن يطعن القضية المزعومة من أصلها ، فينكر أمر هذا القبر المختلط ، من أساسه ، لأن الواقع ، في جانبه ، لم لو أنكر ! .

وبمثل تلك البساطة ، التي تشعر بعدم المسؤولية ، من خلاف الواقع ،

(١) الغدير ١٤ : ٨ ، عن الدر المنثور ٢٨٣ : ٣ ، من طريق عطية .

(٢) على هامش السيرة ١٩٣ : ١ . وقريبٌ منه ما في تفسير ابن كثير

٣٩٣ : ٢ ، لولا أن هذا ذكر : أن صاحبة القبر أم الرسول (ص) .

(٣) على هامش السيرة ١٩٣ : ١ .

أتبع تلك القولة ، بهذه الجملة ، التي يُعوزها الدليل ، وتنقصها البرهنة ، ولم تنج من اختلاط ، مثلما رمى هو به المؤرخين :

[وعرض الإسلام على عمّه وألحّ عليه ، وكاد الرجل أن يقبل ، لولا حمية الجاهلية ، فلما مات قال ابن أخيه : لأستغفرنّ لك ، فلامه القرآن في ذلك لوماً عنيفاً « كذا ١٩ »] (١) .

ونحن لا يهمنّا كثيراً ، ما حاول أن يصمّ به عمّ الرسول وكافله ، الذي « يحمي دينه من قریش » — كما يقول طه حسين نفسه (٢) — ولكن الذي يهمنّا هو هذا الاندفاع الجموح ، بلا ريث ولا تأنّ ، حتى جعل الرسول عرضةً للّوم العنيف ، يوجّه عليه من القرآن الكريم — ولا ندري برأي طه حسين ، حول القرآن ، رأيه العقائدي حوله ، بعد محاكمته على كتابه حول « الشعر الجاهلي » ، حيث أعلن إيمانه بعد تلك المحاكمة .

وكيف يُلام الرسول ، على عرضه الإسلام على عمّه ، الذي حماه وحمى دينه ، فيُلام الرسول اللّوم العنيف ، على هذا العرض ، أو على الإلحاح في العرض ١٩ .

أليس مهمّة الرسالة ، هي هذا العرض ، حتى مع الإلحاح؟ ثم ألم يأمره القرآن ذاته بإنذار عشيرته الأقربين ، في فجر الرسالة البكر ، قبل الإنذار العام ١٠٠٠! فكيف يلومه — بعد هذا — على تنفيذ ما يتلقّى من أوامره ١٠٠٠! فهل اختلط الأمران على القرآن ، كما اختلط أمر ذلك القبر المزعوم ، على المؤرخين ، وراح الدكتور طه حسين يدلّهم عليه ١٠٠٠! فما هو — عند سوى قبر عبدالمطلب ! .

(١) على هامش السيرة ١٩٣ : ١ .

(٢) الفتنة الكبرى : عثمان ص ١٥١ ، وقد ذكرناها ، في ما مرّ من

[ذكر عطر] — ص ٢٧٦ .

وهو لا يقف في تعريض الرسول لِلْوَم القرآن العنيف ، عند تلك القولة فقط ؛ بل لا يكتفي ، حتى يضعه ، مع عدد المسلمين ، الذين يلومهم القرآن على عملٍ مخالفٍ :

[هل ترى أبلغ في تصوير العدل الصارم الحازم الذي لا يقبل هوادهٍ ولا يحتمل رفقاءً لأنه ليس موضع هوادهٍ ولا رفقاءً ، مِنْ هذه الآية الكريمة ، التي يُلام فيها النبي والمسلمون حين استغفروا لِمَنْ لا مطمع له في المغفرة :

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ
... الخ] (١) .

وبهذا يبين لنا ، كيف اختلط الحال على طه حسين ، دونه اختلاط المؤرخين ، الذي لم يزد به إلا اختلاطاً على ذاك الاختلاط ولم يخرج مِنْ عتمة الشك ، فالظن يحوط به . والتقريب بـ « كاد » و « لعل » لا يُغني عن الحق شيئاً .

ولقد قلنا : إنه لا يهْمنا كثيراً ، ما حاول أن يصم به عم الرسول ونصير الإسلام ، ذلك أن هذا الكتاب ، قد وُضع مِنْ أجل هذه التهم ، يهدى منها الأسس الواهية ، المبنية على ترابٍ ... وما هذه التهمة المتداعية ، لا يسندها دليلٌ ، ولا يعضدها برهانٌ ، سوى نقطة مسحوةٍ ، مِنْ بين حروف تلك السطور السود ، التي وُضعت في حق أبي طالب .

س - قال الطبري : قال آخرون : الاستغفار في هذا الموضوع ، بمعنى الصلاة . ثم أخرج مِنْ طريق المثني ، عن عطاء بن أبي رباح ، قال : ما كنت أدع الصلاة ، على أحدٍ مِنْ أهل هذه القبلة ، ولو كانت حبشيةً جلياً مِنَ الزناء ، لأنني لم أسمع الله يحجب الصلاة ، إلا عن المشركين ، يقول الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ - الآية (٢) .

(١) على هامش السيرة ١٩٤ : ١ .

(٢) الغدير ١٤ ، ١٥ : ٨ عن تفسير الطبري ٣٣ : ١١ .

فأنت ترى : أن هناك مَنْ يفسّر الاستغفار بصلاة الأموات . وقد مات أبو طالب وخديجة ، قبل أن تسنّ صلاة الأموات .

على أن صلاة الأموات ، قد شرعت عند موت المرء... فهل نهى الله رسوله أن لا يصلي على عمه ، وقد مضى على موته ، ما ينيف على العقد ؟! إذن... كيف يجتمع هذا الرأي ، مع فرية تحريفها لأبي طالب، أو أم الرسول ، أو آبيه .

ع — عن عليّ: أخبرت الرسول (ص) بموت أبي طالب ، فبكى ، فقال : اذهب فغسله وكفّنه ، وواراه ، غفر الله له ورحمه . ففعلت . وجعل الرسول يستغفر له أياماً ، ولا يخرج من بيته ، حتى نزل جبريل عليه السلام « بهذه الآية : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ — الخ (١) .

فأنت ترى — هنا ، على هذا الرأي ، الذي صيغت نهايته ، وفق الهوى السياسي — أن نزول هذه الآية ، كان في العام ، الذي توفي فيه أبو طالب ، على أكبر تقدير ، إن لم نقل : في الشهر ، أو الأسبوع ، الذي توفي فيه ، لوجود كلمة « أياماً » مع أن نزول السورة ، التي فيها آية الاستغفار ، كان آخر ما نزل من القرآن ، وبعد وفاة أبي طالب بعشر سنين ، في أقل الصور ! .

ف — لما مات أبو طالب ، قال النبي (ص) : إن إبراهيم استغفر لأبيه ، وهو مشرك ، وأنا أستغفر لعمي ، حتى أبلغ ، فأقول الله : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ — الخ — يعني به : أبا طالب ! ، فاشتدّ على النبي (ص) ، فقال الله لنبيه : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ — الخ (٢) .

(١) الغدير ١٥ : ٨ ، عن طبقات ابن سعد ١٠٥ : ١ ، والدر المنثور

٢٨٢ : ٣ عن ابن سعد وعساكر .

(٢) الغدير ١٥ : ٨ ، عن إسحاق بن بشر ، وابن عساكر ، في الدر المنثور

٣ :

٢٨٢

وهنا... على هذا الحديث... نستبين أن الآية ، نزلت عند وفاة
 عم الرسول ، ونصيره (ص) .
 ص - لما مات أبو طالب ، قال له رسول الله (ص) :
 الله ، وغفر لك ، لا أزال أستغفر لك ، حتى ينهاني الله . فأخذ المسلمون
 يستغفرون لموتاهم ، الذين ماتوا ، وهم مشركون ، فأنزل الله : مَا كَانَ
 لِلنَّبِيِّ (١) .

* *

هذه ثمانية عشر ، مما تُسمى بالأحاديث... وكلها رويت سبباً في نزول
 هذه الآية .

ونحن لا نريد مناقشتها ، ووضعها تحت مطرقة النقد... ففيها ما
 لا يمت لموضوع الكتاب بصله ، وإن كنا لا نقر كل ما فيها ، ولا ندين
 بها كلها .

ولكننا سقناها ، على أن ثمة : أقوالاً متعارضة ، وآراءً متناقضة ، في
 نزول هذه الآية - أو الأصح : في تحريف سبب نزولها... فهي - كما
 وجدتها - يضرب بعضها بعضاً ، وتتباين في ما بينها...

وأول ما يلفت النظر ، ويسترعي الانتباه ، لينكشف قصر نظر
 المحرّف : أن المحرّف ، يسند لمثّل عليّ وابن عباس ، وغيرهما : القولين
 المختلفين ، والرأيين المتناقضين ، حول هذه الآية ذاتها ، في وقت واحد ،
 بالإضافة إلى أن ما أسند لعليّ ، أو لابن عباس ، حول أبي طالب ، بالذات ،
 يتناقض مع الثابت عنهما ، حوله .

فما السبب في هذا التناقض... وأيّها نأخذ؟ وأيّها ندع؟ فتارةً :
 يحرفونها لعن الرسول ! ، وأخرى : لأبيه ! ، وثالثة : لأمة ! .

(١) الفدير ١٥ : ٨ ، عن الدر المنثور ، أيضاً .

ولكن الواقع يدلُّنا على أن البلاء قد جاء أمَّ الرسول وأبائه ، من تحريف هذه الآية إليهما... جاءهما هذا البلاء ، كرشح ، ممَّا وجَّه لأبي طالب ، ليتم لهم ما شاءوا في حق شيخ الأبطح .

إلا أنها قد تُتفق — على اختلاف وجهات نظرها ، وتباين أهدافها — على شيء واحد ، هو أن الرسول — وعفوه عني ! — كان يستغفر لمُشركين ، نهائاً عن حبِّهم ، وموالاتهم ، والاستغفار لهم ، في عديدٍ من المناسبات ، ووفريٍّ من الآيات ، فما كان ليقطع عن عمله ، ويدع استغفاره ، لمن لم يرضَ الله له أن يستغفر لهم ، حتى نزلت هذه الآية .

فهي — في النتيجة — تنحدر إلى هدةٍ واحدةٍ ، وتهدف لغايةٍ واحدةٍ ، هي مسُّ قداسة الرسول ، والتعدِّي على حرمة الرسالة . وهي إلى ذلك : إيذاء للرسول (ص) ، سواء كان عن طريق عتبه ، أو أبيه ، أو أمه .

وإلا فإن الواقع يثبت إيمان آباء الرسول (ص) ، وأمهاته ، حتى تنتهي السلسلة إلى المؤمن الأول : آدم .

لذلك وقع الحلبي في حيرةٍ ، وقد ذكر بعض هذه الأحاديث المفتعلة ، والمحرَّفة ، ورأى أن لابدَّ من تصحيحها ، فبذل جهده في ذلك ، فلم يرَ سبيلاً إلا أن ينحي النار عن عبد الله ، لأبي طالب ، لأن من بين هذه الأحاديث المكذوبة :

أن رجلاً ، سأل الرسول : أين أبي ؟ فقال له — وهو (ص) ، لم يقل هذا قطماً : إن أبي وأباك في النار [كذا] (١) .

وبعد سير رجراجٍ متعبٍ ، نال الحلبي فيه ما نال ، بغية التوجيه الصحيح ، لهذا الحديث المكذوب — قال ، وكأنه رأى نفسه قد وصل لشاطئ

(١) السيرة الحلبية ٦٠ : ١ — وذكر الحديث في صحيح مسلم ١٣٢ : ١ .

الأمان ، بتصحيحه الحديث ، فالرسول لم يمن سوى عبه ، بقوله :
« أبي » (١) .

وهكذا ينجّي الحلبي مَنْ شاء ، مِنْ النار ، ليطعمها مَنْ يشاء...
ولا بدّ أن نُشير إلى أن هذه الأخبار ، أقلّ ما يقال عنها: إنها متعارضة.
وكفى بهذا التعارض مسقطاً لها عن درجة التوثيق ، أو الاعتبار !.

وهذا التعارض ، نجده ، حتى في بعض الأحاديث المنحرفة، ضد الشخص
الواحد . فبعضها ، وإن اتفق في التحريف ، لأبي طالب ، أو آمنة ،
أو عبد الله ، إلا أنها ذاتها متناقضة في نفسها .

ونظرةً يليقها القارئ عليها ، يجد ذلك بأوضح ما يكون الوضوح !.

ثم هي مع هذا التعارض ، المسقط لها عن درجة الاعتبار — بالإضافة إلى:
تهالك السند ، وضعف الرواة ، كما عرضنا الأقوال عنهم ، في ما حرّف لأبي
طالب ، وليس هؤلاء ، سوى نماذج لرواة أمثال هذه الأحاديث الكاذبة ،
لأن استقائها من عين آسنه واحدة ...!

... إنها مع هذا التعارض ، في ما بينها ، ومخالفتها لأصل عدم تعدّد
وتكرار سبب نزول الآية ...

إنها مع ذلك كلّها تتعارض بما هو أقوى منها دلالةً ، وأوضح سنداً،
وتتصادم بالقرآن العظيم ، الذي أثبت طهارة نسب الرسول ، وطهارة أهل
البيت أيضاً (٢) — وليس أدنس ، ولا أرجس مِنْ: الشرك والكفر — كما
أنها تنال من قداسة الرسول ، الذي جعلته يخالف القرآن ، في نهيه عن موالاته

(١) السيرة الحلبيّة ٦٠ : ١ .

(٢) إشارةً إلى آية: « وتقلبك في الساجدين » ، و « إنما يريد الله » ،
وغيرهما .

الكفار ، في آياتٍ ، سبقت هذه الآية ، في تنزيلها عليه ، بما أوضحناه من قبل .

- ٤ -

إن الآية ، التي اختلف في تأويلها ، أو تفسيرها ، أو تحريفها... تحمل معنى النفي ، لا معنى النهي - أي : إن الآية ، تنفي عن الرسول : أنه كان يستغفر للمشركين - وكذلك المؤمنون ، الذين هم لتعاليمه متبعون - فهي تنفي صدور استغفارٍ ، من الرسول ، لرجلٍ لم يقرَّ في قلبه الإيمان ، لأنها تنهى الرسـد ، عن الاستغفار ، لمن لا مطمع له فيه ، لأن الرسول مبشراً ، من أن يقع في هذا...!

فكل من وجدناه ، قد استغفر له الرسول ، فعلينا أن نقرَّ بإيمانه ، ولا يخالجننا فيه ذرةٌ من شكٍّ ، أو غبارٍ من ريبةٍ - ما دمنا نقرُّ للرسول بالنبوة والعصمة ، والعمل الحق .

وليس في الآية شيءٌ ، مما يظنُّ أن الرسول ، كان يستغفر للمشركين ، فنهاء الله عنه ، لأن في حمل الآية على هذا التأويل ، مساً لقداسة الرسول ، ونيلاً من مقام النبوة... ولا سيما بعدما وجدنا أن الرسول ، قد تلقى من وحي ربه ، ما قد نهاء - قبل هذه الآية - أن يعمل مثل هذا...!

وإتنا نجد في هذه الآية ما يكشف عن السرِّ في استغفار الرسول لعنه... فمن الجائز : أن هناك ، من لم يكن بإيمان أبي طالبٍ ، ذلك العليم ، لتكتمه به ، وقد رأى الرسول يستغفر له ، فظنَّ جواز وإباحة الاستغفار ، لذوي قرى المسلمين ، من المشركين ، فجاءت هذه الآية ، لتقول لهم :

إن ذلك لا يجوز... ولم يكن ليقع مثل هذا العمل من الرسول... وما استغفر الرسول لعنه ، وهو مشركٌ ، حتى يُجوِّز للناس : أن يستغفروا

لآبائهم المشركين... ثم أوضحت لهم الآية : موقف الخليل إبراهيم...
على أنه فرق ، بين الاستغفار للحق ، والاستغفار للميت — كما أشرنا
لذلك ، قبل خطوات*
فالأية تنزه الرسول — في استغفاره لعمه ، ومن كان يستغفر له — بأنه
لا يستغفر لمشركه ، وهو الشديد في جنب الله ، وعلى أعدائه...
وليس استغفار الرسول، لأي كان، إلا دليلاً ، مدعماً بالحجج والبراهين،
على إيمان هذا الذي يستغفر له لرسول (ص) ...
وإن مقام النبوة ، وقداصة الرسالة ، لتأيان عليه (ص) أن
يستغفر لمشركه ، أو أن يخالف ما ينهاه الله عنه ، ويعمل ما لا يرضى الله به !
وقد عرف الكثير ، من استغفار الرسول لعمه ، دليلاً على إيمانه... فلم
يحتجوا بذلك ، لتبرير استغفارهم لآبائهم المشركين...
فكذلك وجدنا الذي حاوره علي ، ونهاه ، بعدما وجدته مستغفراً
لأبويه المشركين ، ولم يحتج ، إلا باستغفار إبراهيم ، لعدم إحاطته بالسر في
ذلك... — وقد سبق منا ذكر الحادثة ، والقول حولها *

— ٥ —

إن هناك من يذكر بقية الحديث ، الذي نقلناه ، عن البخاري، ومسلم ،
وإن هناك من يقول :
[فلما تقارب من أبي طالب الموت ، نظر إليه العباس ، فرآه يحرك
سفتيه ، فأصغى إليه بأذنه ، فقال : يا ابن أخي ! والله لقد قال الكلمة ،
التي أمرته بها] (١) .

(١) السيرة النبوية ٨٣ : ١ ، والحلية ٣٨٨ : ١ ، والمهشامية ٥٩ : ٢ ،
والبحار ٥٢٣ : ٦ ، والنهج ٣١٢ : ٣ ، وشيخ الأبطح ٧٣ ، والأعيان ١٣٦ : ٣٩ .

فمع التَّنَزُّلُ بأنَّ أبا طالبٍ، قال ما قيل على لسانه ، عند الاحتضار ،
 فإن هذه الشهادة — مِنْ العباس — تدلُّ على أن آخر ما فاهت به شفقا أبي
 طالبٍ، وآخر كلمة ، انقلت صداها مِنْ لسانه ، وهو عند حشجة الاحتضار،
 هي : الشهادة ، التي أرادها منه الرسول — كما يقول الحديث •
 وعلى مَنْ يقول بصحة الحديث : أن يأخذ بنهايته وتمامه... وإلَّا فعليه،
 أن يرمي به كله • إذ ليس له أن يأخذ ما يُوافق هواه ، ويترك ما يُخالفه...!

- ٦ -

وإننا إذا أسدنا الستر ، على إقرار أبي طالبٍ، وأقواله وأعماله ،
 الناضجة بالإيمان... وتناسينا وصاياه — عند الاحتضار — على الملائكة مِنْ
 قريش... وأغفلنا استغفار الرسول وشهاداته ، وجبَّه والإخلاص له...
 وشهادات عدل القرآن ، وأحد الثقلين اللذين خُفَّهما الرسول بعده : أهل
 البيت... وشهادات الصحابة ، في حقه — كأبي بكرٍ، وأبي ذرٍّ، وابن عباسٍ...
 إننا إذا تركنا كلَّ هذا جانباً ، وجعلنا بيننا وبينه السدَّ المنيع ، الذي
 يحجب الضوء ، وسلَّمنا — تنزُّلاً — بصحة الحديث — وليس لنا أن نسلِّمَ
 به ، بعد قيام البراهين على دحضه...

أقول : لو تركنا كلَّ هذا ، وتنزَّلنا ، فسلَّمنا بالحديث — فإن قول أبي
 طالبٍ : « على ملة عبد المطلب » ، ليس سوى دليلٍ على إيمانه...

فما ملة عبد المطلب هذه ؟ • أليست هي الخيفية البيضاء ؟ • أليس
 عبد المطلب على دين الله ، الذي ارتضى ؟ • أليس مقراً بالإله الحق ، والمبدأ
 الأعلى ، ويوم الحساب ، وميقناً بالله باعث حفيده ، ليصدع برسالة ربه ،
 وتنبي — وهو يحتضر — أن يمتدَّ به العمر ، ليشهد انبعاث النور ، وإشراقه
 السنى...؟

ولكن هذا — أيضاً — ليس سوى رشح ، مما وجَّه لأبي طالبٍ...

فأصاب - مرة - أم الرسول ، آمنة ، وأخرى : أباه ، عبدالله ، وتارة :
جده ، عبد المطلب .

أو هو - بالأصح - رشح ، ممأ وجهه لعلني ، ليخطوا من قدره ، لأن
« متساقل الدرجات يحسد من علا » - كما يقول الشاعر - فقالوا منه عن
طريق أبيه ، إلا أن هؤلاء لم ينجوا من هذا النيل - أيضاً - حتى ولو كان
في كل هذا ، نيل للرسول (ص) . وأذى له ، ما دامت الغاية تبرر
الواسطة ، عند الوصوليين .

هذا... وليس ممأ يختص بموضوعنا إثبات إيمان عبد المطلب... إن
كان إيمانه يحتاج لإثبات... على أنا قد أتينا على ما يبرهن على إيمانه ، في
الفصل الذي عقدناه عنه ، من هذا الكتاب .

هذا... وفي الموضوع كتب مختصة ، تعرض جوابه... حتى عهد
السيوطي ستة كتب ، كلها حول إيمان آباء الرسول الأعظم (ص) (١) .
على أن أبا طالب ، لم يتخذ ذلك الجواب ، بقوله : « على ملة عبد المطلب »
- إن كان للحديث بالواقع صلة - إلا ليعمي موقعه على قریش ، هؤلاء
العتاة المحيطين به... وقد اتخذ هذه السياسة ، في صالح الدعوة ، ونبي
الإسلام - كما عرضنا لذلك...

ولو لم يكن قد اتخذ مثل هذا الطريق لما نسئ له أن يقوم بما قام به ،
من جليل العمل ، ومؤزر النصر...!

نظرة في آية « انك لا تهدي »

أما الآية الثانية : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » - الآية فقد وضعنا

(١) ارجع لأسمائها ، للغدير ١٧ : ٨ بالهامش . وأشير لها في السيرة
النبية ٧٧ : ١ .

وقد وقفنا عليها - أخيراً - في طبعتها الثالثة ، طباعة حيدر آباد الدكن - الهند -
عام ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م ، وهي - على الظاهر - ذات منهج واحد ، وأسلوب
متقارب ، وتجانف - فيها - على واضح الحق الجلي ، بشأن أبي طالب ، ولم نر
حاجة ، لفتح نقاش خاص معه ، لأنه تعدد آثم ، ونجن جائر...!

يدك على مكنم الداء الذي كان من أعراضه: تحريف هذه الآية - في ما حُرّف - نحو أبي طالب، وكشفنا الستر عن الخبيء، من زيف هذا التحريف، ما دام الحديث يقول: إن هذه الآية، نزلت وآية الاستغفار في هذه المناسبة... .

وما دام قد انهدت أسس التهم، التي شيدت في تحريفهم، لتلك الآية، فهي هنا - أضعف من أن تبقى في الوجود، لحظة، بل هي - هالك من بين تلك الأنقاض المهتمة .

ولكننا - مع هذا - رأينا أن نخصّ تحريف هذه الآية، بنظرة عابرة، نوجزها في هذه النقاط:

- ١ -

إن هناك، من وضع أحاديث، خصّها بهذه الآية، غير تلك التي عرضناها، عن: سعيد بن المسيب، وأبي هريرة، وناقشنا سندهما، وكشفنا عمّا فيه من زيف، بحيث لا يبقى سبب من التثبت، بما انطوت عليه هذه الأحاديث من: كذب، وافتراء، وتزوير...!

ونريد - الآن - أن نعرض لحديثين آخرين، خصّا بهذه الآية، ونناقش سندهما الواهي المتهالك... .

١ = عن طريق أبي سهل السري بن سهل، عن عبد القدوس الدمشقي عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: نزلت: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ - الآية - في أبي طالب، إلح عليه النبي (ص). أن يُسلم، فأبى، فأَنزَلَ الله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي (١) .

ونلاحظ على هذا:

(١) الغدير ٢٠ : ٨، عن الدر المنثور ١٣٣ : ٥٥ .

أ - السري : يقول عنه الذهبي : « وهما ابن عدي . وقال : يسرق الحديث ، وكذبه ابن خراش » .

ثم ذكر له أحاديث فيقول قبلها : ومن بلاياه . ومن مصائبه (١) .
وعده الأميني ، في سلسلة الكذابين ، عن كثير ممن ترجمه (٢) .

ب - عبد القدوس الدمشقي : قال عبد الرزاق : ما رأيت ابن المبارك ، يفصح بقوله : « كذاب » إلا لعبد القدوس . وقال الفلاس : أجمعوا على ترك حديثه . وقال النسائي : ليس بثقة . وقال ابن عدي : أحاديثه منكورة الإسناد والمتن (٣) .

وقال إسماعيل بن عيَّاش : لا أشهد على أحد بالكذب ، إلا على عبد القدوس (٤) .

وقال عبد الله بن المبارك : لئن أقطع الطريق أحبُّ من أن أروي عن عبد القدوس الشامي (٥) .

ج - لا نعرف من هو أبو صالح ؟ وأظنُّ الصاد - في كنيته طاء ! .

د - وإسناد الحديث لابن عباس ، يفصح المؤامرة ، ويكشف الستر عن الكذبة ... !

فاين عباس كان ميلاده في شعب أبي طالب ، حين حصر الرسول

(١) الميزان ٣٧٠ : ١ .

(٢) الفدير ٢٠٣ : ٥ و ٢٠ و ١٤٣ ، ١٤٤ : ٨ .

(٣) الميزان ١٤٣ : ٢ .

(٤) الفدير ٢٠٨ : ٥ - في سلسلة الكذابين - و ٢١ : ٨ .

(٥) الفدير ٩٠ : ١٠ .

وبنو هاشم فيه ، في العام الثالث ، قبل الهجرة (١) - أي : في العام ، الذي توفي فيه أبو طالب ! .

فَمِنْ أَيْنَ رَأَى ابْنُ عَبَّاسٍ ذَلِكَ ، لِيُرْوِيَ هَذَا الْحَدِيثَ ١٩٠٠٠ ؟
حاشا ابن عباس ! فإنه لم يقل شيئا من هذا... بل رأيناه كيف يجب
مَنْ سَأَلَهُ ، عَنْ إِيمَانِ أَبِي طَالِبٍ - فِيمَا عَرَضْنَا ، عِنْدَ « ذَكَرَ عَطَر » (٢) .
٢ = وعاد الكذوبان : السري ، وعبد القدوس ، فأسندا الحديث
المقتعل لابن عمر (٣) . وقد كان ميلاد عبدالله بن عمر ، في العام الثالث ،
مِنْ الْمَبْعَثِ النَّبَوِيِّ (٤) . فهو في وفاة أبي طالب - قد شارف السبعة الأعوام ،
مِنْ عَمَرِهِ .

فليس مِنْ الْمُعْقُولِ أَنْ يَشْهَدَ - وهو في هذه السن - احتضار أبي طالبٍ
وليس غير هذين الكذابين ، اللذين اختلقا هذا الحديث ، فأسندها
- مرة - لابن عباس ، وأخرى لابن عمر - وحاشاهما ! - لتتم للكذابين
الغاية السوء ، التي أرادوها ! .

- ٢ -

أما الآية - فَإِنَّا نَجِدُهَا بَيْنَ آيَتَيْنِ ، هِيَ وَسَطَى بَيْنَهُمَا :
[وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا ،
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ . إِنَّكَ
لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

(١) الإصابة ٣٢٢ : ٢ . (٢) ص ٢٦٩

(٣) الغدير ٢١ : ٨ ، عن الدر المنثور ١٣٣ : ٥ .

(٤) الإصابة ٣٣٨ : ٢

وَقَالُوا : إِنَّ تَسْبِجَ الْهُدَىٰ مَعَكَ ، نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا... أَوْ لَمْ
تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثُرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا...؟
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ !^(١) .

فَالآيَةُ الْأُولَىٰ مُخْتَصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ ، تَصِفُ عَلَيْهِمُ ...

وَالثَّالِثَةُ : تَصِفُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا ، مَخَافَةَ أَنْ يُتَخَطَّفُوا مِنْ أَرْضِهِمْ — كَمَا
يَزْعُمُونَ ! — أَيِ : يَسْتَلْبُونَ ! .

وَالآيَةُ الْمَحْرُفَةُ : وَسَطَىٰ بَيْنَهُمَا . وَهِيَ خُطَابُ الرَّسُولِ (س) ،
يَقُولُ اللَّهُ لَهُ فِيهَا : إِنْ هَدَايَةُ أَوْلَئِكَ ، لَيْسَ لِحَبِّكَ لَهُمْ ، فَمَا أَنْتَ بِالْهَادِي لَهُمْ
— بِالْمَعْنَى الْأَصِيلِ — أَيِ : إِنْهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا لِسَاعَتِهِمُ الدَّعْوَةُ مِنَ الرَّسُولِ ، فَحَسْبُ
وَإِنَّمَا لِإِمْدَادِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ ...

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْوَحِيدَةُ ، فِي الْقُرْآنِ ، مِمَّا تَحْمِلُ هَذَا الْمَعْنَى — وَهُوَ
نِسْبَةُ الْهَدَايَةِ لِلَّهِ — فِي كَلِمَاتٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا هَذِهِ الطَّائِفَةُ :

أ — لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(٢) .

ب — إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ^(٣) .

ج — أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟^(٤)

د — أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُتْمَى ، وَلَوْ كَانُوا لَا يَتَّعِزُّونَ^(٥) .

هـ — فَيَضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(٦) .

(١) القصص ٥٥ — ٥٧ .

(٢) النساء ٨٨ .

(٣) النحل ٣٧ .

(٤) البقرة ٢٧٢ .

(٥) إبراهيم ٤٤ والمائدة ٣١ .

(٦) يونس ٤٣ .

و - مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ
وَلِيًّا مُرْشِدًا (١) .

وليس لنا أن نتقصى هذه الآيات - وهي على وفرة عددٍ ، وكلُّها تحمل
المعنى ، الذي تحمله تلك الآية المحرقة... وهي كَلِّهَا تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْهَدَايَةَ تَكُونُ
بِإِمْدَادِ مَنْ اللَّهُ ، ولكن في حدود اختيار العبد ، لا أن تسلبه حرية الاختيار...
ولذلك نجد آياتٍ أُخر ، تنسب الهداية والضلال للنفس ، كقوله تعالى :
فَمَنْ أَهْتَدَى فَأَنْتُمْ يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَأَنْتُمْ يَضِلُّ
عَلَيْهَا (٢) .

إلى آياتٍ وآياتٍ ، لا نريد تقصيصها .

- ٣ -

ويجدر بنا أن نعرض بعض الوجوه ، التي رأوها في سبب نزول هذه
الآية :

أ - إن الرسول (ص) ﷺ ضُرب بحربةٍ في خَدِّه - يوم أُحد -
فسقط إلى الأرض ، ثم قام ، وقدم أنكرت رباعيته ، والدم يسيل على حَرِّ
وجهه . فمسح وجهه ، ثم قال ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ :
« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » - الآية (٣) .

(٢) يونس ١٠٨ .

(١) الكهف ١٧ .

(٣) الحجة ٢٩ والأعيان ١٥٩ : ٣٩ . وقد جاء في الحجة « يوم حنين »

- خطأ - والمقصود ، من سياق الحادثة وتأريخها : يوم أُحد .

بـ قيل: إن قوماً كانوا يظهرُونَ الإسلامَ ، والإيمانَ بالرسول (ص)، وتأخروا بعد هجرته ، وأقاموا بسكة ، مظهرين الكفر والصبوء إلى الدين ، الذي كانوا له معتنقين ...

وإذ وصل نبؤهم للرسول، ومنَّ معه مِنْ المؤمنين ، اختلفوا فيهم ... فمنهم: مَنْ يرى إيمانهم ، ولا يرى «ظاهرهم» الذي اتخذوه ، سوى تقيةٍ لِمَنْ اضطرَّ ، كما قال الله تعالى : «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» (١) ... ومنهم : مَنْ يراهم كفَّاراً، إذ كان عليهم أن يهاجروا ، لو استحبُّوا الإيمانَ ، والنجاة بالمبدأ ...

لذلك ... اجتمع هؤلاء وأولئك ، إلى الرسول فأحبَّ بعضهم أن يصدر الرسول فيهم حكمه بإيمانهم ، للأرحام الوشيعة ، التي تربط بين: هؤلاء الراغبين وأولئك المقيمين .

ولكن الرسول أرجأ الحكم ، حتى ألقى الملاكُ في أُذنه :

«إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» .

وفالوا : إن معنى الآية : «إِنَّكَ لَا تَحْكُمُ ، وَتَسْمِي وَتَشْهَدُ بِالْإِيمَانِ ، لِمَنْ أَحْبَبْتَ . لكن الله يحكم له ، ويسميه ، إذا كان مستحقاً له» (٢) .

ج - قيل : إن هذه الآية ، نزلت في الحارث ، بن عثمان ، بن نوفل ، بن عبد مناف ، وقد كانت عند الرسول رغبةً في إسلامه ، وحبٌّ لذلك (٣) .

ويقرب مِنْ هذا القول : قول بعض المفسرين ، بأن الآية التي بعد هذه - وهي : «وَقَالُوا : إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ» ، الخ ، كان نزولها في

(١) آل عمران ٢٨ .

(٢) الحجة ٣٠ والأعيان ٢٥٩ : ٣٩ .

(٣) شيخ الأبطح ٦٩ - عن الحسن بن الفضل ، في كتاب «أسباب النزول» ، لأبي المجد بن رشادة الواعظ الواسطي .

الحارث (١) .

وقد قيل : إن إجماع المسلمين ، على أن الآية الثانية — « وَقَالُوا ... »
الخ — هي في الحارث (٢) .

د — إن رسول قيصر ، جاء بكتاب للرسول (ص) فدفعه إليه ،
فوضع الرسول الكتاب بحجره ، ثم قال : « مِمَّنَّ الرجل ؟ » قال : مِنْ
تنوخ . فقال الرسول :

« هل لك في دين أبيك إبراهيم الحنيفة ؟ » .

قال رسول قيصر : إني رسول قومٍ وعلى دينهم ، حتى أرجع إليهم .
فضحك الرسول (ص) ، ونظر إلى أصحابه ، وقال : « إِنَّكَ
لَا تَهْدِي » (٣) .



هذه أقوال أربعة ، قيلت في سبب نزول الآية ... والأصل — كما
قدّمنا — عدم تكرار النزول ... فَمِنْ أَيْنَ حَرَّفْتَ لأبي طالبٍ ، لولا هؤلاء
الكذبة ، الذين لا يخشون الكذب ، ولا يرقبون في مؤمنٍ إلّا ، ولا ذمة ؟!

(١) الكشف ١٦٧ : ٢ [٣٣٣ : ٣] ، ومجمع البيان ٣٠٩ : ٢٠ ، وأسباب
النزول ١٦٩ عن النسائي ، عن ابن عباس ، وتفسير ابن كثير ٣٩٥ : ٣ ، وتفسير
البيضاوي ٩ : ٤ .

(٢) شيخ الأبطح ٦٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٩٥ : ٣ .

ونحن لو سلّمنا نزولها في أبي طالب، فإنها ستكون سلاحاً، في يد القائلين بإسلامه، أكثر من أن تكون ضدّهم :

أ - لأن من يصرّفها لأبي طالب، يقول بحبّ الرسول له : « إنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ »... فمعناها عندهم : يا محمد ! إنَّكَ لَا تَهْدِي عَمَّكَ الذي تحبّه، ولكن الله يهديه !

فحبّ الرسول لرجل، هو - وحده - دليل على إيمان هذا، الذي يحبّه الرسول (ص)، لأن الرسول منهيٌّ، عن حبّ غير المؤمنين .

وقد تكرّرت الإشارة منّا، لهذه الناحية . فالإعادة، ليست سوى تكريرٍ

وتطويل .

ب - ومن ناحية ثانية : تكون دليلاً على رفعة إيمان أبي طالب، لأن إيمانه يكون - حينئذٍ - بهداية من الله، وليس بدعوة الرسول له، فحسب . بل إن هناك عناية إلهية، اختصّت أبا طالب .

لذلك... خاطب الله سبحانه، رسوله، قائلاً له : إن هداية عمك، ليست منك . وإنما الله هو الذي أمّده، فهداه، حيث اختصّه، فكان حامي دينك، بعد أن رعاك وتحوطك، وفداك... .

بعد هذا... لا نجد حكماً مرتجلاً، أو هي دليلاً، من هذا الحكم، يرسله الزجّاج، حول هذه الآية، فيدّعي : أن قد [أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالب]^(١) .

(١) الكشف ٣٣٣ : ٣

فمن أين هذا الإجماع ، وما هو إلا في عالم الوهم ، والخيال الخلاق ؟
وأي دليل ، يعضد هذا الإدعاء الكاذب ... ؟ وكيف لم يخش مغبة هذه
الدعوى الشائنة : ومسؤولية هذا الحكم الطائش ؟

وأقل ما فيه : إخراج أهل البيت ، وشيعتهم ، من المسلمين ، الذين يزعم
إجماعهم على بطل هذه الدعوى ... ويخرج — أيضاً — طائفة من الصحابة ،
وطائفة من أتباع صريح الحق ، وسار في مهيع المحجة ، فأمن بالأمر الواقع ،
وأقر بالثابت من إيمان بيضة البلد ... لأنه إن لم يُخرجهم من عداد المسلمين ،
انتقض عليه ادعاء الإجماع ، لأن أية قولة لأحد هؤلاء ، تقضي على مزعمته ،
وادعائه للإجماع الذي لا وجود له !

والغريب — وكم في هذا الموضوع ، من غريب عجيب — إن دليله على
هذا الاجتماع الموهوم حديث كاذب — لم يذكر له سنداً ، حتى تكشف عما فيه
من كذاب ووضاع — ولكن لا شك في أن أصله بعض تلك الأحاديث ، التي
زيفنا سندها الواهي المتهالك . وقد أضاف إليه ما شاء له الخيال ، الذي
أوجد تلك من عدم ... والكذبة قد تولد صغيرة ، ثم تنمو ... !

وإننا لنجد التناقض ظاهراً ، وروائع الخلق تفوح ، بين سطور هذه
الكلمات ، التي يقولها على لسان أبي طالب :

(يا ابن أخي ! قد علمت أنك لصادق : ولكنني أكره أن يقال : خرج عند
الموت (٢)) — حتى يختمها : [ولكن سوف أموت على ملة الأشياخ : عبد
المطلب ، وهاشم ، وعبد مناف] (٣) .

ولا نريد : أن نعيد النقاش حول هذا ، أو أن ندل على التناقض ،

(٢) خرج — هنا — بمعنى : خار .

(٣) الكشف ٣٣٢ و ٣٣٣ : ٣ .

فيكفي ردّاً على ذلك: ما سبق حول مثل هذا القول المخلوق •
ولكن نُشير إلى أن القرطبي ، قد استكبر هذه الدعوى الضخمة
- دعوى الاجماع ! - فأراد أن يخفف من حدة قبحها • فعقّب قائلاً :

(والصواب أن يقال : أجمع جلّ المفسرين على: أنها نزلت في شأن أبي

طالب^(١)) •

غير أنه لم ينج من مثل ما وقع فيه الزجاج ، من: تهويل الدعوى ،
وتضخيم الادعاء... فالادعاءان ، لا يدعمهما دليل ، ولا يقوّيهما برهان ، ولا
يعتمدان على قوة من: منطق ، أو بيان •

وشبيه بهذا الحكم الطائش ، يرتجله الزجاج ، دون أن تتوافر فيه أيُّ
مقوّمات الحكم ، ما قاله ابن كثير ، حول هذه الآية :

(وقد ثبت في الصحيحين : أنها نزلت في أبي طالب عمّ رسول الله (ص) ،

وقد كان يحوطه وينصره ، ويقوم في صفّه ويحبّه حبّاً شديداً طبعياً

لا شرعياً - كذا ١٩) (٢)

ثم استشهد بتلك الأحاديث، التي عرضنا ، وفكّنا منها العرى

المفصومة ...

فمن أين هذا الثبوت ، الذي يرسل الحكم عنه ، في غير خوف من:
مسؤولية أو حساب...؟! وهل ثبت مثل هذا التحريف ، بمثل هذه الأخبار
التجارية ، التي يضعها هؤلاء...؟

ومضحك أن ينقل حول أحد هذه الأحاديث ما قاله الترمذي أنه (حسن)

غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان^(٣) .

فقد اعترف بغرابته ، وانفراد يزيد به • هذا الذي لا يحتج به ، ولا يعتمد

(١) الفدير ٢٢ : ٨ عن تفسير القرطبي ١٣ : ٢٩٩ •

(٢) (٣) تفسير كثير ٣٩٤ : ٣ •

عليه - كما سبق أن رأينا ، عندما وقفنا عنده ، في ما مضى ، من تزييف
السلسلة التي افتعلت هذا الحديث (١) - فمن أين هذا الحسن ، الذي جاز
لترمذي أن يصفه به...؟!

ولا نريد نقاش ابن كثير ، في هذا الحب الذي حلا له أن يستبيحه
بالطبعي لا الشرعي ؛ حيث أن في تضاعيف الكتاب ما يقوم بالبرهنة ، على أن
هذا الحب ، يحضه أبو طالب محمداً الرسول لا ابن أخيه ...



ومثيل من هذا التخريف ، يُسمى تفسيراً - تارة - وتأريفاً - أخرى -
وحديثاً - ثالثة - قول من قال :

[إن أبا سعيد بن رافع قال : سألت ابن عمر عن هذه الآية : إِنَّكَ لَا تَهْدِي
مَنْ أَحْبَبْتَ - أفي أبي جهل وأبي طالب ؟ قال : نعم !] (٢) .
ونحن وإن لم نقف على سند هذا القول ، إلا أنه ليس من الأهمية بمكان ،
حتى ولو لم يكن في السند مغمز ، أو فضيحة ، ما دام هذا ليس سوى رأي
منسوب لابن عمر ، لا بصفته حديثاً .

ولكن كيف يقبل العقل هذا الرأي - حتى مع عدم ثبوت إيمان أبي
طالب - وهو يجمع بين أبي طالب ، وأبي الجهل ، في منزلة واحدة...؟!

فالاثنان - أبو طالب ، بحبه ودفاعه ، وتفانيه وكفالاته للرسول ... وأبو
الجهل ، في الخط المعاكس لهذا الموقف ، أوضح ما يكون الخلاف - الاثنان
عند الرسول ، في منزلة واحدة ، يحب هدايتهما وإسلامهما - ومن يدري ،
فلعل جانب حبّه هذا لأبي الجهل ، هو الراجح ! - ولكن الله لا يحب ذلك...!
ألا فلتسقط القيم ! ولتندم الكفاءات ! وليتساو الحسن والقبح :

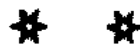
(١) ص ٣٢٥

(٢) أسباب النزول ١٦٨ ، ١٦٩ .

نصرة الرسول ووعداؤه...!

إن هذا التهجم القبيح ليس ضدَّ أبي طالبٍ، فهو ليس سوى النيل من الرسول، حيث يكون في منزلةٍ ظالمةٍ جائرةٍ يجانف العدالة، ويتجنى على الحق! عَفْوَك، يا الله!.

ولا يقف التفسير بالرأي عند حدٍّ، بل نجد كلاً، يفسّر الآية بما يشتهي، حسب الهوى والعاطفة... إذ نجد مَنْ يرى تبعيض الآية، بين: أبي طالب، والعباس، فيرى صدرها لأبي طالبٍ، وذيلها للعباس^(١). وبين وفاة أبي طالب، وإسلام العباس، طويلٌ أمدي، كما أن العباس لم يسلم، إلا بعد نزول هذه الآية، بعددٍ من السنين!.



لقد تقدّمت الإشارة منّا، لقولة سيدنا الوالد، التي ترى: أن البلاء جاء أبا طالب، لكونه أباً للامام عليٍّ... وأن حملة الدعاية والتشويه والتحريف، لم تكن لتوجّه ضده، لو كان أبا لغير عليٍّ، فهي لم توجّه إليه، إلا بالواسطة، وإلا فالغاية منها، هي: ابنه عليٌّ!.

وتجد بعض التحريف — حول هذه الآية — يسند هذا الرأي ويقوّيه: طلب معاوية من سمرق — كما قدّمنا في [على العتبة]^(٢) — أن يحرف آيةً ضدَّ عليٍّ، وآيةً لصالح ابن ملجم!.

ومقابلةً لذلك في أبي طالب، جاء مَنْ قال:

إن آية [إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ] في أبي طالب، فإن النبي (ص)، كان يجب إسلامه، فنزلت الآية؛ وكان يكره إسلام وحشي قاتل حمزة،

(١) الغدير ٢٢ : ٨ عن تفسير القرطبي ١٣ : ٢٩٩، والدر المنثور ٥ : ١٣٣.

(٢) ص ٣١، وما بعدها.

فنزله فيه :

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ - الآية (١) .

فلم يسلم أبو طالب، واسلم وحشياً (٢) .

وتأكيداً لمزعة هذا الرأي التفيه : أن يسند لابن عباس، حتى بين لنا مدى التناقض والتخيط .

وهو ليس سوى رأي، من بين تلك الآراء، التي توضع، لا تخدم سوى الغاية، التي وضعت من أجلها... ولا يهم واضعها بعد ذلك أن تنال من وما تنال، أو أن تتخطى من القيم ما تتخطى !.

فالرسول - على هذا الرأي ومثله - يخالف من أرسله، في إرادته، فيجب ما لا تحبه الإرادة الإلهية !. فالله سبحانه - وأستغفره - لم يرد إيمان أبي طالب، ولعله لعداء بينهما قديم، أو لعل سبب هذا العداء كفايته للرسول وتربيته، وحماية دينه، ودفاعه عن المؤمنين به !. ولكن الرسول أحب إيمانه - وفاءً له، طبعاً - فتعارضت الإرادتان، فغلبت الأقوى منهما، فمضت فيه إرادة الله، هذه الإرادة العدائية، التي لم تدعه يؤمن...!

أما وحشياً، فقد تعارضت إرادة المرسل والرسول - أيضاً - ولكنهما اختلفتا عن تينك . فالرسول لم يحب إيمان وحشياً، لأن وحشياً قتل عمه حمزة، فبقي الكره عميقاً، ونا الحقد مريزاً، في نفس الرسول، حتى كره له الإيمان...! ولكن المرسل عطف على هذا المسرف على نفسه، فاعتقر له دم حمزة المسفوح ظليماً، في الجهاد في سبيله، ولم يرع عاطفة رسوله الجموح، فأحب إيمان وحشياً...! وفي اصطراع الإرادتين، غلبت إرادة الله التي جعلت من وحشياً مؤمناً...!!!

(١) الزمر : ٥٣. (٢) مجمع البيان ٢٠٧، ٢٠٨ : ٢٠ .

وليتهم أضافوا : أن من تمام إيمانه ، إدامانه للخمرة ، يعاقرها ، حتى خالطت روحه ودمه ، فلا يكاد يكون منها في ساعة صحو ، حتى آخر رمق من حياته ، المليئة بالشكر والجرائم...! (١) .

وكيف يصح نزول هذه الآية ، في وحشي ، وهي عامة للمسلمين ، وقد نزلت بمكة ، ولم يتظاهر وحشي - الذي لم يفارقه معنى اسمه - بالإسلام ، إلا بعدها بسنين عدة...! (٢) .

وفي أشد من هذا... يقع من لا يحسب للمسؤولية وزناً ، فيساق وراء بهرج السراب ، أو يخط في مداهم الظلمة !

ميراث أبي طالب

من بين المفتريات ، في حق شيخ البطحاء : ما يفترونه بأن علياً وجعفرأ ، لم يأخذا من تركه أيهما شيئاً ، لأنهما مسلمان ، وأباهما كافراً...! (٣) .

ونحن لم نعرف سند الفرية ، حتى نكشف الستر ، عما خلفه ، من خزي ، وفضيحة...!

ولكن هذه الفرية ، لم يضعها ، غير جاهلٍ بشروط الميراث ، عند المسلمين . فكل ما لديه من العلم ، هو حديث : « لا توارث بين ملتين » .

ونحن نقول بصحة الحديث . ولكن معناه : إن الكافر ، لا يرث المسلم . وليس مانعاً أن يرث المسلم كافرأ ، لأن الاسلام يرفع المسلم . كما أشارت لذلك الأحاديث المتصلة بهذا الموضوع ، كقوله (ص)

(١) راجع [على العتبة] - ص ٥٩ - حيث أسندنا ذلك للإستيعاب ص ٦١ : ٣ .

(٢) مجمع البيان ١٦٤ : ٢٣ .

(٣) السيرة الحلبية ٧٤ : ١ .

وقد ذكرنا في : الحجة ٣٢ ، وشيخ الأبطح ٧٨ ، مع الرد عليه .

[الإسلام يعلو ، ولا يُعلى عليه] .

ومعنى « التوارث » لا يحصل ، إلا إذا كان ثمة تفاعلٌ - أي : أن يرث المسلمُ الكافرَ ، والكافرُ المسلمَ .

أما أن يرث المسلمُ الكافرَ فحسب ؛ فهو ليس من التوارث ، إذ ليس فيه شيءٌ من « التفاعل » .

ومن هنا... تجد أن الإسلام ، لا يبيح للكافر أن يتزوج المسلمة ، - وهي أرفع منه وأعلى - بينما يجيز بعض العلماء : أن يتزوج المسلمُ الكافرةَ الكتابية ، بالزواج الدائم . وقد أجمعت الشيعة على ذلك ، بالزواج المنقطع - في ما أعلم .

فلو سألنا صحة هذه الفرية - وليس لنا أن نسلّم بها - بعد أن رأينا الأصل الإسلامي ينقضها - فما هي بدليلٌ ، على كهر شيخ الأبطح ؛ إذ لعليّ وجعفر « المسلمَين » - اللذين لا أظنُّ من يشكُّ في إسلامهما ؟! - أن يرثا أباهما ، حتى لو كان كافراً - كما يزعم المفترون ! - تمشياً ، مع الأصل والنص الإسلامي .

ولكن واضح هذه الفرية - كما قلنا - جاهلٌ بالإسلام وقوانينه...!

حديث الضحاح

نرى أن تقدم للقاريء - أولاً - هذا الحديث ، في صوره التي وضعها الوضّاعون ، لنبدأ الحديث عنه ، بعدئذٍ :

- ١ -

عن عبيد الله بن عمر القواريري ، ومحمد بن أبي بكر المقدمي ، ومحمد

ابن عبد الملك الأموي ، قالوا : حدثنا أبو عوانة ، عن عبد الملك بن عمير ،
عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن العباس بن عبد المطلب ، أنه قال :
يا رسول الله ! هل نفعت أبا طالب بشيءٍ ، فإنه كان يحوطك ،
ويغضب لك ؟ .

قال : نعم ! هو في ضحضاحٍ من نارٍ ؛ ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل
من النار ! (١) .

- ٢ -

عن ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن عبد الملك بن عمير ، عن عبد الله
بن الحارث ، قال : سمعت العباس يقول : قلت : يا رسول الله ! إن أبا طالبٍ
كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك ؟ قال : نعم ! وجدته في غمراتٍ من
النار ، فأخرجته إلى ضحضاحٍ (٢) .

- ٣ ، ٤ -

عن محمد بن حاتم ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن سفيان - الخ (٣) .
عن أبي بكر بن أبي شيبة ، حدثنا وكيع عن سفيان ، كالحديث
الأول (٤) .

- ٥ -

عن قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث ، عن ابن الهاد ، عن عبد الله بن خباب ،

(١) و (٢) و (٣) و (٤) صحيح مسلم ١٣٤ ، ١٣٥ : ١١ [باب شفاعة النبي
لأبي طالب] الخ .

عن أبي سعيد الخدري : إن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب ، فقال : لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من نار ، يبلغ كعبه ، يغلي منه دماغه (١) .

- ٦ -

عن أبي بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا ثابت ، عن أبي عثمان النهدي ، عن ابن عباس : إن رسول الله قال : أهون أهل النار عذاباً : أبو طالب ، وهو منتعل بنطين ، يغلي ، منهما دماغه (٢) .

- ٧ -

عن مسدد ، حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثنا عبد الملك ، حدثنا عبد الله بن الحرث ، حدثنا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، قال : **للنهي** ﷺ : ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويفضلك ؟ قال : هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار (٣) .

- ٨ ، ٩ -

عن عبد الله بن يوسف ، عن الليث بن سعد ، في الحديث الخامس (٤) .

- (١) و (٢) صحيح مسلم ١٣٥ : ١ .
(٣) و (٤) صحيح البخاري ٢٠١ : ٢ [باب قصة أبي طالب] .

عن إبراهيم بن حمزة ، حدثنا ابن أبي حازم ، والدراوردي ، عن يزيد ،
بهذا - الحديث الخامس - وقال : تغلي منه أم دماغه (١) .

* *

الرواة :

والآن نضوف بهذه الحلقات ، التي جاءت بمثل هذا الحديث ، لتعرف
على مكانة الرواة ، من بين رجال الحديث ، وكفهم الشائلة ، في ميزان
الرجال :

- ١ -

تنظر في رواية الحديث الأول :

أ - لم نجد لعبيد الله القواريري أثراً في « الميزان » . وقد وقفنا على
حديث - في الغدير - من بين رواة عبيد الله هذا وقد عرض له المؤلف
بالتزييف . فقال عن عبيد الله :

[وفي الإسناد عبيد الله القواريري ، روى عنه البخاري خمسة أحاديث
فحسب ، ومسلم أربعين حديثاً ؛ وقد سمع منه أحمد بن يحيى مائة ألف
حديث - فما حكم ذلك الحوش الحائش مما جاء به القواريري بعدما لم يأخذ
البخاري ومسلم منه ، إلا عدة أحاديث ، وضرباً عن كل ذلك صفحاً ؟ ومن
المستبعد جداً عدم وقوفهما عليها] (٢) .

ب - وكذلك محمد بن أبي بكر المقدمي ، لم نجد له ذكراً ، سوى ذكر

(١) صحيح البخاري ٢٠١ : ١ .

(٢) الغدير ٢٩٥ : ٩ ، مسنداً ما ذكره ، تهذيب التهذيب ٧ : ٤١ .

لمحمد بن أبي بكر، بأنه مجهول^(١) .

وقد جاء في الغدير : حديث ، زَيْتَف هناك ، ومن رواه : محمد بن أبي بكر المقدمي^(٢) .

ج — أما محمد بن عبد الملك الأموي ، فيكفينا أن يكون أمويًا ، ليضع مثل هذا الحديث ، أو يروي ما يمثله ، في حق شيخ الأبطح .

وإن يكن هو محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، فيكفينا : أن يكون أبوه هذا الطاغية ، وجداه هذين الملعونين على لسان الرسول ، وهما الوزغان — في تعبيره (ص) — والحكم هو : الملعون ، وما أُنْتَجَ وهو طريد الرسول . ومروان ، ليس سوى فضضٍ مِنْ لعنة رسول الله — كما عبّرت السيدة عائشة .

وأما محمد هذا ، فقد قال عنه أبو داؤود : « لم يكن بمحكم العقل »^(٣)

د — ولندع أبا عوانة خفيًا في غموضه .

هـ — عبد الملك بن عمير : ولي قضاء الكوفة ، بعد الشُّعْبِي ، فطال عمره ، وساء حفظه — كما يقول الذهبي — وقد قال عنه أبو حاتم : ليس بحافظ ، تغيّر حفظه . وقال الإمام أحمد : ضعيفٌ يغلط . وقال ابن معين : مخلّط . وقال ابن خراش : كان شعبة لا يرضاه . وذكر الكوسج عن أحمد : أنه ضعيفٌ جدًا^(٤) . وقال ابن حبان : كان مدلسًا^(٥) .

ومن فضائل هذا القاضي السبيعي — وما أكثر بلايا الأمة — من قضاة السوء هؤلاء ! — أنه مر بعبد الله بن بقطر وقد ألقاه ابن زياد الطاغية ، من علالي

(١) ميزان الاعتدال ٩٦ : ٣ . (٢) الغدير ٢٧٠ : ٩ .

(٣) الميزان ٩٦ : ٣ . (٤) الميزان ١٥١ : ٢ .

(٥) دلائل الصدق ٤٥ : ١ — مع بعضٍ مِنَ الأقوال السابقة .

القصر ، وبه نَفَسٌ ، فأجهز عليه حضرة القاضي « الرحيم » بمديته (١) .

وهذه حادثة ، لهذا القاضي - وما هو سوى صورةٍ للقضاة البطل ، الذين يصدرون أحكامهم ، مستمدةً من العاطفة ، مسيرةً بالشهوة - فقد تقدمت له كلثم بنت سريج حين ما كان على قضاة الكوفة - وخاصة أهلها ، فما إن قضى لها عليهم ، حتى ظن في حكمه ، وحامت حوله الرِّيب والشبهات ، فانطلق لسان الشعر ، يجتد هذه التهم ، ويصور خطوطها ، فقال هذيل بن عبدالله الأشجعي :

أثاء وليد بالشهود يقودهم	على ما ادعى من صامت المال والخول
وجاءت إليه كلثم ، وكلامها	شفاء من الداء المخامر والخبل
فأدلى وليد عند ذاك بحقه ،	وكان وليد ذا مرأى وذا جدل
وكان لها دلٌ وعينٌ كحيلة	فأدلت بحسن الدل منها وبالكحل
ففتت القبطي حتى قضى لها	بغير قضاء الله في السور الطول
فلو كان من بالقصر يعلم علمه	لما استعمل القبطي فينا على عمل (٢)
له حين يقضي للنساء تخاوص	وكان وما فيه التخاوص والحول (٣)
إذا ذات دل كلمته بحاجة	فهم بأن يقضي تنحج أو سئل
وبرق عينيه ولاك لسانه	يرى كل شيء ما خلا شخصها جل (٤)

(١) أعيان الشيعة ص ٢٢٢ ج ١

(٢) عرف عبد الملك بن عمير ، بالقبطي ، لفرس له ، كان اسمه قبطي

- الميزان ١٥١ : ٢ .

(٣) تخاوص : غض من بصره وهو - مع ذلك يحقق النظر - وهو يعني

هنا : أنه يسارق النساء اللحظات المشبوهة .

(٤) الجلل من الأضداد . وهو - هنا - الهين اليسير .

ارجع للحادثة والشعر للبيان والتبيين ٣٧١ : ٣ .

- ٢ -

وننتقل لرواة الحديث الثاني :

- أ - تبدأ سلسلة الحديث ، حسب العادة ، بهذا الغامض : ابن أبي عمر؟ .
ب - وبعده سفيان الثوري ، وهو الذي سبق أن تعرفنا عليه ، في أول حديثنا ، عما حُرِّف في حق أبي طالب - فوجدناه كذاباً مدلساً^(١) .

- ٣ -

أما سلسلة الحديث الثالث ، فقد سبق أن وقفنا عند أفرادها ، كمحمد ابن حاتم ، ويحيى بن سعيد^(٢) وسفيان^(٣) .

- ٤ -

ويوافينا في الحديث الرابع :

- أ - أبو بكر بن أبي شيبة : عدّه الذهبي من مجاهيل الإسم^(٣) .
ب - ولسنا نعلم من وكيع هذا؟ .

فإن يكن هو وكيع بن الجراح . فقد قال ابن المديني : كان وكيع يلحن ، ولو حدثت بلفظه لكانت عجباً ، كان يقول : حدثنا الشعبي ، عن عائشة .
وسئل أحمد بن حنبل : إذا اختلف وكيع وعبد الرحمن بن مهدي ، بقول ، بمن نأخذ؟ فقال : عبد الرحمن يوافق أكثر ، وخاصة في سفيان -

(١) ص ٣٠٥ ٣٠٦ (٢) ص ٣٢٥

(٣) ميزان الاعتدال ٣٩٥ : ٣ .

والحديث هذا ، يُروى عن وكيع ، عن سفيان •
ورأى الذهبي أن يتم فيه حلقة التدح ، فقال فيه ، عن أبي المديني ، في
التهذيب : « كان فيه تشيعٌ قليلٌ » •

وهذه النعمة — مِنَ الذهبي — معروفة ، تعبر عن طائفته البغيضة
المقيبة... فهو إذا شاء أن يبالغ في قبحه لشخص ، نسبة للتشيع ، الذي هو
— لديه — فوق الكفر والزندقة •

ونحن لسنا في مجال حسابه عن هذا... ولكن من فمه أدينه •
فإذا كان ليس ثقةً ، لتشييعه — فلماذا يؤخذ منه حديث ، لو صحَّ تشيعه ،
لا تنفى عزو الحديث إليه ، لأنه يخالف عقيدته الحققة ، في شيخ الأبطح...؟
وعلى كلٍّ ، فنحن لا يهنا كونه شيعيًّا ، أم لم يكن • ولكن يهنا : أن
الرجل غير مقبول ، عند مَنْ يتشَبَّث بحديث الضحضاح !

— ٥ —

وهذا ما ضمه الحديث الخامس :

أ — قتيبة بن سعيد يقول عنه الذهبي^(١) : لا يدري من هو ؟^(١)
ب — الليث : هناك خفنة ، ليس بينهم سوى المجهول ، والضعيف ،
والمنكر ، ومضطرب الحديث — الخ •

فإن يكن هو الليث بن سعد — كما يقول صاحب شيخ الأبطح^(٢) — فقد
قال عنه يحيى بن معين : إنه كان يتساهل في الشيوخ والسماع • وذكره النباتي
في تذييله على الكامل^(٣) — وهو « كتاب في الضعفاء »^(٤) •

(١) الميزان ٣٤٥ : ٢ •
(٢) ص ٧٥ •
(٣) الميزان ٣٦١ : ١ •
(٤) شيخ الأبطح ٧٥ •

- ج - أما ابن الهاد - وهو : يزيد بن عبدالله بن الهاد - فقد أورده أبو عبدالله بن الحذاء ، في « باب مَنْ ذَكَرَ بِجَرْحٍ مِنْ رِجَالِ الْمُوطَأِ » .
 وقال عنه ابن معين : يروي عن كلِّ أحدٍ (١) .
 د - وأما عبدالله بن خباب ، فقد قال عنه الجوزجاني : لا يعرفونه (٢) .

- ٦ -

وفي الحديث السادس

- أ - أبو بكر بن أبي شيبة . وقد وقفنا عنده في رقم « ٤ » .
 ب - وَمَنْ عَفَانْ هَذَا ؟ .

والظاهر : إنه عفان بن مسلم ، حيث أن إسناده الحديث عنه ، لحماة بن سلمة ، ثابت ، يُوافق ما ذكره الذهبي مِنْ حديثه ، عنه ، في ترجمته له . وهو الذي قال ابن عديّ عنه ، بعد كلام : والله ! لو جهد جهده أن يضبط في شعبة حديثاً واحداً ، ما قدر . كان بطيئاً رديء الحفظ ، بطيء الفهم (٣) .
 وقال أبو خيثمة : أنكرنا عفان قبل موته بأيام (٤) .

- ج - حماد بن سلمة : له أوهام - كما يقول الذهبي - وقال ابن المديني : كان عند يحيى بن الضريس ، عن حماد ، عشرة آلاف حديث . وقال عمرو ابن سلمة : كتبتُ عن حماد بن سلمة ، بضعة عشر ألف حديث (٥) .
 هل رأيتَ هذه الكثرة ؟؟؟ فعند واحد عنه : عشرة آلاف ! وعند

(١) ميزان الاعتدال ٣١٤ : ٣ .

(٢) المصدر ٣٣ : ٢ .

(٣) المصدر ٢٠٢ : ٢ .

(٤) المصدر ٢٠٣ : ٢ .

(٥) ٢٧٧ : ١ .

الآخر : بضعة عشر ألف . ولا تسل : هل عند غيرهما ، مثل هذين الرقمين :
أم لا ؟ .

ثم إنهم قالوا : كان حماد بن سلسة ، لا يُعرف بهذه الأحاديث - أي :
التي في النصف - حتى خرج ، مرةً ، إلى عبادان ، فجاء وهو يرويه ، فلا
أحسب - أي : القائل - إلا شيطاناً خرج إليه من البحر ، فألقاها إليه . قال
ابن الثلجي : فسمعتُ عباد بن صهيب يقول : إن حماداً كان لا يحفظ ، وكانوا
يقولون : إنها [درست] في كتبه . وقد قيل : إن ابن أبي العوجاء كان ديبته ؛
فكان [يدرس] (١) في كتبه (٢)

ويكفيها لنقض تفضيل وتوثيق من ادعى ذلك له : أن الذهبي أورد له ، بعد
دفاعه ، عنه ، ومدحه له : أحاديث ، تكال الخالق العظيم نفسه ، إذ جسّمه ،
كأشبع وأقبح ما يكون التجسيم - تنزه الله سبحانه ، عما يفترون ، وتعالى
علواً كبيراً . . . !

فقد حدّث حماد هذا ، عن ثابت ، عن أنس : أن النبي ﷺ ،
قرأ : فلما تجلّى ربّه للجبل ، قال : أخرج طرف خصره ، وضرب على إبهامه ،
فساخ الجبل . فقال حميد الطويل لثابت : تُحدّث بمثل هذا ؟ قال : فضرب
في صدر حميد ، وقال : يقول أنس ، ويقول رسول الله ﷺ ، وأكسبه
أنا . . . ؟ رواه جماعة عن حماد ، وصحّحه الترمذي (٣)

فهل من قيمة - بعد هذا - لحديث يوصف بالصحة . . . ؟ وهل من حديثٍ
- بعد هذا - لا ينال مثل هذه الصفة . . . ؟ !
وحامد - أيضاً - هو الذي يروي مرفوعاً : رأيتُ ربّي - وهو ربّ

(١) كذا وجدناها . ولعل الصحة : دُسّت وندُسّ .

(٢) في الطبعة الأخرى : « ريبته » ، ولعلها الأصح ، أو الصحيحة .

وبهذا وجدناها مصححةً في طبعة جديدة ، لدار إحياء الكتب العربية بمصر ،

عام ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م . (٣) الميزان ٤٧٨ : ١ . (٤) الميزان ٥٧٨ : ١ .

حماد ، لا ربنا العظيم ! - جعداً أمرد ، عليه حلة خضراء...! وأنه رآه
في صورة شابٍّ أمرد ، دونه سترٌ من لؤلؤ قدميه ورجليه في خضرةٍ
[كذا!]^(١) .

حتى أن الذهبي ، نسي مدحه السالف فيه، فعقَّب على مثل هذه الأحاديث
بقوله :

[فهذا من أنكر ما أتى به حماد بن سلمة . وهذه الرؤية رؤية منام ، وإن
صحت]^(٢) .

ثم ذكر : إن ابن عديٍّ ساق لحماد جملةً، ممَّا ينفرده متناً ، أو إسناداً^(٣) .
وذكر : أن البخاري قد تحايدَه^(٤) - أي : لم يرو عنه شيئاً .
د - ثابت . لاندري من هذا ؟ . فهناك حفة بهذا الاسم ، فيهم :
الكذوب ، الضعيف المجهول ، ومنكر الحديث^(٥) . ولا ندري بمكانه ، من
بين هذه الصفات .

ولعله هو ثابت بن أبي ثابت - فيكون أخاً لحبيب بن أبي ثابت ، أول من
وقفنا عنده ، حول هذا التحريف والتزوير ، في حق شيخ الأبطح^(٦) . فإن
يكن هو - فقد عدّه الذهبي : مجهولاً^(٧) .

ولكنه - طبعاً - هو ما يروي عنه حماد بن سلمة . ويكفينا منه أن يتفق
مع حماد في الحديث السابق ، عن تجسيم الخالق الأعظم .
وإن كان ذلك الحديث من نكر حماد ، فإن المتجرىء على الله سبحانه ، لا
يرتدع عن عباده الذين اصطفى .
ه - أبو عثمان النهدي : ليس ممن يعرف^(٨) .

(١) و (٢) و (٣) الميزان ٢٢٨ : ١ .

(٤) المصدر ٢٧٩ : ١ . (٥) المصدر ١٦٨ - ١٧٢ : ١ . (٦) ص ٣٠٦ .

(٧) الميزان ١٦٨ : ١ - (٨) الميزان ٣٧٠ : ٣ .

- ٧ -

وقد ضمَّ الحديث السابع :

- أ - مسدد : لم نعرفه مَنْ هو ؟ . فما هناك - في الميزان - سوى المسدد بن عليٍّ ، وفيه تساهلٌ ^(١) . ولكن لا نعلم هل هو هذا ؟ أم غيره ؟ .
- ب - أما بقية السلسلة - وهي : يحيى ، وسفيان ، وعبد الملك - فقد وقفنا عند كلِّ واحدٍ منها ، وعرفنا قيمته بين الرجال .

- ٨ -

أما الحديث الثامن ، ففيه :

- أ - عبدالله بن يوسف . إن يكن هو : عبدالله بن يوسف التتيسي - كما يقول صاحب شيخ الأبطح ^(٢) - فقد عدَّه ابن عديٍّ ، في الكامل : في الضعفاء ^(٣) .

وإن يكن هو : عبدالله بن سليمان بن يوسف ، الذي يروي عن الليث وهو ما أظنه ، لأن الحديث الذي نحن بصدده ، قد رواه عبدالله ، عن الليث - فإنه ليس بمعتمد ^(٤) ، وفيه شيء ^(٥) . وقد رُوي له حديث في الفضائل ، أنكره الذهبي ^(٦) - وكذلك ينكره كلُّ ذي فكرٍ .

(١) الميزان ١٦٢ : ٣ . (٢) ص ٧٤ .

(٣) شيخ الأبطح ، والميزان ٨٩ : ٢ .

(٤) الميزان ٨٩ : ٢ . (٥) و (٦) الميزان ٤٢ : ٢ .

بـ وهكذا تتصل سلسلة الحديث بالليث، إلى آخر السلسلة ، التي عرضنا لها ، في الحديث الخامس .

- ٩ -

ونجد بين رواة الحديث التاسع :

- أ - إبراهيم بن حمزة . وندعه ، ما دمننا لم نقف عنه على أثرٍ .
ب - ابن أبي حازم ، واسمه : عبدالعزيز : لينه ابن سيد الناس ، كما ذكره ، قبله ، العقيلي في كتابه - ومجرى الكلام يدل على : أن الكتاب في الضعفاء - وهم يروونه : سمع من أبيه . وأما هذه الكتب التي عنده لغير أبيه ، فيقولون : إن كتب سليمان بن بلال صارت إليه ، ولا يدري بأني يدليها . وقال الفلاس : ما رأيت ابن مهدي حدث عن أبي حازم بحديث . وقال أحمد : لم يكن يعرف بطلب الحديث وقيل : إنه ضعيف إلا في حديث أبيه . وقال ابن المديني : كان حاتم بن إسماعيل يطعن عليه في أحاديث ، رواها عن أبيه ، قال لي حاتم : نهيت عنها ، فلم ينته (١) .
ج - الدراوردي ، وهو عبدالعزيز بن محمد (٢) ، قال عنه الإمام أحمد : إذا حدث من حفظه يهمل . ليس هو بشيء . وإذا حدث جاء ببواطيل . وقال أبو حاتم : لا يحتج به . وقال أبو زرعة : سيء الحفظ (٣) .
د - أما يزيد ، فلا ندري به من هو ؟ فإن يكن يزيد بن كيسان ، فقد عرفناه ممن لا يحتج به ، أو يعتمد عليه (٤) .

(١) الميزان ١٣٥ : ٢ .

(٢) شيخ الأبطح ٧٥ .

(٣) الميزان ١٣٧ ، ١٣٩ : ٢ .

(٤) ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

هذه الجولة ، التي قمنا بها في صفوف رواة الحديث ، لم تثقّر فينا مكاناً
لثقة ، لتقبل ما يروي هؤلاء ١٠٠٠ فإتنا وجدنا في كلّ سندٍ : حفنةً من
الكذبة ، الضعفاء والخبثاء - بله المجهولين ، والذين لم تقف عنهم
على أثرٍ !

ولو لم نجد في سلسلة الحديث ، إلا مغزاً في أحد رواته ، فحسب ،
لما اطمأنتنا إليه ، ولم تثق بما جاء به في أدنى الأمور ... فكيف بهذه السلسلة
المفككة ، والحديث حول إيمان رجلٍ ، نصر الاسلام ورعاه ١٩٠٠ !
على أن هناك جوانب أخرى تدعنا أن نطمئن لهذا الحديث ، وأن نضرب
به عرض الحدار ، حتى لو كان رواته من الثقة ... وكيف بهم ، وهم من المجاهيل
الكذبة ، والحديث من البواطيل ١٩٠٠ !
ويجدر بنا : أن نتناول بالعرض ، بعض جوانبه المنهارة :

- ١ -

هناك تضاربٌ في متن الحديث يختلف به المعنى ...
ففي بعض الروايات ، نجد الجواب المزعوم على الرسول (ص) ٥ هو :
[نعم ! هو في ضحضاحٍ من نارٍ • ولولا أنا ، لكان في الدرك الأسفل
من النار] •
وتفيدنا هذه الصورة : أن شفاعة الرسول معجلة له ، وأنها قد وقعت
فعلاً ... ويتضح ذلك أكثر ، في الحديث الثاني الذي جاء فيه :
[نعم ! وجدته في غمرات النار ، فأخرجته إلى ضحضاحٍ] •

ولا ندري لماذا لم يتم الرسول نعمته على عبته ، فيخرجه من النار ، بعد أن كانت له القوة والنفوذ ، على إخراجهم من غمرات النار ، فيدعه في هذا الضحضاح ، دون أن يتم نعمته... بل يدعها ناقصة مبتورة ، حتى ينضوي تحت خطاب المتنبي ، أخيراً :

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام...!

في حين أنه (ص) نسخة الكاملة للبشرية والإنسانية، وهو الذي بعث ليتم مكارم الأخلاق ، وهو الذي أدبه ربه ، فأحسن تأديبه...! أما بعض الصور الأخرى للحديث . فهي : « لعله تنفعه شفاعتي ، يوم القيامة » - الخ .

وهذه الصورة لا تحمل سوى الدعاء فاعلم ، كما يعبر النحويون ، تحصل معنى « الترجي » - فهو يرجو له الشفاعة ، فقد تناله ، وقد لا تناله... وإن قدر لها أن تناله ، فهي مؤجلة له ، إلى يوم القيامة ! وفي بعضها الآخر : أنه « أهون أهل النار عذاباً ، وهو منتعل بنعلين ، يغلي منهما دماغه » .

وهذا لا يشير إلى أنه كان أخف أهل النار عذاباً من أجل شفيعة شفع له ، أو لأنه أقل المعذبين استحقاقاً للعذاب... وكيف يجوز أن يكون الكافر أهون أهل النار عذاباً ؟ فهل الكافر أهون ذنباً من العاصي ، أو المذنب ، حتى يكون ذاك ، أهون عذاباً من هذا...؟! ثم هل هذا هو أهون عذاب أهل النار؟ وماذا فيه من الراحة والتخفيف ؟ وهل أعظم من هذا العذاب - نعوذ بالله منه ! - ولا سيما ما زيد فيها : « حتى يسيل - أي : دماغه - على قدميه » ؟ (١) .

(١) السيرة النبوية ٨٤ : ١ .

وهذا ما يتنافى ، وقول مَنْ عكّل هذا العذاب ، بأن الله سلّط العذاب على قدميه خاصة ، لتثبته إياهما على تلك الملة ، فيكون مَنْ مشاكلة الجزاء للعمل (١) .

فإن يكن العذاب على القدمين خاصةً فما بال دماغه يغلي؟ ولم يسيل حتى يتدفّق ، أو يتدفّق حتى يسيل؟ وهل الدماغ عينٌ لا تنضب ، كلما فاضت بما يتدفّق منها ، نبعٌ من الأعماق ما لا يجفُّ؟
اللهم ! إنا نعوذ بك من السخف والخرافات !

- ٢ -

وكيف يشفع الرسول لعمه ، وهو الذي لم يقرّ في قلبه الإيمان - كما يقولون - وقد نهى الرسول عن أقلّ من ذلك ، في ما رأينا من الآيات ، لأن الشفاعة فوق الموالاتة ، وفوق المودّة ، وفوق الرفق ، بدرجاتٍ ودرجاتٍ...؟
وهو - كما رأينا - منهيٌّ عما دونها ، فكيف عنها...؟ !

وهذه الشفاعة من الرسول لعمه - كما يقولون - ما الداعي لها؟ هل هو العمل ، الذي قام به، في نصرّة الرسول (ص) ، ومؤازرة الرسالة؟
فما الذي دفعه لهذا العمل؟ وما الذي دعا الرسول ، لقبول هذه اليد منه - إن كانت من كافرٍ! - وهو القائل ، في ما نقلناه عنه : « اللهم ! لا تجعل لفاجرٍ ، ولا لفاسقٍ » - الخ - وهل النسق ، إلا دون الكفر...؟

أقول: ما الذي دفع الرسول ، لأن يشفع لعمه ، فيخفف عنه العذاب - إن كان كافراً - وهناك آيات تنصّ على أن الكافر مخلّدٌ في النار ، لا تُرجى له رحمة الله ، ولا يُرجى له أن يُخفف عنه العذاب ، ولا تنفعه شفاعة الشافعين .

(١) السيرة النبوية ٨٤ : ١ . وقد نسب هذا الزعم للسهيلى في قوله متناقضة .

وهذه بعض تلك الآيات :

أ - خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١) .

ب - أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢) .

ج - وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ، وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكَرُوا بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ . وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يَتَّخِذَ مِنْهَا . أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبْسَلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شُرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٣) .

د - وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ ... فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤) .

هـ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ، لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٥) .

و - وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْمَةِ جَهَنَّمَ : ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ، قَالُوا : أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟

(١) البقرة : ١٦٢ وآل عمران : ٨٨ .

(٢) البقرة : ٨٦ (٣) الأنعام : ٧٠ .

(٤) النحل : ٨٥ (٥) فاطر : ٣٦ .

قَالُوا : بَلَىٰ . قَالُوا : فَادْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ^(١) .
 ز - فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ الْمُجْرِمِينَ : مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ
 قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ ، وَكُنَّا
 نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ، وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ، حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ
 فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ^(٢) .

ح - وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ، إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَافٍ مِنْهَا ،
 مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَیْمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ^(٣) .

ط - وجاء في الحديث : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم
 يقوم مؤذن بينهم : يا أهل النار ! لا موت ! . ويا أهل الجنة ! لا موت ! ،
 خلودٌ... ^(٤)

ي - وآخر جاء فيه : يُقال لأهل الجنة : خلودٌ لا موت ! . ولأهل
 النار : يا أهل النار ! خلودٌ لا موت ^(٥) .

فهذه الآيات - ومثلها ما في الحديث - كلها تنصُّ على تخليد الكافرين
 في العذاب المهين . وإن العذاب لا يخفف عن الكافر ، حتى ساعة من نهار ،
 لأن الشفاعة ليست ممَّا تناله .

(١) غافر : ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) المدثر : ٤٠ - ٤٨ .

(٣) غافر : ١٨ .

(٤) و (٥) صحيح البخاري ٨٤ : ٤ .

وهذا الحديث - بالإضافة إلى تناقض الرواة في متنه ، وتضاربها ، وإلى تعارضه مع صريح الآيات ، التي لا تجيز الشفاعة للكافر ، ولا يصله أثرها - يتعارض بالحديث الذي وضع في أبي طالب ، بخاصة ، حديث الاحتضار ، الذي ناقشناه : سنداً ، ومتناً .

فحديث الضحضاح ، وحديث الاحتضار ، يتناقضان ويتعارضان ، فهما على طرفي تقيض ، لا يمكن الأخذ بهما - حتى لو كانا عن طريق الثقة .

وبالرغم من هذا ، فإننا نجد بعض رجال حديث الاحتضار ، بين رجال حديث الضحضاح ، وفي صورته التي تفيد معجّل الشفاعة لأبي طالب . وهي أظهر تناقضاً ، وأصرح تعارضاً ، مع ذلك الحديث - فكيف جاز لهم رواية حديثين متعارضين : متناً ، ومعنى ؟

لقد نسي كلٌّ من : ابن أبي عمر ، ومحمد بن حاتم ، ويحيى بن سعيد . . . نسي هؤلاء عند روايتهم أحد الحديثين ، ما كانوا قد خلقوه من الحديث الأول . . . ونسي هؤلاء بأن على الكذاب : أن يكون على قسطٍ محترمٍ من الذاكرة ، لئلا يقع في مثل ما وقعوا فيه ، من الكذب المتناقض ، فتتضح غايتهم ودخلتهم السوداء . . . ! ولكن فهذه نهاية كل باطلٍ واقتراء .

لقد ذكروا - في حديث الاختصار - أن الرسول (ص) ، طلب من عمه كلمة - وهي الشهادة - له بها عند الله ، ويحتاجُ له بها عنده ، ويستحلُّ له بها الشفاعة^(١) ويقولون : إنه لم يقلها .

(١) الفدير ٣٧٠ ، ٣٧١ : ٧ - مسنداً لمصدرين - وص ٢٤ : ٨ عن ستة مصادر ، مع تصحيح الحاكم والذهبي له .

فهو - في هذا المحكي على لسان الرسول - قد علّق استحلال الشفاعة على النطق بالشهادة ، حيث لا يخلّ له ذلك بدونها... لذلك لم يقولوا فيه : إنه شفع له ، وإنما استغفر له ، حتى فهاه الله عنه ، وأعلمه بخطأ استغفاره - ذلك الوقت الطويل - رغم ما نزلت عليه من آيات ناهية فلم ينته بها...! ثم يقولون - هنا - إن الرسول شفع لعنه شفاعاً معجلة ، صدرت قبل نطقه بهذه القولة .

[نعم ! وجدته في غمرات من النار ، فأخرجته إلى الضحضاح] . فكيف شفع له - في هذا الحديث - إذا كان قد علّق الشفاعة على النطق بالشهادة ، وهو لم يتفوّه بها...؟ فهل قالها أبو طالب...؟ أم لم يقلها...؟

فإن لم يكن قد نطق بها - كما يقولون في حديث الاحتضار - فقد رأينا الشفاعة - أياً كان نوعها - لا تنال الكافر ، في الآيات التي ذكرنا بعضها ، حتى بتخفيف العذاب عنه...؟ كما أنها لا تناله بالذات ، على رأي أصحاب الحديث الأول ، الذي علّق الشفاعة على نطق تلك الكلمة وحلقة بعض الرواة فيهما واحدة .

وهو إن نطق بها، فإن مفهوم الكلام والحوار - في حديث الاحتضار - لا يقصر على تخفيف العذاب ، من الغمرات إلى الضحضاح...! وهل الرسول من البخل إلى هذا الحد ، بحيث لا يشفع لمن نصره ورباه ، وكفله ، إلا بتخفيف العذاب...؟!

وماذا خفف عليه من العذاب ، بعد فيض دماغه ، وتدفعه على قدميه...؟ وهو إن نطقها ، ولم يستحلّ الرسول له الشفاعة ، إلا بعد التفوّه بها...! فإن هذا الحديث في تحديده الشفاعة، بتخفيف العذاب - يتعارض مع بعض الأحاديث الأخرى ، الموجودة في الصحاح ، التي تعتبر الناطق بالشهادة ، من أهل الجنة لا من أهل النار :

« مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، دَخَلَ الْجَنَّةَ » (١) .
 [لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ يَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ] (٢) .
 ثم إن حديث الضحاح ، يتعارض — أيضاً — في تعجيله الشفاعة ،
 بأحاديث أخرى ، تتصل بموضوع الشفاعة ، ونرى من الخير استعراض جانب
 منها :

[قيل لي : سَلْ ، فَإِنْ كَانَ نَبِيٌّ قَدْ سَأَلَ . فَأَخَّرْتُ مَسْأَلَتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،
 فَهِيَ لَكُمْ لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ] (٣) .

فهذا الحديث يفيد : أن الشفاعة من الرسول ، لا تنال من لم يؤدِّ
 الشهادة . ومثله هذه الأحاديث :

[أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا] (٤) .
 [إِنْ شَفَاعَتِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ] (٥) .

[أَوْحَى اللَّهُ إِلَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنْ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَقُلْ لَهُ :
 ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ ، تَعْطَى ، وَاشْفَعْ ، تَشْفَعُ — إِلَى قَوْلِهِ : أَدْخِلْنِي أُمَّتَكَ مِنْ

(١) صحيح مسلم ٤١ : ١ — وفي الغدير ٦٤ ، ٦٥ : ٩ و ١١٩ ، ١٢٠ :
 ١٠ : بضعة من الأحاديث ، التي تتصل بهذا المعنى .

(٢) سير أعلام النبلاء ، ٢٩٥ : ٢ .

(٣) الغدير ٢٤ : ٨ ، عن الحافظ المنذري — في الترغيب والترهيب
 ص ١٥٠ — ١٥٨ : ٤ — من طريق عبد الله بن عمر . وقال : رواه أحمد بإسناد
 صحيح .

(٤) المصدر — عن أبي ذر ، قال : رواه البزار ، وإسناده جيد ، إلا أن
 فيه انقطاعاً .

(٥) المصدر ، عن عوف بن مالك الأشجعي ، وقال رواه الطبري
 بإسناده أحدها جيد .

خلق الله مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمًا واحداً مخلصاً ومات على ذلك ^(١) .
فالشفاعة — في هذه الأحاديث — لا ينالها ، إلا كُلُّ مَنْ لفظ الشهادة .
وهي وإن لم تحدّد الشفاعة ، إلا أنها تحتم علينا أن نرى ، ممّا تدلُّ عليه كلمة
« الشفاعة » : أن المشفوع له ، لا تمسه النار ولا سيما مع وجود الحديثين ،
الذين يوجبان الجنة ، ويحرمان النار ، على مَنْ تفوّه بالشهادة .

ثم إنها مؤجلة له ، إلى يوم القيامة ، حيث لم يسأل الرسول (ص) !
مسألته ، التي أمره الله أن يديها ، فأجلّها إلى يوم القيامة . فهو : « أول شافعٍ
ومشفّعٍ » ^(٢) .

فكيف شفع الرسول لعمه — وهو الكافر ، كما يدّعون — وهو الذي
لا يشفع إلا لِمَنْ أدّى الشهادة ، وأسلم مخلصاً...؟!
وكيف حدّدوا الشفاعة ، وهي مؤجلةٌ لذلك اليوم...؟!
إذن ... فهذا الحديث ليس متناقضاً ، مع حديث الآخر ، فقط ،
بل مع عتّة أحاديث أخرى .

وكفى بهذا التعارض والتناقض مسقطاً للحديثين المكذوبين ، حتى لو
لم تسقط رجالهما الكذبة في ميازين الرجال فكيف بهم من الكذبة والمدّسين ،
والتناقض صادرٌ من رواتقهم...؟



وهناك أحاديث ، من نوع آخر ، يجدر عرض جانب منها :

(١) المصدر عن أنس . وقال المنذري : رواه أحمد ، ورواته محتج بهم

في الصحيح .

(٢) صحيح مسلم ٥٩ : ٧ .

أ - يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب^(١) .

- وفي بعضها : « سبعون ألفاً ، أو سبعمائة ألف » - لا يدري أبو حازم^(٢) أيهما^(٣) وأبو حازم أحد رواة حديث الاختصار ...

ب - يُبعث من هذه المقبرة - البقيع الفرقد - سبعون ألفاً ، يدخلون الجنة بغير حساب^(٤) .

ج - ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً ، لا حساب عليهم ، ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفاً^(٥) .

د - إني وجدت ربي ماجداً كريماً ، أعطاني مع كل واحدٍ ، من السبعين الألف ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، سبعين ألفاً^(٥) .

إلى سلسلة طويلة ، من هذه الأحاديث ، ذات الأرقام الهائلة ، ولستنا نريد أن نشغل فكر القاريء ، بالإكثار منها ، فيروح يضرب السبعين

(١) صحيح مسلم ١٣٦ : ١ ، والبخاري ٤ : ٨٤ ، والغدير ٢٨٣ : ٥ - وفيها طائفة شبيهة بهذا .

(٢) صحيح مسلم ١٣٧ : ١ ، والبخاري ٤ : ٨٤ .

(٣) الغدير ٢٨٣ : ٥ مخرجاً عن الطبراني في الكبير ٤ : ١٣ . وفي الغدير أحاديث أخرى ، ترى دخول أعداد - كهذه - للجنة بغير حساب ، من بعض المدن الأخرى ، فمن بين حاطي حصص والزيتون سبعون ألفاً ، ومن ظهر الكوفة كذلك ، ومن حصص تمرن ألفاً .

(٤) الغدير - عن : أحمد ، والطبراني ، والبزار - وفيه ص ١٢٠ : ١٠ عن مجمع الزوائد ١٠ : ٤٠٥ - ١١ ، مثل هذا ، أيضاً .

(٥) الغدير ٢٨٣ : ٥ . وقال : أخرجه الطبراني بسندٍ ، رجاله رجال الصحيح ، غير شيخه .

الألف في السبعين الألف يرى ما سيصفه الحساب .
ولكن فهل استعرض واضع حديث الضحاح ، هؤلاء السبعين الألف ،
والسبعين الألف ، التي مع كل واحدٍ من أولئك السبعين الألف ١٠٠٠ ؟
هل دخل في هذه الزمرة الهائلة ، فلم يجد بينهم أباً طالب ، ودخل
النار ، فوجده في الضحاح ، يتدفق دماغه على قدميه ١٠٠٠ ؟
ونشير إلى : أننا لا نلتزم بكثيرٍ من هذه الأحاديث ، التي أتينا عليها ،
في ما تحدثنا به ، عن « حديث الضحاح » . وليس من موضوعنا تناولها ،
أو العرض لها .

وإنما رأينا : أن نحتاج بها واضع حديث الضحاح ، ليس إلا ١٠٠٠ .
وذلك أنها جميعها واردة في الصحاح ، وتستقي جميعها من مصدرٍ واحدٍ ،
وتلتقي عند أكثر من غرض ١٠٠٠ .
ونرى : أن نقف عند قولة رجلٍ من الأنصار ، كان آخر من أقامه
معاوية - من الخطباء - للعن عليّ « عليه السلام » يقال له : أنيس ، فحمد
الله وأثنى عليه ، ثم قال :

[إنكم قد أكثرتم - اليوم - في سبِّ هذا الرجل وشتمه ، وإنني أقسم
بالله ! إنني سمعتُ رسول الله (ص) يقول : لأشفع ، يوم القيامة ،
لأكثر ممّا على الأرض ، من مدرٍ وشجرٍ . وأقسم بالله ! ما أحدٌ أوصل لرحمه
منه ١٠٠٠ ، أفترّون شفاعته تصل إليكم ، وتعجز عن أهل بيته ١٠٠٠ ؟ (١)] .
يا لروعة هذه الكلمة ؟ حتى أنه لا يحلو معها قولٌ أو تعليقٌ ! .

(١) الفدير ٢٦١ : ١٠ عن أسد الغابة ١ : ١٣٤ . وذكر في الاصابة
٨٩ : ١ ، إلا أنه لم يشر فيها ، إلى أن معاوية ، هو المقيم لهذا اليوم ،
الأدكن . وأشار للحديث - الذي رواه أنيس عن الرسول (ص) - في الاستيعاب ١ : ٣٧

رأينا أن حديث الضحاح ، يفيد الشفاعة ، من الرسول لعه ، وهي :
إما أن تكون ، بعد أداء أبي طالب للشهادة ، فهي تنفي عنه النار ، لأحاديث
الشفاعة ، التي عرضنا لها .

وإما أن تكون للشفاعة له ، قبل أدائه الشهادة ، فهي ساقطة بما نوهت
به الآيات الشديدة .

إذا لحظنا أعمال أبي طالب ، وأقواله ... ولحظنا شهادات الرسول
وعترته ... ونظرنا سقوط ميزان الرواة للحديث ... رأينا ساقطة ...
بالإضافة إلى أنه يعارض صريح القرآن .

وحديث يعارض صريح القرآن حتى مع وثاقة الرواة - ليس له سوى
الجدار ، يُضفع به ، إن لم يمكن تأويله على محمل صحيح ... فكيف - مع
معارضة القرآن ، وسقوط الرواة - ثمة وفرة من الدلائل ، تناقضه وتحوه ،
وتجهر عليه !؟...

إن الحديث مسند للعباس - وحاشاه - وهو معارض بحديث
الاحتضار ، المتقول عن العباس - أيضاً - حيث جاء فيه : إنه سمع أبا طالب
- في نفسه الأخير - يردّد الشهادة ، التي أرادها الرسول ، منه ، ليستحل له
بها الشفاعة ، فقال له :

« لقد قال الكلمة ، التي أردتها منه » .
وقد قلنا ، في التعليق على حديث الاحتضار :

وإنَّ على مَنْ يقول بصحته : أن يأخذ به ، حتى نهايته ، وإلا فيرمي به بكامله ، لا أن يأخذ ما يحقق الشهوة ، ويترك ما ينافي الغرض ...
ثم إنَّ مَنْ يسلِّم بصحة الحديثين - الاحتضار ، والضحضاح - يقع في التعارض والتناقض بينهما ، حسب ما أشرنا لذلك في الرقم الثالث ، مِنْ هذا التعليق (١) .

وَمَنْ رفض أحدهما ، لزمه رفض الآخر ، لا تحساد بعض الرواة ، في الحديثين ... فَمَنْ يرفض منه حديث ، لا يتَّخذ منه آخر ...!

- ٦ -

كيف لا تصل شفاعة الرسول (ص) لعه ، بأن تأخذ بيده ، مِنْ ضحضاح النار ، إلى ظلال الجنة - بعد أن أخذ بيده مِنْ غمرات النار ، إلى الضحضاح ، كما يفترض - فيتم نعمته ، وهو القادر على التمام - ١٠٠! في الحين ، الذي نجد حديثاً ، في فضائل الخليفة عثمان ، يقول :

« ليدخلنَّ بشفاعة عثمان ، سبعون ألفاً - كلُّهم قد استوجبوا النار - الجنة بغير حساب » (٢) .

لاحظ هذا الرقم ، السبعين ألف ، الذي يكاد يسم هذه الأحاديث ، التي تريد إدخال هذا العدد الثابت للجنة ، بغير حساب ، مع أنهم يستوجبون النار ...!

ثم تتساءل : هل الخليفة أكرم عند الله ، مِنْ محمدٍ ...؟ ولم تكن للخليفة

(١) ص ٣٩٥ .

(٢) الصواعق ٦٥ ، الغدير ٢٤٨ : ٩ - عن « الفتوحات الإسلامية » لدحلان - وفي الغدير ، أيضاً ، ص ٣٠٣ : ٩ « انه يشفع في عدد بيعة ومضر » ! . وقد بسط الله ! .

هذه المنزلة - لو يصح الحديث!، وتحقق الأمان والرجاوات - إلا لدخوله في الإسلام، وصحبته لصاحب الرسالة...!

أقول: أليس للرسول من قيمة عند الله، تساوي واحداً، من سبعين ألفاً، من الكرامة والقيمة، التي للخليفة الثالث، عند الله...؟

أفلا يشفعه الله في عمه، إذا كان مستحقاً للنار - كما يفترون - وقد أسدى الرسول الأيدي الجسام، التي طوّق بها عنق كل مسلم، فدخله الجنة - في الحين الذي نجد ما يقول: إن الله مشفع عثمان في سبعين ألفاً، وكلهم قدر استوجبوا النار، فتشملهم رحمة الله، ويدخلهم الجنة... بشفاعته الخليفة... ولا تشمل هذه الرحمة الواسعة، بل تضيق عن نصر دينه وآزر رسالته، وكفل رسوله وتحوطه، فلا تنفعه شفاعته الرسول، إلا بتخفيف العذاب، فحسب...؟! وما هو هذا التخفيف المزعوم...؟!!

صحيح! إن أبا طالب ممن يدخل الجنة، باستحقاق عمله، وهو لا يحتاج أو يتوقف دخوله لها، على شفاعته شفيح، لأن عدالة الله تحتم بدخوله، جزاء عمله... وإلا فليمن الجنة، إن لم تكن لمثل أبي طالب...؟!!

أما الشفاعته، فهي لمن لا يستحق الجنة جزاء العمل، إذ لا يستحقها - حينذاك - بالعدالة، وإنما بالعفو والمغفرة، ولا يغفر الله لمن يشرك به - كذا قضت العدالة - ولكنه يغفر ما دون ذلك لمن يشاء - وكذا قضت المغفرة والعفو!.

وما مثل هذا الحديث - في أبي طالب - إلا يباعث البغض للرجال الخيّرين، والكفران بالقيم والإحسان...!

اللهم! إنا نعوذ بك أن ينسج البغض لأولائك، على أعيننا، غشاوة، نضل بها الصوى، ونعمى عن المنهاج الألب، والصراط الأقوم، ونخبط في مزالق الأخطار، ومهاوي الضلال...!

المؤمن

الإيمان : كلمة ، تعني — في اللغة — التصديق . فأمنتُ بقولك ، تعني :
إني صدقتُ به . وهي — بعد ذلك — كلمة ، خُصّصَتْ للإيمان ، الذي هو
ضد الكفر . فالمؤمن : ضدُّ الكافر !.

إذن... فكلّمة «إيمان» ، صارت ذات صبغةٍ دينيّةٍ ، لها تعريفها الخاص .
فالإيمان — بالتعريف الديني — هو : اعتقادٌ بالقلب ، وتصديقٌ باللسان ،
بما أنزل الله ، على رسوله الأعظم (ص) ، والمؤمن هو : الذي نجد فيه
توافر هذين الشرطين ، مع ما يترتب عليهما ، ممّا يتطلّبانه من القيام بالأركان .
أمّا الاعتقاد بالقلب ... فهذا شيءٌ ، ليس من سبيلٍ للعباد ، إلى معرفته .
فهو عائدٌ للخالق العظيم . إذ هو — وحده — العليم برواسب الضمير ، وعقيدة
الإنسان، المكنونة في الخفايا ...

ولكن الناس تحكم بالظواهر — ما دامت غير قادرةٍ ، على معرفة الباطن —
فمتى رأت ظاهراً إنساناً ، تلوح عليه لمحات الإيمان ، فليس لأحدٍ أن ينال
منه ، ويتناول عليه ... فإن من يفعل ذلك ، فإنه لمن المبهتين ، يُقام عليه
حدُّ القذف .

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ، لَسْتَ مُؤْمِنًا »^(١)

(١) النساء : ٩٤ .

فإن الله سبحانه ، قد نهى أن يقال للملقي بالسلام ، بأنه ليس بالمؤمن ...
فكيف بمن يقرء بالإيمان في كل لحظاته ، ويرعى بذرته الأولى ...
وإذا شاء إنسان أن يعرف إيمان شخص ، فإنه ليس بمستطيعه ، إلا أن
يعرف ذلك من أقوال الشخص ... فإنه - حينئذ - يحكم له بالإيمان، ويحكم
له بالجنة - أيضاً - إن كان الظاهر والباطن صورة واحدة ...

ويحكم له بالإيمان - أيضاً - إذا شهد له بذلك الرسول ، أو أحد الذين
توافر فيهم العصمة بالمعنى الدقيق عندنا - لأن الرسول لا ينطق عن
الهوى ، وإنما هو الوحي الذي يكشف له عن الواقع الرهين ... والمعصوم ،
يبلغ عن الرسول الموحى إليه ، فليس ثمة زيف أو تحريف ، ولا تخمين
أو حدس ، ولا يصدر عن هوى أو عاطفة ...

لذلك ... نستطيع الحكم بالبات ، بإيمان أبي طالب ، من الناحيتين .
فأقول أبي طالب كلها ، تشهد له بالإيمان ، ويتبعها ذلك العمل الصحيح ،
والجهاد السافر ... ويتبع هذا وذاك سبل من شهادات الرسول (ص)
والأئمة من آل محمد (ص)

وقد وقفنا على ثروة من أقواله ، المضخة بعطر الإيمان الصميم ،
وصفحات نواصع ، من جهاده الخالد ، الطويل الشاق ... وطائفة من
الشهادات ، تنطلق من فم الرسول الأقدس ، وعثرته الطاهرة ...



وقد نرى من الخير : أن تأتي - هنا - على شيء من أقواله ، التي تتصل
بهذا العنوان ...

إنه هو القائل :

ملك الناس ليس له شريك هو الوهاب والمبدئ المعيد

وَمَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ لَهُ بِحَقِّ سَ ، وَمَنْ فَوْقَ السَّمَاءِ لَهُ عِبِيدٌ (١)

فهذان البيتان ، هما شاهدا صدق ، على أن قائلهما مِنَ الموحِّدين للخالق العظيم ، توحيداً لا يخالطه شيءٌ مِنْ شركٍ ، أو ذرَّةٌ مِنْ جحودٍ ...
فهو يعبر عن الخالق بـ « ملك الناس » ، وهو تعبيرٌ إسلاميٌّ قرآنيٌّ :
« ملك الناس » (٢) . وهو ينفي عنه الشركة : « ليس له شريك » .

ثم يأتي بشيءٍ مِنْ صفاته عز وجل ... فهو : « الوهاب » ، الذي يده مفاتيح الأرزاق ، فيهب ويمنع ... وهو : « المبدئ » ، الذي بدأ الخلق ، ولم يك شيئاً ... وهو : « المعيد » ، الذي سيُعِيد ما خلق ، بعد الموت ...
فهو إقرارٌ باليوم الأكبر : يوم المعاد ، الذي يُنصب فيه ميزان العدالة ، حيث لا ظلم ، ولا بخل ، ولا حيف ...
ثم يقول — في البيت الثاني — إن جميع المخلوقات ، هي عبيدٌ لله ، سواءٌ مَنْ أظلمته السماء ، أو مَنْ كان فوقها ...

فهل التوحيد ، أكثر مِنْ هذا ...؟ وهل أبقى لقائلٍ أو مرتابٍ ، ذرَّةٌ مِنْ شكٍّ ، لم يجلبها لألاء اليقين ؟ ...
وهل تعبر قولتنا : « لا إله إلا الله » — في معناها التوحيدي — أكثر مما عبر هذان البيتان ...؟

* *

ويقول :

يا شاهدَ الله ! عليَّ فاشهدِ
إني على دينِ النبيِّ أحمدِ

(١) إيمان أبي طالب ٢٠ ، وديوان أبي طالب ١١ ، والخطبة ٨٠ ، وشيخ الأبطح ٨٥ .

(٢) الناس : ٢ .

مَنْ ضَلَّ فِي الدِّينِ ، فَإِنِّي مُهْتَدِيٌّ^(١)

فهو - هنا - يشهد على نفسه ، بأنه على دين ابن أخيه . ثم يقول : إن الذي لا يتبع هذا الدين ، ليس إلا تيهًا في الضلال . وإنه هو المهتدي ، حين اتبع هذا الدين القويم .

فبربك قل لي : أليست هذه لقولة ، أعظم أداءً مِنْ قولك : إني مسلمٌ ؟
فلو جاء لك مَنْ يقول : إني مسلمٌ - أليس قد حصن بها : دمه ، وماله ، وعرضه ، فكان كأحد المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ؟...

فما بالناس نجد إسلام هذا الصارخ ، بلاء فيه ، ليشهد عليه شاهد الله ، بأنه قد اهتدى ، بسنى دين ابن أخيه ، وتكر عليه ذلك ؟...

أليس سوى الضلال ، الذي يسدل على العيون ، بغشاوته ، فيضل عن الدين مَنْ يضلُّ ، ويهتدي مَنْ يهتدي ... ولكن الضالُّ ، وقد نظر للرجل الرشيد ، بمنظار نفسه ، يظن هداية ذلك : ضلالاً - وهو في الضلال ، ذلك الخبَّاط ؟



(١) النهج ٣١٥ : ٣ ، والحجة ٨١ ، وشيخ الأبطح ٨٠ .

وقد ذكرها المبرد - في كامله ص ٩١٩ : ٣ - على أنها مِنْ شعر أمير المؤمنين عليٍّ « عليه السلام » الذي لا اختلاف فيه ، وأنه كان يرددها . ولكنه حكم مرتجلاً ... ككثيرٍ مِنَ الأحكام المرتجلة ، التي يرمي بها المبرد ، في كامله . وقد يكون هذا الحكم ، جاء نتيجة ترديد عليٍّ « عليه السلام » لها ، وهو شيءٌ منتظرٌ ومعقولٌ ، مِنْ عدَّة نواحٍ :

بعضها : يتصل بموضوع الشعر ، الناطق بصريح الإيمان ، والمعبّر عن كامن العقيدة ... وبعضها : يتصل بتجديد ذكرى الوالد الحبيب ، الناطق بهذا الشعر الإيماني الصريح .

ومن شعره :

لقد أكرم الله النبي محمداً فأكرم خلق الله في الناس أحماً
وشق له من اسمه ، ليجلله فذو العرش محمود ، وهذا محمد (١)
فهذان البيتان ، فيهما الشيء الكثير ، من التوحيد ، والإقرار بالنبوة ،
للسول الأعظم (ص)

أما ما يتعلق بالإقرار بنبوة الرسول... فهناك جانب كبير . وقد وجدنا
منه الشيء الكثير ، في مأمرة بنا ، بين تضاعيف هذا الكتاب .
ولكن فهذه خفنة ، من بيتٍ وبيتٍ ، وقد يكون من بينها ما قدّمناه
للقارئ ، في ماضى من الفصول :

انت الرسول ، رسول الله نعلمه عليك تزل من ذي العزة الكتب

ألم تعلموا : أننا وجدنا محمداً نبياً ، كموسى ، صح ذلك في الكتب !

أنت ابن آمنة النبي محمداً الخ ... الخ
نبي أتاه الوحي من عند ربه الخ ... الخ
أنت النبي محمداً الخ ... الخ

ألا إن أحمد قد جاءهم بحق ، ولم يأتهم بالكذب
أو يؤمنوا بكتاب منزل عجب على نبي ، كموسى ، أو كذبي النون
لقد علموا : أن ابننا لا مكذب لدينا ، ولا نعبأ بقول الأباطيل
ومما يثير السخرية ، ولكنه ما يكشف ، عن سوء النية : أن القرافي
يقول بعد هذا البيت :

(١) النهج ٣١٥ : ٣ ، والحجة ٧٥ ، ومعجم القبور ١٩٧ : ١ ، والفدير
٣٣٥ : ٧ ، وديوان أبي طالب ١٢ ، والأعيان ١٤٧ : ٣٩ .

(تصريح باللسان ، واعتقاد بالجنان ، غير أنه لم يدعن) (١) .
وأنا لا أعلم هل عند هذا الغرض ، تعريف آخر للإيمان ؟... أم أن
الشعور الباطن ، أو تداعي الخواطر ، هو الذي دعاه لأن ينحرف عن المسلك
الأقوم... ؟

* *

هذه حفنة ، وإلى جانبها حفنات وحفنات... وكلها اعتراف سافر
بالرسالة المحمدية... وكلها دعاية لرسالته... وكلها تدل على التبعية منه ،
لابن أخيه...

وفي هذه التبعية ، منه لابن أخيه ، وهذا الإطراء له : أعظم شاهد ، وأكبر
دليل على إيمانه برسالته...

والإفما الذي يدعو ، وهو الزعيم المسود ، وشيخ مكة ، وسيد
قريش : أن يتصاغر أمام ابن أخيه ، هذا اليتيم ، الذي في كنفه ربي ، وتحت
جناحه ترعرع ، وبعطفه ورعايته صلب منه العود...؟! فهو منه كالولد ، أو
الحفيد... فهو لا يعدو التابع له — على أي التقديرين .

فما الذي يدعو — لولا الإيمان برسالته — أن يسوده عليه ، ويتصاغر
أمامه ، ويدعوه : « سيدي ! » في ما رأينا — ويخاطبه بهذا المديح ، وهذه
العبارات ، التي تحمل التقدير والتعظيم ، والإكبار والتقديس...؟!

فلو لم يكن هو الإيمان ، لما تصاغر له ، حتى أصبح أمامه — وهو :
المتبوع ، والسيد ، والزعيم — كأحد التابعين للرسول...!
اللعنومة والرحم... ؟

فلماذا لا يقف أبو لهب ، بعض هذا الموقف ، ولا نسمع منه ، حتى بعض

(١) السيرة النبوية ٨٥ : ١ .

المقاطع ، مِنْ مثل هذا الفيض، مِنْ أَبِي طالب... بل لا نسمع منه ، سوى الموقف البغيض ، والكلام الدنيء ؟!

وهل عاطفة الرحم ، بالتّي تقف أمام العاطفة الدينية ، وهي التي تبتّ بحديد شفرتها ، كلّ العواطف الأخرى، ولا يقف في وجهها شيء ، مهما طغى، وصلب ، واشتد...؟

وقد رأينا كيف تكتسح العاطفة الدينية، عاطفة الأبوة والبنوة ، كموقف عبد الله بن عبد الله بن أبي ، كموقف عدي بن حاتم ، مِنْ ابنه زيد، حيث شاء أن يسلمه بيده ، إلى يد مَنْ يقتض منه ... ولما أفلت منه ، شيعه بوابلٍ مِنْ الدعاء الحار ، لأن يرميه الله ، بما يقصف منه الحياة... وغيرها كثير ...

فالعاطفة الدينية - ولا سيما عند مثل هذا الشيخ الزعيم - ليست بالتّي تضمحل وتتلاشى ، في قرارة شيخ الأبطح ، حتى يتناسى وجودها... فينصر ابن أخيه ، فحسب - وابن أخيه، هو : الداعي لدين غير الدين ، الذي ينسبه المغرضون لشيخ البطحاء ... بل هو ثورة ومحول ، يهدّ مِنْ الدّين المزعوم ، أسسه المنهارة ...

إن هذا شيءٌ ، لا يقرّ في قلبٍ ، يسيره قليلٌ مِنْ عقلٍ !

* *

فهل العاطفة النسبية - وحدها - هي التي دعت أبا طالب أن يزجي للرسول هذه الآيات ، مِنْ المدح والإطراء ، وهذه الأقوال والدعايات... لكسب الصفوف إلى جانبه ، والحضّ على اتباعه ونصرته :

أعوذُ بِرَبِّ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ عَلَيْنَا بِسُوءٍ ، أَوْ يُلَوِّحُ بِسَاطِلٍ (١)
وَمِنْ فَاجِرٍ يَغْتَابُنَا بِمُغِيْبَةٍ وَمِنْ مُلْحِقٍ فِي الدِّينِ مَا لَمْ نَحْوَِلِ (٢)

(١) في السيرة : ملح - بدل : يلوح .

(٢) في السيرة : [وَمِنْ كَاشِحٍ يَسْعَى لَنَا بِمُغِيْبَةٍ] .

كذبتم - وبيت الله انبى محمداً
ونسلمه ، حتى نصرع حوله ...
وحتى فرى ذا الردع ، يركب ردعه
وينهض قوم في الحديد - إليكم
وإننا - وبيت الله - إن جد ما أرى
بكل فتى ، مثل الشهاب ، سميع
وما ترك قوم لا أبا لك ! - سيداً
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
يلوذ به الهلاك من آل هاشم
وميزان صدق ، لا يخس شعيرة

ولما نطاعن دونه ، وتناضل^(١)
ونذهل عن أبنائنا والحلائل^(٢)
من الطعن ، فعل الأتكت المتحصل^(٣)
نهوض الروايا ، من طريق جلاجل^(٤)
لتلبس أسيفنا بالأمائل^(٥)
أخي ثقة ، عند الحفيظة باسل^(٦)
يحوط الذمار ، غير نكس مواكل^(٧)
نمال النامي ، عصاة للأرامل
فهم - عنده - في نعمة وفواضل
ووزان صدق ، وزنه غير عائل^(٧)

- (١) نبزى محمداً : تسلبه وتقهري عليه .
(٢) ركب البعير ردعه : إذا سقط فدخل عنقه في جوفه . وفي السيرة : الضغن ، بدل الردع .
(٣) الروايا - جمع راوية : الدابة يستسقى عليها . جلاجل - ويروى : حلاحل - موضع على الأظهر . ويروى : « تحت ذات الصلاصل » . وهي : المزادات ، لها صوت من بقية الماء ، حين مسير الإبل .
(٤) في السيرة : « وإننا - لعمر الله ! - إن جد ما أرى » .
(٥) السميع : السيد . وفي السيرة : « حامي الحقيقة باسل » .
(٦) الذمار : ما يلزمك أن تحميه . النكس : الدنيء الذي لا خير فيه .
المواكل : الذي يكل أمره لغيره ، حيث لا جد عنده . وفي رواية : ذرب .
والذرب - محرراً - بذاء اللسان ، والمرض الذي لا يبرأ .
(٧) خاس بالعهد : نكث وعذر . وبالوعد : أخلف . عال في الميزان : خان . عال الميزان : نقص .

أَلَمْ تَعْلَمُوا : أَنْ ابْنَنَا لَا مَكْذِبَ
لِعَمْرِي ! لَقَدْ كُنْتُ وَجْدًا بِأَحْمَدٍ
وَوَجَدْتُ بِنَفْسِي دَوْنَهُ ، فَحَسِبْتُ
فَلَا زَالَ لِلدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا ،
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤْمِلٍ
حَلِيمٍ ، رَشِيدٍ ، عَادِلٍ غَيْرِ طَائِشٍ
وَأَيُّدُهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ

لَدِينَا ، وَلَا نَعْبَأُ بِقَوْلِ الْبَاطِلِ (٢)
وَأَحْبَبْتُ حُبَّ الْجَبْرِ الْمَوَاصِلِ
وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذَّرَى وَالْكُوَاهِلِ (٣)
وَشِينًا لِمَنْ عَادَى ، وَزَيْنَ الْمُحَافِلِ
إِذَا قَامَتِ الْحُكَامُ ، عِنْدَ التَّفَاضُلِ
يُوَالِي الْإِلَهَا ، لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلٍ
وَأَغْلَهُ دِينًا ، حَقُّهُ غَيْرُ بَاطِلٍ (٣)

✱ ✱

→ وَيُرْوَى هَذَا الْبَيْتُ ، بِهَذِهِ الصُّورَةِ .

بِمِيزَانٍ قَاطِرٍ لَا يَخْشُ شَعِيرَةً
وَخَشَّ فِي الْوِزْنِ : تَقْصُ • يَرِيدُ : أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ الْحَقُّ ، وَلَا بِمِقْدَارِ
شَعِيرَةٍ ، وَهِيَ أَدْنَى مَا تَكُونُ •

(١) يَرْوَى : لَقَدْ عَلِمُوا ... الْخ ، وَلَا يُعْنَى ... الْخ •

(٢) الذَّرَى — جَمْعُ ذَرَّةٍ : الْعَلَوُ ، وَالْمَكَانُ الْمَرْتَفِعُ • وَالْكُوَاهِلُ — جَمْعُ
كَاهِلٍ : أَعْلَى الظَّهْرِ ، مِمَّا يَلِي الْعُنُقَ •

(٣) النَّهْجُ ٣١٥ ، ٣١٦ : ٣ ، وَدِيَّانُ أَبِي طَالِبٍ ١ — وَإِيْمَانُ أَبِي طَالِبٍ
٨٦ ، وَالْحَجَّةُ ٨١ — ٩٥ ، وَالسَّيْرَةُ الْمَشَامِيَّةُ ٢٩١ — ٢٩٩ : ١ ، فِي ٩٤ يَتَأ •
وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ : « وَهَذَا مَا صَحَّ لِي مِنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ » • وَشَيْخُ الْأَبْطَحِ
٣٤ ، ٣٥ ، وَهَاشِمُ وَأُمِيَّةُ ١٧٤ ، ١٧٥ ، وَالْغَدِيرُ ٣٣٨ — ٣٤٠ : ٧ ، وَالْأَعْيَانُ
١٤٩ ، ١٥٠ : ٣٩ •

وَقَدْ اقْتَصَرْنَا — مِنْهَا — عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَهِيَ — هُنَا — غَيْرُ مُتَّصِلَةٍ
عَلَى أَنَّ هُنَاكَ بَعْضُ اخْتِلَافٍ — بَيْنَ الرِّوَايَاتِ — فِي بَعْضِ الْكَلِمَاتِ ؛
وَقَدْ أَشْرَفْنَا لِبَعْضِهَا •

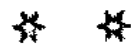
ولا نريد : أن نقف عند هذه الرائعة ، فنتناول على روعتها ، إذا تناولناها بيسطٍ ، أو عرضٍ ، أو تحليلٍ... فليأخذ القاريء منها ما يستطيع ، فإنها لسوف تأخذ بمجامع قلبه ، وتدع فيه أثراً ، بعيداً كل البعد ، عميقاً كل العمق... ففيها من : الطراوة ، والقوة ، والعذوبة ، ما تأتسر به القلوب... وهو ليس بالذي يقول القول فحسب ! ولكن القول مدغمٌ بالعمل... فقد حاط الرسول ونصره ، ورعى الإسلام وحماه ، عالم يستطع جحدانه ، حتى العدو البهائم ، الذي وضع في حقه : تلك الأراجيف المبطلة...!



فخلاصة القول : في إيمان أبي طالب :

إن إيمانه من الثبوت ، بحيث لا يحتاج إلى سق دليل... اللهم ! إلا كما تؤكد لمن افتقد الباصرة : بأن الشمس تحب في كبد السماء ، وأنها ترسل الشعاع النير ، وأن النهار مبصر... وما إلى ذلك من الأشياء المستطيلة ، القائمة بنفسها - كما يقول أبو الطيب - التي لا تحتاج إلى سوق دليل...

ولكن ، فيرهن لنا على إيمانه : هذه الأقوال ، التي يرسلها من فيه ، وكلها تنضح بالتوحيد ، والإقرار بالرسالة... وهذا الجهاد الموصول ، الذي قام به ، فقام الإسلام... وهذه الشهادات من : الرسول وآله ، المطهرين بنص الكتاب - إذا كنا مسلمين... - ومن الصحابة ، الذين لم ينحرفوا عن المنهج ، ولم تعم الأضراس منهم القلوب...



ولأجل ذلك ، وقد قامت الدلائل والبراهين على إيمانه... فقد جازمت به الشيعة - وليس لها إلا ذلك - وقالت به ، قولاً لا تخالجه الريية ، ولا يعتوره الشك... وأجمعت عليه ، فلم يشذ منها واحد ، إذ أن الشاذ منها ، عن هذا القول ، ليس بشيعي ، بعد أن جاء ما يدعم إيمانه من أقوال

الأئمة ، مَنْ تدين الشيعة لله بإمامتهم ، ولا سيما قوله الإمام الرضا « عليه السلام » — في ما سرّ بنا عند « ذكر عطر » (١) — فالتشيع ، والقول بكفر أبي طالب ، لا يجتمعان : لأن القول به : تكذيب للأئمة ، الذين يقولون برجحان إمامته ؟ وكيف يكون شيعياً ، مَنْ يخالف أئمة المذهب ؟ .

لذلك فإن إيمان أبي طالب ، يُعتبر مِنْ الضرورات المذهبية .

وتبع الشيعة الإمامية في قولها : الأكثر مِنْ الزيدية (٢) . وقال بهذا القول بعض الأكابر ، مِنْ المعتزلة (٣) . ومنهم : الشيخ أبو القاسم البلخي ، وأبو جعفر الإسكافي (٤) .

كما أن كثيراً مِنْ الأولياء ، العارفين أرباب الكشف ، قد ثبت عندهم إسلامه (٥) ، وقالوا بنجاته . منهم : القرطبي ، والسبكي ، والشعراني ، وخلائق كثير ، وقالوا : هذا الذي نعتقده ، وندين الله به (٦) .

وقد قال الإمام أحمد بن الحسين الموصلي الحنفي ، المشهور بابن وحشي : « إن بغض أبي طالب كره » (٧) ، كما نصّ على ذلك الأجهوري في فتاويه ، وهو مِنْ الأئمة المالكية (٨) .

(١) ص ٢٦٤ .

(٢) و (٣) الشرح الحليدي ٣١٠ : ٣ ، وشيخ الأبطح ٥٥ ، وأعيان الشيعة ١٣٥ : ٣٩ .

(٤) النهج ٣١٠ : ٣ ، والأعيان ١٣٥ : ٣٩ .

(٥) السيرة النبوية ٨٧ : ١ ، والغدير ٣٨٢ : ٧ ، والأعيان ١٣٥ : ٣٩ .

(٦) الغدير ٣٨٣ : ٧ .

(٧) المصدر ٣٨٢ : ٧ ، عن شرحه على « شهاب الأخبار » لمحمد بن سلامة

القضاعي .

(٨) المصدر ٣٨٢ : ٧ .

وقال التلمساني ، عند ذكر أبي طالب : لا ينبغي أن يُذكر إلا بحماية النبي ، لأنه حماء ونصره ، بقوله وفعله ، وفي ذكره بمكرهه أذية للنبي (ص) ، ومؤذي النبي كافر ، والكافر يُقتل (١) .

وقال أبو طاهر : مَنْ أبغض أبا طالب فهو كافر (٢) .

وقال دحلان : فقول هؤلاء الأئمة بنجاسته أسلم للعبد عند الله تعالى ، لا سيما مع قيام هذه الدلائل والبراهين ، التي أثبتتها البرزنجي (٣) .

وللسيوطي - في هذا الموضوع - كتابٌ بعنوان : « بغية الطالب لإيمان أبي طالب » (٤) ، ويكفيها عنوان كتابه ، لنستشف رأيه ، مِنْ بين سطورهِ .

ولزني دحلان كتاب « اسنى المطالب » . وقد أشرنا له في فصلٍ سابقٍ .

ولسنا نريد أن نتقصى المؤلفين ، في هذا الموضوع ، وأسماء كتبهم ، وهي مِنْ الكثرة ، بحيث لا تحصى .



أما القائل بكفره - وأستغفر الله ! - وهو : بين مَنْ تعامى عن الحق ، فوضع تلك التهم ، وافترى ذلك الكذب ، وقال ذلك الزور ، وتقاضى على ذلك أجره العاجل ، ليتبوا مقاعد مِنْ النار ، في جهنم ، فيعرف - حينذاك -
« الدرك الأسفل مِنْ النار » لِمَنْ...؟

وبين مَنْ جاء ، وقد رأى هذا الزور ، فلم يهتد للجواب المنهارة منه ، ولم يكشف عنه الغطاء المسدول ... ولو كشفه لكشف عن جيفةٍ منتنةٍ ...

وقد رأينا ذلك ، بعد ما كشفناه في الفصل السابق ... فلم تبقَ للقائل بكفره - وأستغفر الله ! - حجةٌ عليها يتمد ، أو ركيذة عليها يعتضد ...

(١) و (٢) الغدير ٣٨٢ : ٧ (٣) المصدر ٣٨٣ : ٧ (٤) المصدر ٣٨٤ : ٧ .

وقد أشرنا - في الهامش ١ ، ص ٣٦٢ - إلى تجانف السيوطي ، على أبي طالب ، في كتبه عن آباء النبي (ص) . ولعلّ هذا مثل ما وقع لدحلان ، في السيرة النبوية ، حيث تناقض في ما بين الكتابين

وإن العجب ليأخذ منك غايته : أن نجد إسلام وإيمان أبي طالب — والشواهد تعضد ذلك ، والدلائل تقوم عليه ، والبراهين تسفر عنه ، في الحين الذي نجد مثل هذا الحديث :

عن الشريد ، قال : ردف رسول الله ﷺ — يوماً ، فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت : نعم . قال : هيه . فأشدته بيتاً . فقال : هيه ! ثم أنشدته بيتاً . فقال : هيه ! حتى أنشدته مئة بيت . فقال : إن كاد ليسلم ! . أو قال : فلقد كاد يسلم في شعره ! (١) .

وهذا زيد بن عمرو ، وقد خرج يطلب الحنفية دين إبراهيم ، حتى أخذ طريقه إلى الشام ، ومنها إلى مكة . ولكنه مات في طريقه إليها ، فيروون عن عائشة : أن الرسول ، قال : دخلت الجنة ، فوجدت لزيد بن عمرو دوحين (٢) .

ويروون : أن سعيداً بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعمر بن الخطاب — وهو ابن عمه — قالوا لرسول الله (ص) : « استغفر لزيد بن عمرو ! » . قال : « نعم ! فإنه يبعث أمة وحده ! » (٣) .

ويروون عنه (ص) قوله : رحم الله قسّاً — قس بن ساعدق يحشر يوم القيامة ، أمة واحدة ، أو وحده ! (٤) .
فما هذا التناقض !؟

-
- (١) صحيح مسلم ٤٨ ، ٤٩ : ١ .
(٢) السيرة النبوية ٩٦ : ١ .
(٣) على هامش السيرة ١٣٦ : ١ — عن ابن إسحاق — وأشير إليه ، في السيرة النبوية ٧٣ و ٧٦ و ٩٥ : ١ .
(٤) البحار ٥٧ : ٦ ، وفي السيرة النبوية ٧٣ و ٧٦ : ١ ، ما يماثله . . . كما أن في مروج الذهب ٦٩ ، ٧٠ : ١ ، إشارة لذلك ، في قصة طويلة .

وما بال كرم الرسول - وهو معدن الجود والسخاء يتدفق هنا ،
على البُعداء ، الذين لم تمتدَّ منهم إليه يدٌ بمعروفٍ ، وتنقبض يده ، عن أن
تمتدَّ ، ليردَّ على أبي طالب شيئاً من أياديه الحسان ، ويجازيه بالإحسان
إحساناً ، وقد أمره الله بذلك :

« هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ؟ » (١) .

فلا يجازيه بالإحسان ، إلا سوءاً - وحاشا الرسول الأعظم !

* *

بعد هذا... نجد : أن أقلَّ ما ينتج عن بهت أبي طالب بالكفر : أنه
إيذاء للرسول الأقدس (ص) ... وكفى بهذا ذنباً عظيماً ، وجريمةً
لا تُغتفر :

[وَالَّذِينَ يَتُودُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] (٢) .

[وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ] (٣) .

[إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَعَدَّ

لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا] .

ومن هنا... رأينا التلساني ، كيف أشار لذلك ، في ما قاله عن
أبي طالب - كما وقفنا عنده ، قبل سطورٍ - إذ حكم بقتل القائل بكفر
شيخ الأبطح ، لأنه إيذاء للرسول ، ومؤذي النبي يجب قتله ، فالقاتل بكفره
يجب قتله !

وقتل مؤذي النبي ، مسألة يكاد يجمع عليها المسلمون ، لصريح الآيات ،

(٢) التوبة ٦١ .

(١) الرحمن ٦٠ .

(٤) الاحزاب ٥٧ .

(٣) الاحزاب ٥٣ .

بتخليد مؤذيه في النار .

وليس أذىً لرسول الله ، كأذى النيل من عمه ونصيره ، يهته بالكفر ، وهو المؤمن العتيق ، والنصير الفذ .

وإذا كانوا يقولون : إن سبيعة بنت أبي لهب — تبّت يداه — جاءت للرسول شاكية ، من قول الناس لها : أنت بنت حطب النار !... — وبذلك وصف القرآن أمها المعينة ، وأباها المنكود فيقوم الرسول ، وهو مغضب ، ليصيح بهم :

« ما بال أقوام يؤذونني في قرابتي ؟! من آذاني ، فقد آذى الله ! » (١) .

وأى قرابة ، بقيت له ، مع أبي لهب ، هذا الذي بتّ كل قرابة ، وقطع كل وشيجة ، ووتر كل صلة...؟

وإذا كانوا يروون عن الرسول : لا تسبوا الأموات ، فتؤذوا الأحياء (٢) .

وبذلك حكموا : « أن أذى النبي كفرٌ يقتل فاعله ، إن لم يتب » (٣) .

ورأت المالكية قتله ، وإن تاب (٤) .

إذا كان هذا كله... أفليس بهت أبي طالب بالكفر أذىً للنبي — على أقل تقدير — وكفى به ذنباً ، يُحكم بقتل مرتكبه — عقاباً دنيوياً — وتعذيبه بالعذاب الأليم الممين — عقاباً أخروياً — ولعنة الله تلاحق ظلّه في الدنيا والآخرة !...

ومن أجل هذا... قال السيوطي ، حول أبوي الرسول ، في مادار حولهما من بهت ، كان نصيبهما منه ، كالسهم الخاطيء عن القصد ، إذ الهدف هو : عليّ في شخص آيه... فكان أن أخطأ ، فأصاب الرسول في شخص أبويه :

(١) السيرة النبوية ٧٧ : ١ ، عن ابن مندة .

(٢) السيرة النبوية ٧٧ : ١ مروياً عن الطبراني ، واحمد ، والترمذي .

(٣) و (٤) المصدر .

عبد الله وآمنة ، وجده عبد المطلب ،

وعلى كلٍّ ، فالرسول وعليٌّ : نفسٌ واحدةٌ • وأبو طالبٍ للرسول ،
كعبد الله • كما كانت فاطمة له - في الأمومة - كآمنة •

قال السيوطي :

[إني لم أدع : أن مسألة الأبوين إجماعية ، بل هي مسألة اختلافية ^(١) ،
فحكمها حكم سائر المسائل المختلف فيها ، غير أنني اخترت أقوال القائلين
بالنجا ، لأنه الأنسب بهذا المقام . والحذر الحذر ! من ذكرهما بما فيه نقص .
فإن ذلك قد يؤذي النبي ﷺ ^(٢) ، لأن العرف جارٍ بأنه إذا ذكر
أبو الشخص بما يُنقصه ، أو وُصف بوصفٍ قائمٍ به ، وذلك الوصف فيه نقص ،
تأذي ولده بذكر ذلك له ، عند المخاطبة] ^(٣) •

وإذا كان مما ينقص الرسول : أن يكون واحدٌ من آبائه مشركاً ، فإنه
- ولا شك - لما ينقصه أن يتربى ، في بيت مشركٍ ^(٤) ، ويرعاه ،

(١) لا نرى : أن هذه المسألة خلافية ، بعد أن يقوم البرهان النصيغ ،
مدعماً بالقرآن ، إلى جانب القائلين بإيمان آباء الرسول ، إلى المؤمن الأول :
آدم • إذ لا تبقى قيمة - بعدئذٍ - لقول المخالفين ، بحيث يجوز أن تعتبر
المسألة خلافية ، ما دام قول المخالف يناقض القرآن ، ويناهض الأدلة •

(٢) لا شك أن هذا يؤذي الرسول • وليس من أجل العلة ، التي بسطها
السيوطي ، فحسب ! ، وإنما لتجنّبها - بغير حق - على مؤمنين ، هم : نبعة
الإيمان ، في ظلم الشرك ، وظلال التوحيد ، في صحراء الكفر ! •

(٣) السيرة النبوية ٧٦ : ١ •

(٤) لا شك أن للتربية أثرها الفعال ، في توجيه الإنسان ، نحو الخلال :
طيّبها وسيئها ، لقابلية الطفل واستعداده للتأثر الشديد السريع بمرئيه ،
وتطلّعه له ، في احتذاء أعماله وأقواله •

وينصره ، ويحميه ، ويحيي دينه وأتباعه ذلك المشرك ، فيكون مديناً لمشركه ،
نحو هذه الحقوق — وما أرفعها شأنًا ! وأعظمها قيمة — ومن هنا قال
الرسول : « اللهم لا تجعل لفاجرٍ أو فاسقٍ عندي نعمة » — كما سبق أن
ذكرناه .

وإذا كان الأب المشرك ، ينقص شرف الإبن المؤمن ، فإن شرك
أبي طالب ، ينقص ابنه علياً — وهو لم يُهت بالشرك ، إلا تنقُصاً لعليٍّ ،
في سبيل للممة بعض خصائصه ومزاياه ، التي انقرضت بها ، وميزته على غيره
من جميع الصحابة ، إذ لم يؤمن أحدٌ من آبائهم ، ولم يرتفعوا عن وهدة
النسب المشرك ، ولم يضربوا في الإيمان بعميق الجذور .

ومن هنا... رأينا كيف حاولوا ، فوضعوا بعض الأحاديث ، التي
تدعي نسبة البعض ، من آباء الصحابة ، للإسلام ، وتزعم لهم ذلك . وهم
قد وضعوا هذه الأحاديث ، في قبالة وضع حديث شرك أبي طالب ، لتخفف
كفة عليٍّ ، وترجح عليه كفة غيره ، نحو هذه الخبيصة .

ولو صحَّت أحاديث إسلام أولئك ، لما تساوت الكفتان ، في حالٍ من
الأحوال... ذلك أن آباءهم لا شك في أنهم كانوا مشركين ، فأسلموا —
إن صحَّ إسلامهم... .

أما أبو طالب ، فلم يدر ما الشرك ، وما أظلم قلبه يوماً بسواد الشرك ،
بل كان ذلك المتفتح المشرق — دائماً — بسنى التوحيد ، ونور الإيمان .

وشبهة بهذا : ما دار حول سبق عليٍّ للإيمان بالرسول (ص)
فوضعوا حول ذلك ما وضعوا ، حتى جاء من لم يستطع جحдан الحقيقة ،
جهرًا ، فحاول تلييسها — ولكن على الغفل — بقوله :
« أول من آمن من الصبيان : عليٌّ ، ومن الرجال : أبو بكر ، ومن النساء
خديجة . »

وإذا صحَّ أن يقال لشخصٍ : أسلم ، فلائه كان كافرًا فأسلم ، وهذا لا يصحُّ

في حقِّ عليٍّ ، الذي لم يكن كافراً ، في لحظةٍ من حياته ، وما انحنى منه
الهام لصنم أو وثنٍ ، بل كان ذلك المرفوع الرأس ، ينظر لعظمة الله الخالق
العظيم ، فهو مؤمنٌ من يومه الأول ، لم يمرَّ بطور الكفر ، فالإيمان ، ولم
يسجد لسوى الله ...

ولهذا... فالنقاش في موضوع : أيٍّ واحدٍ سبق للإيمان ، لا يصحُّ في
حقِّ عليٍّ « عليه السلام » .

إذا كان هذا - كهر الأب - مما ينقص الإبن ، فكفر أبي طالبٍ ، ممَّا
ينقص علياً ... وهو ، بعد هذا - بل في ذات الوقت - لما ينقص الرسول ،
أيضاً ، ما دام محمدٌ وعليٌّ نفساً واحدةً ، تجمع بينهما خصائص البيت ،
الضارب الجذر في الإيمان البعيد العميق .

ولا بد أن يكون محمدٌ وعليٌّ ، في درجةٍ ، من المزايا والخصائص ، واحدةٍ
- عدا ميزة النبوة ، التي تخصَّص محمدًا عن عليٍّ - حتى يتَّحدا في نفسٍ
واحدةٍ ...

لذلك فلا بد أن يكون أبو طالبٍ كعبدٍ الله ، وآمنة كفاطمة ، إيماناً
وكفراً ، حتى يتَّحدا الآباء كما اتَّحد الولدان ، فكان عليٌّ نفسَ محمدٍ (ص) .

وإذا كان الرسول يؤذيه أن يقال لسبيعة : أنتِ بنت حطب النار -
وقد نزل القرآن ، في أمِّها : حمالة الحطب ، وأبيها : أبي لهبٍ ، بما نزل ... -
فكيف به يرضى ببهتِ عمه ، وقذفه بما هو منه بريء ... أفلا يؤذيه هذا ،
أشدَّ الأذى ، لأنه قذفٌ بالباطل ، وتجنُّ على الحق ، ينال شخصاً ، هو أقرب
له قربى : إن من حيث الرحم ، وإن من حيث النصرة ، وكلُّها تستحقُّ منه الوفاء ،
والتأذي ممَّا يؤذي : هذا المؤمن ، والقريب ، والنصير ... !

وهو - أيضاً - أذى له ، ما دام يؤذي نفسه علياً ، ومن آذى نفسه ،
فقد آذاه ، ومؤذيه مؤذٍ لله - كما جاء في لسان الحديث ، الثابت عنه .

وإذا كانت الشفاعة ، تنال مَنْ تنال ، مِنْ تلك الأعداد الكثر ، والأرقام الضخام ، التي تأبى الحصر... فهلاً تسع عمته ، لو لم يكن مؤمناً ، كما يزعمون ، في ما يحلو يكلو لهم مِنْ بهت الرجل المؤمن ، والتجني على حقه ، والتعدي على طهر قداسته ، ونصيح إيمانه ؟!...

وإذا لم يكن أحدٌ أوصلُ لرحمه ، مِنْ الرسول الأعظم (ص) — كما أقسم بذلك أنيس ، ويقره على قسمه كلُّ مَنْ عرف محمداً الرحيم — أفتصل شفاعته ، لمثل تلك الأعداد والأرقام ، وتعجز عن عمه ، الذي كان له كأبيه — تربيةً ونصرةً فذةً — وهو ، مع ذلك ، أبو نفسه عليٍّ عليه السلام ؟!...

ولكن أبا طالبٍ — كما قلنا ، ويوافقنا عليه كلُّ منصفٍ ، يرى الحق ، فيتبعه — مَنْ يدخل الجنة ، باستحقاق عمله ، دون حاجةٍ للشفاعة ، التي يحتاجها مَنْ لم ينهض به عمله ، لاستحقاق الجنة ، التي لا توجبها له العدالة ، لأنه لم يعمل ما يجب عليه نحوها .

وَمَنْ قام بواجبه ، بدون نقصٍ ، فإن العدالة ، توجب له على الله الجنة ، بلا حاجةٍ لشفاعة شفيعٍ ، فهي له حقٌ ...

وإذا لم يدخل الجنة ، مثلُ أبي طالبٍ ﴿ فَلَيْسَنُ خُلِقْتُ إِذْنٌ ؟ ﴾ بل هي لِمَنْ إن لم يتصدَّرها مثلُ أبي طالبٍ — وهي جزاء عمله ...

وإن دخل أبو طالب النار — كما يرجفون — فَمَنْ ذا ينجو منها ، حتى الأنبياء المرسلون — فالنار لا تخاف ، ولا تخشى ، حينئذٍ — إذ تعدم القيم ، ولا يكون الجزاء مِنْ جنس العمل ، وتنحى العدالة ، ويجور الحكم — وحاشا لله ! .

[وَالَّذِينَ يَتُودُّونَ الْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا] (١) .

(١) الأحزاب ٥٨ .

مراجع الكتاب

أرجعنا - في ثنايا الكتاب - كلَّ موضوع لمصادره : صفحةً وجزءاً ،
ونسلس - هنا - أسماء المصادر التي رجعنا لها ، مع ذكر مؤلفيها ،
ومطابعها ، رامزين للمطبعة بـ « م » وللطبعة بـ « ط » مرتبين الأول فالأول ،
مما رجعنا إليه .



١ - القرآن الكريم

٢ - شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد - ج ٣ - م دار الكتب العربية
كبرى - مصر ١٣٢٩ هـ .

٣ ، ٤ - البيان والتبيين ج ١ ، ٢ - للجاحظ - شرح حسن السندوبي - م
لاستقامة بالقاهرة - ط ٣ - ١٣٦٦ هـ .

٥ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ - م الميمنية - مصر : ١٣١٣ هـ .

٦ - تاريخ الأمم والملوك ج ٤ - لابن جرير الطبري - م الاستقامة -

١٣٥٧ هـ ١٩٣٩ م .

٧ - الكامل في التاريخ ج ٣ - لابن الأثير الشيباني الجزري - مصر

١٣٥٦ هـ .

٨ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب ج ١١ - للشيخ عبدالحسين

الأميني ط ١ - م الحيدري طهران : ١٣٧٢ هـ .

٩ - النهج ج ١ .

- ١٠ - الغدير ج ٢ - ط ٢ - م الحيدري - طهران : ١٣٧٢ هـ .
- ١١ - صحيح مسلم ج ١ - م محمد علي صبيح - مصر : ١٣٢٤ هـ .
- ١٢ - معاوية بن أبي سفيان في الميزان - عباس العقاد - العدد ٥٨ ،
من سلسلة « كتاب الهلال » - جمادى ١ : ١٣٧٥ هـ يناير ١٩٥٦ م القاهرة .
- ١٣ - رسائل الجاحظ - جمع السندوبي - م الرحمانية بمصر : ٢ ص ٢ هـ .
وقد رجعنا منها الى هذه الرسائل : ١ - رسالة في بني أمية ، ٢ - نقض العثمانية
للإسكافي ، ٣ - فضل هاشم على عبد شمس .
- ١٤ ، ١٥ - الغدير ج ٥ و ١٠ - ط ١ - م الزهراء بالنجف ١٣٦٧ هـ و م
الحيدري بطهران ١٣٧٢ هـ .
- ١٦ - صلح الحسن «ع» - للشيخ راضي آل ياسين - م الزهراء - بغداد :
١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م .
- ١٧ - الحسن بن علي ك ل كامل سليمان - بيروت ١٣٧٣ هـ .
- ١٨ - الدعوة الإسلامية إلى وحدة أهل السنة والإمامية ج ١ - للشيخ
علي أبو الحسن الخنيزي - م الاقبال - بيروت : ١٣٧٦ هـ ١٩٥٦ م .
- ١٩ - الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصرف ج ٢ - للبريد م
البابي - مصر ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .
- ٢٠ - اعيان الشيعة ج ٣٥ - للسيد محسن الأمين - ط ١ - م الإنصاف -
بيروت : ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م .
- ٢١ - لباب النقول في أسباب النزول - للسيوطي - ط ٢ - م البابي -
مصر : ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م .
- ٢٢ - مجمع البيان في تفسير القرآن ج ٥ - للطبرسي - بيروت : ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م .
- ٢٣ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ١ - للزمخشري - ط ٢ - م
الاستقامة - مصر ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م محمد مصطفى ١٣٠٨ هـ .
- ٢٤ - السيرة الحلبية ج ١ - للحلي - ط ٣ - م الأزهرية - مصر : ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م .

٢٥- إحياء علوم الدين ج ٣- للغزالي- م البابي- مصر: ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م.

٢٦- سرُّ العالمين وكشف ما في الدارين للغزالي- م الحجر يومبي ١٣١٤هـ .

٢٧- الاستيعاب في أسماء الأصحاب ج ٣- ليوسف النعمري القرطبي-

م مصطفى محمد- مصر ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م [بهامش الإصابة]

٢٨- شرح النهج ٤- لابن أبي الحديد .

٢٩- مقدمة ابن خلدون- م مصطفى محمد- مصر .

٣٠- ينابيع المودة - للشيخ سليمان الحسني- ط ٢- م العرفان

- صيدا- وم بسبي ١٣١١هـ .

٣١- فصل الحاكم في النزاع والتخاضم ، في ما بني أمية وبني هاشم

- لمحمد بن عقيل- م العرفان - صيدا : ١٣٤٣هـ .

٣٢- كشف الأستار عن وجه الغائب عن الأبصار - لميرزا حسين

النوري - م أحمد آقا - ١٣١٨هـ .

٣٣- أبو هريرة - للسيد عبدالحسين شرف الدين - م العرفان -

صيدا : ١٣٦٥هـ .

٣٤- الغدير ج ٨ - م الزهراء بالنجف : ١٣٧٠هـ .

٣٥- السيرة النبوية والآثار الحمديّة ج ١- للسيد أحمد زيني دحلان-

بهامش (السيرة الحلبية) .

٣٦- الاستيعاب ج ٤ .

٣٧- الغدير ج ٣ ط ١ - م الغري النجف ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م .

٣٨- الإصابة في تمييز الصحابة ج ٢- لابن حجر العسقلاني [مطبوعة

مع الاستيعاب] .

٣٩ ، ٤٠ - الإمام علي صوت العدالة لجورج جرداق ١٩٥٦م - وج ٤-

م الجهاد ، بيروت .

- ٤١- الإمام علي بن أبي طالب ج ١ - لعبد الفتاح عبد المقصود - ط ٢ -
دار الكتاب العربي - مصر ١٣٦٦ هـ.
- ٤٢- معجم القبور - للسيد محمد مهدي الموسوي - م النجاح -
بغداد ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م.
- ٤٣- أصل الشيعة وأصولها - للشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء
- ط ٢ - م العرفان ١٣٥٥ هـ - ١٩٥٨ م.
- ٤٤- مروج الذهب - لابي الحسين علي السعودي - ط ٣ - م السعادة
بمصر ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م.
- ٤٥ - بحار الأنوار ج ٦ - لمحمد باقر المجلسي - م خورشيد طهران - ١٣٢٣ هـ
- ٤٦- العباس بن أمير المؤمنين - للسيد عبد الرزاق المقرم - م الحيدرية
بالتنجف .
- ٤٧- الكامل في التاريخ ج ٢ - لابن الأثير - ١٣٤٩ هـ .
- ٤٨ - حليف مخزوم - للسيد صدر الدين شرف الدين - ط ١ -
م العرفان : ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.
- ٤٩- الكامل في التاريخ ج - ١٣٤٨ هـ .
- ٥٠- الغدير ج ٧ - م الزهراء بالتنجف ١٣٦٩ هـ .
- ٥١- اعيان الشيعة ج ٢ - ط ٣ - م الانصاف بيروت : ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م .
- ٥٢- السيرة النبوية ج ١ - لابن هشام - م البايع - مصر .
١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م
- ٥٣- على هامش السيرة ج ١ - لظه حسين - دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م
- ٥٤- المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية ج ٤ - للسيد
محسن الأمين - ط ٢ - م ابن زيدون - دمشق ١٣٦٣ هـ .
- ٥٥ - تذكرة الخواص - لسبط ابن الجوزي - م العلمية بالتنجف ١٣٦٩ هـ .

٥٦- الاستيعاب ج ١. ٥٧- شرح النهج لابن أبي الحديد ج ٢ .
٥٨- إثبات الوصية - للمسعودي « صاحب المروج » - ط ٣ -
م الحيدرية بالنجف .

٥٩ ، ٦٠ - أعيان الشيعة ج ٣ ق ١ ط ٢ ، م الإتيان دمشق ١٣٦٦ وج ٣٩
ط ١ ، م الإنصاف - بيروت ١٣٧٥ هـ

٦١- عدة الطالب في أنساب آل أبي طالب لأحمد بن علي الداوودي
- ط ١ - المطبع الجعفري - لكنوة .

٦٢- مناقب آل أبي طالب ج ١ - لابن شهر آشوب المازندراني - بمبي .
٦٣- الحجة على الذهاب إلى تكفير أبي طالب - للسيد شمس الدين
فيخار بن معد - م العلوية - النجف : ١٣٥١ هـ .

٦٤- الإمام علي صوت العدالة ج ١ ، م الجهاد بيروت .

٦٥- مجالس ثعلب ق ١ - لأبي العباس أحمد ثعلب - دار المعارف
بمصر : ١٣٤٨ هـ .

٦٦- أبو طالب شيخ بني هاشم - لعبد العزيز سيد الأهل - دار العلم
للملايين - بيروت ١٩٥١ م - ط ١ .

٦٧ - هاشم وأمية - في الجاهلية « ١ » - للسيد صدر الدين - بغداد :
١٣٦٥ هـ - ١٩٤٥ م .

٦٨- صحيح البخاري ج ٢ - م الميمنية للبائي - مصر .

٦٩ - شيخ الأبطح أو أبو طالب - للسيد محمد علي شرف الدين -
م دار السلام - بغداد : ١٣٤٩ هـ .

٧٠- معجم البلدان ج ٥ - لياقوت الحموي - بيروت : ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م

٧١ ، ٧٢ - فاطمة بنت محمد ، ومحمد النبي العربي - لعمر أبو النصر -

م الوطنية - بيروت ١٩٥٣م.

- ٧٣- على هامش السيرة ج ٢ •
- ٧٤- تاريخ الأمم والملوك ج ٢ •
- ٧٥- قصص العرب ج ١- لمحمد جاد المولى وصاحبه ط ٢- مصر ١٣٦٧هـ
- ٧٦- إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني - دار المعارف بمصر •
- ٧٧- الكامل في اللغة ج ٣ - ط ١ •
- ٧٨- غاية المرام الخ - للسيد هاشم البحراني - ايران ١٢٧٢ هـ •
- ٧٩- الاصابة ج ٤ •
- ٨٠- الرياض النضرة في مناقب العشرة - للمحب الطبري - ط ١ •
- م الحسينية ١٣٢٧هـ •
- ٨١- أعيان الشيعة ج ١٦ - ط ١ - م ابن زيدون - دمشق ١٣٥٩هـ.
- ٨٢- تفسير علي بن إبراهيم - ايران ١٣٦٣هـ.
- ٨٣- ديوان أبي طالب - م فيض رسان - بمبي ١٣٢٦هـ.
- ٨٤- إيمان أبي طالب - للشيخ المفيد [ضمن المجموعة الأولى من « تفائس المخطوطات »] - م الحيدرية - النجف : ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.
- ٨٥- مجمع البيان ج ٧ •
- ٨٦- ثمرات الاوراق في المحاضرات ج ٢- لتقي الدين بن حجة الحموي - بهامش المستطرف - م المشهد الحسيني ١٣٦٨هـ.
- ٨٧- الكشف ج ٢ ط ٢ - م الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٣هـ.
- ٨٨- السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ •
- ٨٩ ، ٩٠ - معجم البلدان ج ٥ ط ١ م السعادة مصر ١٣٢٤هـ - وج ٣

بيروت : ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

- ٩١ - على هامش السيرة ج ٣ - عام ٤٦ م .
٩٢ - الاستيعاب ج ٢ .
٩٣ - نسب قریش - لمصعب الزيرى - دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٥٣م
٩٤ - الأغاني ج ١٧ - لأبي الفرج الاصبهاني - م التقدم - مصر .
٩٥ - الغدير ج ١ - ط ٢ - م الحيدري طهران : ١٣٧٢هـ .
٩٦ ، ٩٧ - الكشف ج ٢ م محمد مصطفى ١٣٠٨هـ - وج ط ٢ - م
الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٣هـ .

٩٨ - تفسير القرآن العظيم ج ٤ - لأبي الفداء بن كثير - دار إحياء
الكتب العربية بمصر .

٩٩ - ١٠٢ - مجمع البيان ج ٢٨ ط ٢ - دار الشمالي بحريصل - ج ١٠
و ٢٦ - بيروت ١٣٧٦هـ و ١٣٧٤هـ

١٠٣ - الكشف ج ٣ - م محمد مصطفى ١٣٠٨ هـ .
١٠٤ - وقعة صفين - لنصر بن مزاحم - ط ١ - القاهرة : ١٣٦٥هـ .
١٠٥ - الصواعق المحرقة - لأحمد بن حجر الهيتمي - م الميمنية -
مصر : ١٣١٢ هـ .

١٠٦ - الفتنة الكبرى « ١ » عثمان - لطف حسين - دار المعارف بمصر
١٩٤٧ م .

١٠٧ - تأريخ الأمم والملوك ج ٦ - ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م .

١٠٨ - الكامل في التاريخ ج ٥ عام ١٣٥٧ هـ .

١٠٩ - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية - للشيخ
محمد الخضري - ط ٥ - م الإستقامة - القاهرة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م .

١١٠ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال ج ٣ - لمحمد الذهبي - ط ١ - م
السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ .

١١١ - تفسير اليبضاوي ج ٢ - مصطفى محمد - مصر .

١١٢ - تفسير القرآن ج ٢ ، لابن كثير .

١١٣ - ميزان الاعتدال ج ١ .

١١٤ - دلائل الصدق ج ١ - للشيخ محمد حسن المظفر - جاب تابان

١٣٧٩ هـ .

١١٥ - إسعاف المبطل برجال الموطن - لجلال الدين السيوطي - م

مصطفى محمد ١٣٥٨ هـ [في نهاية الموطن] .

١١٦ - الفهرست لابن النديم - م الرحمانية - مصر ١٣٤٨ هـ .

١١٧ - صحيح البخاري ج ٣ .

١١٨ - ميزان الاعتدال ج ٢ .

١١٩ - الإصابة ج ٣ .

١٢٠ - سير أعلام النبلاء ج ٢ - لمحمد الذهبي - دار المعارف بمصر :

١٩٥٧ م .

١٢١ - الغدير ج ٦ ط ٢ - م الحيدري - طهران : ١٣٧٢ هـ .

١٢٢ - فتوح البلدان - لأبي العباس البلاذري - دار النشر للجامعيين :

١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .

١٢٣ - الاتقان في علوم القرآن - لجلال الدين السيوطي - م حجازي

بالقاهرة ١٣٦٨ هـ .

١٢٤ - تفسير القرآن ج ٣ لابن كثير .

١٢٥ - صحيح مسلم ج ٣ .

- ١٢٦ - الكشف ج ٣ - ط ٢ - م الاستقامة بالقاهرة : ١٣٧٣ هـ .
- ١٢٧ - مجمع البيان ج ٢٠ . عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م .
- ١٢٨ - تفسير اليبضاوي ج ٤ .
- ١٢٩ - مجمع البيان ٢٣ - عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م .
- ١٣٥ - صحيح البخاري ج ١ .
- ١٣١ - الفدير ج ٩ - م الحيدرة ، النجف ١٣٧١ هـ .
- ١٣٢ - أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ط ٢ - م الإنصاف - بيروت ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٨ م .

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٧	صورة المؤلف	٢٢١	في ذمة التاريخ
٩	مؤمن آل فرعون	٢٢٣	بعد الموت
١١	الإهداء	٢٣١	ذكر عطر :
١٣	هذا الكتاب	٢٣١	على لسان الرسول
١٥	مقدمة - بقلم : الأستاذ	٢٤٦	على لسان الإمام علي
١٩	بولس سلامة	٢٥٦	على لسان أهل البيت
٨٩	على العتبة	٢٦٨	على لسان الصحابة وآخرين
٩١	الجزء الأول	٢٨٥	وقفة مع الحديدي
٩٣	في مدارج الحياة	٣٠٢	افتراء وتزوير :
١١٢	بيت	٣٠٣	الآية الأولى
١٢٣	شخصية	٣١١	الآية الثانية والثالثة
١٢٦	دلائل :	٣١٣	رواة الأحاديث الثلاثة الأولى
١٢٧	أ - نبع الماء	٣٣٤	رواة الحديثين الآخرين
١٢٨	ب - مع العائف	٣٤١	نظرة في آية « ما كان للنبي »
١٢٩	ج - إنك لمبارك	٣٦٢	نظرة في آية « إنك لا تهدي »
١٣٩	د - إلى الشام	٣٧٦	ميراث أبي طالب
١٤٣	زواج	٣٧٧	حديث الضحاح
١٤٣	في فجر الدعوة	٣٨٠	الرواة
١٤٣	الفجر الأول	٣٩٠	نظرة في الحديث
١٤٧	يوم الإنذار	٤٠٥	المؤمن
١٥٧	جهاد	٤٢٥	مراجع الكتاب
١٨٧	الشعب والصحيفة		
٢٠٩	عند الاحتضار		
٢١٩	الجزء الثاني		

آثار المؤلف

(١) المطبوع :

- ١ - ذكرى الإمام الخُنيْزي .
ترجمة لحياة والده ، وباكورة إنتاجه - المطبعة الحيدرية - النجف
الأشرف : ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- ٢ - ذكرى الزعيم الخُنيْزي .
ترجمة لحياة ابن عمّه - المطبعة العلميّة - النجف الأشرف :
١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .
- ٣ - أبو طالب مؤمن قريش - (دراسة وتحليل) - (هذا الكتاب) .
(أ) الطبعة الأولى - منشورات مكتبة الحياة - بيروت :
١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
(ب) الطبعة الثانية - منشورات مكتبة الحياة - بيروت : ١٣٨٢ هـ
١٩٦٢ م -
(ج) الطبعة الثالثة - منشورات المؤسسة الثقافية للنشر والتأليف :
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
وقد ذكر أن هذه الطبعة الثانية - وهي الثالثة .
والطبعتان الأخيرتان ، بدون إذن المؤلف .
(د) وقد ترجم للأوردو - منشورات مكتبة نعيمير أدب بوسط
بكس ٢٤٥ - لاهور - (بدون إذن المؤلف ، أيضاً) .
هذا في حدود ما وقف عليه المؤلف من : إعادة

(هـ) الطبعة الرابعة - منشورات دار التعارف للطبوعات - بيروت

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

٤ - أدواوثا منشورات مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة - مطبعة الكيلاني :

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٥ - نسيم وزوبعة ، في جزئين - منشورات مكتبة الأنجلو المصرية -

بالقاهرة - مطبعة الكيلاني : ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٦ - ضوء في الظل - منشورات مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة - مطبعة

الكيلاني : ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

(ب) المخطوط المعدّ للطبع :

٧ - زهرات - مجموعة شعرية ، وشعر منشور .

٨ - مجموعة قصصية .

٩ - صور من الحياة - كلمات قصار .

(ج) المخطوط قيد الإكمال :

١٠ - ابن المقرّب : الشاعر الثوري .

١١ - الحركات الفكرية في القطيف .

١٢ - لا إكراه ...

١٣ - المرأة بنظرة إسلامية .

١٤ - مجموعة دراسات ، ومقالات متنوعة ، لم يُجمع شتاتها في عقد بعقد .

عدا تحقيق بعض مؤلفات والده - كـ « دلائل الأحكام » : الدورة

الفقهية في شرح « شرائع الإسلام » .

وعدا فكرة وضع كتاب ، عن (قيس ابن سعد) ، وضع مقدّمته ،

منذ أعوام ، وصُرف عنه .

هَذَا الْكِتَابُ

لقد أحسن المؤلف إذ أبرز شخصية سيد البطحاء - ابن شيبه الحمد - فجلاها ، ثم بسطها على فصول الكتاب جميعاً ، فنما فضل كفيل الرسول ومربيه وحاميه ، بنمو الرسول نفسه ، فكان ان اليتيم استظل في كنف عمه صبيّاً ويافعاً - فلما بزغت شمس اليتيم مشى العم في نورها ، وفاءً الى ظل ابن عبدالله مجاهداً يفديه بماله ونفسه وولده .

ومن الانصاف للسيد الخنيزي ، قولنا : إنه بارع في التحليل ، وليس أدل على ذلك من وقفته على الايات التي تثبت ايمان أبي طالب .

... وأحسب أنه لو أمتهن المحاماة لما جاء في الرعيّل الاخير ، فان له من خصائص الاستدلال والقياس والخلوص من المقدمات الى النتائج ما يكفل له النجاح .

بولس سلامة
(من المقدمة)